السوبرمان
بين نيتشه والقرآن

بقلم

عمرو الشاعر

كلمة الغلاف الخلفي

كان من المنتظر أن يصحب التقدمَ العلمي الرأسي الهائل، الذي أنجزته البشرية عبر تاريخها الطويل، تقدمٌ مماثل في المسألة الإنسانية!

إلا أن الإنسان لا يزال، على الرغم من الاكتشافات الهائلة التي أُنجزت في الأرض والجو والبحر، ذلك المجهول، وتلك القضية التي تتأرجح بين الثبات والانتكاس، بدون تحقيق أي تقدم يُذكر. وتوقف الإنسان في محطات كثيرة، ولم يتوقف بما فيه الكفاية مع نفسه، ليستكشفها ويعرفها.

وللجهل البين لمن تصدر للقضية الإنسانية، ولعدم حيازتهم لمفاتيح الإنسان، تخبطوا وأخبطوا، ورأينا اختلافا عظيم البون بشأن الإنسان، اختلافا بلغ طرفي النقيض. ووقف البشر أمام مفترق الطرق حائرين، لا يعرفون أي السبل يتبعون، ثم سِيقوا، مغيبين مغمضي العينين، إلى طريق الانتكاس، حتى وصلوا إلى الموت، ظانينه الحياة، وهناك سكنوا ورضوا!

وهذا الكتاب إذ يعرض لقضية الإنسان، فإنه يعرض لها ليناقش الحلم الإنساني الأزلي بالإنسان الكامل وبتملك القوة الخارقة، مقدما برنامجا لإحياء الإنسان، وإمداده بعناصر القوة الحقة، التي تؤهله للارتقاء إلى درجة السوبرمان، مُدللاً على ظهور السوبرمان في التاريخ الإنساني بأدلة بينات.

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلاة وسلاما على المبعوث رحمة للعالمين سيد ولد آدم أجمعين وعلى آله وصحبه وسلم، اللهم آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا، أما بعد:

كثيرة هي أهواء البشر ومشاربهم في معالجة القضايا الكبرى في حياة بني الإنسان، لذا اختلفت الآراء باختلاف الأهواء والمشارب في معالجة القضية الواحدة! وهذا من عجيب صنع بني الإنسان، فمن المفترض في كل قضية حقة أن يكون لها نتيجة أو حكم محدود لا يختلف عليه إثنان! ولكن لما كان الإنسان كائنا عجيبا، فلا يستحق هذا الأمر أي عجب لمن درس الإنسان وخبره!

ومن أهم وأكبر القضايا التي لا تزال النفوس فيها متنازعة وحولها متقاتلة قضية الإنسان نفسه ومسألة رب هذا الإنسان! فلا يزال الناس حتى يومنا هذا –وإلى أن تقوم الساعة– في خلاف وحيرة حول الإنسان! فما هو الإنسان ولم وجد على هذه البسيطة ومن الذي أوجده وما الغرض من وجوده؟!

ثم يأتي السؤال الأخير والذي لم يغفل عنه أي إنسان، –على الرغم من أن كل الأسئلة الماضية هي حتمية وضرورية إلا أن كثيرا من الناس عنها غافلون– وهو: ما هي الطريقة المثلى للحياة على هذه البسيطة للفرد وللجماعة؟

ولأن الاختلاف هو طبع وديدن بني الإنسان، اختلفت الإجابات واتفقت جزئيا! اتفقت فيما لا يمكن الاختلاف فيه وذلك حول الحتميات التي يمر بها الإنسان ويعيشها جبرا وفيما عدا ذلك كان هناك الاختلاف مُسيطرا.

وقليل من البشر من يشغل نفسه بهذه الأمور فكلٌ بحاله مشغول. وإذا حدث وحاول الإنسان أن يتفكر ويتدبر في مسألة "المسلك الأسمى" فإنه غالبا ما يقيس هذه

المسألة بعادة قومه وأفعالهم، استقامت هذه الأفعال أو اعوجت، فإذا وافق فعله فعل الجماعة، كان ذلك علامة توفيق ودليل رشد وفلاح، وإذا خالفهم وصادمهم كان ذلك علامة إخفاق وضلال! وقليل هم من توقفوا ليتساءلوا: هل مجتمعنا ككل على صواب فيما يقول ويقوم به، أم أنه على خطأ؟ وإذا كان على خطأ فكم هي نسبة الخطأ فيما يقوم به مجتمعنا؟

وحقيقة ما من مجتمع خاطئ تماما في كل ما يقوم به ولا مصيب عين الصواب في كل ما يفعله، وإنما هناك نسبة من الخطأ والصواب، ويبقى السؤال الرئيس: كم هي نسبة الخطأ والصواب في أفعال مجتمعاتنا، وأين تقع هذه النسبة؟ فقد تكون نسبة الخطأ في مجتمع ما أقل من مجتمع آخر ولكن هذه النسبة تقع في مسائل حساسة تشكل مفترق طرق بالنسبة للقضية الإنسانية! فينشأ عن هذه النسبة القليلة كثير من الأخطاء العظيمة والدواهي الجسيمة في بنيان المجتمع! ويسير الإنسان في حياته منسجما مع مجتمعه تمام الإنسجام ولكنه لا يشعر أنه على ما يرام! ويلازمه ذلك الشعور أن هناك شيء ينقصه أو أن هناك خطأ ما في تطبيقه هو!

ويبحث الإنسان المسكين ويجتهد –وتمتلئ عيادات الأطباء النفسيين بالمرضى– بحثا عن الجواب، ويظن أن الداء في نفسه ومنها، فيحاول أن يداوي نفسه ويعالجها، فيداويها بالتي كانت هي الداء! ولا عجب في هذا المسلك فإنساننا –إنسان القرن العشرين والحادي والعشرين– لم يعد إنسانا طبيعيا وإنما صار إنسانا مُوجها، أجريت له عمليات غسيل دماغ متواصلة حتى أصيب بالصمم والعمى وبفقدان الذاكرة، وكثير من أشباه هذه الآفات الملازمة لذلك الإنسان الذي ظن أنه أسعد إنسان وُجد على الكوكب الأرضي، ولكنه في الواقع أتعسه وأشقاه.

وأكبر دليل على شقاوة هذا الإنسان أنه ما عاد يميز داءه من دواءه، فأصبح يُمرض نفسه بنفسه، ويداوي نفسه بعين دائه! ثم يعجب ويسأل أين الخلل، أين الشفاء؟ لم أنا مريض؟ لم لا أُشفى؟

وهكذا سيظل الإنسان يتقلب في مرض وبؤس ويعالج البؤس بمزيد من البؤس! وأصبح حال البشرية مثل ذلك الأجرب المسكين الذي يرفض أن يعالج جربه بالدواء المناسب، ويصر على أن قليلا من الهرش والحك أكثر من كافيين للقضاء على جربه!

ولكن علينا أن لا نظلم البشرية وندعي أن هذا كان حال كل البشر، فهناك صنفان من البشر توقفوا وتفكروا، فصنف تساءل: كيف يسير القطيع؟ ولمّا خبر الإجابة أصبح هو من يقودهم ويتحكم فيهم، بل ويوجههم كما يعنُّ لهواه. وصنف تساءل: لم يسير القطيع، ولم هو في هذا المسار تحديدا، وهل هذا المسار صحيح أم أنه يحتاج إلى بعض التعديل، أم أنه بحاجة إلى تغيير كلي من الجذور؟

وبداهة فإن هذا الصنف الثاني هو أولئكم المسمون بالفلاسفة! ولأن الفلاسفة بشر تحكمهم حتميات البشرية ونقصها، من تأثرٍ بزمان ومكان، ومن مشكلة (عقدة!) يعاني منها الفيلسوف نفسه، ومن تأثر بحال المجتمع، ومن نقص استقراء لحال البشر في باقي الأمكنة والمجتمعات، ومن قصور نظر عاجز عن سبر ما هو آت، كان لا بد حتما أن يكون الاختلاف الشنيع بين الفلاسفة!

ولم يُغن الفلاسفة عن البشر شيئا، فالبشر العاديون المساقون مختلفون وكذلك الفلاسفة، واختلاف الفلاسفة أشنع وأفسد، فقد يجول بخاطر الإنسان من عقيم الأفكار وسقيمها ما يجول، فيكتمها ويحبسها قرارة نفسه مخافة مجتمعه وقومه، ولكن الفيلسوف لا يكتم خواطره ويذيعها كلها ويحسبها شفاء المجتمع ونجاعته، ويتلقف هذه الأفكار الصنفُ الأول ويعمل على إذاعتها، ففيها الكثير والكثير من النفع له والتسهيل في مسألة سوس البشر وسوقهم!

ثم لا يقتصر الأمر على خلاف الفلاسفة أنفسهم في أقوالهم وآرائهم، وإنما يتعدى الأمر كذلك إلى اختلاف المفسرين والشارحين لأقوال الفيلسوف الواحد! فتجد أحدهم يذهب به وبآرائه أقصى الشرق، والآخر يجعله لزاما من العاشقين للغرب

والداعين له، ومستند كل واحد منهم كلام الفيلسوف! وبفعلهم هذا –وبدونه– صارت الفلسفة أمرا معقدا يحاول الإنسان العادي تجنبه، فماله وللفلسفة؟!

ولكن ليس كل البشر سُوقة، فهناك من يرتفع عن مرتبة السوقة ويرضى لنفسه بمنزلة "الدَرج"، فيقبع تحت أقدام الفلاسفة–الذين أتوا بأفكار نظرية لم تطبق في الواقع– ويتتبع بكل شغف نتاج هؤلاء الذين أخفق جُلهم –إن لم يكن كلهم– في حياته، ويؤمن بأفكارهم شديد الإيمان ويرى فيها الخير والصواب والرشاد للبشرية. ولأنه قد توفر لهذا الدرج ما لم يتوفر لأسياده من الفلاسفة يقوم بنشر هذه الأفكار على عامة البشر!

فيقابل الإنسان في حياته كثيرا من الشطحات الساقطة والتي لا تستحق إلفات نظر! ولكنها أصبحت وبكل أسف أقوالا يُنسب لها الاحترام وأصبحت تُدرس في مواطن التعلم على أنها من عظيم نتاج البشرية الفكري! ولا يعني هذا أننا ننفي عن كل الفلاسفة كل خير في مجال نفع البشرية، وإنما نقصد القول أن ما أتى به الفلاسفة قليل النفع كثير الضلال مضيع لكثير من نافع الأعمال.

ومن أشهر الفلاسفة الذين صفقت لهم البشرية وهلّلت، ذلك الفيلسوف الألماني الشهير المسمى "فريدريش نيتشه"، والذي اقترنت شهرته بأمرين إثنين وهما مقولته الشهيرة: "لقد مات الإله ونحن الذين قتلناه" وبنظريته أو إن شئت الدقة بتبشيره! بالإنسان الأعلى "السوبرمان[1]".

وهلّل الملاحدة كثيرا لمّا قال نيتشه أن الإله قد مات، على الرغم من أنه لم يقدم أي دليل على ذلك! ولكن كان كافيا أن يظهر من يقول هذا في ذلك الوقت! وهللوا أكثر بزرادشته وإنسانه الأعلى، على الرغم أيضا من أنه لم يقدم لنا خطوطا واضحة أو

---

(1) لم يستعمل نيتشه في كتابه "هكذا تكلم زرادشت" "**Also sprach Zarathustra**" لفظة *السوبرمان* وإنما استعمل كلمة "**Übermensch**" والتي تعني *الإنسان الأعلى*، ولكن غلب في التراجم العربية استعمال كلمة "السوبرمان" في مقابل هذه الكلمة، فاستعملناها نحن كذلك تباعا.

خطوات مباشرة من أجل إنتاج وإخراج هذا السوبرمان، وإنما كان مبشرا بفكرة مثالية لا يعرف هو نفسه أو اتباعه كيف يخرجونها إلى أرض الواقع!

وينظر المرء بعجب شديد إلى حال مفكري البشرية وحفاوتهم بنتاج الفلاسفة عامة ونيتشه خاصة –لما له من ظروف خاصة تختلف عن كثير من الفلاسفة الآخرين، سنعرض لها في طيات الكتاب– وإقبال عدد غير قليل عليه، من أجل تأصيله وتطبيقه وتنظيره ونشره وتعميمه، ويقارن هذا الفعل بحالهم تجاه أفراد أُخر، تركوا للبشرية نتاجا أعظم وأسبق، فيجد إعراضا وإدبارا ونفورا وتهربا! فالناظر في حال البشرية يجد حوبا شديدا في الميزان!

فعلى الرغم من أن نتاج الفلاسفة أصعب وأعقد ولا يقل تناقضا –وخرافة ووهما– عما تمتلئ به كثير من الأديان، إلا أنا نجد عامة المفكرين يقبلون على نتاج الفلاسفة ويتبعونه ويعرضون عن الأديان! ربما لسهولة الدين ولوضوحه ولبساطته، أما الفلسفة فمعقدة غامضة لا يفهمها العوام بسهولة، ففيها عنصر تميز وإعمال عقل! وربما لامتلاء الأديان التي صادفها الفيلسوف أو المفكر بالخرافة فييأس منها ومن إصلاحها ومن وجود أمل فيها. ولو اتبعنا منهج المفكرين والبشرية في تعاملهم مع الدين عند تعاملنا مع الفلسفة، لتركنا الفلسفة قاطبة! ولهجرناها هي والفلاسفة.

لذا نبدأ بإذن الله وعونه –متوكلين على الله داعينه أن يوفقنا في مسعانا وأن يلهمنا الخير والصواب– في تناول المسألة الرئيسة التي اشتهر بها نيتشه وهي قضية السوبرمان. وسيكون تناولنا لهذه القضية تناولا عاما ينطلق من منظور مختلف بعض الشيء. فالكتاب وكما لاحظ القارئ مسمى ب "السوبرمان بين نيتشه والقرآن" ولكنا لن نكتفي بالمقارنة بين ما قدمه نيتشه في هذه المسألة وبين ما جاء به القرآن وقدمه للناس على صحائف من نور من منهج متكامل أعظم من كاف لإخراج سوبرمان

واقعي[2]، ولكنا سنقوم كذلك بتناول البشرية لهذه الفكرة، وكيف خرج السوبرمان في فكر البشر فكرا خرافيا وهميا!

وكيف أن ما جاء به البشر، أو ما قدمه نيتشه في مجال رقي وعلو الإنسان، لا يرقى بحال إلى ما قدمه القرآن، مدللين على سوبرمان القرآن بأدلة واقعية تاريخية على وجوده وعلى صلاحية المنهج للتطبيق.

ولأن من أهم ما اشتُهر به نيتشه هو مقولته "لقد مات الإله" وهي دعوى بلا بينة وهي ركن ركين عنده في مسألة إخراج السوبرمان، فإنا سنقوم في هذا الكتاب بإطلاق دعوى مقابلة وهي "لقد مات الإنسان وهو الذي قتل نفسه!" وعلى العكس من نيتشه فإنا سندلل على مقولتنا هذه بأدلة كثيرة، سيعجب القارئ منها وكيف غفل عنها على الرغم من وضوحها الشديد وجلوها الظاهر، ولكن لا يعجب القارئ من ذلك، فلقد أُجريت له ولغيره عملية غسيل دماغ عظمى، أثرت عليه بنسبة تتفاوت بين إنسان وآخر.

لذا فسنحاول في هذا الكتاب أن نقتدي بسيدنا في عملية الإحياء، بأن نفتح أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا ونرد الناس إلى الطريق المستقيم. اللهم ارزقنا التوفيق والسداد والصواب!

كان البدء في تأليف هذا الكتاب في يوم الأربعاء لأربع عشر خلون من شهر جمادى الآخرة لعام تسع وعشرين وأربعمائة وألف بعد الهجرة المشرفة، الموافق السابع عشر من شهر يونيو لعام ثمانية بعد الألفين من ميلاد المسيح.

العبد الفقير إلى ربه: عمرو الشاعر

[2] قد يعجب كثير عندما يقرأون أن القرآن تعرض لمسألة السوبرمان، وبداهة القرآن لم يذكر لا لفظة *السوبرمان* ولا *الإنسان الأعلى* ولكنه قدم منهجا قويما كافيا لإنتاج هذا السوبرمان، وسيرى القارئ بنفسه هذا على صفحات الكتاب.

لم هذا الكتاب فريد؟

قبل أن نبدأ في توضيح أسباب فرادة الكتاب، ننبه القارئ الكريم أننا لم نقل أن الكتاب جيد، فنحن نترك له مسألة تقييم الكتاب بنفسه، -ولسنا نحن من نقيم أعمالنا، وإنما نيتشه من يفعل!- وإنما قلنا أن الكتاب فريد، وهذا يعني أنه وحيد غير مسبوق. والعلة الأولى لتفرد هذا الكتاب أنه -كما أعتقد- أول كتاب يصدر مصحوبا برواية! وتحريا للدقة فإننا نقول أن الكتاب أتى تصديقا للرواية.

فلقد كتبنا منذ فترة ليست بالطويلة رواية "خواطرٌ شواذٌ[3]"، وهي رواية مصبوغة بصبغة فلسفية صوفية! ناقشنا فيها الدوافع الإنسانية المختلفة للإنسان، وزعزعنا كثيرا من الثوابت، التي لا أصل لها، وأبرزنا فيها إجابة السؤال الخالد: لماذا أفعل ما أفعل؟ وأجلينا الإنسان لنفسه، وأظهرنا له دوافعه في الفعل، من خلال وجهات نظر، قد تبدو لكثير من الناس عجيبة أو شاذة، إلا أنها تحمل الكثير من المنطقية! حتى لا تظل أفعاله أمامه مسلّمات، لا يعرف تحديدا دوافعه لفعلها، وإنما يعرف جيدا لم يقترف ما يفعل.

إلا أن إجابة "لماذا" ليست كافية، فالأهم من ذلك إجابة: "أين" و"كيف"، فالأهم أن يعرف الإنسان أين هو في هذا الكون، يعرف مكانه ومكانته ودوره، ثم يعرف بعد ذلك كيف يقرأ الكون ليحيى فيه ويسوده، وهذا ما يقدمه هذا الكتاب بالدرجة الأولى.

وهذا لا يعني أن قراءة الرواية ضروري لفهم الكتاب، إلا أنه من الأفضل أن يقرأ القارئ الرواية، قبل أو بعد الكتاب، فسيجد فيها عرضا لجوانب عدة من نفس الإنسان، لم نعرض لها في الكتاب، وكذلك سيجد فيها تفصيلا لبعض ما أجملناه في الكتاب.

يضاف إلى مصاحبته برواية، المعالجةُ اللغوية للكتاب. فلقد حرصنا ونحن نكتبه على الدقة اللغوية في اختيار كلماته، واستعمالها استعمالا صحيحا موافقا اللسان الأصيل.

[3] يمكن للقارئ الكريم الاطلاع على الرواية على موقعنا الإليكتروني: www.amrallah.com

وسيجد القارئ في بعض الكلمات غرابة أو قُربا من اللهجات العامية، إلا أنها فصحى مُبينة، اختيرت عن قصد لغاية، فلم توضع المفردات في الجمل اعتباطا، وإنما حملت إشارات وتلميحات أراد الكاتب إيصالها للقارئ. كما حرصنا على تناسق جُمله وترابطها، وتقديمها في هيئة بديعة، ولقد أجهدنا هذا الأمر أيما إجهاد، إلا أنه سيزيد لزاما من قيمة الكتاب.

يُضاف إلى ذلك طريقة عرض عناصر الموضوع، فلقد اقتفينا في العرض منهج القرآن إلى حد كبير، والذي يوزع معالجة القضية الواحدة على أكثر من موقع، ليكتسب العنصر في الموقع الجديد سياقا مخالفا، يعطي القارئ تصورا جديدا له، فوزعنا معالجتنا لبعض المسائل على عدة عناصر، نرسخ بذلك المسألة والعنصر المعروضة فيه. كما سنعرض بعض النقاط كبدهيات لا نُدلل عليها، أو يتأخر التدليل عليها إلى عناصر أخرى، على الرغم من كونها مخالفة المألوف عند القارئ!

لذا فإنا نطلب إليه أن يعمل ذهنه في هذه المسائل، ويتفكر فيها، وألا يتسرع في إصدار الحكم بالقبول أو الرفض، قبل الفراغ من الكتاب، فربما يجد في عنصر آخر تدليلا أكثر إقناعا. أو يعود إلى الرواية فربما يجد فيها تفصيلا! كما عرضنا بعض العناصر، والتي لا دور رئيس لها في برنامج الإعداد، وإنما تتحرك لتعطي إطارا للبرنامج، كما أنها تغلق الطريق أمام أي تصور آخر، فتثبت بطلانه، وتظهر تكامل وصحة المعروض.

يضاف إلى المذكور منظورُ تناول القضايا المطروحة في الكتاب، فهو منظور شمولي ابتدائي تجريدي، قد يكون غير مألوف للقارئ، إلا أنه مقتد بالمنظور القرآني!

ونختم قائلين: تاه نيتشه والغربيون فخرا وعجبا برواية "هكذا تكلم زرادشت"، والتي بشر فيها نيتشه بالسوبرمان، لما فيها من لغة راقية ومعان وحكم بالغة.

ونحن نقدم هذا الكتاب من منطلق معاكس تماما لنيتشه، نقدمه من إنسان هو النقيض من نيتشه، يتيه كنيتشه فخرا بفقهه اللغوي، كنيتشه أحبَ الله منذ صغره، إلا أنه لا

يزال يحبه، ويجزم أنه هو الحل .. والحياة. إنسان يجزم أن الإنسان قد مات، وأن من أبرز من أماتوه هو نيتشه! لذا فهو يسعى لإصلاح ما أفسده ال نيتشه!

لذا فإنا نقدم للقارئ الكريم الكتاب مصحوبا بالرواية، يقرأهما معا ويستحضر التصور الذي يقدمانه سويا، ويقارنه بما قدمه نيتشه في "هكذا تكلم زرادشت"، ونترك له إصدار الحكم!

الباب الأول

نيتشه وسوبرمانه

الفصل الأول: من هو ذلك الفيلسوف؟

يبجل كثيرٌ من أصحاب الفكر –ملاحدة كانوا أو مسلمين– ذلك الفيلسوف المدعو نيتشه، ويعدونه من أصحاب السبق في الفكر الإنساني وأنه أتى بما لم يأت به الأوائل، حتى أني وجدت أن بعض الملاحدة يسمونه –من فرط إعجابهم به!– ب: نبي الإلحاد. ويقتفون كلماته فيفسرونها ويثنون على المعاني التي يستخرجونها منها، فمن هو ذلك الفيلسوف، وماذا فعل حتى يستحق كل هذا الثناء، وهل كان هذا الفيلسوف صاحب منهج ورسالة ينادي بها، ويتدرج في بث أفكارها أم أنه غير ذلك تماما؟

نبدأ أولا بتقديم سيرة مختصرة لذلك الفيلسوف ثم بعد ذلك نبدأ في التعليق على بعض أفكاره الواردة في كتبه، وسنزيد من جرعة المناقشة عند تعرضنا لكتابه "هكذا تكلم زرادشت"، لأنه قام في هذا الكتاب بالتبشير بسوبرمانه المثالي الوهمي! وسيرى القارئ الكريم كيف أن السادة مفكري البشر –ومن تبعهم من العوام– في احتفائهم بهذا الفيلسوف يقدمون لنا أكبر دليل على لامنطقية البشرية في تصرفها.

ونحن لا نعني بهذا أن نيتشه لم يقدم للبشرية أي نفع أو أن كتاباته كانت كتابات حمقاء خرقاء، ولكنا نرنوا إلى القول بأن فكر نيتشه كان له أسبابه الواضحة وظروفه القاهرة، ولذلك لا ينبغي أن يعمم بحال ولكن عممته البشرية العاقلة ونشرته وعولمته، ولا نطيل ونبدأ بتقديم سيرة مختصرة للفيلسوف نيتشه[4]: ولد فريدريش فيلهيلم نيتشه في الخامس عشر من أكتوبر في عام 1844 لعائلة من القساوسة البروتستانت في قرية صغيرة تدعي روكن Rocken جنوب ولاية "ساكسونيا أنهالت" بشرق ألمانيا، ولم تكن عائلة نيتشه ذات أصول ألمانية وإنما كانت ترجع إلى أصول بولندية. بعد خمس أعوام

---

[4] قام العلامة المرحوم عبدالرحمن بدوي بمناقشة سيرة ونتاج نيتشه في كتاب كامل في سلسلة "خلاصة الفكر الأوروبي، سلسلة الفلاسفة: نيتشه" ونحن ننقل عن هذا الكتاب الأحداث التاريخية المتعلقة بنيتشه، ومن بعض المصادر الأخرى، فمن أراد التوسع فليرجع إلى الكتاب!

من مولده يتوفى والده القس كارل لودفج، وبعد ذلك بعام تنتقل العائلة إلى مدينة ناومبورج **Naumburg** حيث تعيش جدة نيتشه لأبيه. وبعد فترة قصيرة من التحاقه بالمدرسة العامة في ناومبورج كان قادرا علي الاستشهاد بالأحكام التوراتية، مما جعل نساء أسرته وكذلك أصدقائه يدعونه: الراهب الصغير، وكان نيتشه يطمح أن يصير قسيسا في كبره.

وبسبب اجتهاده يحصل علي منحة للدراسة المجانية بمدرسة بفورتا **Pforta** بالقرب من ناومبرج، وكانت مدرسة داخلية معروفة بتقاليدها القاسية التي تتجاهل كل حديث وتركز علي روح القديم. وقبل أن يغادر هذه المدرسة نظم قصيدة وجهها إلى الله المجهول الذي لم يعرفه بعد[5].

وفي عام 1860 يلتحق بالجمعية الأدبية "جرمانيا"، ولمدة أربعة سنوات متصلة. وفي عام 1864 يلتحق بجامعة بون لدراسة علم اللاهوت، ولكنه سرعان ما يتخلي عن دراسة اللاهوت، وينتقل في عام 1865 إلي جامعة ليبتسج ليتخصص في الفلولوجيا (فقه اللغة). وفي أكتوبر 1867 يُجند إجباريا في جيش بروسيا الألماني،[6] ولكن سرعان ما يتم تسريحه لإصابته بعد سقوطه من علي أحد الجياد، وهنا يعود إلي ليبتسج في بداية فصل الشتاء لعام 1868. وفي نفس هذا العام يلتقي بريتشارد فاجنر ويكتشف نيتشه وفاجنر إعجابهما المشترك بشوبنهور وفلسفته.

وقد اعتاد الدارسون علي تقسيم حياة نيتشه الفكرية إلي ثلاث مراحل فكرية متميزة تستغرق المرحلة الأولى الفترة ما بين عام 1869 و1876، وفي بداية هذه المرحلة

---

[5] أعجبتني هذه القصيدة لما فيها من مشاعر صادقة لإنسان مؤمن، وننقلها إلى القارئ من خلال تعريب الأستاذ عبدالرحمن بدوي: "مرة ثانية، وقبل أن استمر في طريقي وأطلق نظرتي إلى الأمام، أرفع يدي العاريتين إليك فأنت ملجأي وملاذي، وأنت الذي كرستُ له في أعمق أعماق قلبي مذابح يقدس عليها اسمك، لكي يدعوني صوتك دائما إليك، وعلى هذه المذابح تتلألأ هذه الكلمة: إلى الله المجهول ... إني أريد أن أعرفك أيها المجهول، أنت يا من نفذت إلى صميم روحي، ويا من تمر على حياتي مرور العاصفة، أنت يا من لا يدركك شيء، ومع هذا فأنت قريب مني وذو نسب إلي، أريد أن أعرفك وبنفسي أن أعبدك!"

[6] يروى أنه كان يضع صورة لشوبنهور علي مكتبه في هذه الفترة، وكلما ألمّ به عارض هتف ساخرا 'عونك يا شوبنهور'!. ويبدو أن نيتشه لم يكن قد تخلص بعد من النزعة الصوفية في هذه الفترة، فإذا كان نيتشه الفيلسوف يطلب المدد! من إنسان، كنوع من العون النفسي والتثبيت، فلم وكيف لا تطلب البشرية كلها من الله؟!

أصبح نيتشه أستاذا لفقه اللغة في جامعة بازل بسويسرا، وهناك بدأت صداقته المتقلبة مع فاجنر. وفي أغسطس 1870 حصل نيتشه علي إجازة من الجامعة وتطوع كممرض في الجيش الألماني إبان حربه مع فرنسا. وبعد هزيمة فرنسا عاد نيتشه إلي ألمانيا بمجموعة جديدة من الأمراض المزمنة التي ستلازمه حتي نهاية حياته. وفي بداية عام 1872 أصدر نيتشه أول كتبه تحت عنوان: "ميلاد التراجيديا من روح الموسيقي"، لكن الكتاب لم يجد رد الفعل الذي انتظره نيتشه.

ومع تكالب الأمراض علي دماغه وعينيه يُضطر نيتشه في أكتوبر لأخذ إجازة مرضية لمدة عام، قام خلالها برحلة إلي إيطاليا حيث ظل حينا في نابولي، وفي نابولي يحذره الطبيب قائلا: "إما أن توقف هذا العذاب الفكري الذي تعيشه أو سوف تفقد عقلك"، وهكذا أصبح واضحا لديه أنه لن يُشفى مرة أخرى، وأنه يسير على خطى والده وأنه ربما سيموت شابا!

واستغرقت المرحلة الثانية الفترة ما بين 1877 و1882، وفيها تماهت الحدود بين حياته وفكره، حيث اقترب بشكل أفضل من ذاته، والتي انتقل بها من مرحلة الإيمان بالمثاليات إلي مرحلة الإيمان بالإنسانيات، وأصدر خلالها عددا من كتبه المعروفة، التي أعطته الصبغة الفلسفية التي لازمته فيما بعد. ففي عام 1878 أصدر الجزء الأول من كتابه "إنساني مفرط في إنسانيته"، ثم أصدر الجزء الثاني في عام 1879. وفي نفس العام بلغت أمراض نيتشه حدا جعلته غير قادرٍ علي القراءة أو مواصلة عمله الجامعي، فاستقال وهو في الخامسة والثلاثين، واكتفى بمعاش ضئيل من الجامعة.

وبعد استقالته أصبحت عادته أن يقضي الشتاء في مدن جنوب أوروبا، أما الصيف فكان يقضيه في قرية صغيرة تقع علي جبال الألب في جنوب سويسرا تُدعى سيلز —ماريا، والتي استأجر فيها حجرة بائسة تحولت الآن إلي متحف! وفي عام 1885 أصدر كتابه "المرتحل وظله"، وفي يوليو 1881 أصدر "الفجر" الذي قدم فيه أفكاره

الجريئة حول الأحكام الأخلاقية. وفي أغسطس 1882 أصدر كتابه الخطير "العلم المرح".

وفي هذه المرحلة وجد نيتشه بغيته الأسلوبية في الجملة الشعرية الموجزة، والمحملة بصرخاته، وكان شديد الدقة في تنسيق كتبه واختيار عناوينها، يعاملها كأنها بناء معماري صلب. وفي المرحلة الثالثة التي استغرقت الفترة ما بين 1882 و1888 تنقل كثيرا بين المدن السويسرية والفرنسية والإيطالية.

ومن أهم أحداث هذه المرحلة توثيق صلته بامرأة روسية شابة تعرف عليها في أثناء زيارته لروما في إبريل 1882 وتدعي لو سالومي، والتي أصبحت فيما بعد إحدي أشهر نساء عصرها. والحقيقة فإن علاقته بالمرأة موضوع تتضارب حوله الآراء، ولكنها كانت في الغالب علاقة عدوانية، ولذلك أسباب عدة، لعل أهمها علاقته العميقة بنساء أسرته ثم إصابته بمرض الزهري بسبب تردده علي أحد بيوت الدعارة إبان دراسته. ومن أهم أحداث هذه المرحلة أيضا وفاة فاجنر، وعندما وصله الخبر كتب لأحد أصدقائه: لقد كان فاجنر أكمل رجل قابلته في حياتي!

ورغم أن أمراضه قد تفاقمت في هذه المرحلة إلا أنه كان غزير الإنتاج عميقه، حيث نشر أعماله التي خلدته وأعطته الشهرة المدوية التي مازال يتمتع بها. ففي الفترة ما بين عامي 1883 و1885 نشر أهم وأشهر كتبه "هكذا تكلم زرادشت" الذي وصفه علي صفحة الغلاف بأنه "كتاب للجميع ولا لأحد"، ووصفه في العديد من رسائله بأنه "الإنجيل الخامس"، وفيه بلغ قمته الأسلوبية والفكرية. وفي عام 1886 نشر كتابه "ما وراء الخير والشر"، والذي عدّه بمثابة "تقديم وإعداد لفلسفة المستقبل"، وفي عام 1887 أعاد إصدار الكثير من أعماله السابقة كما أصدر أيضا كتابه المعروف "نحو علم أنساب الأخلاق".

أما كتابه الأخير في هذه المرحلة "إرادة القوة" فقد كتبه عام 1886 ولكنه لم يُنشر إلا بعد وفاته. وفي هذه المرحلة وجد نيتشه المريض جسديا، أن خير مُعبر عن فلسفته هو

مصطلح "إرادة القوة"، الذي يعتمد بدوره علي مصطلحي "الإنسان الأعلى والعود الأبدي"، وقد عالج نيتشه مصطلح "إرادة القوة" في "هكذا تكلم زرادشت". أما مصطلح "الإنسان الأعلى" فقد استخدمه نيتشه لأول مرة في مخطوطاته التي كتبها عندما كان في السابعة عشرة من عمره. ومنذ هذه السن يفرق نيتشه الشاب بين درجتين من البشر: الإنسان العادي والإنسان الجليل أو العظيم أو الأعلى.

فالإنسان العادي حريص علي أن يعيش حياة طويلة حتي ولو كانت بلا معني أو هدف، بينما الإنسان الأعلي يسعي إلي الحياة العريضة الخالدة حتي ولو كانت قصيرة. وقد تأثر نيتشه في صكه لمصطلح "إرادة القوة" بفلسفة باروخ إشبينوزا وشوبنهور وتشارلز دارون، فالثلاثة يركزون علي فضيلة الإرادة. وفي نهاية هذه المرحلة (1888) كتب نيتشه عدة مخطوطات جديدة ساهمت في تعميق بعض أفكاره السابقة منها: "قضية فاجنر" و"أفول الأصنام"، إلا أن أهم هذه الكتب هو: "عدو المسيح".

وكما نلاحظ فإن أغلب كتب نيتشه الفلسفية ذات مسحة لاهوتية. فالنقد القاسي للكتاب المقدس، الذي يذكرنا بكتابات إشبينوزا، ما هو إلا دليل علي المعايشة العميقة من جانب نيتشه للكتاب المقدس. ورغم أنه كما يقول في مقدمة كتابه "هذا هو الإنسان": أنه نشره حتي لا يُمجد فيما بعد، فإن هذا الكتاب، الذي كتبه إبان نوبات الصرع خير معبر عن شعوره الجارف بعظمته الشخصية. وفي 3 يناير 1889 ومن فرط التوتر الفكري والعقلي يتعرض نيتشه لإنهيار عصبي تام في أحد شوارع مدينة تورينو الإيطالية ... وسرعان ما أقبلت أمه وحملته إلي يانه حيث وضع تحت إشراف العيادة الجامعية للأعصاب. وفي 13 مايو 1890 عادت به أمه إلي ناومبورج. ومنذ ذلك التاريخ أخذت حالته تزداد سوءا، ومنذ عام 1892 لم يتمكن من التعرف علي زائريه. ومنذ عام 1894 لم يعد يستطيع الكلام. وعندما ماتت الأم في إبريل 1897 انتقل المريض إلي وصاية أخته في فايمار، وبقي هناك حتي وفاته ظُهر الخامس والعشرين من أغسطس في عام 1900.[7]

[7] عبدالسلام حيدر، جريدة "أخبار الأدب" المصرية، منقول بتصرف كبير.

وهكذا انتهت حياة ذلك الفيلسوف المليئة بالبؤس والمعاناة والألم.



وقبل أن نبدأ في تناول بعض نتاج هذا الفيلسوف الكبير نعرض للقارئ الكريم أعماله الفكرية مرتبة ترتيبا تاريخيا، ثم نبدأ بعد ذلك في التعليق على هذه الشخصية وعلى هذا النتاج الفكري الذي اختُلف في توصيفه اختلافا بيناً، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، تعليقا نتناول فيه فقط بعض زوايا شخصيته: "من حياتي 1858، عن الموسيقى 1858، نابليون الثالث كرئيس، 1862، القدر والتاريخ 1862، الإرادة الحرة والقدر 1862، هل يستطيع الحسود أن يكون سعيدا حقا 1863، حياتي 1864، الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي، مولد التراجيديا 1872، هو ذا الإنسان 1878، المرتحل وظله 1879، الفجر 1881، العلم المرح 1882، هكذا تكلم زرادشت 1883-1885، ما وراء الخير والشر 1886، قضية فاغنر 1888، أفول الأصنام 1888، عدو المسيح 1888، نيتشه مقابل فاغنر 1888، إرادة القوة 1901."

كان فلسفته!

لن نتناول فلسفة نيتشه بداهة بالنقاش، وإلا سيخرج بنا هذا الأمر عن هدف الكتاب، ولن تكفينا صفحات هذا الكتاب، وسنحتاج إلى إصدارات أخرى حتى نعرض النظرية القرآنية حول السوبرمان، وإنما سنعرض هنا النقطة التي نريد التدليل عليها من خلال كتابنا، وهي أن فلسفة نيتشه كانت حياة نيتشه وواقعه وآلامه! فلم يكن فكر نيتشه متساميا عن الواقع بل كان خاضعا له تمام الخضوع، فكان متأثرا أكثر منه مؤثرا، ولما

فشل أن يغير واقعه ثار عليه في فكره، فهدمه تماما وحاول أن يبني واقعا جديدا مغايرا للواقع الذي يمر به هو ومجتمعه!

ولا يعني هذا أننا ننفي أن يكون نيتشه مفكرا عبقريا وصاحب نظرة ثاقبة للحياة ولكنا نريد التركيز على مسألة التأثر بالواقع المرير أيما تركيز، فلقد كانت في الواقع عين فلسفة نيتشه، وليس هذا رأيي أنا فقط الذي اكتسبته من خلال قراءاتي لنيتشه، وإنما هو رأي عامة الباحثين، وفي هذا يقول الدكتور محمد أحمد المسير: "اتفقت كلمة الباحثين على أن فلسفة نيتشه تكمن في شخصيته وتاريخ حياته، وأن كل ما ذهب إليه من اتجاهات في الإنسان والمجتمع إنما هو تمثيل صادق لنفس قلقة وفكر مضطرب وعواطف ثائرة. وأول كتاب ظهر له هو "مولد المأساة من روح الموسيقى" سنة 1872 وقد جمع فيه بين تشاؤم شوبنهور وموسيقى فاجنر، واعتبر التشاؤم وحده دليل الضعف والتدهور، والتفاؤل في المأساة هو صفة الرجل القوي الذي ينشد عمق التجربة واتساعها. وأعلن أن الشعب في قوته ينتج الأساطير والشعر، وفي تدهوره ينتج الفلسفة والمنطق. وناشد الشعب الألماني أن يبتعد عن الفلسفة (!!) وأن يستسلم للغرائز وأن عليه أن يصلح الموسيقى كما أصلح الدين بقوة كقوة لوثر، عسى أن تشهد ألمانيا عصرا حربيا يموج بالأبطال، فإن مولد المأساة من روح الموسيقى."[8]

وعلى الرغم من اشتهار فلسفة نيتشه اشتهارا كبيرا إلا أنها اختلفت عن غيرها من الفلسفات، ولم يكن اشتهار فلسفة نيتشه راجعا بالدرجة الأولى إلى أفكارها وإلى ما تُقدم[9]، وإنما ترجع إلى لغتها الشاعرية، فلقد غيّر نيتشه وجه الفلسفة الجامد وقدّم فلسفة بوجه مختلف وثياب جديدة، حيث كساها ثوباً قشيباً من الروح الشعرية،

---

[8] محمد أحمد المسير، المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه، ص. 415.

وسيكون لنا تعليق بإذن الله على مسألة الموسيقى هذه عند تناولنا لها في برنامج إعداد السوبرمان القرآني.

[9] الناظر في فلسفة نيتشه يجد أنها كشخصيته حائرة مضطربة ثائرة، تهدم ولا تبني، تنقد الواقع وتطير في أفاق الخيال، ولكنها لا تعطيك خطوطا عريضة لما يريد أن يقول، ربما لأن فلسفته لم تكن أكثر من مشاعر جاش بها صدره وخواطر طافت بذهنه، وتختلف هذه الخواطر عن الفكر الممنهج المنظم الذي يناقش قضية ويتتبعها بالنقد والتفنيد، وفي هذا يقول يسبرز في كتابه "نيتشه والمسيحية": "والواقع أنه لا يهدينا إلى الطريق ولا يعلمنا اعتقادا ما، ولا يضعنا على أرض صلبة بل هو لا يتركنا نستريح قط، ولا يكل من *تعذيبنا، وهو يطردنا من كل مأوى نلجأ إليه، وهو يمزق كل قناع" اهـ*

وحولها من جسد باهت إلى روح تتألق، وتجلت عبقريته في حكم تغنى بها زرادشت، حكمٌ تأرجحت بين قمة العبقرية وسفح الجنون، حكمٌ متدفقة جارية لا يوقفها سد ولا يقف في وجهها حاجز.

ولغة نيتشه كمظهره لغة قوية عاتية تخفي في داخلها مظاهر التناقض والخلل والضعف الكامنة في محتوى النص، فمن يقرأ لنيتشه يبهر بأسلوبه الأدبي البديع،[10] ولكن إذا تجاوز هذه اللغة ونظر إلى المضمون نظرة مجردة فسيجده مضمونا مثاليا غير واضح الملامح، متناقضا في أحايين كثيرة، ويعلق الأستاذ عبدالرحمن بدوي على مسألة التناقض تلك فيقول: "ولعل نيتشه أوضح مثال لهذا الطراز من المفكرين، ولا مناص لمن يريد أن يصف حياته وفكره من أن يصورهما في لغة التطور وبألوان الزمان، وأن يشيع فيهما روح الحركة، وإلا بدا فكره سلسلة من المتناقضات، إذا وضعت الفكرة الواحدة من أفكاره بجانت الأخرى وضعا أفقيا، إن صح هذا التعبير، لا وضعا رأسيا كما يقتضيه التطور"[11].

إذا فهذا الفكر النيتشوي العريض الذي يتيه به الملاحدة وغيرهم هو مجموعة من المتناقضات التي لا بد أن تُفهم بشكل معين وإلا فمن اللازم رد غالبها. وتلقفت خلاصة المفكرين هذا الفكر العجيب الغريب المضطرب المريض ذا الصياغة العالية وجعلته دستورا لها ومنطلقا، على الرغم من يقينهم أن صورة نيتشه وهيئته انعكست في فلسفته كفكر مصاغ صياغة عالية، محاط بسياج من الرهبة والغموض مع كثير من الثورة والإشارة إلى علو هذا الفكر على العقل البشري العادي –ويبدو أن هذا الأسلوب يفلح كثيرا مع البشر!–.

فإذا نحن تأملنا نيتشه جيدا من خلال أوصافه الحقيقية، وأسقطنا هذه الأوصاف على فلسفته نستطيع أن نجزم بماهيتها، ويعلق الأستاذ عبدالرحمن بدوي على هذه المسألة فيقول: "هذا الذي صورته الأسطورة كصورة البطل، له رأس كبير أفرع يعلو كالبناء

---

[10] بداهة لمن يقرأ النصوص الأصلية بالألمانية، لا من يقرأ التعريب، فشتان من بين الصوغين.

[11] عبدالرحمن بدوي، خلاصة الفكر الأوروبي، سلسلة الفلاسفة، نيتشه، ص.6.

الشامخ، يناضل جاذبية الأرض ويود لو يلحق بالسماء، وجبهة عريضة على شكل القباب المرتفعة، تتخللها الثنايا والتعاريج من أثر فكره الهائل العميق، وموجة من الشعر الفاحم أبهظت كاهل قفاه القوي البارز، وتحت جفونه ترف نظرة حادة كنظرات الصقر، وكل عضلة من عضلات وجهه القوي النابض متوترة بإرادة وقوة وصحة، وعلى فمه الحاد يتهدل شارب ضخم، فهو أشبه ما يكون بالفارس الجرماني القديم، يسير بخطى واسعة سامقة، حاملا سيف النصر في يمينه وبوق الصيد والسمهري في يساره.

والذي صورته الحقيقة شبحا أو كالشبح، موطأ الكتفين، يسير في حذر واضطراب لأنه مصاب بقصر نظر عنيف، يحول بينه وبين المشي القوي السريع (...) ظل طوال حياته الفكرية الحقيقية مريضا، حليفا للداء والدواء، لا يكاد ينتهي من مرض إلا ليصادق مرضا جديدا، ولا يكاد الصيف يشعره بشيء من الراحة والهدوء، حتى يأتي إليه الشتاء بالآلام في أقصى صورها وأشد أنواعها."[12] اهـ

وسيرى القارئ الكريم أن عقدة النبوة[13] هي التي سيطرت عليه وأثرت فيه أشد التأثير، ولم يستطع التخلص منها، فدار في فلكها وحُصرت كل فلسفته فيها. فهو كنبي لزاما عليه أن يهدم القديم ويقدم الجديد، وبالفعل قام نيتشه بالثورة على القديم وقدم جديدا، ولكنه لم يكن واضح المعالم، فقدم غيبا جديدا سماه "الإنسان الأعلى" ودعا الناس إلى الإيمان به على لسان نبي من الأنبياء، استنطقه وأخرجه من قبره لكي يتكلم بلسانه النيتشوي الحكيم.

ولا يُخفي نيتشه هذه النزعة، فهو يقارن نفسه بهم ويرى أنه يلعب دورا رئيسا في تاريخ البشرية، بل ويكاد يصف نفسه بالألوهية فيقول: "الرجل الذي يستطيع أن يحيا تاريخ

---

[12] المرجع السابق، ص.6–7.

[13] عقدة النبوة أو حتى الألوهية هي العقدة التي سيطرت ولا تزال تسيطر على كثير من الفلاسفة، فالفيلسوف يستشعر في نفسه أنه نبي جديد، بعثه عقله من أجل هداية البشرية. ولما كان للأنبياء فضل السبق ومزية الادعاء بالأخذ والتلقي من المطلق، اكتسبوا اتباعا كثرا، وقدسية ومهابة لم ولن يكتسبها أي فيلسوف، ولقد فضح الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي أوجست كونت هذه العقدة عند معشر الفلاسفة من خلال نقده للدين ودعوته إلى هدمه ثم الإتيان بدين جديد. والفارق أن كونت سمى فكره دينا، أمّا الآخرون فقدموا فكرهم على أنه فكر وليس دينا! ولقد قالها نيتشه صراحة: "بعد اعدام الله انا جاهز لحكم العالم!".

الإنسانية بأسره من جديد، كأنه تاريخه هو نفسه، هذا الذي يجد من أمامه ومن وراءه أفقا واسعا مكونا من الآف السنين يشعر بإزائه أنه الوارث لكل ما تناثر فيه من نبل روحي يحمله مسؤولية كبرى لأنه أنبل كل هؤلاء النبلاء الأقدمين وأول ممثل للأرستقراطية الجديدة التي لم يشهدها، بل ولم يحلم بها عصر آخر من قبل، والذي يتمثل في روحه أنبل المجد وأعظم التقاليد، وكل ما صادفته الإنسانية من تجديد وخسران وآمال وفتوحات وانتصارات، والذي يجمع هذا كله في نفس واحدة ويركزه في عاطفة واحدة، هذا الرجل يشعر بسعادة لم يشعر بها إنسان من قبل، سعادة هي سعادة الإله الممتلئ بالقوة والحب والدموع والابتسامات" اهـ

ونيتشه وإن لم يصرح هنا أنه يتحدث عن نفسه، إلا أن الواضح لكل ذي عينين أنه يدخل ضمنيا في هذا الوصف إن لم يكن هو الموصوف الرئيس به! وفي موضع آخر يقول على لسان زرادشت –الناطق بلسان نيتشه–: "لذلك آمركم الآن أن تضيعوني لتجدوا أنفسكم، ولن أعود إليكم إلا بعدما تكونون قد جحدتموني كلكم، والحق، يا إخوتي، أنني في ذلك الحين، سأفتش عن خرافي الضالة بعين أخرى، فأبذل لكم حبا غير هذا الحب" [14]اهـ

بل إنه ليصرح في موطن آخر أنه أفضل من المسيح! –على لسان زرادشت بداهة–، فيقول: "صدقوني أيها الأخوة، إن المسيح قد مات قبل أوانه، ولو أنه بلغ العمر الذي بلغتُ، لكان جحد تعاليمه، وقد كان له من النبل ما يكفيه لاقتحام العدول عنها، ولكنه لم يبلغ النضوج، ولم تبلغه المحبة في الشباب، فكره الناس وكره الأرض. وهكذا بقيت روحه مثقلة ولم ينشر جناحه المهيض."[15] اهـ

ودعوانا أن فلسفة نيتشه هي إنعكاس لشخصيته وواقعه دعوى يقر هو نفسه بها، فهو يرى أن كل الفلسفات هي انعكاس لأصحابها! وإذا كان هذا القول يصدق بنسب متفاوتة على الفلاسفة فإنها تصدق بنسبة أكبر عليه نفسه، وفي هذا يقول نيتشه في

[14] فريدريش نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تعريب: فليكس فارس. ص. 65.

[15] المرجع السابق، ص. 60.

كتابه "ما وراء الخير والشر": "لقد اكتشفت شيئا فشيئا ما كانت عليه كل فلسفة كبيرة حتى الآن: أعني أنها اعتراف ذاتي لصاحبها، ونوع من المذكرات بدون أن يقصد أو يلاحظ، وأن النوايا الأخلاقية (أو اللاأخلاقية) شكلت في كل فلسفة بذرة الحياة الأصلية التي انبثقت عنها في كل مرة النبتة برمتها. وإذا أردنا أن نفسر كيف أقيمت أبعد المزاعم الميتافيزيقية لفيلسوف ما، فمن الأحسن (ومن الحكمة فعلا) أن نتساءل في البداية دائما: ما هي الأخلاق التي يُسعى (أو يسعى هو) إليها؟"[16] اهـ

وكما رأينا فإنه نفسه يقر بأن كل فلسفة انعكاس لصاحبها، وهو أيضا فيلسوف، حتى ولو كان كبير الفلاسفة أو نبيهم! ولقد بان هذا واضحا في اعترافاته، فبسبب معانته الصحية الشديدة صارت كتاباته جد معقدة، وعلى الرغم من ذلك تجده يفخر بأن أحداً لا يستطيع أن يحبه! فيقول: "أنا فخور بنفسي فخرا يحملني على الاعتقاد بأنه لا يوجد من يقدر على أن يحبني، أنا. لأن هذا يفترض مقدما أن يعرف من أنا. كما أني لا أعتقد أني سأحب إنسانا، لأن هذا يفترض بدوره مقدما أني سأجد يوما ما، وهذه معجزة المعجزات، رجلا في مثل مرتبتي ومستواي ... إن كل ما يشغلني ويقلقني ويسمو بي، لم أجد من يشاركني فيه ويكون لي فيه زميلا وصديقا." اهـ

وهاهنا مجددا نجد عقدة نقص الكمال أو "النبوة" تظهر في كلامه، فهو يرمي المجتمع بالنقص ويدعوه إلى تغيير كل ما لديه، ثم يشكو همه أن الناس هم الذين لا يفهمونه ولا يرقون إلى المستوى النيتشوي! ولم يكن تفرده ووحدته مفخرة بحق، فلقد اعترف مسبقا أنه يشعر بآلام الوحدة بشكل لم يصل إليه أحد، فيقول: "آه، لو كان في استطاعتي أن أعطيك فكرة عن إحساسي بالوحدة! فلست أجد من بين الأحياء ولا الأموات من أحس بأن بيني وبينه شبها وقرابة، هذا مخيف، مخيف جدا!".

[16] فريدريش نيتشه، ما وراء الخير والشر: تباشير فلسفة للمستقبل، تعريب جيزلا فالور حجار، مراجعة موسى وهبة، ص. 27.

ولا يغرنك كلام نيتشه السابق، فهو كأي إنسان يبحث عن الصديق وككل مفكر يبحث عن الأتباع! ولما فشل في العثور على الصنفين قال: "إن موهبتي الفكرية لخلق الأساطير ستقوم منذ الآن سعيا وراء الصديق" اهـ

فالجلي أنه كان يعاني من الفشل في تحصيل حياة طبيعية من زوجة وأولاد، أو أصدقاء أو أتباع أو اعتراف من المجتمع! ولكن هذا لم يؤثر في نيتشه واستمر في كتاباته والافتخار بها، ووجدناه يقول في مقدمة كتابه "ضد المسيح": "هذا الكتاب ينتمي إلى القليلين الذين لعل أحدا منهم لم يولد إلى الحياة حتى الآن. ولعلهم أن يكونوا أولئك الذين يفهمون زرادشتي. كيف أملك أن أخلط ذاتي مع أولئك الذين يستمع إليهم اليوم؟ الغد وحده هو الذي يخصني وبعض المولودين فيما بعد (...) أية أهمية للآخرين، الآخرين الذين لعلهم كل البشرية؟ يجب التفوق على البشرية بالعزم وبتشدد النفس وبالاحتقار[17]" اهـ

ويقول في كتابه "هذا هو الإنسان": "ما الذي يجعلني أكتب كتبا جيدة: أنا شيء وكتاباتي شيء آخر. وقبل أن أتكلم عن كتبي هنا لا بد من كلمة عن مسألة فهم أو عدم فهم كتاباتي. سأفعل أنا بما يناسب الأمر من عدم اكتراث! ذلك لأن المسألة ما تزال سابقة لأوانها كليا. وأنا بدوري سابق لأواني، هناك أناس يولدون بعد الممات Posthume. (...) وأن لا يكون هناك من يرغب في الأخذ عني فذلك ما يبدو لي لا أمرا مفهوما فحسب، بل عين التصرف السليم."[18] اهـ

ويتساءل في غير ذلك من المواضع: لما أنا على هذا القدر من الحكمة؟ لما أنا على هذا القدر من الذكاء؟!! ويقول واصفا نفسه في موطن آخر: "ولم يزل حتى اليوم أكثرهم علما أقلهم إدراكا لأقوالي (...) ولكن بالرغم من كل هذا لا أزال أمشي فوق رؤوسهم وأنا أنشر أفكاري."

[17] فريدريش نيتشه، عدو المسيح، تعريب: جورج ميخائيل ديب. ص.21،22.

[18] فريدريش نيتشه، هذا هو الإنسان، تعريب: علي مصباح، ص. 65.

وكما رأيت عزيزي القارئ فلقد كان نيتشه يرى نفسه سابقا لأوانه، وأن البشرية لا تفهمه وأنه سيأتي زمن يفهم فيه بعض الناس كتاباته! هذا من العجب بالذات المبالغ فيه، إلا أنه يحتوي اعترافا ضمنيا من الكاتب أن كتاباته معقدة، وهذه نقطة ضعف لا تغتفر في تأليف أي كتاب، فمن المفترض في الكتاب الجيد أن يفهمه الجميع، ولكن بدرجات متفاوتة وهذه هي الحرفة، أن يُقدم للقارئ ما يستخرج منه، كلٌ حسب فهمه ومعرفته وثقافته، بغيته، ثم تأتي الأجيال التالية فتجد فيه الجديد، أما أن أدعي عجز المعاصرين فهو اعتراف بعجز الكاتب نفسه عن التواصل مع المحيطين به لا أكثر ولا أقل، ولكن هناك من يتمحكون ويدافعون عن هذه الكتابات المعقدة.

ولأن نيتشه ابتُلي بالعديد والعديد من الأمراض العضال، أثرت في نفسه تأثيرا بالغا، حتى أنها خلقت عنده يأسا مفرطا من الحياة، ومن فرط يأس نيتشه من الله –والذي رأى أنه تخلى عنه– أعلن نيتشه أن الله قد مات، قال نيتشه أن الله مات أو غير موجود ولكنه لم يستطع أن يستغني عن وظيفته فأتي مكانه بالإنسان الأعلى! ليقود الناس وليرشدهم إلى الخير!

وإذا كان نيتشه قال: "إن العذر الوحيد الذي يشفع لله أنه غير موجود"، فإن الذي يشفع لنيتشه أنه لم يستطع أن يستغني عن دور الله عزوجل، وأنه أتى كذلك بمثل ما أتى به الدين. وكذلك أثرت أمراضه هذه فيه حتى أنه تكوّن عنده ما يمكن توصيفه بعقدة الضعف! فرأى نيتشه أن الضعف، أي ضعف، هو شر لا محالة وأن الخير يكمن في القوة، في القوة فقط وفي إرادتها! حتى ولو كانت هذه القوة قوة غامضة مبهمة، فالفالح هو من يملكها أو يتظاهر بتملك نوعا ما منها[19]. وأخذ ينادي بالقضاء على كل مظاهر الضعف والخنوع في المجتمع

---

(19) يعلل نيتشه سيطرة الكاهن على الناس، والتي لا تجد ما يساندها من القوة بهذا التظاهر الذي أوهم الناس أن قهر الطبيعي هو لسبب ما حتما، وأن هذا القهر يستلزم القوة: "ما زال أعظم الناس إلى اليوم ينحون أمام القديس إجلالا، بوصفه لغز الاستبداد بالذات والاستغناء الطوعي النهائي: لماذا ينحنون؟ إنهم يظنون فيه –وخلف علامة استفهام مظهره الواهن والبائس إن صح التعبير– القوة المتفوقة التي أرادت أن تختبر نفسها باستبداد من هذا النوع. (...) أضف أن مظهر القديس يوحي إليهم

الإنساني، لأن هذه المظاهر لا نفع فيه وتؤدي إلى إثقال كاهل المجتمع بأعداد لا طائل من ورائها، وهذا يؤدي حتما إلى تأخر رقي المجتمع، حتى أنه قال: "ما أحسبني قاسيا عاتيا. ومع ذلك فإنني أقول لكم: إذا ما رأيتم متداعيا إلى السقوط فادفعوه بأيديكم وأجهزوا عليه. إن كل شيء يتفسخ ويتداعى في هذا الزمان، فمن ترى يحاول دعم ما هوى؟ أما أنا فإنني أريد سقوطه. وإذا كنتم لم تتذوقوا لذة دفع الصخورمن ذرى المنحدرات فانظروا إلى رجال هذا الزمان يتدهورون إلى أغواري. ما أنا إلا أول المدحرجين وسيأتي بعدي من تفوق مهارته مهارتي، فاقتدوا الآن بي. كل إنسان تعجزون عن تعليمه الطيران علموه على الأقل أن يسرع بالسقوط"[20] اهـ

ومتأثرا بالداروينية يبلغ الشطح بنيتشه مبلغه، عندما ينادي بالإنسان الأعلى كإنقاذ للبشرية! فما هو هذا الإنسان وكيف نُنتجه؟ لا يجيبنا نيتشه عن هذه الأسئلة، وإنما يقدم لنا فكرة مجردة، تتجسد فيها إرادة القوة، ملخصها أن كل الكائنات أخرجت من نفسها ما يفوقها، وكذلك الإنسان الذي كان في مبتدأه دودة وتطور حتى صار إنسانا، لا بد أن يُخرج في يوم من الأيام الإنسان الأعلى، وما الإنسان المعاصر في نظر نيتشه إلا جسر مشدود بين الحيوان والإنسان الأعلى، وما الإنسان في حاله هذه إلا قرد مغرق في قرديته.

ومن الممكن القول أن مشروع نيتشه الفكري يتلخص في أن الإنسانية تدور بفعل إرادة القوة في دائرة العود الأبدي، وهي تمر أثناء دوراتها بعدة مراحل: أولها مرحلة يؤمن فيها العامة بالتقاليد والأديان ولكن سرعان ما يخرج من بين العامة إنسان أعلى، يقفز بالإنسانية قفزات تسرع بها إلي نهاية الدورة، وهذه القفزات تتمثل في إعلان موت الإله ثم مرحلة العدمية، وإعلان فساد القيم التقليدية والسعي إلي خلق قيم جديدة.

بالارتياب: إن هذا العظم من النفي ونقض الطبيعة لا يرغب فيه المرء عبثا، بكل تأكيد، هكذا قالوا لأنفسهم وتساءلوا!" . فريدريش نيتشه، ما وراء الخير والشر، تباشير فلسفة للمستقبل تعريب جيزلا فالور حجار، مراجعة موسى وهبة، ص 85.

[20] فريدريش نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تعريب: فليكس فارس. ص. 178.

هذا هو ملخص فكرة إرادة القوة التي سيطرت على نيتشه، والتي حُرم من كل معانيها، فعاش يتقلب من عجز إلى عجز، إلا في رأسه الذي رُزق قوة عاتية! ويبدو أن رأسه لم يتحمل هذه القوة فأدت به في نهاية المطاف إلى الجنون! حتى أنه نادى بمثل ما نادى به.

ويعجب بعض الناقدين لفكر نيتشه من منادته بالقضاء على الضعف والضعفاء والتخلص منهم، ويرون أنه كان سيصبح أول من يُتخلص منه تبعا لأفكاره هذه. ولكن لا عجب في هذا إذا نحن فهمنا حالة اليأس الشديد التي كانت تحيط به، وحالة المعاناة الشديدة التي عاشها، حتى أنه كان مثل كثير من البشر يقومون بعملية رفض للحياة وبعملية انتحار بطيئة. وهذا ما سنعرضه للقارئ ونوضح له كيف أن كثيرا من الأفراد يقومون بهذا الفعل، وهو الانتحار البطيء لأنهم لا يجدون الشجاعة لينتحروا سريعا أو ليقتلوا أنفسهم في الوقت المناسب، كما دعا نيتشه إلى ذلك! والعجيب أنه نفسه لم يطبق أفكاره على نفسه، فعاش عيشة المرضى البائسين، ولم يقدم على قتل نفسه في الوقت المناسب.

ولأن هناك نسبة ليست بالضئيلة من قارائنا لم تقرأ لنيتشه، ولم تعرف هذه الظروف أو الواقع الذي عاشه ومر به، سنقدم الخطوط العريضة لأسباب ثورته، ليعلم القارئ علام ثار نيتشه، وماذا قدم في ثورته هذه، وهل كانت هناك حاجة إلى ثورته؟ وهل كانت ثورته منطقية! أم أنها تحلت هي أيضا باللامنطقية والمثالية والمبالغة؟ وهذا ما سنقدمه للقارئ الكريم في الفصل القادم.

كلمات خالدة

وقبل أن ننتقل إلى الفصل القادم نقدم لقارئنا الكريم بعضا من الكلمات الخالدة لهذا الفيلسوف والتي نرى أنها جد نافعة وتستحق أن يتفكر فيها شبابنا وشيوخنا:

"زوج من العدسات القوية كفيلة بأن تشفي عاشقاً.

تستطيع المرأة أن تكون تصنع صداقة جيدة مع الرجل، لكن عليها أن تدعم هذه العلاقة ببعض البغض لتحافظ عليها.

الحياة جدل بين الذوق والتذوق.

إن الله شماعة تعلقون عليها خطاياكم.

لا تنجح أمور ما لم تكن ورائها نفوس تضج حيوية.

فظيع هو الموت عطشا في البحر.

من منا لم يقدم يوما ذاته قربانا على مذبح الصيت الحسن؟

المرأه لغز مفتاحه كلمه واحده، هي الحب.

لسنا صادقين تماماً إلا في أحلامنا.

نحن نمدحُ ما يلائم ذوقنا، وهذا يعني إنّنا عندما نمدح فنحن نمدح ذوقنا الخاص، ألا يخالف هذا كلَّ ذوقٍ سليم؟

الموتُ قريبٌ بما فيه الكفاية كي لا نرتاع من الحياة.

أبغضُ ضيقَ الأفقِ أكثر بكثيرٍ من الخَطِيْئَةِ.

لا أفهم سببَ ممارسة الوشاية، إذا شئتَ أنْ تغيظ أحداً ما، يكفيك أنْ تقول عنه شيئاً صادقاً.

النّاس السطحيّون مضطرون للكذاب دائماً، بوصفهم محرومين من المضمون.

الفصل الثاني: واقع نيتشه!

لم يأت فكر نيتشه من فراغ ولم يظهر هكذا بغتة كما ظهر مع المعلم الأول: محمد بن عبد الله! وإنما كان رد فعل طبيعي للبيئة التي عاش فيها وللفترة الزمنية التي وُجد فيها، وللتقلبات الفكرية التي كان يمر بها مجتمعه. فمن المعلوم أن نيتشه عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث كانت القارة الأوروبية كلها تمر بمرحلة مخاض وتحرر من عادات وتقاليد، رسخت وهيمنت عليها لقرون عديدة، وكان المفكرون الأوروبيون يُدلون بدلائهم من أجل تأسيس نظام حياتي جديد، خلفا للنظام المسيحي الإقطاعي القديم.

كما لعبت النظريات العلمية المكتشفة حديثا دورا كبيرا في تغيير منظور الناس إلى العالم. ومثلت هذه الفترة، والتي سبقتها ظهور العديد والعديد من التيارات الفكرية المختلفة، والتي يدعو كل منها إلى اتجاه ويرى فيه الوريث القويم للحضارة المسيحية التي تلفظ أنفاسها الأخيرة، وفي هذا الخضم ظهر فيلسوفنا نيتشه! كأي إنسان مفكر يرى أوضاعا غير قويمة ويرى تقلبات وتغيرات سريعة تحدث في المجتمع وتغير وجهه الذي نشأ عليه وتربى على أصوله.

وكان نيتشه أسرع تغيرا وأكثر تقلبا من المجتمعات الأوروبية في ذلك الوقت، وعلى الرغم من ذلك فلقد نجح في تقديم أفكار كان لها التأثير الكبير –بعد وفاته بردح من الزمان وليس في حياته أو مباشرة بعد مماته–. فما هي أوجه النقد التي وجهها نيتشه إلى مجتمعه وعابه عليها، وما هو البديل الذي قدمه نيتشه للمجتمع؟

يمكننا تلخيص مشكلة نيتشه مع مجتمعه في مسألتين إثنتين فقط وهما: المسيحية والحداثة. فعلى الرغم من أن أوروبا كانت تشهد تقلبات فكرية جذرية، إلا أنه كان لا يزال سلطانا كبيرا للكنيسة على طوائف عريضة من الشعوب والعوام. ومن نجح في

التمرد على الكنيسة سقط في فخ الحداثة![21] فلأول مرة منذ بزوغ فجر الإنسانية الواعية يستحوذ الإنسان على هذه المقدرة الهائلة للبناء والهدم بل والاجتثاث، وعلى النقيض من ذلك لا يوجد ما يقابل ذلك من الأخلاق التي تمكنه من حسن التصرف والتفاعل مع هذه التغيرات الحديثة. فحاول نيتشه بذل قصارى جهده من أجل القضاء على كلا الصنمين، وثن المسيحية القديم المستشر ووثن الحداثة البازغ.

والحق يقال أن نيتشه كان من أوائل من انتبه إلى أخطار الحداثة[22] على الإنسان، وحذر منها عظيم التحذير. ولقد نجح نيتشه في نقده وهدمه للمسيحية نجاحا كبيرا، ولكنه لم يحقق النجاح المرجو في نقده للمنظومة الرأسمالية، حيث أنه كان من الناجع النافع لتلك المنظومة نقد نيتشه للمسيحية فعملت على إبرازه وتعميمه، أما نقضها ذاتها فهذا ما لا يُقبل بحال!

وكأي فيلسوف اتبع نيتشه منهج الشك، فلم يأخذ الأمور كمسلمات وإنما أهوى عليها معاول التحليل والهدم، فلم يبق ولم يذر. ولكن مما يأسف له المرء أن نيتشه لم يتوقف عند أي حد، وإنما شك وشكك في كل شيء إلى أن وصل به الأمر إلى الدعوة إلى هدم كل قديم والبحث عن أسس جديدة يبني عليها الإنسان الحديث تحت قيادة السوبرمان (الإنسان الأعلى) حضارته.

---

[21] يعتبر مفهوم الحداثة عند المحققين قاطبة من المفاهيم المستعصية على التحديد. ولكن نذكر بعض التعريفات الواردة فيها: تعريف آلن أوين: "الفصل المتعاظم بين عالم الطبيعة الذي تديره قوانين يكتشفها ويستخدمها الفكر العقلاني، وبين عالم الذات الذي يختفي فيه كل مبدأ متعال لتعريف الخير". تعريف ماكس فيبر: "الحداثة هي فصم الائتلاف والوحدة بين السماء والأرض مما يخلي العالم من وهمه ويلغي سحره. تعريف قاموس ويبستر **Webster**: "ممارسة، استعمال، أو تعبير خاص أو مميز للأزمنة الحديثة: طريقة للعيش أو التفكير مميزة لأزمنة الحديثة، فلسفة وممارسات الفن الحديث، وبخاصة خروج ذاتي واع ومقصود على الماضي، وبحث عن أشكال جديدة للتعبير في أي فن من الفنون."

[22] أميل إلى القول "الرأسمالية" وليست الحداثة، فالرأسمالية هي المنبع الذي لا يفلح معه أي تحديد أو تجميل، وإنما هي أكبر مأزق وقع فيه الإنسان، ولا حل له إلا اجتثاث أصوله.

نيتشه والمسيحية

ولد نيتشه لعائلة ذات نسب في مجال القساوسة، وكان في مبتدأ حياته من الملتزمين بالأخلاق المسيحية، حتى أنه كان يسمى بالقسيس الصغير، ولكن بعد فترة من حياته ابتعد نيتشه عن المسيحية وهجرها هجرا شديدا، ويرى بعض النقاد أن فريدريش ألبرت لانغه (1875-1828)، المفكّر الألماني البارز، -المجهول لعامة القرّاء العرب- صاحب كتاب "تاريخ المادية" Geschichte des Materialismus هو من أثر في نيتشه تأثيرا كبيرا، وترك عنده بصمة أبديّة، لعبت دوراً محوريّاً في صوغ الفلسفة النيتشويّة[23]، فتراجع نيتشه عن المسيحية، ثم بدأ بعد ذلك في نقد المسيحية نقدا شديدا لاذعا، حتى أنه جعل المسيحية سبب كل بلاء حاق بأوروبا! ولقد أخذ نيتشه على المسيحية الكثير من مواطن اللامنطقية والغموض والخنوع.

أهم مواطن نقد نيتشه للمسيحية

1- نقده لعقيدة الفداء!

من أهم وأخطر العقائد التي قامت عليها المسيحية تلك العقيدة اللامنطقية: عقيدة الفداء، والتي تقلب الواقع بشكل مرير، وتحول الإنسان إلى إنسان متواكل، يُطلب منه مجرد الإيمان بالمسيحية للدخول في ملكوت السماء، كيف؟ لأن الله قد ضحى بابنه البريء من أجل تحرير كل عصاة البشرية، الذين حبسهم الشيطان! ولم يكن أمام الرب إلا هذه الخدعة ليحرر عياله العصاة، وفي هذا يقول نيتشه: "كيف أمكن لله أن يسمح

[23] فكرة كتاب لانغه الرئيسة هي أن وجود الإله أو عدم وجوده مسألة لا يمكن للعقل البشري البت بها، لأن وسائله المعرفيّة في الوصول إلى الألوهية غير كافيّة! قد يكون ثمّة إله وقد لا يكون! لكن الأدوات البشريّة للتواصل معه، إذا استثنينا الخيال، قاصرة. من هنا، فالحكم المطلق في قضايا الماوراء ليس أقل من خطأ مطلق. وسيرى القارئ الكريم، بإذن الله من خلال هذا الكتاب، كم كانت الزاوية التي نظر منها لانغه ونيتشه محدودة، بل ومقلوبة.

بذلك؟" ولأجل هذا التساؤل وجد العقل المضطرب المشوش للجماعة الصغيرة جوابا منافيا للعقل بشكل مرعب: لقد وهب الله ابنه لمغفرة الخطايا، كأضحية استغفار. آه كيف بضربة واحدة، وبأية طريقة، يُنتهى من الإنجيل؟ الذبيحة التكفيرية في شكلها الأكثر إثارة للإشمئزاز، الأكثر بربرية، التضحية بالبريء لغفران خطايا المذنبين. أية وثنية هائلة!!"[24] اهـ

2- الأخلاق المسيحية أخلاق عبيد لا أخلاق سادة.

انتقد نيتشه كذلك منظومة الأخلاق المسيحية، حيث رأى فيها منظومة لا تُخرج إلا جماعة من الخانعين المستسلمين المعرضين عن الدنيا، وفي هذا يقول:"لقد أراد المصلحون على مر العصور أن يصلحوا الناس، أن يصيّروهم (أفضل)، هذا ما كان يسمى أخلاقا قبل أي شيء آخر. لكن نفس اللفظ يشمل أشد الميول تنوعا. لقد سمي "ترويض" الحيوان الإنساني، و"تدجين" نوعا من الناس تحسينا! (...) القول أن ترويض حيوان ما هو "جعله أفضل" يكون له في آذاننا وقع الهزء، الذي يعرف ما يحدث في الحظائر يشك في كون الحيوان الأعجم يصير فيها "أفضل". إنهم يوهنونه يصيرونه أقل خطرا. (...) ولا يختلف الأمر عن ذلك بالنسبة للإنسان "المدجن" الذي أصلحه القس"[25]

ولأن المسيحية دين يدعو صراحة إلى الإعراض عن الدنيا، صنفه نيتشه من الأديان العدمية التي تهدم ولا تبني وتلجم ولا تحرك، وجعلها في ذلك مثل البوذية، إلا أنه استدرك فجعل البوذية أفضل منها مائة مرة! وفي هذا يقول: "لست أريد بحكمي ضد المسيحية أن ارتكب إجحافا ضد دين قريب منها، ويتفوق عليها بالعدد الأكبر من الرهبان، أعني البوذية. كلاهما -كدينين ينتميان إلى العدمية- دينا الانحطاط. لكنهما يختلفان فيما بينهما بالطريقة الأكثر تمايزا. إما حدث اليوم إمكان مقارنتها، فإن نقد

---

[24] فريدريش نيتشه، عدو المسيح، تعريب: جورج ميخائيل ديب، ص.114،115.

[25] فريدريش نيتشه، أفول الأصنام، تعريب: حسن بورقيبة، محمد الناجي. ص. 58،59.

المسيحية يدين بالفضل العميق، للحكماء الهنديين. البوذية مئة مرة أفضل من المسيحية. إنها تحمل داخل كيانها ميراث عرض المشكلات بطريقة موضوعية وباردة، والمتأتى إثر قرون من حركة فلسفية. "[26] اهـ

وعلى الرغم من أن البوذية أكثر سلبية وإعراضا عن العالم من المسيحية، إلا أن نيتشه قيمها هذا التقييم بسبب المنظور العام لها وللمسيحية، فالمسيحية تقوم على الصراع ضد الخطيئة، أما البوذية فصراع ضد المعاناة، والصراع ضد الخطيئة فعل سلبي، أما الصراع ضد المعاناة ففيه الكثير من الإيجابية! لهذا قال نيتشه: "إن المرء يحسن صنعا إما وضع القفازات عند قراءة العهد الجديد، إذ أن الدنو من هكذا وساخة يكاد يضطرنا إلى هذا (...) عبثا فتشت في العهد الجديد، علّي أجد ولو فقط قسمة ظريفة: فما به من شيء حر، أريحي، كريم، ظريف."[27] اهـ

وبداهة فإن نيتشه يبالغ في قوله هذا، ولكن هذا هو القول الطبيعي والمنتظر، والصادر عن فيلسوف القوة، الثائر على كل الموروث الخنع.

3- نقد أصل فكرة النظام الأخلاقي في المسيحية.

انتقد نيتشه النظام الكهنوتي الموجود في المسيحية، ورأى فيه تحكما من بعض الأفراد الذين لا يمتكلون أية مقومات خاصة في أقدار وتقييم عامة البشرية، وتبعا لأهواء هؤلاء يكون الإنسان صالحا. وفي هذا يقول: "ماذا يعني النظام الأخلاقي للعالم؟ يعني أنه —من بدء الأمر– يوجد إرادة إلهية تعين ما الذي يجب أن يفعله الإنسان وما لا يجب أن يفعله، وأن قيمة شعب أو شخص تقاس في كثير أو قليل بمقدار ما تطاع الإرادة الإلهية، وأن في مصير شعب أو شخص تظهر الإرادة الإلهية كمُحاكم، أي كمعاقب ومجازي، وبحسب درجة الطاعة. الواقع الكامن وراء هذه الكذبة المؤسفة يعني: ضربا من البشر المتطفلين يفلح وحده في تقييم كل الأشياء المقدسة للحياة.

[26] فريدريش نيتشه، عدو المسيح، تعريب: جورج ميخائيل ديب، ص. 59، 60.

[27] المرجع السابق، ص. 131.

الكاهن يسيئ استعمال اسم الله ويدنسه: يدعو "مملكة الله" حالة الأشياء حيث يقرر هو قيمتها، و "إرادة الله" تلك الوسائل التي بها يحصل ويحتفظ بتلك الحالة. وبكلبية ذات دم بارد يحكم على الشعوب والأزمان والأشخاص بمقياس مساعدتها أو عرقلتها للسيادة الكهنوتية."[28] اهـ

وقد يبدو للناظر من أول وهلة أن نيتشه يعترض على مبدأ ارتباط الأخلاق بالله عزوجل، ولكنه يوضح بعد ذلك –بما لا يدع مجالا للشك– أن اعتراضه هو على طبقة الكهنوت الناطقة باسم الرب العلي[29] والتي تحدد الصالح من الطالح، والذين يستخدمون الدين من أجل مصالحهم. وعلى الرغم من أن نيتشه أعلن أن الإله قد مات وكذلك دعى إلى هدم كل القيم والمسلمات والبناء من جديد، ولكن هذا لا يعني بحال أن كل ما سيأتي به جديد وأنه سيترك القديم تماما، فهذا محال، فلا بد من الأخذ ببعض ما جاء به هذا الدين أو ذاك وذلك المفكر أو الفيلسوف، ثم التوفيق بين بعض الآراء وتعديل أخرى والإتيان بجديد تختلف نسبته من فرد لآخر، أما أن يهدم كل القديم فهذا ما لا ولن يكون بأي حال!

4– احتكار المسيحية للفكر ومنعها باقي الثقافات.

انتقد نيتشه السيطرة الشاملة التي فرضتها المسيحية على العقل الأوروبي، حتى أنه ما عاد يستطيع أن يرى العالم إلا من خلال المنظور المسيحي –المنحط العدمي اللامنطقي–، وهذا منع الإنسان الأوروبي من خير كثير، وفي هذا يقول: "لقد حرمتنا المسيحية من مجاني الحضارة القديمة، وفيما بعد حرمتنا من ثمار حضارة الإسلام. العالم الغرائبي لحضارة العرب في أسبانيا، والذي هو في الأساس أكثر قربا إلينا من روما واليونان، والذي يتناسب أكثر مع شعورنا وذوقنا، قد غُمر –ولست أقول بأية

---

[28] المرجع السابق، ص. 78، 77.

[29] سيرى القارئ الكريم عبر الكتاب أن الإسلام لا يحتوي بأي حال تلك الطبقة المقيتة المسماة "الكهنوت"، وأن كل إنسان ملزم بالأخذ بنفسه من كتاب الله عزوجل، عارضا كل ما يأتي به الكتاب على عقله وواقعه مقارنا له به ومقيما له "قرآنة القرآن"! وأن النظام الأخلاقي الإسلامي –مثله مثل الدين كله– نظام يعتمد أول ما يعتمد على تطابقه مع العقل ثم ضرورته للمجتمع.

أقدام– لماذا؟ لأنه صدر، لأنه دان في مولده لغرائز أرستقراطية، لغرائز رجالية، لأنه أكد الحياة بما فيه من الغني النادر والمهذب للحياة الأندلسية."[30] اهـ

ونلاحظ أن نيتشه تأثر بالإسلام تأثرا كبيرا –على الرغم من أن قراءاته عنه كانت قراءات سطحية– وأُعجب به كثيرا ومدحه ورأى فيه أخلاقا رجولية أرستقراطية متوافقة مع ما كان يدعو إلى إيجاده في سوبرمانه، ويظهر ذلك في نقاط عدة، من أهمها أن مبتدأ دعوة زرادشت كانت في الأربعين من عمره، مثل نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام، وسبقت هذه الفترة فترة من العزلة –عشر سنوات– قضاها زرادشت للتأمل في الجبال، وهذا مشابه لتحنث الرسول الكريم واعتزاله قومه لفترة كل عام.

وانتقد نيتشه المسيحية في نقاط أخرى كثيرة، وتوزع النقد في عديد من كتبه، أهمها "ضد المسيح" والحق يقال أنه كان ضد المسيحية الحالية وليس ضد المسيح. وبعد أن أطال نيتشه النفس في نقد ونقض المسيحية أصدر حكمه على كتبها الرئيسة فقال "يجب أن تقرأ الأناجيل ككتب للإغواء عبر الأخلاق، والأخلاق تبقى محجوزة من قبل هؤلاء الناس الصغار."[31] اهـ

وفي نهاية كتابه "ضد المسيح" يقول: "بهذا أكون قد وصلت إلى النهاية فأعبر عن حكمي. أنا أدين المسيحية وأرفع ضد الكنيسة المسيحية الاتهامات الأكثر ترويعا التي قيض لمتهم أبدا أن يحملها في فمه. إنها عندي الفساد الأكبر بين كل ما يمكن تخيله من فساد، إنها قد ملكت إرادة الوصول إلى الغاية الأخيرة الممكنة من الفساد. الكنيسة المسيحية لم تدع شيئا بدون أن تلمسه بفسادها. كل قيمة حولتها إلى لا قيمة، وكل حقيقة إلى كذب، وكل أمر مشرّف إلى حطة للروح. أفيتجاسر أحد مع ذلك

---

[30] المرجع السابق، ص. 179، 180.

[31] المرجع السابق، ص. 125.

ويكلمني عن بركاتها "الإنسانية"؟ تجاوز أي بؤس هو أمر مضاد لمصلحتها الأبعد غورا: لقد عاشت على حالة الحاجة والبؤس، وخلقت البؤس لتكون مؤبدة ... "[32] اهـ

نيتشه والحداثة

كما تحرك نيتشه من أجل هدم الوثن القديم، تحرك كذلك من أجل وأد الوثن الحديث في مهده، ذلك الصنم الهائل المسمى الحداثة. فانتقد نيتشه الأخلاق والمبادئ التي بدأت في الانتشار والهيمنة في أوروبا، ورأى فيها خللا كبير يؤدي بالإنسان إلى التراجع والانتكاس، فهذه الأخلاق لا تصلح أن تكون صفاتا أرستقراطية.

ومن أهم ما انتقده نيتشه على التوجهات الأوروبية الحديثة تلك الدعاوى المبالغ فيها للنعومة وللهروب من الألم، ويرى أن هذه الدعاوى ستؤدي لا محالة إلى إنتاج مجتمعات من الضعفاء العالة على غيرهم، وأن هذه المجتمعات لا يمكن أن يكون لها بحال الصدارة في الصراع مع المجتمعات الأخرى، وفي هذا يقول: "يوجد اليوم في معظم أنحاء أوروبا حساسية مفرطة وانفعالية مرضية إزاء الألم، وكذلك إقبال منفر على التأفف وتراخ يتزين بالدين والسقط الفلسفي من أجل التظاهر بالسمو، بل يوجد ما يشبه طقسا للألم. لكن لا رجولة ما يعمد في أوساط أولئك الغلاة باسم التراحم، بادية للعيان وللوهلة الأولى، على ما أظن"[33] اهـ

وكما انتقد نيتشه الدعاوى الحديثة للتحضر –أو للتحسين!– ورأى أنها مرافقة دوما للإضعاف، –وهو الداعي بجنون إلى إرادة القوة– انتقد كذلك إبعاد المرأة عن دورها الرئيس (إنجاب الأولاد)، ورأى في هذا مخالفة للطبيعة، فليس هذا هو دور المرأة ولا هذه إمكانياتها[34]، ويرى أن الحالات الشاذة التي خرجت فيها المرأة واحتكت

[32] المرجع السابق، ص. 185.

[33] فريدريش نيتشه، ما وراء الخير والشر تباشير فلسفة للمستقبل تعريب جيزلا فالور حجار، مراجعة موسى وهبة، ص. 277.

[34] سنعرض لرأي نيتشه حول المرأة عند الحديث عن دور المرأة في إعداد السوبرمان.

وفلحت هي حالات شاذة لا ترجع إلى طبيعة نسوية عادية وإنما ترجع إلى قوة إرادة خاصة، وفي هذا يقول: "وكأن التاريخ لم يعلّم، بأكبر قدر ممكن من الإلحاح أن "تحضر" الإنسان وضعفه، أي إضعاف قوة إرادته وتشتيتها وتوهينها، سارا دائما اليد باليد، وأن أكثر النساء سلطة ونفوذا في العالم (ووالدة نابليون هي المثال الأخير) لا يُدن بسلطتهن وتفوقهن على الرجال للمدرسين، بل لقوة إرادتهن بالذات."[35] اهـ

كما انتقد نيتشه العبثية الذكورية بالنساء، وكيف أن التفكير في الجنس قد سيطر على عقول كثير من رجال المجتمع الحديث، حتى أنه صار شغلهم الشاغل، –وذلك لتحرر المرأة–، وصاروا يتلونون من أجل ذلك أيما تلون، ونسوا واجباتهم الأخرى، وفي هذا يقول: "أحب الغاب، فما تسهل حياة المدن عليّ وقد كثر فيها عبيد الشهوات الثائرات. لخير للرجل أن يقع بين براثن سفاح من أن تحدق به أشواق امرأة جامحة ملتهبة. إنك إذا ما تفرست في رجال المدن، لتشهد لك نظراتهم بأنهم لا يرون في الأرض شيئا يفضل مضاجعة امرأة. في أغوار أرواحهم ترسب الأقذار، وأشقاهم من تمرغ عقله بأقذاره ... ليتك حيوان اكتملت حيوانيته على الأقل، ولكن أين منك طهارة الحيوان؟ ما أنا بالمشير عليك بقتل حواسك، إن ما أوجبه إنما هو طهارة هذه الحواس. ما أنا بالمشير عليك بالعفة، لأنها إذا كانت فضيلة في البعض فإنها لتكاد تكون رذيلة في الآخرين."[36] اهـ

وإذا كان هذا رأي نيتشه في مجتمعه في نهايات القرن التاسع عشر، فلست أدري صراحة كيف كانت ستصبح ردة فعل نيتشه إذا أتى في أيامنا هذه ورأى العهر والعري قد بسطا أفخاذهما على العالم كله، فما من مكان إلا وصله العري!

---

[35] المرجع السابق، ص. 209.

[36] فريدريش نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تعريب: فليكس فارس. ص. 44.

ومن غير العجيب أن نيتشه نفسه كان واحدا من هؤلاء الرجال، فلقد كان يتردد بانتظام على أحد بيوت الدعارة حتى أنه أصيب بالزهري!

وانتقد نيتشه كذلك مبدأ الديمقراطية لأنه قائم على المساواة بين الناس، وهذا ما لا يكون في الطبيعة، وفيه سيطرة للغوغاء والذين يمكن للمرء توجيههم وإضلالهم بسهولة حيث يريد، كما أن هذا قضاء على الفوارق الطبيعية في المجتمع وإلغاء لظواهر التفوق.

ونيتشه في توجهه هذا يخالف التوجه العام الموجود في أوروبا آنذاك، ويعلق الدكتور زكريا إبراهيم على ذلك الصراع الدائر في أوروبا بين المفكرين، في التوجه بالإنسان بين التيارات الفكرية المختلفة فيقول: "وهنا تعلو صيحات الفرديين فينادي ماكس شترنر بعبادة الأنا أو الذات، بينما يعلنها نيتشه حربا شعواء لا هوادة فيها ولا رحمة على كل تلك النزعات الاجتماعية التي تشيع في الإنسان روح الضعف والخور والانحلال.

وهكذا يشهد العصر الحديث أعنف نضال بين أنصار الديمقراطية الشعبية التي تدعو إلى المساواة بين الجميع والعمل على محو شتى مظاهر الخلاف بين الأفراد، وبين أنصار الأرستقراطية الفردية التي تضع في مقابل "الرجل العادي" المساوي لغيره من الناس، الرجل الكامل أو الإنسان الأعلى **Übermensch** (على حد تعبير نيتشه).

والرجل العادي الذي يحمل عليه نيتشه، إنما هو ذلك الإنسان الاجتماعي الذي ينساق وراء القطيع، على طريقة خراف بانوراج. أما ذلك الذي ينطوي على نفسه، ويفزع إلى الوحدة كالنجم الغارق في السكون، فهو وحده في نظر نيتشه الرجل القوي المبدع"[37] اهـ

وسيرى القارئ، من خلال تناولنا لسوبرمان القرآن، كيف أن نيتشه أصاب كبد الحقيقة في نقده لمسألة خراف القطيع الموجود في المجتمع. كما انتقد نيتشه الحداثة في

[37] زكريا إبراهيم، مشكلة الإنسان، ص. 164.

وتتلخص قصة خراف بانوراج هذه في حدوث صراع بين تاجرين فأراد أحدهما أن ينتقم من الآخر فابتاع خروفا وأطلقه في الماء، وسرعان ما ألقت باقي الخراف نفسها وراءه، ولما أبصر التاجر ذلك حاول أن ينقذ الخروف الأخير، فلم يستطع وقفز الخروف في الماء فقفز التاجر خلفه!

بعض مواطن أخرى، لن نعرض لها، وصال وجال في نقده، انطلاقا من مبدأه الهادم لكل شيء. إلا أنه هذا لا يعني أن نيتشه كان شاكا في كل شيء رافضا له إلا بعد فحصه والتثبت منه، فلقد تقبل نيتشه نظرية دارون والتي لم تكن أكثر من بعض الملاحظات العلمية، والتي لا يمكن أن يبنى على مثلها نظرية علمية متينة. وعلى الرغم من ذلك تقبلها نيتشه نظرية النشوء والارتقاء لدارون بقبول حسن، وأدخلها في أفكاره تلميحا أحيانا وصراحة أحيانا أُخَر، وظهرت في كتابه "هكذا تكلم زرادشت" صراحة فقال: "إن كلا من الكائنات أوجد من نفسه شيئا يفوقه، وأنتم تريدون أن تكونوا جزرا تصد الموجة الكبرى في مدها، بل إنكم تؤثرون التقهقر إلى حالة الحيوان بدل الاندفاع للتفوق على الإنسان. وهل القرد من الإنسان إلا سخريته وعاره؟ لقد اتجهتم على طريق مبدؤها الدودة ومنتهاها الإنسان، غير أنكم أبقيتم على جل ما تتصف به ديدان الأرض. لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى، على أن الإنسان لم يفتأ حتى اليوم أعرق من القرود في قرديته."[38] اهـ

وكان لنيتشه العديد من أوجه النقد لمجتمعه المتقلب، ولكنها كانت كلها تدور في فلك هاتين النقطتين المذكورتين. ووجهات نظر نيتشه هذه إما سنعرض عنها لأنها لا تناسب فكرة كتابنا وإما سنذكرها عند عرض خطوات البرنامج القرآني في إنشاء السوبرمان الواقعي.

ونرجو أن نكون قد قدمنا للقارئ بهذه المقتطفات السريعة تصورا عاما عن نيتشه وحياته وواقعه وملخص أفكاره. وأنا أعلم علم اليقين أن أي عرض مختصر لأي فكر كائنا ما كان، عظيما كان أو حقيرا، عميقا كان أو سطحيا هو لا محالة عرض مخل، لا يوفي المعروض حقه. ولكنا نرى أن هذا العرض المخل لنيتشه ولعصره ولأفكاره كاف لتقديم تصور عام للقارئ الذي يجهل من هو نيتشه، أما القارئ المتعمق فهو حتما ولزاما قد خبر نيتشه قبل أن أقدمه له، وما ذُكر في هذا الكتاب ليس أكثر من تذكير. وبعد هذا العرض السريع نبدأ في عرض ومناقشة فكرة السوبرمان في القرآن.

[38] المرجع السابق، ص.6.

الباب الثاني

بين سوبرمان الوهم وسوبرمان القرآن

الفصل الأول: سوبرمان الوهم

سيطرت فكرة الإنسان الخارق على مخيلة الإنسان في جميع عصوره، ولا تزال تسيطر بنفس الطريقة السادجة السطحية في أيامنا هذه. واختلفت معالجة كل جماعة لهذه الفكرة، فرأيناها تظهر في تراث كل الجماعات البشرية بأشكال مختلفة، تتناسب مع البيئة التي يظهر فيها فكرة الإنسان الخارق (السوبرمان)، وإن اتفق الإطار العام لهذه التصورات، فكلها تدور في فلك خرق الطبيعة. أي أن هذا الإنسان السوبر لم يصل إلى هذه المقدرة بالتريض والمجاهدة، وإنما وصل إليها عن طريق الحظ أو الوراثة، فهو إما مولود بهذه القوة لأنه إله أو ابن إله! أو لأنه تعرض في موقف ما –بالصدفة المحضة– إلى ما أدى به إلى اكتساب هذه القدرة، فهو إما تعامل مع الجن أو المخلوقات غير البشرية، والتي أعطته هذه القوة، أو أنه تعرض لقوى سحرية غامضة أعطته هذه القوة!

ولا تزال هذه الترهات موجودة بكثافة على ساحتنا البشرية المعاصرة، وسنعرض لك عزيزي القارئ نماذج من تخيل البشرية للإنسان الخارق على مر العصور وفي مختلف البيئات حتى نصل إلى عصرنا الحالي، لتعلم علم اليقين أن البشرية لا تزال حتى الآن ذلك الإنسان البدائي، الذي لا يزال يريد أن يشغر فاهه مشدوها ولا يريد أن يُعمل عقله ليفهم، الذي يريد تلك اللذة العجيبة التي تسري في أوصاله عند رؤيته للعجائب والآيات!

والتي هي خليط من الرهبة والدهشة والخوف والقلق، ومن أجل هذه الحماقات أضاع عقله! وستلاحظ كذلك عزيزي القارئ يأس أجدادنا من حدوث أي إنقاذ للبشرية عن طريق إنسان عادي، بل لا بد أن يتمتع هذا الإنسان بما يختلف به عن باقي البشر، حتى يستطيع مزودا بهذه الإمكانيات الخارقة من الإنقاذ.

وسنعرج على مسألة توارث الشعور بالضعف والدونية عند البشرية والبهجة الشديدة عند ظهور أي منقذ خارق يحررها وينقذها، وسنوضح أن هذا الشعور يرجع إلى وجود موروثات قديمة، مغروسة في داخلنا كلنا تجعلنا نُسر كثيرا بهذه الخوارق.

أشهر أساطير الأبطال

ونبدأ الآن بتقديم أشهر الأساطير المتعلقة بالأبطال الخارقين، وسنختصر في تقديمنا، ونكتفي بعرض نماذج قليلة لكي نضع الفكرة التي نريد توصيلها إلى القارئ في إطارها الصحيح:

1- هرقل:

أشهر شخصية أسطورية على مر العصور، حتى أنه صار مضرب المثل في الشجاعة والقوة، فكيف اكتسب هرقل هذه القوة وهذه الشجاعة؟

تخبرنا الأسطورة أن هذا البطل القوي نصف إله، أبوه زيوس وأمه الكميني من البشر، ولكن بسبب غيرة امرأة الأب "هيرا" يتعرض لصعاب شديدة متوالية، حتى أنه يضطر إلى أن يخضع للسلطان (يوريسيثوس) ملك أرجوس، وأن يمتثل لكل ما يكلفه من أعمال، و هنا تهب بقية آلهة الأولمب! لكي تساعد هرقل وتمد له يد العون؛ فتمنحه الربة "أثينا" خوذة لرأسه، و يمنحه "هرمز" سيفا حادا، و يمنحه "أبوللو" سهما وقوسا، ويمنحه "بوسيدون" جوادا، ويهبه "هيفايستوس" حذاء من نحاس، وحتى زيوس نفسه يهبه درعا قوية رائعة. وينطلق هرقل في مغامراته المتوالية مسلحا ومحصنا بنسبه الإلهي وبهذه الأسلحة الحامية الفتاكة.

وكما رأينا فليس لهرقل أي مزية في ما كان عليه وفيما صار إليه، وإنما كلها منح وهبات من الآلهة!

2- أخيل:

وتتشابه شخصية أخيل مع شخصية هرقل، فلقد كان أخيل ابنا لـ"بيلوس"، ملك ميرميدون، ولكن أمه "ثيتس" هذه المرة هي غير البشرية، فلقد كانت من الحوريات. وحسب الكتابات الإغريقية القديمة، وحتى يصبح من غير الهالكين، قامت أمه بغمره في مياه نهر سيتكس، إلا أنها وحين غمرته كانت ممسكة بعقبه من الوتر، فكان هذا هو المكان الوحيد في جسده الذي لم يغمره الماء، وأصبح ذلك نقطة ضعفه. ويتنبأ أحد العرافين للملك وزوجته أن ابنهما سيقتل في معركة طروادة. ويحاول بيلوس وزوجته أن يخفيا أخيل، فيلبساه ثياب الفتيات، ثم يرسلاه إلى لوكوميدس، ملك جزيرة سيكاروس، ليعيش معه في قصره كإحدى بناته!

وتنشب الحرب بين أهل طروادة والإغريق، ويفشل الإغريق بادئ الأمر في أخذ المدينة، وعندما يعرفون أن أخيل هو الذي سيحقق لهم النصر حسب نبوءة أحد الكهنة، يبحثون عنه حتى يجدونه، وينضم إلى جيش الإغريق، ويستطيع أخيل أن يحقق انتصارات باهرة لجيش أجامنون طوال تسع سنوات من الحروب الضروس! ولزاما إغريقيا أن تتحقق نبؤة العراف، فيقُتل أخيل عن طريق سهم يطلق فيصيب وتره، ثم يُجهَز عليه بعد ذلك. إذا فهذا ال "أخيل" أيضا، يتمتع بأصل فوق بشري، كما أنه غُمس في مياه نهر تُكسب المناعة، وهذا ما جعله متميزا.

فإذا نحن تركنا الأساطير اليونانية واتجهنا شرقا إلى بلادنا الحبيبة، فإننا سنقابَل بالملحمة الأسطورية الشهيرة: ملحمة جلجامش. فما هي قصة جلجامش؟

3- ملحمة جلجامش:

تبدأ الملحمة بالحديث عن جلجامش ملك أورك الذي كان والده بشرا فانيا ووالدته إلهة خالدة، وبسبب الجزء الفاني من دمه يبدأ بإدراك حقيقة أنه لن يكون خالدا. وفي الملحمة نرى أن جلجامش لم يكن ملكا محبوبا من قبل سكان أورك، حيث كانت له

عادة سيئة وهي ممارسة الجنس مع كل عروس جديدة في ليلة زفافها قبل أن يدخل بها رجلها، كما كان يجبر الناس على بناء سور ضخم حول أورك. فقام الناس بدعاء الآلهة أن يجدوا لهم مخرجا من ظلم جلجامش، فاستجابت الآلهة! وقامت إحدى الإلهات واسمها أرورو بخلق رجل وحشي، اسمه إنكيدو، يغطي الشعر الكثيف جسده ويعيش في البرية، يأكل الأعشاب ويشرب الماء مع الحيوانات!

أي أنه كان على النقيض تماما من شخصية جلجامش. ويتقابل جلجامش مع إنكيدو ويتعاركان وينتصر جلجامش على إنكيدو بصعوبة بالغة فيتصاحبان، ويقومان معا بعدد من الأعمال العظيمة، وفي إحدى هذه المغامرات يُقتل إنكيدو، فيحزن جلجامش عليه حزنا شديدا وينطلق في رحلة طويلة مليئة بالصعاب من أجل الوصول إلى سر الخلود وهكذا تستمر الأسطورة إلى أن يفشل جلجامش في العثور على سر الخلود وسبيله[39].

والشاهد في الأسطورة هو أن سر تميز جلجامش هو أصله الإلهي.

والملاحظ أن التاريخ العربي القديم يكاد يخلو تقريبا من الأساطير ذات الأبطال الخارقين بهذا الشكل إلا ما يروى عن سيف بن ذي يزن، والتي اختلط فيها التاريخ بالأسطورة، حيث يولد من أم جنّية! ويلعب الدين دورا رئيسا فيها، حتى أنه يصير من الموحدين قبل الإسلام! غير أنه ذكر في تاريخنا الإسلامي بعض هذه الشخصيات والتي ماثلت أو فاقت الشخصيات الأسطورية في التاريخ الإغريقي، وسيرى القارئ في هذا الكتاب كيف ارتبطت هذه الشخصيات بالسوبرمان الأعظم وكيف كانت تصورا بشريا منحطا مبالغا فيه، أضاعت الصورة الحقيقية للسوبرمان الأعظم!

وهناك الكثير والكثير من الشخصيات الخارقة في التاريخ القديم الموغل في القدم، والتاريخ الحديث، ولكن هؤلاء الخارقين لا يكونون دوما أخيارا أو أنصاف أخيار، بل

[39] في القصة ترميز جيد لبحث الإنسان الأزلي عن الخلود والكمال، وإخفاقه في الوصول إليهما: فعلى الرغم من تمتع جلجامش بعديد من المزايا، إلا أنه أبصر نقطة ضعفه، ولم ترض نفسه بها، فسعى للقضاء عليها. وهذا ما على الإنسان فعله، القضاء على نقاط الضعف، لا السعي للخلود، فليست دنيانا عالم الخلود!

قد يوجد بينهم من قد يمثل الشر والشر الخالص، ومن أشهر هذه الشخصيات الخارقة في التاريخ القديم والحديث: الرجل الذئب ومصاص الدماء.

4- الرجل الذئب:

تعد أسطورة المستذئب من أقدم وأشهر الأساطير في تاريخ البشرية. و يمكن للمرء أن يجد قصصاً عن المذؤوبين في التاريخ القديم وعن المخلوقات المتحولة في بلدان كثيرة مثل: الصين، رومانيا، آيسلاندا والبرازيل. وتختلف مسميات هذا الكائن تبعا للبلد الذي يظهر فيه، فيعرف في الولايات المتحدة والعالم عموماً يسمى بـ werewolf وفي بريطانيا وبعض الدول الأوروبية يسمى ب Lycane أما في اللغة العربية يسمى بالمذؤوب أو المستذئب. وهذه التسميات كلها تتكلم عن شخص يتحول في ضوء القمر الى ذئب في حجم إنسان.

إنه ذلك الشخص الذي يتحول في ليلة يكتمل فيها ضوء القمر إلى ذئب في حجم الإنسان، فيعيث في الأرض فسادا ليلة كاملة إلى أن يغيب القمر أو يطلع الفجر، ويستمر مسلسل الرعب في كل ثلاث ليال يكتمل فيها ضوء القمر. وفي الصباح يعود لطبيعته و يكون من العسير معرفة شخصيته.

وقد عرفت جميع الشعوب القديمة هذه الأسطورة، وفي المناطق التي لا تعيش فيها ذئاب يتخذ الرجل الذئب أشكال حيوانات أخرى مفترسة، وهكذا نجد الرجل النمر والرجل التمساح والرجل الدب. وفي بلاد اليونان يُعتقد أن الرجل الذئب يصبح مصاصاً للدماء بعد موته ودفنه! وتختلف الأساطير في إيراد أسباب هذا التحول، إلا أنها ترجع في الغالب إلى خطيئة يرتكبها الإنسان فتغضب عليه الآلهة فتعاقبه بهذا العقاب.[40]

[40] في هذه القصص رمزية صحيحة لحال الإنسان عند ارتكاب الخطيئة، فإنه ينتكس بها إلى الحالة الحيوانية أو يرتقي سلباً! إلى الجارحية، وكل ما قامت به الأساطير أنها جسدت هذا المعنى، فجعلت الإنسان يتحول حقيقة إلى حيوان أو جارحة!

5- مصاص الدماء:

يعتبر مصاص الدماء من الأشخاص الخارقين الأشرار حديثي الابتداع، فلقد ابتدع هذه الشخصية الكاتب الأيرلندي "برام ستوكر" في رواية له أسماها: "دراكولا"، والتي نشرتها دار كونستابل بلندن لأول مرة في عام **1897**، إلا أن هذه الشخصية ذات أصول تاريخية قديمة بعض الشيء، استغلها الكاتب في اختراع هذه الشخصية؛ ف "دراكول" كلمة رومانية تعني "الشيطان"، وكان هذا هو اللقب الذي أطلقه سكان رومانيا على أمير حكم ولاية ترانسلفانيا، والتي تقع بين جبال الألب ونهر الدانوب، قبل خمسة قرون، وكان اسم هذا الحاكم " فلادتيبتس" والذي اشتهر باسم "فلاد السفاح"، لأنه تسبب في قتل مئات الآلاف من رعاياه.

وتشير الوثائق التاريخية إلى انتشار مرض للدم بهذه المنطقة كان يترك الناس ضعاف البنية باهتي اللون، وكان الأطباء حينذاك يعالجون ضحايا المرض بجعلهم يشربون دماء الحيوانات. ولقد ساهم هذا التاريخ الدموي لفلاد الواشي في تشكيل أسطورة مصاص الدماء.

ونكتفي عزيزي القارئ بهذا القدر من الشخصيات الأسطورية القديمة والحديثة إلى حد ما، وننتقل بك الآن إلى سوبرمانات العصر الحديث الخيرة، والتي تعمل على محاربة الشر في كل مكان وتسعى إلى القضاء عليه، لتبصر كيف تخيل العقل الغربي الحديث الإنسان الخارق، وكيف ينقذ هذا السوبرمان البشرية!

السوبرمانات الحديثة

إذا كنا نتحدث عن شخصية الإنسان الخارق في العصر الحديث، فمن المنطقي أن نبدأ حديثنا بتلك الشخصية التي حملت ذلك الاسم صراحة "سوبرمان"، فمن هو هذا السوبرمان ومتى ظهر لأول مرة، وما هي قدراته الخارقة؟

1- سوبرمان:

أول ما نلاحظه في سيرة ذلك المنقذ الكبير أنه ليس من كوكب الأرض! أي أنه ليس إنسانا! وإن تشابه في المظهر الخارجي مع البشر. -وهذا ما لابد منه!-ظهرت هذه الشخصية لأول مرة في عام 1938 في مجلة من المجلات المصورة على يد الكاتبين الأمريكيين: جيري سيجل وجو شاستر. ونلخص قصة سوبرمان في السطور القليلة القادمة: ولد سوبرمان على كوكب كريبتون باسم (كال- إل)، وجاءت ولادته قبل ثلاثة أعوام من انهيار الكوكب وفنائه، حيث يضعه والده العالم جور-إل في صاروخ ويوجهه إلى كوكب الأرض، ويطلقه قبل دمار كوكب كريبتون بثوان قليلة. وكان والد سوبرمان قد تنبأ بأن كوكب كريبتون على وشك الإنفجار، على أن أحداً من مواطنيه لم يصدقه، ولذا عمد جور إلى إنقاذ ابنه وزوجته لارا، لكنها رفضت أن تترك زوجها وآثرت البقاء معه.

وكان سبب اختيار كوكب الأرض هو ضعف جاذبيتها الأرضية مقارنة بتلك الموجودة على كوكب كريبتون، وبسبب الشمس الصفراء التي تضيء نهار الأرض. ويهبط سوبرمان الصغير على كوكب الأرض، وتحديداً في مدينة سمول فيل، حيث يعثر عليه ويتبناه جوناثان كنت وزوجته مارثا، وهما زوجان كبيرا السن ليس لهما أولاد، فيتبنيا الطفل ويعاملاه كأنه ابنهما ويسمياه كلارك. ويكتشف سوبرمان الصغير أثناء نموه قدراته الخارقة التي تفوق مثيلاتها لدى البشر.

وبعد أن ينهي سوبرمان دراسته يعمل كصحافي. وعندما تحين ساعة الجد ينخلع سوبرمان من ثيابه، ويظهر بذلك الثوب الأزرق الشهير، المشدود على جسده والذي يظهر عضلاته المفتولة، ويحارب الأشرار ويساعد على نصرة الخير. ولسوبرمان هذا قوة هائلة تفوق كل بني البشر، فهو يستطيع أن يطير في الهواء بسرعة جبارة، ويعدو على الأرض بسرعة هائلة، كما يطلق أشعة الليزر من عينيه، كما يستطيع أن يرى عبر

الجدران السميكة. وتتعدد المخاطر والأعداء التي يقابلها سوبرمان ولكنه يستطيع التغلب عليها كلها بفضل قواه الخارقة.

فكما رأينا فإن كل ما تميز به سوبرمان هو تلك القوى الخارقة، التي اكتسبها من حياته على سطح كوكب الأرض، وبعدها انطلق سوبرمان يحارب الأشرار ويساعد الأخيار والضعفاء، وصراحة لست أدري لم فعل سوبرمان هذا؟ هل القوة هي السبب؟ الواقع يخبرنا أن القوة تؤدي بالإنسان في الغالب إلى الطغيان والتجبر، ولكن –ولله الحمد– كان سوبرمان وكل الشخصيات المماثلة من الحالات الاستثنائية، ولست أدري صراحة كيف سيكون وجه العالم لو كان هؤلاء من الأشرار، كما هي القاعدة وكما هو منتظر؟!

2– باتمان:

ولدت شخصية «الرجل الوطواط» في عام 1939 على يد الكاتب الأمريكي بوب كين، في إحدى المجلات المصورة. –وكما نلاحظ فإنه أصغر من سوبرمان بعام واحد فقط!– وباتمان كالعادة شخصية مزدوجة، تظهر في الواقع باسم بروس وين، رجل الأعمال الثري الخير الشهير.. الهادئ، ولكنه في الخفاء شخصية مختلفة تماما. وكالعادة يستخدم باتمان قواته الخارقة في تصفية الفساد ومجابهة الأشرار، ولكن السبب موجود هذه المرة، فمحاربته للأشرار هي من باب الانتقام الشخصي والثأر لمقتل والديه على يد الأشرار، لذا فهو ينتقم لنفسه ويقرر أن يحارب الشر بجميع أشكاله.

وفي عام 1989 بدأ انتاج أول جزء من الأجزاء الأربعة حول هذه الشخصية المثيرة، وحملت هذه الأجزاء الأربعة أسماءا مختلفة، تدور كلها في فلك باتمان. ومما يثير العجب في هذه الأجزاء الأربعة أنها أولت عنايتها بالناحية البصرية بحيث ركزت على المعارك المبهرة، بدون النظر في حقيقة الدوافع التي تحرك الشخصيات الرئيسية وبشكل رئيسي شخصية البطل «باتمان».

وترسم هذه الأجزاء الشخصيات والأحداث بمنطق خاص بها، يتجاوز حدود وقدرات واقعنا المعاش، فمدينة «غوثام» هي مدينة تجريدية متخيلة، ليس لها تاريخ ولا مستقبل، وهي تحوي عناصر شريرة شراً مطلقاً، ومقاومة خيرّة يقودها «باتمان» بقدراته الخارقة والخاصة جداً، والذي نراه يستخدمها بغزارة في معاركه العديدة.

ولو أمعنا النظر لوجدنا هناك تأثرا ب"مصاص الدماء" حيث يرتبط كل منهما بالوطواط، -وكذلك ثمة تأثر بشخصية زورو في الزي والدور- فمصاص الدماء يتحول إلى وطواط تام، أمّا بروس وين فهو يتقمص شخصية الوطواط، مزودا بأحدث الابتكارات العلمية. غير أنه كان لزاما أن يكون الرجل الوطواط هنا شخصية خيرة مخالفا بذلك مصاص الدماء، وإلا لشعر القارئ بالتكرار، كما أن الشخصيات الخيرة هي التي يمكن أن تُقدم على شكل حلقات مسلسلة، أمّا الشخصيات الشريرة فتقدم فقط في الروايات، حيث لا بد من أن تهزم في آخر الرواية، ولا مانع بعد ذلك من عمل بعض أجزاء عن عودتها بشكل ما، أوعن انتقام جزء منها! أو قريب يظهر في مكان ما أو ابن نُسي في مكان ما!

إذا فالرجل الوطواط هو إنسان عادي في مدينة خيالية، مزود بأدوات ووسائل لا تتوفر لغيره فيكتسب بها قدرة هائلة، ويستغل ثروته في محاربة الشر، انتقاما وثأرا لمقتل والديه، وقضاءا على الملل الموجود في حياته!

3- الرجل العنكبوت:

تأخر ظهور الرجل العنكبوت عن أخويه سوبرمان وباتمان كثيرا، فلقد ولدت هذه الشخصية على يد الكاتب الأمريكي ستان لي في عام 1962 في العدد الخامس عشر من مجلة "الفانتازيا المدهشة" Amazing Fantasy، ونلخص قصة سبايدرمان في السطور القادمة: سبايدرمان هو ذلك الولد اليتيم بيتر باركر، الذي مات والداه في حادث تحطم طائرة، وعاش مع عمه وعمته في أحد أحياء مدينة نيويورك. وبعد أن

أصبح شاباً خجولاً وضعيفاً يتعرض ذات مرة في الخامسة عشر من عمره إلى لدغة عنكبوت تجارب تعرض للإشعاع.

وعوضاً عن أن يسري في جسده سم العنكبوت تصبح لديه قدرات خارقة، أهمها: يستطيع أن يلتصق بأي شيء صلب من حوائط أو أسقف، لديه قوة جسدية غير عادية، حتى أنه يستطيع أن يرفع ثقلا يصل إلى عشرة أطنان، كما أنه يستعمل أنسجة عنكبوتية تخرج من معصميه للطيران، عن طريق التعلق بالمباني والأعمدة، كما أن لديه احساسا عنكبوتيا بالخطر، حيث يشعر بوخز في مؤخرة الرأس.

وتساعده الانعكاسات الشرطية البالغة السرعة في تجاوز كثير من المخاطر، يضاف إلى ذلك أن أنسجة جسمه أكثر مرونة ولا تتأثر بالصدمات بسهولة، ومعدل التئام الجروح والشفاء من الأمراض لديه أسرع بكثير من الإنسان العادي. ويستخدم سبايدرمان قوته هو الآخر في محاربة الشر، ربما لتعويض عقدة النقص التي كانت لديه، وربما انتقاما لعمه الذي قتله أحد اللصوص، وربما لأسباب غير ذلك. المهم أنا نراه –والحمد لله– في جانب الخير. ولأن سبايدرمان ظهر متأخرا بعد سوبرمان بفترة كافية، فكان حتما أن يسير على نفس النهج، وأن يعد لنفسه بذة تتناسب مع طبيعته، فكان أن ظهرت تلك البذة الشهيرة لسبايدرمان، والتي يرتديها لكي يخفي بها شخصيته الحقيقية الهادئة الخجولة.

وتعد هذه الشخصيات المذكورة هي أشهر من جسد شخصية الرجل الخارق في القصص المصورة وعلى شاشة التلفاز والسينما، إلا أن هناك شخصيات أخرى أقل شهرة وانتشارا وتعلقا بالذاكرة مثل شخصية **Hulk**، والتي اشتهرت في وطننا العربي باسم "العملاق الأخضر"، وتتلخص قصة هذا العملاق في حادث يقع بالصدفة ل "بروس بانر" عالم الإشعاعات، الذي كان ضحية تجربته حول أثر أشعة غاما على الحيوانات، حيث يضربه شعاعٌ من تلك الأشعة ذات يوم، وبدلا من أن يقتله الإشعاع يسكب في عروقه طاقة غريبة، تحوله إلى عملاق أخضر اللون منتفخ العضلات، ذي

قوة هائلة. غير أن هذه القوة وذلك التحول إلى الضخامة واللون الأخضر يستولون على "بروس" في حالة الغضب الشديد فقط، فلا يستطيع أن يمنع ذلك أو أن يسيطر على نفسه، أو أن يفرق بين أصدقائه وأعدائه، ويسبب بذلك إرباكاً شديدا للآخرين.

وبخلاف العملاق الأخضر هناك الكثير والكثير من الشخصيات التي ظهرت ولاقت انتشارا عريضا بين الشباب، وكان لا بد أن يكون بين هؤلاء الأبطال الخارقين بعض النساء! لأنه من غير المعقول ألا تشارك المرأة هي الأخرى في إنقاذ الأرض والبشرية! فإذا ظهر سوبرمان فلا بد أن تظهر أيضا سوبرومان، وحتى لا يُصدع أصحاب المنظمات النسائية رؤوسنا! وللأسف لم يعلق بذهني أيا من هذه الشخصيات النسائية.

ولأن هذه الشخصيات المذكورة هي التي علقت بذهني فقط، -وأنا لا أُعد متابعا جيدا للأعمال السينمائية- فهي بالتأكيد أكثر شهرة من غيرها. وليت الأمر اقتصر على أناس خارقين، بل امتد أمر إنقاذ البشرية إلى حيوانات! تتعرض هي الأخرى لبعض الحوادث أو لنوع من السحر أو لتحور جيني معين، يؤدي بها في نهاية المطاف إلى أن تكتسب صفات بشرية، وتساهم هي الأخرى في مساعدة الخير والقضاء على الشر، ومن أشهر هذه الشخصيات المتحورة "سلاحف النينجا"! وهي أربعة سلاحف تتعرض لنوع من الإشعاع، فتكتسب الكثير من السمات البشرية، ويعلمهم إنسان – تحول هو الآخر إلى فأر!- فنون القتال والحكمة! ويقوم هؤلاء السلاحف كذلك بدورهم في القضاء على الشر!

ولست أدري صراحة إلى أي حد يصل العجز بالإنسان والعقم بالنساء؟! فإذا كانت السلاحف، وهي مضرب المثل في البطء والجبن، تقوم بالقضاء على الشر فلست أدري حقا ماذا بقى للإنسان؟! ولست أدري لم تقوم السلاحف بمحاربة الشر أساسا؟ فالقضية ليست قضيتهم، فإذا كان الأبطال السابقون من بني البشر، فهؤلاء من معشر الحيوان، فما لهم ولمساعدة الخير، أم أنه يجب علينا أن نقر أن الوصول إلى القوة هو حتما ملازم لمساندة الخير؟

ليس هذا ولا ذاك هو المراد بداهة، وإنما المراد الحصول على أكبر قدر ممكن من المشاهدين عن طريق مزج الواقع بالخيال. ويصل الخرف ومزج الواقع بالخيال عند الإنسان مبلغه ومنتهاه عندما يقوم –في خياله وأفلامه– بصناعة آليين على هيئة البشر، مظهرا ومخبرا وفي طريقة الحياة، فنجد الآليين يحبون ويكرهون ويتضايقون ويغدرون! والأنكى من ذلك أنهم يُجرحون ويموتون!

ولا مانع من أن يتقاتل هؤلاء الآليون –مثلنا نحن معشر البشر– بالسيوف، ولا مانع من أن تكون سيوفا ليزرية بسبب التقدم العلمي الذي أنهى السيوف الحديدية وأتى بالليزرية!!! والمسدسات والبنادق! ويسقطون من مناطق مرتفعة فيموتون! على الرغم من كونهم يتحولون ويطيرون، ولكنهم يؤخذون على غرة فيسقطون ويموتون! –لا حول ولا قوة إلا بالله!– وهؤلاء الآليون إما يعيشون في مجتمعات آلية صرفة، –ومن العجيب أنه يظهر عندهم هم أيضا إما جنس خارق أو آلي خارق! ينقذ الآليين الباقين الضعفاء!– وإما يعيشون مع البشر في مجتمعاتهم، ولست أدري كيف اكتسب الآليون المشاعر البشرية، ولم لا يقضون على البشر ويؤسسون لأنفسهم مجتمعات خالصة؟!

وكما رأيت عزيزي القارئ فالأبطال منقذو البشر هم حتما ليسوا أناسا عاديين، بل هم حتما مختلفون، فهم أناس مزودون بقوى خارقة، وقد يكونون كذلك غير بشريين، –حيوانات أو آليين– ولكنهم كلهم يتحركون من أجل الخير، ولا نعرف ما هو دوافعهم لفعل الخير هذا؟ وهل من الممكن أن ينقلبوا عليه؟!

انفصام بين التنظير والتطبيق

مما يأسى له المرء أن البشرية تعاني من انفصام عجيب، وفصل غريب بين التنظير والتطبيق، يكاد المرء معه يصم هذه الكائنات المتحركة أنها تعاني من انفصام شخصية! فلفريق مجموعة من المبادئ والأصول، تكاد تدنيهم إلى الحيوانية لا محالة

وتلزمهم بها وتقيدهم بأغلالها، وعلى الرغم من ذلك تراهم يرتفعون عن الحيوانية في أحايين كثيرة، ويخالطونها في أحايين أُخر. وعند آخرين قواعد وأصول تجعلهم أسيادا وحكاما للقطيع البشري، وعلى الرغم من ذلك تجدهم في مؤخرة القطيع يلتقطون فتات الفريق الأول، ويتطلعون إليهم في انبهار وفغر فاه عجيبين، يرونهم نموذجا وأسوة!

وتجد القوم يدعون إلى مبادئ وشعارات يُربون عليها نشأهم، ثم يخالفونها في كل ما يقومون به! والأمثلة على ذلك كثيرة كالنجم، ويذكر إريش فروم أمثلة منها، فيقول: "هل من الحكمة إذا أن يصرف المرء ملايين الدولارات على تخزين الفائض الزراعي على حين يموت ملايين البشر في العالم من الجوع؟ أمن الحكمة أن يصرف المرء نصف ميزانية الدولة على السلاح الذي يدمر مدنيتنا لو استعمل؟ أيعقل أن نعلم أطفالنا فضيلتي التواضع والأثرة المسيحيتين ونعدهم في الوقت نفسه لحياة تتطلب تماما الصفات المعاكسة إذا ما أراد المرء أن يحقق فيها شيئا؟ أمن الحكمة أننا شننا كلتا الحربين الأخيرتين من أجل الحرية والديمقراطية وتوصلنا إلى تجريد "أعداء الحرية" من السلاح. لا لشيء إلا لكي نتسلح مرة أخرى بعد سنوات قلائل باسم الحرية والديمقراطية، على أن أعداء الحرية السابقين هم الآن المدافعون عنها على حين إن حلفاءنا السابقين هم الآن أعداؤها؟ أمن الحكمة أن نثور على أنظمة لا تمنح أي تعبير حر عن الرأي وتحد الحرية السياسية على حين نصف نفس الأنظمة، بل إنها لأفسد سريرة بكثير، بأنها "متعطشة للحرية" بقدر ما تكون هي حلفاء عسكريين لنا؟ أيعقل أننا نعيش في وسط الفائض، ومع هذا نحس بالقليل القليل من الفرح والسرور؟ أيعقل أننا نستطيع أن نقرأ كلنا ونكتب وأن لدينا الإذاعتين، المسموعة والمرئية، ومع هذا نعاني من سأم مزمن؟ أيعقل أن في وسعنا أن نسوق على صفحات طويلة أمثلة أخرى على اللاعقلانية والأوهام والتناقضات في حياتنا الغربية، ومع هذا نسلم بهذه اللاعقلانية كلها على أنها واقع معطى، ونكاد لا نلاحظها؟[41]" اهـ

(41) إريش فروم، ما وراء الأوهام، تعريب: صلاح حاتم، ص. 125.

فإذا كان إريش فروم يأنُّ من التناقضات في مجتمعاتهم الغربية، فيحق لنا أن نبكي على حال مجتمعاتنا الشرقية، التي تحتاج إلى مجلدات لذكر أمثلة التناقضات والانفصام فيها. وينظر المرء في حال الإنسان ويعجب، ويستمر العجب وينمو، ولكن لا عجب إذا عرف الإنسان أن عامة من يراهم لا يرتفعون عن مرتبة الحيوان! فإذا صدر الأمر من حيوان مفكر غير عاقل، فلا عجب ولا دهشة، ولكن يظل الأمر مؤثرا في الإنسان تأثيرا كبيرا تجاه هذا الكائن الذي يفرط ويضيع بإرادته أهم ما يمتلك، ويتمسك بالحماقات! ويعلق إريش فروم على مسألة غباء البشرية الاختياري هذا فيقول: "إن الشيء الذي أثر في أكثر فأكثر كان غباء أكثرية البشر الذين لا يدخلون في أي من هذين الصنفين المغالى فيهما. (البله والعباقرة –المؤلف–) ولا أعنى النقص في ذلك النوع من الذكاء الذي يستطيع المرء أن يختبره، بل العجز عن رؤية الأسباب الأقل ظهورا للعيان لظواهر معينة وعن فهم تناقضات في داخل الظاهرة نفسها وإدراك علاقات بين عوامل مختلفة مرتبط مع بعضها إرتباطا غير ظاهر. ويتجلى الغباء على النحو الأوضح في علاقات شخصية وشؤون اجتماعية. كيف حدث أن ناسا لا يرون أكثر الوقائع والحقائق بروزا للعيان في شؤونهم الخاصة والاجتماعية ويتشبثون بدلا من ذلك بقوالب يكررونها على نحو لا متناه من دون أن يضعوها في أي وقت من الأوقات موضع التساؤل[42]" اهـ

ونحن إذ نبدأ بخط سطور المنظور القرآني في إخراج السوبرمان، نُذكر القارئ بنقطة الانفصام هذه وكيف أنه سيراها ماثلة أمامه في الكثير والكثير من أفعال الإنسان، ونُعلمه أننا لا ندعي أن مجرد ذكر بعض خطوات أو وجهات نظر كاف بأي حال لتغيير إنسان وإخراج قدرات هائلة دفينة، وإنما نُخبره مقدما أن النظرية نظرية شاملة متكاملة لا يمكن فصل أي جزء منها عن الأُخر وإنما تؤخذ كلها هكذا، فلا بد من تَمرّس طويل ورياضة للنفس حتى يخرج الإنسان على هذه الهيئة القرآنية البشرية الكاملة، وقد يغني عن هذا مولد الإنسان في مجتمع السوبرمانات، فيربي على هذا من صغره إلى أن

[42] المرجع السابق، ص.154.

يصل إلى مرحلة معينة يبدأ فيها هو نفسه بالتفاعل مع المنهج، فيزيد من قوته وإمكانياته إلى أن يصل ويتجاوز ما وصل إليه سابقوه. ومسألة المولد في مجتمع السوبرمانات مسألة غير ضرورية وإنما هي موفرة لكثير من الوقت والجهد ومُسرعة للعملية.

لذا فإذا أتممت قراءة الكتاب فلا تتوقع أن تتحول إلى سوبرمان بين ليلة وضحاها أو حتى في بضعة أشهر، فليست النظرية خطوات تُجرى فيصير المرء سوبرمان، وليس الكتاب من عينة "كيف تصبح سوبرمانا في سبعة أيام!"، فهذا وهم، ولا مكان للوهم في المنهج، وإنما هي منهج طويل المدى يحتاج إلى سنين .. قليلة العدد، أقل من أصابع اليد الواحدة!

ولكن بعد هذه السنين القليلة العدد في عمر الإنسان ستتغير حياته كليا ويصير إنسانا آخر. أما إذا قرأ الإنسان الكتاب ومصمص شفتيه وأخذته الحماسة بعض الشيء ثم عاد إلى ما كان عليه بدون أي تغيير، فليعلم أنه من ضمن المصابين بالانفصام بين التنظير والتطبيق، ونترك له مسألة الحكم على نفسه!

الفصل الثاني: تعريفات وتصورات

كما رأينا فإننا لم نجد حتى الآن أي تصور معقول مقبول لشخصية إنسانية، تساهم في إنقاذ البشر والبشرية، مدفوعة بدوافع مقبولة لفعل الخير، وكل ما رأيناه هو إما خواطر وتطلعات في نفس نيتشه، عبّر عنها بمعسول الكلام، ولم يقدم لنا ما يساعدنا في انتاجها، وإما تصورات خرافية أسطورية لأبطال لا وجود لهم على أرض الواقع.

ولا يختلف هذا التصور في كبير أو صغير عن تصورات الإنسان البدائي التي نقشها في جدران الكهوف، ورسمها على جدران معابده! فعندنا حيوانات متحولة إلى بشر، وبشر يتحولون إلى حيوانات أو أنصاف حيوانات! وأناس أصحاب قوى خارقة، والفارق أن الإنسان القديم كان أكثر صراحة واعترف بأن مصدر القوة هو الإله، أما الإنسان الحديث فينسبها إلى كائن من كوكب آخر، أو إلى شعاع يُغير أو إلى اختلاط في تجربة ما بحيوان ... إلخ. وكلها تصورات ساذجة لا تتقدم خطوة واحدة عما قدمه الإنسان الأول، ولا تغرر بك أفلام الخيال العلمي فما هي إلا عرض لنفس الأفكار، ولكن مع كثير من الأشعة والليزر وبعض الأفكار المريضة.

وأشطح كما يشطحون، فأقول: أخشى ما أخشاه أن تجتاح البشرية كارثة هائلة فتقضي على معظم حضارتنا، ثم تنشأ حضارة جديدة وتسير في ركب التطور، إلى أن يأتي يوم يكتشفون فيه بعضا من أفلام السينما أو قصصنا المصورة، والتي نجت من الدمار، فيظنون أننا معشر البشر في هذا العالم، كنا نصدق بهذه الخرافات والأساطير، ويبدأ علمائهم في تحليل عناصر الأسطورة! وكيف كان مجتمعنا والفكر السائد فيه، وهلم جرا.

ولا يعني هذا أننا نقول أن ما ذكرناه هو خلاصة الفكر البشري، ولكنا عرضنا أشهر النماذج التي تناولت هذه المسألة، فعرضنا المُبشّر بهذه الفكرة، ذلك الفيلسوف المسمى نيتشه، وعرضنا كيف تداول عامة الناس هذه الفكرة وكيف تخيلوها! وعلى

القارئ أن يتذكر أن هذا التجسيد للفكرة في السينما والتلفاز لا يلاقى الإعجاب والتشجيع من عامة الناس فقط، وإنما من خاصتهم كذلك، فكثير من علماء الطبيعة أو حتى الإنسانيات يتابعون هذه الأفلام ويُسرون بها!

نعم نحن نقر أن هناك الكثير والكثير من علماء الإنسانيات كتبوا، ولا يزالون يكتبون، في الطريقة المثلى للسلوك الإنساني، وكيف يعيش الإنسان في هذه العالم على أفضل وجه! ولكن لم يدع واحد منهم أن فكره هذا كاف لإخراج إنسان أعلى، ولم يقدم أيٌ منهم دليلا على نجاح برنامجه الإعدادي لإخراج إنسان كامل أو شبه كامل، وإنما يقدم هذا تصورا وذاك يقدم آخرا، ولا يستطيع أحدهم أن يجزم بصواب فكره، أو أنه مناسب لعصره ولكل العصور القادمة.

ونحن نجزم من خلال قراءاتنا في هذه المجالات، بأن هذه الكتابات قاطبة كتابات قاصرة مبتسرة، لم تقدم إلا معالجات قاصرة لجوانب محدودة من الحياة الإنسانية، وغفلت سهوا وعمدا عن جوانب كثيرة، تلعب الدور الرئيس في توجيه الإنسان وتفجير طاقاته وإخراج ذلك العملاق الكامن فيه "السوبرمان".

ونحن إذ نسطر هذا الكتاب نجزم بأن القرآن قد قدم هذا الفكر وهذا التصور الكامل الذي يخرج لنا هذا السوبرمان! والقرآن وإن لم يذكرها صراحة أنه يسعى لإخراج سوبرمان، وإنما قال أنه يسعى لإخراج إنسان مصنوع على عين الرب سبحانه وتعالى.

وإذا كان هذا الإنسان سيصنع على عين الله تعالى، فلا بد أن تتوفر فيه ملكات الكمال البشري، أي أنه لا بد أن يكون بمصطلحاتنا المعاصرة "سوبرمان". وهذا لا يعنى أن القرآن يرى أن عامة الناس سيصلون إلى المرتبة العليا من التطور الإنساني، وإنما هو يقر بأن قليل هم من سيصلون إلى أعلى درجات الكمال وقليل هم من

سيقتربون منها، وسيظل عامة الناس يتأرجحون بين الموت والحياة (الحيوانية[43] والإنسانية).

ونبدأ بإذن الله وعونه في تقديم هذه الخطوات وهذه العناصر القرآنية التي تؤدي لا محالة إلى إخراج وإنتاج هذا السوبرمان، ثم ندلل بعد ذلك على صلاحية النظرية للتطبيق من خلال الدليل التاريخي، فننبه القارئ أن النظرية أخرجت فعلا للبشرية أجيالا من السوبرمانات المسلمة!

وسيعجب القارئ المسلم تحديدا ويتساءل: أنّى ظهرت هؤلاء السوبرمانات ومتى ظهروا وكيف لم يسمع بهم؟ والعجيب أن القارئ الكريم يعرفهم ويعرف أين ومتى ظهروا، ولكنه غُفّل عنهم فما بصرهم كما ينبغي، وإنما تجاوزهم ومر عليهم مرور الكرام!

وسنُري القارئ كيف أن المنهج أخرج أجيالا، حوربت محاربة شديدة حتى أُفنيت، وما عاد هناك من السوبرمانات في أيامنا هذه إلا أفراد قلائل، قد لا يشعرون هم أنهم من هذا الصنف!

تصور السوبرمان

حتما ستختلف الصورة التي يقدمها القرآن حول الإنسان الأعلى، عن تلك الصور الساذجة السطحية الخرافية، التي قدمتها المخيلة البشرية؛ فكيف يقدم لنا القرآن ذلك الإنسان الأعلى؟

---

[43] لفظة "حيوان" أصلا لفظة مدح، وهي إشارة إلى وقوع الحياة بالشكل الحقيقي، –لذلك نعت الله الدار الأخرة بأنها الحيوان– . وكان من المفترض أن نستعمل مكانها لفظة "دواب"، إشارة إلى الجنس الحي الأقل تطورا من الإنسان، فنقول: إنسان ودابة. ولكن لمّا عم وغلب ذلك الاستعمال الخاطئ أصبح من العسير زحزحته، ولم يعد يؤتى النتيجة المرجوة في التنفير إلا استعمال تلك الكلمة "الحيوانية".

يرتبط تصور الإنسان الأعلى في الأذهان البشرية بالقوة، فكلما كان الإنسان أقوى كان أعلى، ويتفق القرآن مع هذه النقطة إلا أنه يقدمها من منظور مغاير، فيقر فعلا أن الإنسان الأعلى لا بد أن يكون قويا، ولكن كيف هي هذه القوة، وما هو مصدرها، وما هي منزلتها بالنسبة للإنسان الأعلى؟

ينصرف تصور القوة في أذهان عامة البشر إلى القوة البدنية، أو حتى القدرة العقلية، التي تمكن الإنسان من التصرف تبعا لمقتضيات الأحوال، إلا أن القرآن عندما عالج قضية القوة قدم تصوراً مغايرا تماما، بأن جعل القوة الحقيقية هي قوة الأمة، والتي يستمد منها الإنسان قوته، فليس موطن التميز هو القوة الفردية أو الخوارق،[44] فالإنسان هو الإنسان مهما عظمت قوته البدنية أو قدرته العقلية، فهو ناقص محتاج مثل غيره من باقي البشر: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [سورة البلد ,٧-١١]، مر بمراحل الضعف الأولى والاعتماد الكلي على الغير، لذا فإن القوة الحقة هي في مساعدة الآخرين الضعاف، وبذلك تنهض الأمة كلها وتزداد قوة، ويكون هؤلاء الضعاف خير عون له وسند عند الحاجة.

فإذا كانت القوة الحقة هي في الأمة المتعاضدة، التي يكمل القوي فيها الضعيف، فكيف هو السوبرمان تبعا للتصور القرآني؟ السوبرمان هو ذلك: الفرد الأمة! ذلك المؤمن الحي الذي وجد إجابة الأسئلة الإنسانية الخالدة، واكتسب رُقيّاً وعُلواً وملكات عقلية جامعة، بواسطة دوام الاتباع الجاد المتفاعل مع منهج الله عزوجل ومن خلال قراءة الكون. ذلك الذي حقق جميع مراحل تطور البشرية في نفسه! يدفعه هذا الرقي وفهمه للقوة إلى السعي للارتقاء بالأمة، ليصلوا إلى ما وصل إليه أو قريبا مما وصل إليه، –فبِرُقي الأمة يزداد هو نفسه قوة– حتى يستمر مسير تطوير البشرية، ولا تنتكس مرة أخرى إلى الحيوانية، فتموت!

---

[44] يمكن للقارئ أن يتابع تناولنا لسورة البلد، على موقعنا الإليكتروني **www.amrallah.com** تحت عنوان "سورة البلد ومصدر القوة"، والذي أظهرنا فيه تفنيد القرآن لوهم القوة الفردية وعرضه للمصدر الحقيق الواقعي للقوة.

ونوجز هنا مراحل تطور[45] البشرية، التي ينبغي للسوبرمان تحقيقها في نفسه: ينظر القرآن إلى الإنسان على أنه ذلك الكائن المُطور، الذي ارتقى أول رُقيه عن الدواب بالعقل وباستقامة الظهر، إلا أن هذا العقل وحده غير كاف لتقدم الإنسان وتطوره، وعاجز عن تقديم إجابات لكثير من الأسئلة المشكلات، ومن ثم أكمل الله عزوجل برنامج التطوير الذي أعده للإنسان، بأن أمده بكلمته وحيا، ولقد أعلمه مسبقا بأنه سيعطيه هذا الوحي الذي يهديه سواء السبيل، وذلك عندما أخبر النفر الذي خرج مع سيدنا آدم من الجنة بذلك: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨﴾ [سورة البقرة- ٣٨] فتوارث البشر انتظار الهادي الذي يأتي من الله، يأتي بالآيات المادية أو المعنوية (الكتاب المنهج) فيصلح حالهم، –لذلك يفرح الإنسان كثيرا عندما يرى من يأتي بالخوارق أمامه، ظانا أنه ذلك المنقذ الهادي الذي أرسله الله تعالى!–، وشاء الله أن يكون هذا الهدى لحد مختار، ينقطع بعده، وعلى البشرية أن تتعامل بنفسها مع الكون وواقعها، فتقرأهما انطلاقا من الكلمة الأخيرة التي أمدها الله بها. وبواسطة قراءة الكون بالكلمة تحقق البشرية نقلات سريعة في سلم التطور.

ويستمر هذا التطور المطرد إلى قيام الساعة، فتنتقل من تطور محدود محكوم، إلى تطور لا نهائي، ذي قوانين مغايرة، كنقلة نوعية جديدة نهائية، جزاءا لها على التزامها مسلك التطور.

فإذا أسقطنا هذه المراحل على الفرد علمنا أنه ينبغي عليه أن يُعمل فكره في الكون أولا، فتتحصل عنده بعض التصورات، مصحوبة بالإقرار بالمحدودية، فينتقل إلى قراءة الكلمة المنهج، فيجد فيها رفعا للعجز وعلواً عن التصور الذي اكتسبه عن الكون، فيلتزم الكلمة كمنهج للحياة مؤمنا بها، وبهذا ينتقل إلى مرحلة جديدة وهي التعامل مع

---

[45] نقصد بالتطور: التطور الحضاري والمعرفي والمعاملاتي، لا التطور العقلي، فإن الإنسان العاقل الأول لا يختلف عن إنسان القرون القادمة إلا في التراكم المعرفي والخبرات ليس أكثر، أما مسألة الرقي فهي ثابتة وقائمة على هيمنة العقل على الحيوان الموجود بداخل الإنسان، وكلما ازدادت الهيمنة ازداد الرقي.

الواقع انطلاقا من المنهج، وهنا يحقق قفزات كبيرة، فكرية وأخلاقية ومادية، بقدر الصعوبات التي يقابلها ويتجاوزها، فمع كل تجاوز لصعوبة يرتقي درجة!

وننبه أن الملكات الفردية تلعب دورا كبيرا في تحديد الدرجة التي يستطيع الإنسان الوصول إليها، فلن يصل كل البشر باتباع المنهج إلى نفس الدرجة من السوبرمانية، – بل ولن يصل كل البشر إلى السوبرمانية، فهناك غير المؤهل للوصول إليها، ولكنه مأمور بإماتة الحيوان وإحياء الإنسان– لذلك سيكون على الأقل ثمت صنفان من السوبرمان، صنف تمتع بملكات عظيمة قبل المنهج، ومع المنهج وصل إلى درجة السوبرمان الأعظم، وصنف ضعفت ملكاته عن هؤلاء، فأقصى ما يصلون إليه هو درجة السوبرمان.

ويعتبر المنهج سعي الإنسان إلى ترقية نفسه هو الدور الرئيس الذي يجب عليه القيام به؛ والأداة الأولى في عملية الترقية عن الحيوانية والعلو عن الذاتية هي الاتباع لكلمة الله المنهج. ولم تصل هذه الكلمة إلى البشر مباشرة، وإنما وصلت عن طريق جماعة من البشر، اصطفاهم الله عزوجل لهذه الغاية.

ومثّل هؤلاء الأفراد في زمانهم صفوة الإنسان، لذلك اختارهم الله تكريما لهم على الرقي الذي حققوه بعقولهم وفطرتهم فقط، فزادهم رقيا وتشريفا بأن منحهم المنهج، الذي يضمن لهم عدم الخلل، والذي سيمتثلونه تمام الامتثال ويقدمونه للناس، وبذلك يرتقي البشر أجمعون، ولا يقتصر الرقي –غير المعصوم من الخلل– على بعض الأفراد ذوي الملكات الخاصة.[46]

ونقدم نموذجا واقعيا للفرد الأمة، حتى يدرك القارئ جيدا، كيف سيكون هذا الفرد، وسيكون النموذج من خلال قصة الخليل، ذلك الذي كان أمة! فإذا استطاع الإنسان أن يستخرج العناصر الرئيسة لحياته، عرف كيف يكون فردا .. أمة!

---

(46) لا يعني هذا أننا نقول بتساوي السوبرمان الأعظم "الرسول"، مع غيره من المتبعين للمنهج، فسيظل الآخرون دوما أقل درجة من الرسل، مهما تمثلوا الكلمة المنهج، وذلك لأن الملكات الشخصية للرسل قبل البعثة قد بلغت قمة للرقي البشري بدون وحي، ثم أتاهم الوحي فألغى جميع مواطن الخلل البشري، وهذا ما لم ولن يحدث بحال مع غيرهم.

يظهر الخليل إبراهيم في أمة اتخذت الأصنام آلهة، وهذا يعني أن هذه الأمة انتكست إلى درجة أحط من الإنسان الأول، ويبرز التميز الأول للخليل في إعماله عقله، فيرفض منذ صغره عبادة الأصنام، لأن هذه الأصنام مصنوعة.[47]

ونلاحظ أنه أعمل عقله منذ صغره في القضية الأولى التي تُجابه الإنسان، وهي الدين. ولا يكتفي بذلك، فينظر فيما حوله ويتفكر وينتقل إلى البدهية الأخرى: من الذي أوجد هذا الكون كله وكيف هو؟ (كم هم من يفعلون هذا وفي أي مرحلة عمرية؟) ويترفع الخليل عن النظر فيما حوله، لأنه لا يُقبل كونها خالقا، فهي تمر بدورة الخلق والموت، فالنبات ينشأ ويكبر ويموت وكذلك الحيوان، فلا يمكن أن يكون المحدث إلها! فينظر في السماء علّ الإله يكون فيها: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الأنعام, ٧٦]، ويقلّب نظره في السماء، فلم يجد في كواكبها ما يصلح أن يكون إلها، فاستنتج استنادا إلى بدهية السببية، وجود إله كامل خالق لكل هذه الكون، إله ليس كمثله شيء: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة الأنعام, ٧٩]

وعندما يصل إبراهيم إلى هذه المرحلة التي لا ينفع بعدها العقل في أن يقدم الإنسان خطوة وحدة، يأتي الوحي إلى الخليل إبراهيم فيصدقه! فيزيده يقينا وعلما.

ويبدأ الخليل في الدعوة لما آمن به، فيُري قومه الزيغ الذي هم فيه، فلا يستجيبون، فلقنهم درسا واقعيا ليعرفوا أنهم عمي[48]، وأن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع، فأفاقوا وفتحوا أعينهم، إلا أنهم سرعان ما انتكسوا، ودافعوا عن آلهتهم! ويضرب إبراهيم في الأرض ليدعو إلى الله تعالى، ويحمل أبناءه مسؤولية المنهج من بعده.

---

[47] على الرغم من بدهية ألا تكون الأصنام آلهة، إلا أن كثيرا من البشر –حتى زماننا هذا– لا يقبلونها!

[48] تعد الأديان الوثنية الموجودة على الساحة البشرية المعاصرة أكبر دليل على انتكاس الإنسان، وانحداره إلى ما هو أقل من الحيوانية، ولن تغني عنه التبريرات السفسطائية في شيء!

ويرى الله عزوجل في إبراهيم تفردا، فيبتليه بكلمات فينجح إبراهيم في الابتلاء، ويأتي بهن على أتم وجه، فيستحق لذلك النجاح المنفرد الجزاء: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة البقرة, ١٢٤] وهكذا صار إبراهيم إماماً للناس، واجب الاتباع، فمن اقتدى به وصل وأفلح. ويزيده الله تشريفا فيتخذه خليلا. ولأن الخليل كان أمة، جامعا لكل الملكات المرجوة في الإنسان، ساعيا لنفسه ولغيره، لا ينسى في سعيه الأجيال القادمة، فيدعو لهم بالخير، بأن يأتيهم الرسول بكلمة الله، فيسلموا كما أسلم الخليل، وبذلك يفلحوا. وفي سعيه يؤدي الخليل كل أدواره كإنسان، فلا يضيع منها دورا، لهذا استحق أن يكون إبراهيم الذي وفّى، وأن يكون .. أمة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة النحل, ١٢٠].

ونتوقف مع هذه الكلمة لأنها الفيصل بين التصور القرآني للإنسان الأعلى والتصور الغربي، فالإنسان الأعلى تبعا للقرآن هو ذلك الفرد الأمة المتأسي بالخليل، ذلك الإنسان الكوني، ذلك الذي يؤدي كل أدواره في الحياة كما ينبغي[49]، فلا يطغى دور على آخر، ولا يهمل أي جانب من الحياة، فهو ذلك الإنسان الباحث عن الحقيقة، المستعمل لعقله، الناظر في الكون متفكرا فيما حوله، ليعرف غايته في الحياة، فإذا عرفها بنفسه سعى لتحقيقها، ذلك الذي اكتسب أخلاق الرجولة لما عرف الحقيقة، فانشغل بمن حوله وبالقادمين من بعده، الذي يريد تحقق الخير للبشر كلهم، وفي عين الوقت هو ذلك الأب الابن القريب الجار الصديق، الناصح الأمين المساعد لغيره، العامل المسخِر المسخَر، المدرك لطبائع الأشياء والمتحرك بما يوافق طباعها لا بما يضادها، ذلك الرؤوف الرحيم المحب لخلق الله كلهم[50]، ذلك الإنسان المرهف

---

[49] الأدوار المطلوبة هي الأدوار الإنسانية أما الصنائع الوظيفية، فهو فيها مسخِر مسخَر، يخدم غيره ويخدمه غيره، فليس مطلوبا أن يتقن الإنسان كل الصنائع، وإنما المفترض فيه اتقان صنعة واحدة على الأقل يقوم بها، بجوار باقي الأدوار التي يلعبها في الحياة.

[50] نرى أثر الرحمة والرأفة في دعاء سيدنا إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة إبراهيم, ٣٦] فحتى العصاة المتبعين للأصنام يرجو الخليل لهم الرحمة والمغفرة.

المشاعر الذي رق قلبه من كلمة الله، فرأى جمال صنعة الله وخلقه متلألأً فيما حوله، ذلك الذي يتذوق الجمال ويستسيغه.

والفارق بين الخليل ومن بعده من البشر، أنه بدأ بنفسه جد صغير، واجتهد وابتُلي فنجح، أما من بعده فقد أُعطوا المنهج الذي به يحققون كل جوانب الإنسان وغاياته، التي من أجلها خلقه الله تعالى!

وسيرى القارئ الكريم من خلال الكتاب كيف أن تحقيق جميع الجوانب الإنسانية لا يمكن أن يكون إلا من خلال المنهج القرآني، وبدونه فإن أقصى ما يمكن الوصول إليه هو الإنسانية. ومما يؤسف له أن عامة البشر لم يحافظوا على هذه المرتبة "الإنسانية" وانتكسوا عنها إلى الحيوانية، بفضل التصور الغربي للإنسان، ذلك التصور التجزيئي، الذي نجح وبامتياز في تعمية الإنسان وإماتته!

مشكلة تعريف الإنسان

قبل أن نبدأ حديثنا عن خطوات السوبرة، لا بد أن نتوقف قليلا لنضع النقاط على الحروف، فنحن بهذا العرض نهدف إلى نقل كائن من حالة إلى أخرى، فما هو هذا الكائن وكيف نغيره؟

اختلفت التعاريف بخصوص الإنسان، فمنها من قال أن الإنسان حيوان ناطق ومنها من قال أنه حيوان ضاحك! أو حيوان مدني الطبع أو حيوان راق أو مفكر أو حيوان صانع أو متدين أو حيوان إلهي أو حيوان ميتافيزيقي!

وهناك بعض التعريفات التي نظرت إلى هيئة الإنسان فحددته تبعا لذلك، فقالت أن الإنسان –بصفته جزءٌ من الطبيعة– هو: كل جسم حي منتصب القامة له يدان

صالحتان للعمل، وله دماغ قادر على التفكير والاستنباط والتعبير عن أفكاره بالكلام أو الكتابة، هو كل ما يسمى بشرا.

وهناك الكثير والكثير من التعاريف المختلفة للإنسان، والسؤال هو: هل أفلحت هذه التعاريف في تعريف الإنسان بنفسه؟

يجيب الدكتور زكريا إبراهيم على هذا السؤال فيقول: "إن الإنسان مشكلة لأنه هو الموجود الذي لا يكاد يعرف مكانه في الطبيعة، فهو ينظر ويتأمل ويبحث ويتردد، ويتعثر، ولكنه لا يكاد يعثر لوجوده على قرار طبيعي يطمئن إليه. إنه في الطبيعة ولكنه ليس من الطبيعة، إنه في العالم ولكنه ليس من العالم. إنه موجود طبيعي ولكنه موجود طبيعي بشري! إن الإنسان مشكلة، لأنه الموجود الذي لا وصف له سوى أنه لا يوصف! إنه الموجود الذي يفلت من كل تحديد ويخرج على كل قاعدة، ويند عن كل تعريف، إنه الموجود الذي لا يفتأ يعيد النظر في كل شيء، ولا يكاد ينتهي حتى يبدأ من جديد،"[51]اهـ وبما أننا نتكلم عن الإنسان فلا بد من ذكر المنظور القرآني له، فهو يرى أنه: الكائن المخلوق المُطوّر المجرّد الأعمى الأصم[52].

وهذا التعريف وإن كان عجيباً وغير مألوف، ولكن القارئ سيرى فعلا كم أن هذا التحديد هو الأدق للإنسان، وكيف أنه لا يستحق أن يُنعت بحال أنه كائن مفكر أو عاقل، لأن هذا الوصف لا ينطبق على عامة البشر، وإنما ينطبق عليهم صفة "التجريد"، فبدونها لا يختلف الإنسان عن الحيوان. وحتى لا يعجب القارئ المسلم من هذا التعريف، نقدم له من أين استقينا هذا التعريف للإنسان:

إذا نحن نظرنا في القرآن وجدنا أن كلمة "الإنسان" وردت فيه ستا وخمسين مرة، في مواطن مختلفة، نحتاج منها نوعين فقط وهما: الخِلقة والنعوت.

---

[51] زكريا إبراهيم، مشكلة الإنسان، ص.6،7.

[52] نحن لا نقصد بذلك العمى أو الصمم الحسيين، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾] سورة الإنسان ,٢[وإنما نقصد بهما العمى والصمم العقليين!

فإذا نظرنا في القرآن، وجدنا أن الله تعالى ينعت خلقة الإنسان بأنها أحسن ما يكون، ويظهر هذا في آيات عدة، مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [سورة التين, ٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ [53] ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [سورة المؤمنون, ١٢-١٤] وفي هذا دليل على القدرات الهائلة المتوفرة في بدن الإنسان والتي لم يستخدمها حتى الآن، وإشارة إلى أن العبث في الإنسان (بالهندسة الوراثية) مفسد ومنكس.

فإذا انتقلنا إلى حديث القرآن عن السمات الخُلُقية للإنسان، فسنجد أنه يميل إلى رمي الإنسان بالنعوت السلبية! كأن الطبيعي في الإنسان أن يكون سيئا، وذلك راجع إلى أصل الإنسان الحيواني، –ولكنه مطالب بالتغلب على هذا السوء، فهذا هو جوهر الحياة والتكليف– فنجد أن الله تعالى ينعت الإنسان بأنه:

1- ضعيف: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [سورة النساء, ٢٨]، فالإنسان ضعيف نفسا وليس جسدا، فلا يتحمل التكاليف الكثيرة!

2- يؤوس كفور قنوط: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [سورة هود, ٩]

3- هلوع جزوع منوع للخير: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [سورة المعارج, ١٩-٢١].

4- كنود لربه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [سورة العاديات, ٦]

[53] هذه الآية دليل –من أدلة كثر في القرآن– على وحدة طريقتي الخلق في القرآن وهي عن طريق الأرحام الأرضية أو البشرية! فالمخالفون يجعلون هذه الآية فينا نحن فقط بلا مخصص، أما آدم فلا يدخل في الآية! كأن آدم ليس إنسانا! وتأمل في الآية الثانية من سورة الإنسان! فستجد أنها مثل هذه، تؤكد ما نقول به وتنسف دعاوى المخالفين.

5- عجول: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [سورة الإسراء, ١١]

6- قتور: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة الإسراء, ١٠٠]

7- شديد الخصومة والجدال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الكهف, ٥٤]

8- ونختم بسمة ليست خلقية، وإنما هي توصيف لحال وواقع الإنسان، وفيها يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [سورة العصر, ٢]

والحق يقال، فلقد عجبت من التوصيف القرآني للإنسان، فكيف ينعت القرآن الإنسان بهذا النعت، فلما نظرت في حال البشر وتتبعت وحللت، وجدت أن هذا هو الأعم الغالب فيهم، وما يخالف هذا فهو الاستثناء النادر. إذا فالقرآن يقر مبدأيا أن الإنسان من الناحية الجسدية مخلوق في أحسن صورة، ومن الناحية النفسية فهو ضعيف، غير أنه لم يقر بهذا الضعف ليركز ويبرز مواطن الضعف هذه كما يفعل كثير من الغربيين، الذين يرون أن الإنسان ضعيف، ثم يقومون بتخليد مواطن الضعف بدلا من السعي إلى التخلص منها! وإنما يقر بالضعف ويمنح الإنسان برنامجا إعداديا متكاملا يُسخّر فيه الإنسان طاقاته وقدراته الموفورة، من أجل القضاء على مواطن الضعف والوصول إلى أكبر قدر من الكمال والقوة، ومن أجل هذا استحق التكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ[54] مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الإسراء, ٧٠]

[54] نرجو أن ينتبه القارئ الكريم إلى أن بني آدم مكرمون على كثير من خلق الله وليس على كل، لأن هناك من هو أقل من الأنعام.

لذلك لا عجب إذا وجدنا أن النداء القرآني للإنسان جاء مرتين، أحدهما تعجب والآخر تذكير، فقال له متعجبا من فعله ونسيانه لخلقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [سورة الانفطار, ٦-٨] وفي الموضع الثاني ذكّره بدوره وبحقيقة الحياة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [سورة الانشقاق, ٦] –وسنعرض لهذه الآية تباعا– فإذا نحن نظرنا في التوصيف القرآني للناس، وجدنا أن الخطاب لا يختلف، فبما أن الفرد سيىء فلزاما سيكون أغلب الجماعة كذلك!

فالناظر يجد أن التركيب "أكثر الناس" ورد في القرآن عشرين مرة، كلها مواطن ذم، أكثرها –إحدى عشر موضعا– في عدم القابلية للعلم! فعلى سبيل المثال يقول الله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧﴾ [سورة غافر, ٥٧]، ويقول: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [سورة يوسف, ١٠٣] ويقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٦١﴾ [سورة غافر, ٦١] إذا فالفرد تغلب عليه سمات السوء، وكذلك تسيطر على عامة المجتمعات الإنسانية.

وبما أن أسوأ صفة في الإنسان هي عدم رغبته في التعلم –ولذلك أكثر القرآن ذكرها– لا نعجب إذا وجدنا نداءات القرآن للناس –والتي هي أيضا عشرون مرة!– خطابات في مسائل بدهية، يفترض في أكثرهم معرفتها عقلا! فعلى سبيل المثال يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [سورة البقرة, ٢١] فمن خلق يستحق أن يُعبد، وهذه بدهية ولكن الناس مجادلون! ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾ [سورة فاطر, ٣] فالله

هو الذي أعد لنا كل هذا الكون وسخّره لنا، ولكنا ننسى فضل الخالق ونذكر فعل المخلوق! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [سورة فاطر, ١٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [سورة الحُجُرات, ١٣]

ونكتفي بهذا القدر، فالإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره. وهنا تظهر إشكالية كبرى؛ وهي: إذا كان القرآن يقر بضعف الإنسان وبسوءه، فكيف يظهر من هذا الإنسان سوبرمان؟!

يجيب العنصر القادم هذا السؤال.

خارق متاح

كارثة أو صدفة أو اكتساب وراثي أو ظاهرة طبيعية شاذة أو أي شكل آخر، هو ما يؤدي إلى ظهور إنسان خارق في الأدب العالمي، غربيا كان أو شرقيا، ويبقى الإنسان الذي لم يتعرض لهذه الصدفة أو لذلك الحظ السعيد عاجزا تعيسا!

ولكن الأمر مغاير بالنسبة للسوبرمان القرآني، فبرنامج التأهيل حقا يقر بحتمية وجود خارق من أجل إخراج إنسان أعلى، وبدونه يظل الإنسان تائها، إلا أن الخارق القرآني مختلف! فهو وإن كان إنسانا عاديا، لديه قدر من النقاط السلبية، إلا أن لديه مصدرا فوق طبيعي يستطيع به أن يتغلب على نقاط الضعف هذه ويكتسب بها قدرات تتجاوز قدرات المحيطين به. ولا يعنى هذا أن هذا الإنسان سيطير، أو سيخرج أشعة من عينيه، أو سيمتلك كمّا هائلا من العضلات يمزق الملابس!

فهذا كله من آثار الوهم المسيطر والمعشش في أذهان البشر، وإنما يعنى أنه سيستطيع أن يستخرج جل أو كل القدرات البشرية المخزنة لديه، والتي هي –كما ذكرنا سابقا– قدرات هائلة تحتاج فقط إلى توجيه سليم وإلى استخراج قويم. والخارق هو برنامج التأهيل ذاته، وهو متاح ومتوفر لجميع البشر، وتختلف استفادة كل فرد تبعا لتعمقه في دراسة المنهج وخضوعه له أو الإعراض عنه. ووجه الخرق في هذا البرنامج راجع إلى مصدره الإلهي المحيط فوق الطبيعي!

فالبرنامج يقدم نفسه على أنه مناسب لكل البشر في جميع العصور والدهور والأمكنة، وكاف لأن يُخرج من هؤلاء جماعات من السوبرمان، وذلك راجع إلى صدور البرنامج من نفس المصدر، الذي أخرج الكون والإنسان، وهو الرب الرحمن! والذي يقول عن نفسه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الملك, ١٤]، لذا فمن المنطقي بل والبدهي أن تنعكس كل سمات الكمال في هذا البرنامج، فيُخرج إنسانا فوق طبيعي! ونعود فنقول: إن البرنامج لا يقول أو يدّعي أن كل المتبعين له سيصبحون لا محالة سوبرمانات، لأن الدور الإنساني يتداخل سلباً مع الكمال الإلهي، من ليّ للنصوص أو إعراض عن بعضها أو عدم اتباعٍ كامل لأُخر، أما من يتبع البرنامج كاملا اتباعا تاما، فسيؤدي به لا محالة إلى أن يصير سوبرمان!

وبدهي أن يحيط هذا البرنامج الذي يؤدي إلى إخراج سوبرمان بجميع زوايا الإنسان، ويلبي جميع حاجاته الفكرية والنفسية، ويجيب جميع الأسئلة الخالدة، التي تبرز في ذهن الإنسان، كما يخاطبه بأسلوب يناسب إنسان القرن الثلاثين كما ناسب إنسان القرن السابع الميلادي!

ويتميز مصدر القوة للإنسان الخارق بأنه متاح للجميع، فهو موجود بلسانه العربي الأصيل، كما أن ترجماته متوفرة في جميع لغات العالم تقريبا، فمن أراد الحصول عليه والوصول إليه يستطيع ذلك بكل سهولة. إلا أنا ننبه أن الترجمات لا تحمل كل مداليل

وتصورات البرنامج الأصلي، لذلك فإنه من الأفضل الاستعانة والإحاطة قدر الإمكان بالخارق الثاني حتى نستطيع أن نصل إلى أفضل إحاطة بالخارق الأول!

الخارق الآخر!

قلنا أن الخارق المتاح هو القرآن الكريم، أما الخارق الآخر فهو اللسان العربي! قد يعجب القارئ عندما يقرأ هذه الكلمات، فكيف يكون اللسان العربي سلاحا خارقا، ينتفع به الإنسان حتى يصير سوبرمان؟![55] نوضح فنقول: اللسان العربي وإن كان لسانا من ضمن ألسنة كثيرة موجودة على سطح الكوكب الأرضي، إلا أنه اللسان الأم الذي تكلم به الإنسان الأول، -ولا يشبه ذلك اللسان بداهة لساننا الحالي كثيرا، فحتى الألسنة تتطور- وهو ذو نشأة إلهية، بمعنى أن الله هو الذي ألهمه آدم.

وبما أن الله هو الذي وضع أسسها وقواعدها، فمن المنطقي أن ينسجم اللسان العربي مع الكون كله. ومن المعروف أن اللغة ما جُعلت إلا كوسيلة للتعبير عما بداخل الإنسان وعما يقابله، وتفرد اللسان العربي بأنه اللسان الذي حمل في داخله سمات موصوفاته! فإذا كان في الموصوف خشونة، خشن اللفظ وإذا كان في الموصوف ليونة لان! وإذا كان حادا احتد، وإذا تشابه خلقان طبيعيان تشابه لفظهما نطقا. وعلى غرار قوانين الطبيعة في التولد والنماء كان اللسان العربي، فاحتوى قانون التناقض والتداخل والتشابه والتقاطع، إلخ القوانين الطبيعية! وبذلك كان اللسان العربي مفتاحا آخر يكتشف به الإنسان الطبيعة حوله، ويكتشف الكون ويكتشف نفسه![56]

---

[55] اللسان العربي من أهم ما زُودت به شعوبنا العربية وتميزت به عن باقي الشعوب، إلا أنها وللأسف البالغ أعرضت عنه كما أعرضت عن القرآن، وهمشتهما عظيم التهميش، لذا نُزع منها الصدارة والسيادة في السباق العالمي!

[56] مما يأسف له المرء ويأسى عموم المناهج الاعتباطية في فهم اللسان العربي -واللغات عامة- وفي التعامل معها، فضُيّع هذا السلاح الخارق المساعد كما ضُيع السلاح الرئيس -القرآن-، وما عاد الناس يعطون اللسان العربي حقه ولا يستخرجون منه كنوزه.

وحتى نزيل العجب من قولنا في منزلة اللسان العربي، نعرض بعض النماذج، التي توضح لزاما أن اللسان العربي[57] لسان ذو نظام قويم، يستحق به أن يكون اللسان الوحيد السليم وما عداه فمعوج!

أول مدخل لاكتشاف مصدر قوة اللسان العربي هو القول بالقصدية ونفي القول بالاعتباطية! فالمذهب السائد والعام هو المذهب الاعتباطي والقائم على أنه لا علاقة بين الدال والمدلول، أي أنه كان من الممكن أن يُسمى ذلك الحيوان الذي نركبه والذي له أنكر الأصوات حائط أو كتاب، بدلا من حمار! وكان من الممكن أن يُسمى البيت فضاء وهكذا! أما المذهب القصدي فهو قائم على وجود سمات ذاتية للحروف نفسها تتوافق مع سمات الموصوف أو لا تتفق،[58] ومن ثم يمكن إسقاط بعض الحروف (كلمة) على مدلول، بينما لا يمكن إسقاطها على مدلول آخر!

وعلى هذا فيمكننا القول أن الحروف نفسها تحمل معنى في ذاتها، فهي دال ومدلول في نفس الوقت، أي أن حرفا مثل الحاء أو الدال أو الراء يحمل معنى في ذاته، لأن هذا الصوت له بعض الصفات من رقة وغلظة وحدة وسرعة وبطء ومناسبة وتنافر وتكرار وثبات إلخ. وكذلك ما يوجد في الطبيعة من مخلوقات أو مجردات له بعض الصفات من رقة وغلظة وحركة وسكون وكبر وصغر.

ولما كان الإنسان الأول على فطرته وكان اللسان في ذلك الزمان لا يزال نسيجا بسيطا يُشكّل ويُغير، استعمل الإنسان النسيج اللغوي العربي الذي أعطاه الله إياه عبر سيدنا آدم ليسم ما يراه في الطبيعة بما يراه مناسبا من الحروف، وبهذا تكونت الكلمات بما

---

[57] سنستخدم اللسان العربي بإذن الله في كتابنا القادم "تهافت الملاحدة" في التدليل على وجود الله عزوجل!

[58] إن أكبر اعتراض على المنهج القصدي هو أنه لو كان في المدلول صفات ذاتية يستشعرها كل إنسان لما اختلفت لغتان! فنقول: لا بد أن نتذكر أن اللسان العربي هو اللسان الوحيد الذي استمر في السير تبعا للنظام الطبيعي –ولذلك استطاع حمل كتاب الله– أما باقي اللغات فدخلها الخلل والتحريف، ولا ننسى أن كل اللغات ما هي إلا ابتعاد بقدر ما عن اللسان العربي ونتج ذلك عن الهجرات والابتعاد عن المركز الذي خرج منه الإنسان! كما أنه علينا أن نتذكر أن التوصيف يختلف تبعا لمنظور كل جماعة بشرية إلى الصفة المميزة للموصوف، فعلى سبيل المثال: عظم عند الانجليز صفة *الدوران* والملازمة للباب القائم على محور لذلك قالوا: **door!** أما نحن العرب فنظرنا إليه من منظور آخر!

يناسبها من الأصوات التي هي أصل الحروف، وليست هكذا اعتباطا بدون أي مناسبة أو اعتبار[59]!

فإذا نحن أخذنا بهذا المنهج أمكننا أن نفهم الواقع عبر اللسان، ونفهم اللسان بالواقع! وحتى لا يدور الحديث في إطار التأصيل النظري نبدأ بعرض بعضا من أوجه النظام في اللغة العربية وكيفية توافقها مع الطبيعة؛وسنكتفي بنموذج واحد فقط، نوضح به التشابه بين بنية الكلمة وبين ظهورها في الطبيعة، وذلك عند مقارنتنا بين كلمتي "فسر" و"سفر" واللتان تدلان كلاهما على كشف وظهور، ونوضح كيف أثر اختلاف ترتيب الفاء والسين على ظهور المدلول في الطبيعة: -ونطلب إلى القارئ أن يتخيل كيف يتم بناء وإخراج هذه الكلمة في الفم، ويقارنها بوقعها في الطبيعة لير التوافق! "إن الحركة في (س ف ر) تخرج من احتكاكها بالسين المهموسة المصفورة المحتكة لتنضام بالفاء الشفوية المتضامة، ثم لتنطلق متمادية براء التكرير. وطبيعة سير الحركة هذه تشير إلى شيء ينساب محتكا بآخر وملاصقا له في تماد متطاول. وهذه الطبيعة توافق وتساوق تفسير القوم السفر بالكشط، من مثل الريح تسفر الأرض أي تكشط وجهها، والمرأة تسفر وكأنها تكشط القناع عن وجهها (...) وواضح أن كشف القناع أو كشف الستر عن أي شيء إنما هو حركة كشف. أمّا الشيء الذي ينكشف فيتمثل

---

[59] لا يمكن التعبير عن معنى الحرف بكلمة واحدة، وإنما يمكن أن يُختزل بصعوبة في جملة تشير إلى المدلولات الرئيسة للحرف. أما كيفية التوصل إلى المعنى الرئيس للحرف فعملية طويلة تحتاج إلى جهد جهيد من أجل جمع معاني الحرف الشاملة، ويحتاج الأمر فيها إلى تقص الكلمات التي ورد فيها الحرف ومراعاة الحروف الواردة في بناء الحرف نفسه بعد الصوت الأساسي له، يعني مراعاة "الياء والنون" في السين مثلا بعد الصوت "س" وكذلك طريقة بناء الحرف نفسه، فهل هو من المكررات الصوتية مثل "ن و ن" أو "م ي م" أو "واو" أو من من الممدودات المهموزة مثل "باء تاء ثاء حاء خاء راء طاء ظاء فاء هاء ياء" حيث يوجد إحدى عشر حرفا منتهية بنهاية واحدة بعد الصوت الأساسي للحرف وهذا يدل على وجود اشتراك في المدلول بدليل اشتراك المبنى، وكذلك مراعاة سمات الحرف الصوتية ومخارج الصوت من الفم وكيفية تشكله! وكذلك نبحث في معنى الحرف ككلمة فالحروف العربية هي الحروف الوحيدة في أي لسان في العالم، والتي يمكن فهمها على أنها كلمات ذات معنى معروف، وليس مجرد أصوات متتالية! ف "ألف" مثلا كلمة لها معنى معروف شامل، وهو كما جاء في المقاييس: "الهمزة واللام والفاء أصل واحد، يدلُّ على انضمام الشيء إلى الشيء، والأشياء الكثيرة أيضا"اهـ.

فبهذا كله يمكن الوصول إلى المدلول الإجمالي للحرف! فإذا نحن لاحظنا الفروق بين مدلول الحرف وبين مدلول مشابهه من خلال إسقاطاته في الواقع، استطعنا أن نعرف الفرق بينه وبينه داله في اللغة، ومن ثم يساعدنا على فهم غيره من الكلمات، واستظهار ما أُشكل من اللغة!

ب الفسر من (ف س ر). ونحن نسفر أي نكشط لنتوصل إلى الفسر الذي هو التوضيح. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الفسر لم يكن تكشفا ووضوحا إلا لأن الحركة خرجت من تضام الفاء، منسابة بالسين المهموسة المحتكة ومتمادية بالراء. وكأنها بذلك خرجت من الانغلاق إلى التفتح، وكأن حركة السفر خرجت من انسيابها بالسين إلى التضام بالفاء فالتمادي بالراء لتقوم بعملية الكشط التي تؤول إلى الخروج من الانغلاق، والدخول في التفتح. ولما كان الثنائي هو الأصل، وعليه تقوم وجه الحركة في أكثرها، وكانت نهاية الكشط في (سفر) –وهنا تتمثل النهاية بالفاء لأن الراء كمية واحدة أضيفت إلى كل من الصيغتين– هي بداية الفسر من (ف س ر)، فإن نهاية الكشط وبداية الكشف، أي نهاية (س ف ر) وبداية (ف س ر) الواحدة أدت إلى تقبل كل من الصيغتين معنى الكشف.[60]." اهـ

وأعتقد أن تتبع وجه الشبه بين الكلمة والطبيعة أمر عسير على القارئ، لأنه معتمد على ملاحظة الجدلية السارية في الطبيعة وكذلك السارية في اللسان، لذا فإننا سنكتفي بذكر بعض النماذج التي توضح التشابه بين الفعل في الطبيعة وبين اللفظ المقابل لها، وملاحظة هذا سهل يسير لكل إنسان:

التشابه بين: الفلق والفرق والفتق! ونطلب إلى القارئ أن يستحضر الفرق بين مداليل كل كلمة في ذهنه، كيف يُفلق الشيء وكيف يُفرق وكيف يُفتق! ويلاحظ كيف أن حرفا واحدا في منتصف الكلمة هو الذي أظهر هيئة هذا الخلاف.

"غفر" و "كفر" كلاهما يدل على التغطية والستر مع خلاف بسيط ظهر في استعمال الغين في كلمة والكاف في الكلمة الأخرى.

[60] محمد عنبر، جدلية الحرف العربي وفيزيائية الفكر والمادة، ص. 351،352.

"جمل" و"كمل" –لاحظ التقارب بين الجيم والكاف في النطق– فالجميل لا محالة كامل، ولكن لما كان في الجمال صفة زائدة عن الكمال، استعمل الحرف المناسب وهو الجيم، أما الكامل فقد يكون على الرغم من كماله غير جميل[61]!

وكذلك "خنس" و"كنس" فكلاهما يدل على الاستخفاء والتستر، ولكن قد يأتي الكنس بمعنى الكشف! "دق" و"رق"، "دق" و"دك"، "شطر" و"فطر"، "دفع"و"دفق".

وليست كل الكلمات المتقاربة المباني متقاربة المعاني، فقد يأتي حرف يحمل صفات مختلفة فيغير معنى الكلمة تماما، مثل: "فتق ورتق"، فالفتق عكس الرتق، وكذلك "غاض وفاض" فهما متضدان، وأظهر هذا الاختلاف حرف واحد[62]!

ونذكر بعض نماذج سريعة حول جانب واحد من جدلية الحرف العربي وهو احتواء الكلمة لضدها في ذاتها، ويُكشف هذا الضد عن طريق عكس الكلمة، فإذا عُكست بان الضد: إذا عكسنا كلمة "كتب" تكون "بتك"، الأصل في الكتابة هو جمعك الأشياء وضمها إلى بعض ومن ذلك الكتيبة، والبتك هو القطع أو التفريق. إذا عكسنا كلمة "عشق" تكون "قشع"، والعشق ارتباط وتعلق بشيء، والقشع أن تنقلع عنه وتبتعد عنه. "مرض" و"ضرم" فالمرض خمود وضعف والضرم قوة واشتعال، فالنار تمرض حين تخبو وتخمد وتقوى حين تضرم وتتقد. "فاض" و"ضاف": فالفيض خروج وابتعاد عن الشيء والإضافة ضم إليه.

---

[61] نلاحظ أن الحيوان المعروف اسمه "جمل" لأنه جمع سمات الكمال وزاد عليه جمالا! ونلاحظ أن أنثاه تسمى "ناقة"، ولاحظ أن الأناقة مشتقة من نفس الأصل "نوق"!

[62] الناظر في مسألة العلاقة الاشتقاقية بين المفردات العربية يجد عجبا، ولقد تعرض الإمام بن جني في كتابه الخصائص إلى هذه النقطة وأوضح كثيرا من أوجه التشابه بين الكلمات وبعضها، وكيف أن الكلمات ذات الأصول الواحدة والترتيبات المختلفة للحروف ذات علاقة في المدلول، أي أننا لو أخذنا كلمة مثل "كتب" فإنه لا بد من وجود علاقة بينها وبين "بتك" لأنها مبنية من نفس الحروف مع اختلاف الترتيب. ولقد أطال الأستاذ محمد عنبر في كتابه جدلية الحرف العربي في إظهار الجدلية الموجودة في الكلمات العربية، وفي إظهار العلاقة بينها وبين الواقع، وكيف يمكننا أن نقرأ الواقع من خلال اللغة العربية! والكتاب أكثر من رائع ويستحق الاقتناء.

"كور" ضد "وكر" فالوكر شيء مجوف والكرة شيء محدب[63]. "رضع" عكس "ضرع" فإن الارتضاع أخذ والضرع عطاء. "داس" عكسها مبنى ومعنى "ساد"، "وسد" ومنها الوسادة عكسها مبنى ومعنى "سود". "فرش" عكسها "شرف"، "مزح" عكسها "حزم".

وأعتقد أن القارئ قد بدأ يستشعر، بهذه النماذج ومنها، النظام البديع الموجود في لساننا العربي.

تطبيقات للخارق الثاني

ما علاقة هذا المبحث اللغوي السابق بالكتاب الذي يتحدث عن السوبرمان والقرآن، ولم الإطالة فيه؟! نقول: هذا التطويل ضروري لكي يتقبل القارئ هذه النماذج التطبيقية التي سنقدمها له. فلقد قلنا أن الإنسان يمكنه أن يقرأ الواقع والكون من خلال القرآن، وهذا متاح للجميع، وكذلك من خلال العربية، وهذا لا يكون إلا للعرب. وهنا سنعرض للقارئ بعض نماذج توضح كيفية استقراء الواقع من خلال اللغة والوصول إلى الوضع الأمثل فيه. ولأن الكتاب يدور حول الإنسان الأعلى، فإننا سنعرض نماذج إنسانية! فسنعرض ل: الإنسان، الرجل، المرأة/النساء، الحرية! وسنبصر كيف أن اللسان العربي أجاب منذ قديم الأزل على هذه الأسئلة، التي لا تزال البشرية تجادل فيها:

1- الإنسان

ما هو الإنسان؟ يعطينا الخارق الإجابة الطبيعية على صحفة من ذهب: كلمة إنسان على وزن فعلان، وهي مشتقة من ال أنس، فإذا نظرنا في المعاجم اللغوية بحثا عن

(63) لعل القارىء لاحظ أننا قمنا بقلب الحرفين الأولين فقط من الكلمة، وبقى الحرف الثالث كما هو، لأنه هو الذي يقوم بتحديد وجهة الأصل الثنائي.

المعنى، وجدناها تشفي الصدر في مسألة الإنسان، فابن فارس يقول في مقاييس اللغة: "الهمزة والنون والسين أصلٌ واحد، وهو ظهورُ الشيء، وكلُّ شيءٍ خالَفَ طريقة التوحُّش. قالوا: الإنْس خلاف الجِنّ، وسُمُّوا لظهورهم. يقال آنسْتُ الشيء إذا رأيتَه. قال الله تعالى: فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا]سورة النساء ,٦[. ويقال: آنَسْتُ الشيءَ إذا سمعتَه. وهذا مستعارٌ من الأوّل (...) والأَنْس: أنْسُ الإنسانِ بالشيء إذا لم يسْتَوْحِشْ منه." اهـ

فإذا نظرنا في اللسان ألفينا ابن منظور يقول: "والأَنْس: أنْسُ الإنسانِ بالشيء إذا لم يسْتَوْحِشْ منه. (...) ويقال للمرأَة أَيضاً إِنسانٌ ولا يقال إِنسانة، والعامة تقوله (...) الإِيناسُ: خلاف الإِيحاش، وكذلك التَّأْنيس. والأَنَسُ والأُنْسُ والإِنْسُ الطمأْنينة، وقد أَنِسَ به وأَنَسَ يأْنَسُ ويأْنِسُ وأَنُسَ أُنْساً وأَنَسَةً وتَأَنَّسَ واسْتَأْنَسَ؛ قال الراعي: أَلا اسْلَمي اليومَ ذاتَ الطَّوْقِ والعاجِ والدَّلِّ والنَّظَرِ المُسْتَأْنِسِ الساجي. والعرب تقول: آنَسُ من حُمَّى؛ يريدون أَنها لا تكاد تفارق العليل فكأَنها آنِسَةٌ به، وقد آنَسَني وأَنَّسَني." اهـ

ونلاحظ أن كلمة إنسان أتت على وزن فعلان، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة والزيادة، وتفيد الحدوث والتجدد والامتلاء بالسمة! فالسمة البارزة العالية المسيطرة فيه هي الأنس، وهي لا تكون إلا في تجمع وطمأنينة، نابعة من البعد عن الوحشية (الحيوانية)، فإذا نُزعت منه انتكس وصار وحشا كما كان سابقا! وكما رأينا فلقد لخص اللسان لنا أصل الإنسان وسر تميزه، من خلال توصيفه لذلك الكائن المتميز بأنه صاحب أنس، أي خلاف المتوحش، كما أنه كائن جماعي. وعلى هذا فيمكننا تعريف الإنسان من خلال اللسان على أنه: "كائن جماعي خارج عن الوحشية، ظاهر ومتحكم في باقي المخلوقات بعقله!"

وسيلحظ القارئ الفارق الكبير بين التوصيف اللساني أو القرآني للإنسان وبين التوصيف الغربي له، والذي يصر على وصفه بأنه حيوان! وكيف أن التوصيف الغربي له مؤد لا محالة إلى العودة والتمسك بكثير من الصفات الوحشية!

2– المرأة

من أشهر القضايا، التي تواجهها مجتمعاتنا المعاصرة، قضية المرأة؛ فكيف ينبغي أن نتعامل مع المرأة؟ هل من العدل أن يُقدم الرجل وتؤخر المرأة، أم كلاهما سواء ولا فرق، أم أن المرأة للبيت والرجل للعمل؟ اختلفت الإجابات حول هذا السؤال، وكل فريق وتيار متمسك بقوله في المسألة، ويراه الصواب الوسط في الأمر وما خالفه فمتطرف يمنة أو يسرة! فإذا بحثنا في الخارق الثاني عن حل لهذه المشكلة وتحديد للرأي الصائب، يعطينا الخارق رأي الطبيعة وربها كما خلقها! فإذا نظرنا في اللسان وجدناه أعطى ذكر الإنسان كلمة "رجل"، وأعطى إناث هذا الجنس كلمة "نساء"، وننظر في استعمالات كل كلمة منهما في اللسان، لنخبر ما يقول فيهما:

إذا نظرنا في لسان العرب، باحثين عن كلمة (رجل)، وجدناه يقول: "الرَّجُل: معروف الذكرُ من نوعِ الإِنسان خلاف المرأَة، وقيل: إِنما يكون رَجلاً فوق الغلام، وذلك إِذا احتلم وشَبَّ، (...) وتَرَجَّلَتِ المرأَةُ: صارت كالرَّجُل. وفي الحديث: كانت عائشة، رضي الله عنها، رَجُلة الرأْي؛" اهـ

فإذا نظرنا في المقاييس، ألفيناه يقول:"الراء والجيم واللام مُعظم بابِه يدلُّ على العُضو الذي هو رِجْلُ كلِّ ذي رِجْل. ويكون بعد ذاك كلماتٌ تشِذُّ عنه. فمعظم الباب الرِّجل: رِجْلُ الإنسانِ وغيره. والرَّجْل الرَّجّالة. وإنما سُمُّوا رَجْلاً لأنهم يمشون على أرجُلِهم، والرُّجَّال والرُّجَالَى: الرّجَال. والرَّجْلانُ الراجِل، والجماعة رَجْلى. قال:

عَليَّ إذا لاقَيْتُ لَيْلَى بخَلْوَةٍ   زِيارَةُ بيتِ الله رَجْلاَنَ حافيا

(...) ورجلٌ رَجِيلٌ وذُو رُجْلَةٍ، أي قويٌّ على المَشْي. ورَجِلْتُ أَرْجَل رَجَلاً. وترَجَّلْتُ في البئر، إِذا نزَلْتَ فيها من غير أن تُدَلَّى. (...) وأرْجَلْتُ الفصيلَ: تركْتُه يمشِي مع أمِّه، يرضَع متى شاء. ويقال راجِلٌ بَيِّن الرُّجْلَة. (...) وهذا كلُّه يرجِع إلى الباب الذي

ذكرناه. ومما شذّ عن ذاك الرّجُل: الواحد من الرِّجال، وربما قالوا للمرأة الرَّجُلَة. (...)"اهـ

فكما رأينا من خلال اللسان: ال "رج ل" أصل يدل على القيام والحركة والسعي، وأشهر ما عرف بذلك هو العضو المعروف (الرجل)، لأن هذه هي وظيفتها الأساسية، والراجل هو الماشي على رجله خلاف القاعد أو الراكب، لذلك قال الله تعالى ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [سورة الحج ,٢٧] فالناس ذكورا وإناثا تأتي راجلة وراكبة.

ولأن الرجْل هو الحركة والسعي والنشاط الظاهر، لم تُعط لمجرد الذكورية، وإنما أعطيت بعد البلوغ، لغلبة السعي والحركة والنشاط عليهم، وما شذ فنادر ولا يقاس عليه! ونلاحظ أن اللسان لم يمنع المرأة من اكتساب هذه الصفة فقالت في حقها: رجلة. ولكن لما كان هذا استثناءا لم يعم هذا مع النساء.

فإذا نحن فتشنا اللسان عن مدلول النساء، وجدنا أنه يدور في فلك التأخير والإزاحة، فابن منظور يقول في اللسان: "نَسَأَ الشيءَ يَنْسَؤُه نَسْأً وأَنْسَأَه: أَخَّره؛ فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنىً، والاسم النَّسِيئةُ والنَّسِيءُ. ونَسَأَ اللّهُ في أَجَلِه، وأَنْسَأَ أَجَلَه: أَخَّره. وحكى ابن دريد: مَدَّ له في الأَجَلِ أَنْسَأَه فيه (...) ونَسَأَ الشيءَ نَسْأً: باعه بتأْخيرٍ، والاسم النَّسِيئةُ. تقول: نَسَأْتُه البيعَ وأَنْسَأْتُه وبِعْتُه بِنُسْأَةٍ وبعته بِكُلأَةٍ وبعته بِنَسِيئةٍ أَي بأَخَرةٍ. (...) وتقول: اسْتَنْسَأْتُه الدَّينَ، فأَنْسَأَني، ونَسَأْت عنه دَيْنَه: أَخَّرْته نَساءً، بالمد. قال: وكذلك النَّسَاءُ في العُمُر، ممدود. وإِذا أَخَّرْت الرجل بدَيْنِه قلت: أَنْسَأْتُه، فإِذا زِدتَ في الأَجل زِيادةً يَقَعُ عليها تأْخيرٌ قلت: قد نَسَأْت في أَيامك، ونَسَأْت في أَجَلك. وكذلك تقول للرجل: نَسَأَ اللّه في أَجَلك، لأَنّ الأَجَلَ مَزِيدٌ فيه، ولذلك قيل للَّبنِ: النَّسيءُ لزيادة الماء فيه. (...) ونِسْوةٌ نِساءٌ إِذا تأَخَّر حَيْضُها، ورُجِي حَبَلُها، فهو من التأْخير" اهـ

وكما رأينا فإن النساء كلمة تدل على التأخير والإزاحة، وهذا يعني أن المكان الطبيعي للمرأة هو خلف الرجل، فليس من الطبيعي أن تتصدر المرأة وتواجه الصراعات والاحتكاكات وإنما يحدث هذا عبر الرجل، والمكان الطبيعي للمرأة هو ذلك المشهد الذي نراه كثيرا على ملصقات الأفلام، بأن نرى رجلا واقفا وتقف وراءه امرأة تنظر من خلف كتفه، ولا يبدو منها إلا رأسها وجزأ من أعلى جسدها! فهذا هو الوضع الطبيعي للمرأة، مواجهة للعالم عبر الرجل الحامي المانع الضارب –في الأرض وليس للمرأة!–

وليس من العجيب أن اللسان لم يهمل أي جزء من سمات المرأة، فهو لم يركز فقط على هذا الجزء وإنما حدد الدور الرئيس للمرأة، وهو دفع الرجل وتربية النشأ، فإذا نحن نظرنا في معجم العباب الزاخر وجدناه يقول: "نَسَأْتُ البعير نَسْأً: إذا زجَرْته وسُقتَه" اهـ وهذا الدور هو الدور الرئيس للمرأة، وهو أن تدفع الرجل إلى الأمام، ومن المعروف أن الدافع يكون دوما خلف المدفوع! لذلك قالوا خلف كل عظيم امرأة، تدفعه إلى الأمام. وكذلك دور المرأة الرئيس هو تربية النشأ ودفعه لمواجهة الحياة، وهذا أيضا نوع من النسأ.

ولا يظنن ظان أن اللسان عندما نعت الإناث بالنساء قد قلل من شأنهن، أو جعلهن أقل من الرجال، وجعل للرجل الفضل! لا، فهذا تحديد للدور في الطبيعة لجماعة الإناث، أما كإنسان فلقد أعطاها اسما هو أفضل أوكرم من المُعطى للرجل، فالأنثى البالغة اسمها "امرأة"! وهذا دليل على عموم وغلبة السمات الإنسانية في الأنثى! ف "امرأة" مأخوذة من " المروءة!

فإذا نظرنا في اللسان وجدناه يقول: "... والمُرُوءة: الإِنسانية، ولك أَن تُشَدّد. الفرَّاءُ: يقال من المُرُوءة مَرُؤَ الرجلُ يَمْرُؤُ مُرُوءة، ومَرُؤَ الطعامُ يَمْرُؤُ مَراءة، (...) وطعامٌ مَريءٌ هَنِيءٌ: حَمِيدُ المَغَبَّةِ بَيِّنُ المَرْأَةِ، على مثال تَمْرةٍ. وقد مَرُؤَ الطعامُ، ومَرَأَ: صار مَرِيئاً، وكذلك مَرِئَ الطعامُ كما تقول فَقُهَ وفَقِهَ، بضم القاف وكسرها؛ واسْتَمْرَأَه. وفي حديث

الاستسقاء: اسقِنا غَيْثاً مَرِيئاً مَرِيعاً. يقال: مَرَأَني الطعامُ وأَمْرَأَني إِذا لم يَثْقُل على المَعِدة وانْحَدَر عنها طَيِّباً. وفي حديث الشُّرْب: فإِنه أَهْنَأُ وأَمْرَأُ." اهـ

إذا فالمرأة هي جماع سمات الإنسانية، ولظهور هذه السمات فيها سميت امرأة، كما أن المرؤة ليونة وخفة وعدم ثقل، وهذا ما ينبغي أن يكون في الأنثى. فأنظر كيف حدد اللسان بكل دقة دور الأنثى في الجمع (نساء)، وكيف حدد سماتها بكل دقة عند النظر إليها كفرد (امرأة).

وكما رأينا، قدم اللسان العربي الحل الأمثل والفهم الأقوم لمشكلة من أعوص المشكلات التي تقابلنا، ورأيه هو رأي الطبيعة، والتي لا تحابي أحدا.

3- الحرية

تعتبر الحرية من أهم القضايا المعاصرة، وهي محل جدل شديد حول تحديد! نطاقها، وحول تعريفها! والفرق بينها وبين الانحلال أو الفوضى!

فإذا سألنا اللسان العربي، منحنا جواب هذه المسألة، فإذا نظرنا كيف استعمل اللسان العربي الأصل "ح ر"، كما جاء في مقاييس اللغة، وجدنا ابن فارس يقول:" الحاء والراء في المضاعف له أصلان: فالأوّل ما خالف العُبودِيّة وبَرِئ من العيب والنَّقص. يقال هو حُرٌّ بيِّنُ الْحَرُورِيّة والحُرّيّة. ويقال طِينٌ حُرٌّ: لا رمْل فيه. وباتَتْ فلانةُ بلَيْلَةِ حُرَّةٍ، إذا لم يصل إليها بَعْلُها في أوّلِ ليلَةٍ؛ فإنْ تمكَّن منها فقد باتَتْ بليلةِ شَيْبَاءَ. (...) ويقال حَرَّ الرّجلُ يَحَرُّ، من الحُرِّيّة. والثاني: خلاف البَرْد، يقال هذا يومٌ ذو حَرٍّ، ويومٌ حارٌّ. والحَرُور: الريح الحارّة تكون بالنهار واللَّيل. ومنه الحِرَّة، وهو العطَش. ويقولون في مَثَلٍ: "حِرَّةٌ تَحْتَ قِرَّةٍ.ومن هذا الباب: الحَرِير، وهو المحرور الذي تداخَلَهُ غيظٌ من أمرٍ نزل به. وامرأةٌ حريرة." اهـ

نخرج من هذا أن الحرية في اللسان العربي هي علو أبيّ! فالإنسان الحر ذو نفس عليّة، فيأبى الاستعباد، والطين الحر هو ما خلا من الرمل، واليوم الحَار هو ما علا عن البرد، وهكذا! لذا يمكننا القول أن الحرية هي: اتجاه ذاتي دافع إلى التخلص من الشوائب والعيوب والدنية!

ويمكننا أن نفهم الحرية كسلوك إنساني بأمثل وجه في سلوك الإنسان العربي القديم، فلقد كان عزيز النفس بدرجة كبيرة، لأن الحرية كانت تسري في دمه، فأبى الإهانة بالكلمة أو بالفعل، فثار على كل مظلمة كبيرة كانت أو صغيرة. ولكن مشكلة العربي القديم أنه لم يحاول أن يهذب الحرية (الحرورية) فظلم وطغى، فجاء الإسلام وعلمه متى يثور ومتى يسكن ويخمد!

فإذا نحن قارنا منظور اللسان العربي للحرية بالمنظور العالمي لها، وجدنا أن المنظور الآخر ليس له أي علاقة بالحرية، فالإنسان الغربي أو حتى العربي المعاصر ما عاد حُراً بأي حال، بل صار إنسانا ذليلا خاضعا يتقبل الإهانة ويرضى بعيوبه، ويسكت على الاعتداء على القريب والغريب! وما عادت نفسه تحرّه ليقوم فيرفع الظلم أو يُحسِّن نفسه، وإنما رضي بالاستكانة لأنه .. حيوان! ولأنه ناقص وعليه أن يعترف بهذا النقص، بدلا من أن يصلحه! ونذكر بعضا من تعريفات الحرية، ليُعرف كم هي بعيدة كل البعد عن المعنى الأصيل لها:

يُعرف جون لوك الحرية بأنها: القدرة والطاقة اللتان يوظفهما الإنسان لأجل القيام بعمل، معين أو تركه.

ويرى جون استيوارت ميل أن الحرية هي: قدرة الإنسان على السعي، وراء مصلحته التي يراها بحسب منظوره، شريطة أن لا تفضي إلى اضرار الآخرين. ويرى إيمانويل كانت أن الحرية هي: استقلال الإنسان عن أي شيء إلا عن القانون الاخلاقي.

فإذا تركنا التعريفات الغربية وأخذنا تعريفا شرقيا، وجدنا الاستاذ آية اللّه جوادي آملي، يعرف الحرية من المنظور الإسلامي بأنها: التفلت والتحرر من عبودية وطاعة غير اللّه تعالى.

فانظر إلى سطحية هذه التعريفات وسذاجتها، فتبعا لهذه التعريفات فالإنسان الذي يصحب كل يوم عاهرة إلى المنزل هو حر، والإنسان الذي يرى الاعتداء على الآخرين ويصمت هو حر، والإنسان الذي يُعتدى عليه ولا يرد فهو حر، لأن له الحرية في الرد من عدمه، والإنسان الذي لا ينقي نفسه من العيوب والنقائص هو حر[64]، لأنه لم يؤذ الآخرين. ولست أدري كيف ينبغي أن تكون سمات الإنسان المستعبد الدني إذا لم تكن هذه هي؟!!

إني أجزم وأؤكد أن السمات النفسية لما يزيد عن خمس وتسعين في المائة من البشرية هي صفات عبيد، والفارق بينهم وبين العبيد القدامى، أن القيد الحديدي كان ظاهرا في أيديهم، أما الآن فلا تظهر القيود، التي تغطي الإنسان من رأسه إلى أخمص قدميه! ثم يدعي أنه حر! لقد كان مع نيتشه كل الحق في الثورة على أخلاق العبيد المسيطرة، ولكنه تطرف في تقديم البديل لهذه الأخلاق الدنية المصبوغة بصبغة الحرية الزائفة! وحتى التعريف الذي ذكره الأستاذ آية الله فهو تعريف غير جامع.

أما تبعا للسان العربي فهو كما قلنا: اتجاه ذاتي دافع إلى التخلص من الشوائب والعيوب والدنية! فالحر هو من لا يقبل الظلم أو الاستعباد لنفسه أو للآخرين، وهو الذي يترفع عن الدنايا والأوساخ وينقي نفسه من العيوب! وبهذا يكون الإنسان حرا طليقا، يتحرك كما ينبغي له أن يتحرك، لا كما يسوقه الآخرون، ثم يوهمونه أنه حر طليق!

[64] "عبد" أصل يدل على الخضوع والذل والمطاوعة، ومن ذلك "طريق معبد" أي ممهد! فالإنسان الذي يخضع لهواه ولنزواته ولا يقاومها ليس حرا، وإنما هو عبد لا محالة!

وأعجب كثيرا من تبدل حال العرب تجاه الحرية، فبعد أن كانوا أحر شعوب العالم، انقلب حالهم بدرجة عجيبة، فأصبحوا أذل شعوب العالم، وما عاد لهم ذكر، حتى أن نيتشه عندما تكلم عن سمات الشعوب، وأن هناك شعوب تحمل وشعوب تُخصِّب، لم يعرض للعرب بتاتا فقال: "وعلى النحو عينه يوجد بين الشعوب العبقرية شعوب قُدر عليها مهمة الحمل الأنثوي والتشكيل والإنضاج والإكمال الخفية. ومنهم على سبيل المثال الإغريق وكذلك الفرنسيون. ونوع قدر عليه أن يُخصب ويصير سببا لإنشاء نظم حياتية جديدة كاليهود والرومان (وأسأل بكل تواضع، والألمان؟) شعوب تتأجج فيها حمى مجهولة، حمى تلوعها وتفتنها وتحثها بإلحاح لا يقاوم على الإنطلاق خارج ذاتها. شعوب تهوى وتشتهي أعراقا غريبة، (تلك التي تقبل التخصيب)، وتطمح في آن واحد إلى السيادة"[65] اهـ

فنيتشه يرى أن اليهود والرومان شعوب مخصِّبة، ولم يعرض للعرب، مع أن العرب هم الذين يُفترض فيهم أن يحملوا مشعل تخصيب العالم كله، لحريتهم ولخارقيهم: اللسان والقرآن، وبهما ينبغي أن يُخَصّب العالم كله، ولكن لما سُلب اللسان وأُهمل القرآن، خمدت شعلة الحرية، وعمت بلية العبودية!

[65] فريدريش نيتشه، ما وراء الخير والشر تباشير فلسفة للمستقبل، تعريب جيزلا فالور حجار، مراجعة موسى وهبة! ص.226.

الفصل الثالث: منهج فاعل

قبل أن نعرض الخطوات اللازمة لعملية السوبرة، نرى أنه من الضروري توضيح آلية الخطاب القرآني للإنسان، وذلك حتى يستطيع المتبع المتلقي أن يستفيد من القرآن عظيم الاستفادة، وبدون توضيح هذه الآلية يقل النفع كثيرا. فإذا وعى القارئ هذه الآلية، أدرك بنفسه فاعلية وصلاحية المنهج للتطبيق في كل زمان ومكان، وأعد نفسه للتعامل مع الكون من المنظور، الذي يؤسس له القرآن ويقدم.

تصور شامل

أمر القرآن أمراً مطلقا عبر كل العصور بالقراءة، ولم يكتف بهذا عند الحديث عن نفسه وإنما أمر كذلك بالتدبر، معلنا خلوه وعلوه عن الخلاف –والتناقض تبعاً– فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾]سورة النساء, ٨٢[فلا بد أن يحتوي هذا الكتاب على تصورات شاملة صالحة لتقديم الجديد للبشرية في كل العصور، وإلا يكون قد حكم على نفسه بالموت ... بنفسه.

وعلى الرغم من أن القرآن كتاب قديم، –أُنزل منذ ما يزيد عن ألف وأربعمائة عام– إلا أنه قدم للبشرية تصورا شاملا حول حياتها ومستقبلها، هي وعالمها، فما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا قدمها صريحة للإنسان على صحائف من نور، وفي هذا يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾]سورة الأنعام, ٣٨[وذلك راجع إلى أسلوب تناوله وعرضه لقضاياه، فلقد أجاب كل الأسئلة الخالدة التي تدور –أو يجب أن تدور– في ذهن كل

إنسان، يوجد على سطح هذا الكوكب، وإلا فإنه لا يستحق أن يكون إنسانا وينخفض إلى درجة "الموت/الحيوانية".

وللأسف الشديد نجحت الرأسمالية في إلهاء عامة الناس عن هذه القضايا المصيرية، فأصبحت لا تمر في ذهن البشري إلا عابرة، وسرعان ما يطردها من رأسه لينشغل بقضاياه المصيرية! وهذه الأسئلة الخالدة التي غفل عنها عامة الناس هي: كيف نشأ هذا العالم، وإلى ما يسير، وهل هناك حقا خالق لهذا العالم؟ وإذا كان موجودا فكيف يكون، وما هو موقعه بالنسبة للعالم؟ ومن أين أتت البشرية، ولم وُجدت وإلى ما تسير؟ وكيف أواجه هذا العالم الجديد الطارئ، لأحيا فيه على أمثل وجه؟ وهل أنتهي بمجرد موتي أم أن الموت هذا مجرد انتقال من مرحلة إلى أخرى، وتحور من شكل إلى آخر؟

وعلى الرغم من أن هذه الأسئلة هي من الأهمية بمكان، ولا يجوز لأي إنسان بحال من الأحوال أن يغفل عنها أو يتناولها تناولا سطحيا، فهي المحرك الرئيس الدافع للإنسان، إلا أننا، وللأسى البالغ، نجد عامة البشر ما شغلوا أنفسهم بها ولا عرضوا لها، وإذا حدث وتناولوها يكون تناولهم لها تناولا سطحيا، وسريعا ما يعرضون عنها ويحصرون جل همهم في مطالبهم الحيوانية أو البهيمية[66]، ويتقاتلون عليها، واكتفوا بدور المستمع المتلقي الذي يأخذ ما يعطيه له الأخرون.

وللأسف لم يكن هذا التلقي أو الأخذ محكوما بمعايير علمية أو منطقية وإنما كان خاضعا لمبدأ واحد وهو مسايرة المجتمع والاتباع للأعم السائد، وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾ [سورة الزخرف ,٢٢]، فتقبلَ عامة الناس الموروث الاجتماعي في هذه المسائل من خلال أديانهم. ولكن كان هناك دوما طائفة مفكرة لم ترضخ لهذا الموروث، فبحثته ومحصته، حتى تأكدت تماما أنه غير صالح ولا صحيح، وأنه لا يمكن أن يكون حاملا

---

[66] قد يرضى البشري بالمرتبة الحيوانية، ثم يزداد تخلفا فينحدر إلى المنزلة البهيمية المغرقة في اتباع الشهوات، فالحيوانية مرتبة لا شر فيها، لاكتفائها بإشباع الرغبات الجسدية، ولكن البقاء فيها مؤد في أغلب الأحايين إلى البهيمية، وقد يرتفع الإنسان عنها ويرتقي –ولكن بالسلب– إلى المرتبة الوحشية، فهذا ارتقاء ضار، على البشر تجنبه والتوجه إلى الارتقاء الإيجابي بالإنسانية!

للخاتم الإلهي، فأعرضوا عن الدين جملة وتفصيلا وأخذوا يبحثون عن الهداية في المذاهب البشرية! وعلى الرغم من أن تجاربهم وبحوثهم انحصرت في أديانهم، ولم تتجاوزها إلى غيرها، وإذا حدث وتجاوزوها، فإن دراستهم تكون دراسة سطحية، إلا أنهم أصدروا الحكم النهائي بإدانة كل الأديان وأنها غير صالحة أو كافية في الإجابة على هذه الأسئلة!

ونحن نقر ونسلم معهم أن أديانهم هذه إما صياغات بشرية لبواقي أديان إلهية، أو أنها من الأساس اختلاقات بشرية محكومة بأزمانها، لذلك لا تصلح بحال لأزماننا هذه، أما الأمر مع القرآن فيختلف! ونحن ندقق الاستعمال ونقول "القرآن" ولم نقل الإسلام، حيث أن علمائنا الأفاضل أدخلوا في الدين وألحقوا به ما ليس منه، وتحمل الإسلام وزر هذه الإضافات التي تحملها، لذا فنحن نقر فعلا أن الإسلام بهذا الشكل الذي يقدمه العلماء[67]، يحتوي كذلك قدرا من الخرافة التي أساءت إليه، وكذلك نجزم أن الإسلام الأصل، والذي هو القرآن والسنة التابعة له فقط، لا يحتوي أي قدر من الخرافة، ومناسب لجميع العصور والأزمان، ويقدم إجابات وتصورات علمية راقية، لم يصل إليها في زماننا هذا كثير من الباحثين. والمشكلة أن التصور السائد عن الدين هو الذي أدى إلى هذا الرفض للمحتويات الدينية المقدمة، وذلك لأن عامة ما قابله الناس محتوى خرافي انعزالي!

وظهر هذا التأثر في التعريفات المختلفة للدين، والتي قدمته للبشرية بشكل معمم منفّر. وبما أننا نتكلم عن التصور العام الشامل، نقوم بتقديم تصور البشرية للدين، وكيف صوّر الدين الحنيف نفسه، لير القارئ بذاته كيف أن الخطأ ليس في مسائل فرعية وإنما هو في الأصول التي يُبنى عليها العالم كله، ونترك للقارئ تصور كمية الخطأ والضلال إذا كانت القواعد فاسدة.

---

[67] نحن نقصد بذلك إلحاق أي قول غير أقوال الرسول الصحيحة التابعة للقرآن، فليست أقوال الصحابة أو أهل البيت أو التابعين من الدين في شيء، نعم هي أقوال لها وزنها في مجالات عدة كالفقه مثلا، إلا أنها احتوت تأثرا بالمجتمع وبالبيئة وبالخرافات السائدة في عصورهم، وبها *فسروا* القرآن. وأقوالهم ليست بحجة وإنما ينبغي أن تصنف كأقوال واجتهادات حول القرآن ليس أكثر.

صورة الدين

اختلفت التعريفات البشرية في أمر الدين اختلافا شنيعا، يكاد يسقطها جميعا، لخلوها جميعها من الشرط الرئيس لأي تعريف، وهو كونه جامعا مانعا، فلم تمنع تلك التعريفات من دخول غير الأديان، كما أنها لم تجمع كل الأديان تحت عباءتها! وخلل التعريف راجع إلى خلوه من الاستقراء الشامل، الذي يجمع كل الأفراد، ولتأثر المُعرِّف بالدين الذي عايشه وبأفعال أتباع الدين!

وننظر في أشهر التعريفات الغربية للدين، فنجد أن إيميل دوركايم، عالم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي، يقول في تعريف الدين: "هو نظام متسق من المعتقدات والممارسات، التي تدور حول موضوعات مقدسة، يجري عزلها عن الوسط الدنيوي، وتُحاط بشتى أنواع التحريم، وهذه المعتقدات والممارسات تجمع كل المؤمنين والعاملين بها في معنوية واحدة تُدعى كنيسة".

وبيّنٌ ظهور آثار المسيحية في التعريف! كما أنه أغفل جوانب عدة في الدين!

فإذا نظرنا في تعريف قاموس أكسفورد للدين، وجدناه يقول: "التسليم أو الاعتراف بوجود قدرة متحكمة فوق بشرية، وخصوصا الإله ذو الطبيعة الواعية، وهذه القدرة تدعي الحق في طاعتها."، وهذا التعريف أفضل من سابقه كثيرا، وهو يُعد من أفضل التعريفات الغربية للدين، إلا أنه لا يحيط بجميع جوانب الدين، -كما تظهر من خلال كلمة: دين.

وهناك من يرى أن الدين هو استرضاء القوى، التي يُعتقد أنها تتعالى على الإنسان، والتي يُعتقد أنها تدبر مجرى الطبيعة وتوجه حياة البشر.

وهذا التعريف يحيط به النقص من جميع الجوانب! وهناك من راعى جانبا واحدا في الدين —وهو لبه- كما فعل ماكس موللر عند تعريفه للدين، حيث قال:"الدين هو

السعي إلى إدراك مالا يمكن إدراكه، والتعبير عما لا سبيل للتعبير عنه، والجنوح إلى اللامتناهي .. وهو حب الله".

وهذا التعريف لا يزيد بداهة، عن كونه تعريفا لعلاقة صوفية بين الخالق والمخلوق. فإذا نحن تركنا هذه التعريفات واتجهنا إلى تعريف سالمون ريناك، وجدناه ليس تعريفا للدين بحال! فهو يقول: "الدين هو مجموعة من التورعات التي تقف حاجزاً أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا، التي يؤمن بها لأنه يشعر بأنه خاضع لها، وتظهر هذه العلاقة بأحاسيس خاضعة (رجاء وخوف) وبأفكار (معتقدات)".

ولست أدري كيف يمكن اعتبار هذا الكلام تعريفا للدين!

وكما رأينا، فإن التعريفات الغربية كلها تعريفات غير محيطة، وهذا نابع من تأثرها بالديانتين المسيحية واليهودية. فإذا انتقلنا إلى التعريفات الإسلامية المعاصرة، نجد تقاربا في تعريف الدين، وذلك راجع إلى نبعها من المنظور الإسلامي له. ومن أفضل التعريفات للدين، تعريف العلامة محمد عبد الله دراز: "الاعتقاد بوجود ذات أو ذوات –غيبية– علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان، اعتقاداً من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد" وبعبارة موجزة، هو "الإيمان بذات إلهية، جديرة بالطاعة والعبادة." هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين. أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول: "هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها.[68]" اهـ

وكذلك ما ذكره الدكتور محمد الحسيني إسماعيل فيعرفه بأنه: "منهاج الخالق الصادر عنه واللازم لتعريف العوالم به (صفات وفعل)، وتحديد غاياته من خلق الخلق على وجه مطلق، ومنها الإنسان على وجه التحديد![69]" اهـ

[68] محمد عبدالله دراز، الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص. 52.

[69] محمد الحسيني إسماعيل، الحقيقة المطلقة: الله والدين والإنسان، ص.209.

ونقطة الخلاف الرئيسة بين التعريفات الإسلامية للدين والتعريفات الغربية هي في التركيز على مصدر الدين الإلهي، وكذلك في دور العبادة عند المتلقي؛ فالدين عند المسلمين هو منهج إلهي شامل محيط، يُعرف الناس بالإله وبغاياتهم في الحياة، منهج كامل متكامل منزل بالكلمة، ليس للبشر أي دور في صياغته أو تأليفه، وإنما كل دورهم هو الاجتهاد في فهمه واتباعه. فإذا حدث وتدخل البشر –كما فعلوا في الديانات السابقة مثل: اليهودية والمسيحية– من تلقيح وتنقيح، لا يبقى المنهج صالحا وذلك لضياع الأصول! والتعريفات الإسلامية للدين تنطلق من إعطاء تعريف للدين الصحيح، أو لما ينبغي أن يكون عليه الدين، وإلا فالإسلام نفسه يعترف بكل دين مهما كان خرافيا أو بدائيا، ويكفي أنه قال للكافرين: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۞﴾ [سورة الـكافرون ,٦] فاعترف بعبادة الأوثان وعدّ هذا دينا. فهي تنطلق في هذا التحديد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ... ۞﴾] سورة آل عمران ,١٩]"، فالدين الحق الذي هو دين هو الإسلام! وحتى يظهر جليا ماذا نقصده ب: الدين الذي هو دين هو الإسلام، نقول: إننا نتفق مع التعريف السابق للدكتور محمد الحسيني، إلا أننا نزيد عليه: "... مع توفر عنصر الإدانة!". وحتى تتضح الصورة أمام القارئ، نرجع معه إلى المعان الأصلية في اللسان، فإذا قصدنا معجم مقاييس اللغة لابن فارس وجدناه يقول: "الدال والياء والنون أصلٌ واحد إليه يرجع فروعُه كلُّها. وهو جنسٌ من الانقياد والذُّل. فالدِّين: الطاعة، يقال دان له يَدِين دِيناً، إذا أصْحَبَ وانقاد وطَاعَ. وقومٌ دِينٌ، أي مُطِيعون منقادون. قال الشاعر: والمَدِينة كأنّها مَفْعلة، سمّيت بذلك لأنّها تقام فيها طاعةُ ذَوِي الأمر. (...) ويقال: دِنْتُ وادَّنْتُ، إذا أَخَذْتَ بدَينٍ. وأدَنْتُ أقْرَضْت وأعطيت دَيْناً. " اهـ

والمعاني الواردة تحت الدين كثيرة، ولكنها توضح أن هذه الكلمة من الأضداد، والتي تأتي بالمعنى وضده، فإذا نحن فهمناها على هذا الشكل ارتفع الإشكال، فالدين خضوع وذل من طرف لآخر، وهو في نفس الوقت تملك وتحكم وسيطرة من الطرف الآخر، وأشهر أنواع هذا التحكم والسيطرة تظهر في التعاملات المالية لذلك غلب

عليها اسم الدين. فإذا أخذتُ من إنسان مال فأنا مدين له، ويجب عليّ رد الدين له، وأكون في هذه الحالة خاضعا وأشعر بالدونية تجاه هذا الإنسان، فأنا مدين وهو دائن.

وهذه الصورة هي التصور الأمثل للعلاقة بين الإنسان والدين الصحيح! فيجب في الدين أن يكون دائنا للناس، فيقدم لهم ما يقيم به عليهم الحجة، فلا يكون لهم أي عذر في مخالفته، فإذا لم يفعل فقد ترك للناس الحجة في المخالفة، فلا يكون دائنا.

كما يجب عليه أن يقدم لهم من العلوم ما هم دوما في حاجة إليه، وبذلك يكون له الفضل عليهم، ويكونون هم دوما مدينين له، لأنه قدم لهم مسبقا الخطوات اللازمة والطريق الحتمي للتقدم إلى الإمام، فإذا هم أعرضوا عن الطريق وبحثوا بأنفسهم فسيكتشفون بعد سعي طويل صحة ما قدمه لهم الدين قبل زمان طويل! ولكنهم يضيعون بهذا دهرا طويلا بسبب عنادهم.

وهذا هو مسلك البشرية منذ قديم الدهر حتى الآن: الإعراض عن المنهج والتخبط في الطرق المختلفة، ثم الاكتشاف أن أقصر الطرق هو ما قدمه المنهج الصحيح في كل نواحي الحياة. ويختلف زمن اكتشاف صحة ودقة المنهج، فمنهم من يكتشفه في الدنيا ومنهم من يتذكره عند موته ومنهم من يتعرف عليه عند بعثه، عندما يدينه الله عزوجل، معلنا له أنه لم يتصرف تبعا للهبة التي وهبها إياه وميزه بها عن باقي الحيوانات وهي الروح –العقل[70] تبعا للمصطلحات المعاصرة–، وإنما أصر على العناد والتصرف خلافا لهبة الرحمن، وكذلك إدانته لأنه أضر نفسه بمخالفة المنهج القويم، الكافي لهداية البشرية إلى ما فيه تقدمهم في كل المجالات، وأهمها المجال

---

(70) إذا نظرنا في القرآن لا نجد أي ذكرٍ لصيغة اسمية لكلمة "عقل"، فنحن لا نجد في القرآن "عقل" أو "عقول" أو "عاقل" أو "معقول"، وإنما يذكر دوما صيغة فعلية "يعقلون، تعقلون، عقلوه".

نخرج من هذا بأن العقل ليس التوصيف الأمثل لجامع العمليات "الذهنية" للإنسان، لأنه ما من توصيف كامل لها، وإنما هي كلها من نتاج الروح!

أما تعريفنا نحن لعملية العقل فهو: تلك العملية الفكرية التي تأتي كمرحلة تالية لاستقبال المدركات، والتي لها القدرة على تثبيت المدخلات والتصرف في الأحوال المختلفة تبعا للموقف الذي يواجهه المرء، بما لا يسبب له ضررا آجلا أو عاجلا.

الإنساني، والذي منه ينطلق الإنسان في الطريق الصحيح وبالطريقة السليمة في اكتشاف الكون والتعامل معه، ومنه وبه يصل إلى حقيقته وحقيقة نفسه .. وربه!

إذا فالدين يقدم نفسه على أنه عنصر إدانة للبشرية، لأنها تعمدت العمى والتخبط بتركه، وعنصر إثابة[71]، على الإنسان أن ينظر إليه على أنه أجر وجزاء حسن على الرغم من كونه تكليف في عين الوقت! ولكن للأسف البالغ فإن عامة المسلمين لا يزالون غافلين عن كون دينهم أجر قبل أن يكون تكليف وإلزام، -وهذا هو سر تخلفهم-، عنصر كامل متكامل غير قابل للتجزئة والتعضية، أما تلك الأديان القابلة للتقطيع والبتر، وأخذ ما يحلو للبشري وترك ما لا يناسبه، فلا يمكن أن تكون بحال عنصر إدانة، لأنها هي نفسها مدانة باحتوائها على التناقضات واللامنطقية والاختلاف! أما ذلك الدين الحنيف، والذي هو كتاب -واجب القراءة والتدبر- فهو التصور الشامل الدائن للناس، الضام لكل ما يحتاجه الإنسان في كل الأزمنة.

كتاب .. ولكن

إذا قلنا أن المنهج هو كتاب خارق ذي مصدر فوق طبيعي، فهذا يؤدي بنا إلى إشكال قديم، وهو أن وجود كتاب مثل هذا مؤد لا محالة إلى ظهور طبقة من البشر تدعي لنفسها فهم هذا الكتاب وتنفيذ أحكامه على أرض الواقع، وعلى باقي البشر إطاعتها والخضوع لها، وهي طبقة الكهانة التي عانى منها البشر وكان نيتشه يشكو منها ويعدها ثقلا على كاهل البشرية!

فنقول: نعم، المنهج هو كتاب، ولكنه كتاب مختلف عن باقي الكتب، فهو كتاب ميسر مبسط لا يحتاج الإنسان إلى وسيط من أجل فهمه، لذلك قال الله تعالى مرارا:

---

(71) نطلب إلى القارئ أن يراجع تناولنا لسورة التين في كتابنا "قراءة لسور الطعن"، والتي عرضنا فيها أن الدين -الإسلامي- تكليف وأجر في نفس الوقت، فالالتزام به هو عين الأجر في الدنيا، وله الجزاء العظيم في الآخرة!

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر] , فهذا الكتاب غاية في الوضوح، فغموض الخطاب نابع من نقص البشر، لعجزهم عن التوصيف الصحيح لما يريدون، أو لطروء أي سبب يؤدي إلى عدم الدقة، فيظهر الغموض، أما كتاب الله تعالى فيقول في حق نفسه: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [سورة هود ,١] ويقول: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [سورة الفرقان ,٣٣]، فالكتاب آياته محكمة ومفصلة ومفسرة ذاتيا، فلا تحتاج إلى طبقة مخصوصة للتعامل معه، وإنما تحتاج فقط إلى ما قاله منزله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [سورة ص ,٢٩]

فعلى كل إنسان أن يتدبر القرآن بنفسه ليصل إلى اليقين التام، وليحقق التبعية الكاملة، بأن يتلقى أمره مباشرة من الإله الخالق وليس من بشري مثله، أما أن يترك التدبر فهو مخالف لأمر الله. ومما يُؤسف له، أن التقليد في الفروع والأصول! أصبح هو العام السائد في واقع المسلمين، وإذا حدث وظهر من ينادي بوجوب اجتهاد كل مسلم في معرفة أحكام دينه بنفسه –كما فعل الإمام ابن حزم في الماضي– هاجمته أبواق عدة، وهاج وماج كثير من المشائخ ورموه بالمخالفة، كأنه يدعو إلى بدع من القول، مع أنهم كلهم لا يستندون إلى دليل واحد في دعواهم في جواز التقليد،حتى في الفروع. والحق يقال أن معهم الحق فيما يقولون!

وذلك لأنهم أدخلوا في الدين الكثير والكثير من الأمور، التي لا علاقة لها به، فأصبح من المستحيل حقا أن يعي الإنسان غير المتفرغ للدراسة كل ما أدخلوه في الدين! أما نحن فنحصر الدين في الكتاب والسنة التابعة له فقط، وما زاد عن ذلك فهو من التراث[72]

[72] ناقشنا في كتابنا السابق "عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام" مسألة التقليد الأصولي، وبيّنا أن القول بالتقليد بدع من القول لا يستند إلى أي دليل في كتاب الله عزوجل، وأن ما استند إليه القائلون بجواز التقليد هو الأدلة العقلية ونظرة قاصرة إلى الواقع. وبيّنا أن التدبر واجب على كل مسلم، ومن يخالف فهو آثم لإعراضه. فمن أراد التوسع فليرجع إلى مبحث "حكم التقليد الأصولي في دين الله" ففيه تفصيل طيب!

والكتاب لا يطرح نفسه هكذا ككتاب إلهي من باب الموروث الثقافي أو من باب الإرهاب الفكري، وإنما يدعو كل الناس إلى تدبره، ليتأكدوا من ألوهية مصدره، فيقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [سورة النساء, ٨٢]

ولأن الكتاب لمخاطبة كل البشر في كل زمان، اعتمد طريقة الثبات والمرحلية، فنص الكتاب ثابت لا زيادة ولا نقص فيه، ولكن تأويل ما فيه يعتمد على تطور علوم البشر حتى يتسنى لهم التثبت الدائم من صحته، وكان أمام البشر في هذا طريقان: إما أن يأخذوا ما فيه مباشرة، وبذلك تتحقق لهم قفزات مباشرة في سلم التطور، أو يعرضوا ويبحثوا بأنفسهم لأنفسهم، –وهذا ما حدث فعلا– ثم يوقنون في نهاية المطاف بصحة ما ورد في الكتاب: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [سورة فصّلت, ٥٣]

ولقد نبّه القرآن على ضرورة عدم محاولة إسقاط كل آياته على عصر واحد، وأن على البشر التريث حتى يظهر لهم تأويل القرآن: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾ [سورة الأعراف, ٥٢-٥٣] ولكن البشر العجولين –وكما هو منتظر– لم يتريثوا، وسارعوا بالتكذيب استنادا إلى بعض المواطن العجيبة في الكتاب –ومكمن عجبها هو في علوها على علمهم وأفهامهم–، لذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٩﴾ [سورة يونس, ٣٩]

وهنا سيظهر الاعتراض الشهير: ولكن ليس عند كل البشر القدرة على قراءة أو فهم الكتاب، وخاصة في عصرنا هذا! فنقول: وما الذي منعهم من هذا؟ إن عامة البشر يتوفر لديهم الكثير والطويل من الوقت، ويضيعونه في ما لا نفع فيه، فلا حجة لهم بالتعلل بعدم القدرة على الفهم، لأنهم هم من جهّلوا أنفسهم بأيديهم، وخاصة أنهم قد ضيعوا أول أمر خُوطبوا به، وهو قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [سورة العلق ,١] فلم يقرأوا[73].

وهذا لا يعني بحال أننا ندعي أن أي إنسان يستطيع أن يفهم القرآن، هكذا مباشرة بدون فترة تجهز وبحث وفحص، ولكن هذه فترة قصيرة جدا لا تمثل شيئا في حياة الإنسان، وعلى الرغم من ذلك نجد أن الأكثرين يعرضون عن الكتاب بسبب فترة الإعداد هذه، على الرغم من أنهم يقضون فترات أطول بكثير في التعليم المدرسي أو في تعلم وإتقان أي مهنة!

وأصبح مَثَلهم كمثل جماعة عمال أُتي بهم من أجل العمل في مصنع على مجموعة من الآلات الكبيرة، وقال لهم صاحب المصنع أن عليهم أن يقرأوا كتيب التعليمات البسيط، قبل –ومن أجل– أن يستطيعوا التعامل مع الآلات تعاملا سليما ويديرونها على أكمل وجه. فأتاهم مجموعة أخرى من العمال –مثلهم!– وقالوا لهم أنه ليس عليهم أن ينتظروا حتى يقرأوا كتيب التعليمات، وأن عليهم أن يبدأوا بالعمل مباشرة، لأنهم يستطيعون إرشادهم إلى كيفية التعامل مع الآلات.

فصدق العمال أمثالهم وتعجلوا ولم يطيعوا أمر صاحب المصنع، وأخذوا يتعاملون مع الآلات عبر هؤلاء الوسطاء المختلفين في فهم الكتيب، وظن آخرون أنهم يستطيعون التعامل مع الآلات بدون إرشاد، فاعتمدوا على أنفسهم في فهم الآلات. وأخطأ

[73] ناقشنا هذه المسألة في كتابنا "لماذا فسروا القرآن؟ القرآن بين التفسير والهجران"، وأثبتنا فيه أن القرآن لا يحتاج إلى تفسير، وإنما يحتاج إلى فهم ناتج عن تدبر، وستختلف درجات الفهم الناتجة عن التدبر تبعا للمستوى الفكري والثقافي والتمكن اللغوي للمتدبر، ولكن هذا الاختلاف اختلاف تراكمي تصاعدي، يُزيد فيه المتمكن عن الأقل تمكنا لا أن يلغيه، طالما أنهم يتدبرون الكتاب نفسه. ووضحنا كيف أن كل كتب التفسير قد طمست الآية البينة للقرآن وذلك عن طريق ادعائها أنها فسرت القرآن كله، وعن طريق عدم إقرار المفسرين بالعجز وبقلة العلم أمام كثير من الآيات، والقيام بليّها من أجل تفسيرها!

الفريقان كلاهما في استعمال الآلات، أو لم يحسنوا استعمالها كما ينبغي ولم يديروها بكل طاقتها.

فإذا سأل صاحب المصنع العمال: لم أساءوا استعمال الآلات، على الرغم من وجود كتيب التعليمات، ولِم لَم يقرأوه؟ فهل يكون لديهم أي إجابة نافعة منطقية!

إذا فوجه التميز والاختلاف في القرآن أنه يقدم نفسه على أنه كتاب ميسر، مكثف، سابق، يمكن لكل الناس فهمه كله على ظاهره، بدون الحاجة إلى تأويل[74] أو قول بترميز. وحتى النقاط التي خالف فيها القرآن العلوم المعاصرة وسبقها إلى تقديم التوصيف الحقيقي، فليس هناك أي دليل قطعي على خطأ ما في القرآن، وإنما ما ساد وانتشر هو أوهام وظنون لا تستند إلى علم صحيح، ومع مرور الدهور يُكتشف صحة ما في القرآن.

عنصر الثبات

أعلن الإنسان تمرده، وصرخ أن الإله قد مات، أو أن الإله لم يكن حكيما بما يكفي لِيُسير العالم، وهجر الإنسان الإله ومنهج الإله، وأخذ يبحث بنفسه لنفسه عن منهج يجلب له الهناء والسعادة في دنياه، فهل نجح الإنسان في مسعاه؟ بداهة يختلف تقييم كل إنسان أو كل جماعة بشرية لمسألة النجاح أو الإخفاق والرضى بالنتائج

---

(74) نحن لم ننس قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾] سورة آل عمران ,٧[، ولم ننس باقي الآيات القائلة بالتشابه، وناقشناها في كتابنا "لماذا فسروا القرآن" والذي يدور كله في فلك إثبات أن كل انحراف عن النص القرآني في الفهم هو خطأ كارثي لا محالة، وأن على الإنسان أن يقرأ ويفهم القرآن، لا أن يقرأ ما في ذهنه من تراث! ومن أراد الاستزادة فالكتاب موجود على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

المحققة، ولكن المشاهد أنه مع إلغاء عنصر الإله من المعادلة البشرية أُلغي الثابت الذي يمكن الرجوع إليه والانطلاق منه.

ونحن نتذكر الثورة التي أعلنها نيتشه على المسلمات والثوابت وكيف أنه سعى لهدمها وبناء جديد. ونيتشه خير مثال لحال الإنسان، لقد ثار وهدم ولكنه لم يستطع أن يبني، وإذا حدث وبنى فلم يستطع أن يقدم بنائه للآخرين. عند إلغاء الخالق ما عاد هناك مطلق أو مُسلّمة، وصارت الأمور كلها نسبية، فصار الخير والشر نسبيين، وصار الصواب والخطأ كذلك، وانتقل الأمر إلى كل الكون فصار كله نسبيا –بالنسبة للمنظور البشري–، وما عاد هناك أي محل للاتفاق أو نقاط للانطلاق إلا تلك التي أتت بها الأديان قديما! وما عدا ذلك فمحل نزاع وشقاق.

وانعكس ذلك على الإنسان نفسه، فما عاد يعرف طريقه وما عاد يعرف كيف ينبغي أن يكون ليكون صالحا، وهل إذا اتخذ شكلا معينا للصلاح عليه الاستمرار عليه، أم من الممكن أن يتغيير ويصبح مسلكه الصالح هذا فاسدا؟! حيرة ما بعدها حيرة، تلك التي يكابدها ويعيشها الإنسان المعاصر، الذي استغنى عن المطلق. لقد فقد عنصر الثبات وأصبح كل كبير وصغير قابلا للتغيير، فما حرمه ومنعه الإنسان العاقل في زمن، يجيزه أبناءه من البشر العاقلين في جيل لاحق، وما أجازه يمنعوه، وهكذا.

ويتوقف الإنسان ليتساءل: هل كان الأقدمون على صواب أم أن المحدثين هم من أصابوا عين الحقيقة، أم أن كليهما فعل الصواب لعصره، فليس هناك شكل محدد للصلاح في جميع العصور؟

واختار نيتشه الجواب الثالث، ونفى أن يكون هناك معيارية للخير والشر، فقال: "وحتى نختم لنتأمل كم هو ساذج أن نقول: "يجب على الإنسان أن يكون هكذا أو كذلك!" فالواقع يقدم لنا عددا هائلا من النماذج، وفرة غزيرة من تمثيل لا متناه للأشكال وللتحولات، وإذا بأي شخص من الأخلاقيين المستعدين لأي شيء يقول لنا: "لا! وجب على الإنسان أن يكون بخلاف هذا!" (...) إن الأخلاق في كونها تدين

في المطلق وليس بالقياس إلى الحياة أو مراعاة للحياة، هي خطأ جوهري لا يوحي بأي شفقة، ويتعلق بمزاج منحط أساء سابقا بلا حدود.[75]" اهـ

ولكن عامة البشر لم يوافقوا نيتشه، وقالوا بوجود شكل ثابت للخير والشر، وكذلك هيئة أخلاقية معينة، ينبغي أن يكون الإنسان عليها وأخرى يحاول أن يتجنبها. حاولوا أن يوجدوا مصدرا ثابتا يحددون به الخير والشر أو الصلاح والفساد، ولكنهم كما اختلفوا في المصادر، اختلفوا كذلك في تحديد الخير والشر والأخلاق الخيرة، وفي هذا يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي: "والسؤال الثاني الأهم من الأسئلة الأساسية في فلسفة الأخلاق هو: بأي وسيلة نعرف الخير والشر؟ وما هو المصدر الذي ينبغي لنا أن نرجع إليه لنعلم ما الحسن وما القبيح، ولنميز بين الصحيح والخطأ؟ وهذا السؤال أيضا لم يتمكن الإنسان أن يجد له جوابا واحدا مقنعا، بل قد تعددت في حله مذاهب الناس وأتوا له بأجوبة شتى. إن تلك الوسيلة لمعرفة الخير والشر، وهذا المصدر الذي نعرف منه الصواب والخطأ، هما التجارب الإنسانية. ومن قائل إنهما معرفة نواميس الحياة وأحوال الوجود. ويقول الثالث: إنها الوجدان فحسب! ويظن الرابع أنها العقل ليس غير! (...) فإنه إذا اتخذ الإنسان هذه الأمور المختلفة مآخذ ومصادر لمعرفة الخير والشر، فكأنه قد أثبت قاعدة للأخلاق: هي ألا يكون للأخلاق مقياس واحد محدد، بل تكون هذه كالمعدن الذائب، تسيل وتتشكل في مختلف الصور، وتنصاغ في شتى الصيغ"[76] اهـ

لذا فلقد كان نيتشه صريحا مع نفسه عندما أعلن أنه لا يوجد شكل محدد للأخلاق، –طالما أنه لا يوجد إله–، ولكن عامة البشر يكابرون، ويدعي كل فريق منهم أن أخلاقه ومقياسه للخير والشر هما الصواب والأصل، ويحاول أن يحمل الناس على تقليده، لأنهم انحرفوا عن الأصل! لأن في هذا التقليد كل الخير، ولست أدري كيف حكم أي فريق على عاداته أنها مناسبة لكل البشر؟! أليست مناظير البشر للحياة

[75] فريدريش نيتشه، أفول الأصنام، تعريب حسن بورقيبة ومحمد الناجي، ص. 41،42.

[76] أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام الخلقية، تعريب محمد كاظم سباق، ص. 34.

مختلفة، فكيف يُراد جعل الأخلاق الأمريكية أو الأوروبية مثلا النموذج القياسي للبشر؟

وهذه هي النقطة التي ينبغي أن ينتبه إليها الإنسان، فليست العبرة بالمصدر الذي يستخرج منه الإنسان الخير والشر، وإنما العبرة بمنظوره لنفسه في الحياة، وتبعا لهذه المناظير المتعددة، سيكون من المنطقي وجود أكثر من صواب وأكثر من خطأ، ووجود أخلاق مستحسنة عند أقوام، مستهجنة عند آخرين. ولقد انتبه الأستاذ المودودي إلى هذه النقطة فقال: "إن المقام الذي تبدأ به الفلسفة بحثها في الأخلاق ليس في واقع الأمر بأصل المسألة الخلقية ومبدأها، وإنما هي مباحث فرعية ومسائل ثانوية قد تناولتها الفلسفة فجعلتها فاتحة بحثها وعنوان مقالها. وهذا أول خطأ قد وقعت الفلسفة فيه. فإن السؤال عن المقياس الذي قد يعرف به الحق والباطل من أعمال الإنسان وأفعاله وعن الخير الحقيقي الذي ينبغي أن يكون السعي وراء الوصول إليه هو الغاية المنشودة للمرء، ليس بالسؤال الأول الأساسي وليس موضعها مفتتح البحث في الأخلاق. وإنما المسألة التي لا بد أن يحلها الإنسان أولا ويفك معضلتها قبل كل شيء، هي: ما هي مكانة الإنسان ومنزلته في هذا العالم؟ هذا السؤال يتقدم جميع الأسئلة الأخرى بحجة أنه ما دام الإنسان لم يقطع بشيء في باب منزلته في هذا الكون، فإن بحثه عن المسألة الخلقية من العبث ومما لا يعود عليه بجدوى[77]" اهـ

إذا على البشر أن يحددوا أولا منزلتهم وغايتهم من الوجود في هذا العالم، ثم يتحركون بعد ذلك على هذا الأساس وتبعا له، وبما أن الإنسان قد أعلن موت الإله واعتماده على ذاته، فعليه أن يتذوق مرارة الحيرة والضلال، إلى أن يعلن لنفسه اكتشاف غاية معقولة من وجوده على هذا الكوكب ومنهجٍ مناسب له[78]! وبداهة لن

[77] المرجع السابق، ص.45.

[78] لذلك وجدنا أن ديستويفسكي يكاد ينهي روايته الشهيرة "الإخوة كارامازوف" بالجملة الشهيرة: "إذا لم يكن الله موجودا فكل شيء مباح"، وهو إن لم يقل الجملة صراحة ولكنه قال ما يؤدي إلى نفس الغرض، والنص الذي ورد فيه هذا المعنى هو: "... فإذا فقدت الإنسانية هذا الاعتقاد بالخلود فسرعان ما ستغيض جميع ينابيع الحب، بل سرعان ما سيفقد البشر كل قدرة على

يكون، لأن الكون كله نشأ صدفة –كما يرى بعض البشر– فكيف تخرج الغايات من الصُدف، ولم؟!

ونتوقف لنناقش هذه النقطة، لنثبت أنه بدون إله ما من معنى للجواز أو المنع، وسيظل الإنسان هكذا حائرا، لا يجد معنى للحياة: يقسم البشر عامة أعمالهم إلى جيد ورديء، ويرون أنه ينبغي أو يجب على الإنسان إتيان الجيد وتجنب وترك السيء. ولنا هنا أن نسأل: لماذا يجب علي فعل الجيد و ترك السيء؟ لماذا يجب ألا أغش أو أخون وطني أو زوجي، لماذا لا أكذب أو أسخر من الآخرين، لماذا يجب ألا أسرق أو أقتل، إذا أُتيحت لي الفرصة وانتفت كل الموانع المادية، بمعنى أنه من المستحيل أن أُكتشف؟

إذا نحن نفينا وجود الله العليم المطلع فلن يكون هناك أي معنى للمنع، فالحياة واحدة وها هي الفرصة أمامي، أتتني صدفة كما جاء العالم كله، فلم لا أغتنمها؟[79] فإذا تركنا مسألة فعل القبيح، والذي هو حسن لفاعله، فلنا أن نتساءل: لماذا الحديث عن حقوق الإنسان والمساواة؟

من المعلوم بداهة أن البشر غير متساويين خلقة ولا مكنة، فلم المساواة بينهم وإعطاء الجميع حقوقا واحدة؟ إن حقوق الإنسان قضية معنوية صرفة وليست واقعا ماديا أو طبيعيا، فلذا يمكن الحديث عن المساواة إذا كان الإنسان مخلوقا لإله، حيث هذه المساواة أمر أخلاقي من الإله، وعلى هذا الأساس فقط يستطيع الأقل حظا المطالبة بالمساواة، فإذا لم يوجد الإله فمن المنطقي أن يفترس القوي الضعيف. وهذا ما يحدث! ولقد كان نيتشه منطقيا عندما دعى إلى عدم المساواة، –فليس ثمت إله

مواصلة حياتهم فى هذا العالم، أكثر من ذلك أنه لن يبقى شئ يُعدّ منافيا للأخلاق. وسيكون كل شئ مباحا حتى أكل لحوم البشر". اهـ

(79) لن يعدم الإنسان إيجاد مبررات لفعله، لأن القوانين البشرية نسبية غير مطلقة، فالسرقة وإن كانت ممنوعة، ولكن ما الضرر في سرقة إنسان ثري جدا لن يتأثر بأدنى درجة من سرقتي ولن أكتشف، وما المانع من خداع الآخرين طالما لن يكتشفوه، وخاصة إذا كانوا مسرورين بما هم فيه، وما المانع من ... وهكذا ثمت مبررات لكل فعل، أما إذا كانت السرقة حراما بأمر الله فلا مبرر مقنع بحال!

موجود!– فليس هناك مبرر عقلي لذلك، فقال: "لا أريد أن أحسب من المنادين بالمساواة، لأن العدالة علمتني: (أنه لا مساواة بين الناس) وأنه من الواجب ألا يتساووا، وليس لي أن أقول بغير هذا المبدأ وإلا فإن محبتي للناس تصبح ادعاءا ومينا ... على الناس أن يسيروا على آلاف الطرق وآلاف المعابر مسارعين نحو آتي الزمان فتنشأ بينهم الحروب وتتسع بينهم شقة التفاوت على ممر السنين، ذلك ما ألهمني إياه حبي العميم[80]" اهـ

ولن يعجب هذا القول بداهة أصحاب المذاهب المادية، حيث يرون أن الإنسان ملزَم بنفسه ومسؤول عن تحقيق المساواة بين البشر! ولنا أن نسأل: ما هو عنصر الإلزام وما هي المسؤولية؟ ومن هو الذي سيحاسب الإنسان على مسؤوليته؟ فمن المعلوم أنه لا مسؤولية بدون محاسب!

ومن المعلوم أن المسؤولية أمر معنوي غير مادي، فكيف ولم وُجد في الإنسان؟! فنحن نُقرّ أن كل نفس تلوم صاحبها على ما تراه ضلالا، فكيف وُجد هذا الميزان في نفس الإنسان ولم؟ إننا –من المنظور الديني– نقول أن هذا هو الضمير، الذي غرسه الله عزوجل، ليلوم نفسه على فعلها القبيح، ولكنهم ينكرون هذه النفس المغروسة، فما هو مركز المسؤولية إذا؟ هل هو البشرية؟ هل هو العائلة؟ هل هو المجتمع؟

إن هؤلاء كلهم مجموعة أفراد ناقصين مقصرين، يحتاجون لمن يحاسبهم، فكيف يكونون مركز المسؤولية لي؟ هذا إذا عرفوا أساسا الجرم الذي ارتكبته، فكيف يحاسبني من لم يعلم؟ إن نفس الإنسان تظل تلومه على ما اقترف من السوء طيلة عمره، على الرغم من عدم اكتشافه، وعلى الرغم من المعاملة الحسنة للناس له، لأنه يعلم أنه ليس ذلك! فلم هذا الشعور بالذنب؟!

---

[80] فريدريش نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تعريب: فليكس فارس، ص.85.

إننا نرى أن هذا الشعور بالذنب نابع عن وجود رابطة معنوية بين خلق الله تعالى كله، -وذلك لخروجها كلها من مصدر واحد-، لذلك فأنا أحزن عندما أوذي خلقا من خلق ربي، بغض النظر عن موقف الآخرين مني.

أما إذا لم يكن هناك إله، ووجدت هذا الشعور، فلم أستجيب له؟ ربما هو صدفة أو خطأ من أخطاء الطبيعة، وعليّ عدم الإنصات له، خاصة أنني لا أحتاج إليه، فمن المعلوم أن الإنسان يتحرك من أجل اللذائذ المادية لأنه يحتاجها، فهو بحاجة إلى الطعام والشراب فيتفنن في صنعهما، وبحاجة إلى الجنس فينوع في طريقته وهكذا ... أما هذا الندم فلا حاجة إليه، فلم الاستجابة له؟ لا مبرر منطقيا لهذه الاستجابة، ويعلق الشهيد مرتضى مطهري على هذه النقطة فيقول: "ولكن لماذا ألتذ من شبع طفل يتيم وما علاقة ذلك بي، إنه يلتذ فلماذا ألتذ أنا؟ إن هذا الالتذاذ شيء شبيه بالخواء واللغو، بمعنى أنه لا حكمة وعلة لذلك في وجودي أنا، فهي بلا دليل. على أننا إذا قلنا بوجود نوع من الروابط والعلائق في نظام العالم والخلقة، وإن هذا العالم قائم على أساس من الحكمة، هي التي جعلت بيني وبين الأفراد الآخرين علاقة في أصل الخليقة، وبمقتضاها كنا جميعاً أعضاءً لجسم واحد. إذا قلنا بذلك، كان مفهوماً هذا الشعور باللذة لأنها تُلبي حاجة عميقة في وجودي الإنساني، ولذا فأنا حين أسعى نحو هذه اللذة لا يكون سعيي خلق أمر باطل هراء، وإنما أسعى على أساس مبدأ متقن في الخلقة. أما إذا كانت هذه اللذة بالصدفة، كأن أكون قد خُلقت صدفة بنحو يجعلني ألتذ من إيصال الخير للآخرين، حتى ولو لم تكن هناك أية فلسفة من هذا الالتذاذ، فإن الأمر بالتالي ينتهي إلى الخواء واللغو. إن الشيء الذي يكمن فيه هدفي والذي يقوم على أساس من لذة غرست خطأ في أعماقي فهي بلا هدف، لا يمكنه أن يخلص حياتي من العبثية، فنحن إذن في نفس الوقت الذي نقول بالوجدان الأخلاقي، وإن الإنسان يلتذ بالفطرة من العمل الحسن وينفر من العمل القبيح، فإننا نؤمن بأنه لو لم يكن في البين إله وخلقة هادفة فإن عملنا سوف لن يتخلص من العبث مطلقاً. إنني أعتقد أن الوجدان خلقه الله من أعماقنا لكي نقوم بأعمال هادفة. إنني أنا وهذا اليتيم

وهذه العجوز أعضاء في متن الخلقة لجسم واحد، وأجزاء لخارطة واحدة وأطروحة معينة، نتبع مشيئة أزلية واحدة، ونسير نحو حكمة واحدة. فنحن إذن نؤمّن هدف الخلقة وهدف خالق الخلقة، وعندئذ فإن هذا الأمر المعنوي ليس عبثاً وإنما هو حقيقي واقعي. وعلى هذا فإن أي مذهب أو نظام فكري واجتماعي محتاج إلى مجموعة من المُثل المعنوية. ولهذا نقول إن الأيديولوجية بحاجة إلى القيم فوق المادية، وإن هذه القيم يجب أن تكون أقوى إذا امتلكت نوعاً من القدسية. وعلاقة التقديس في أمر ما هو أن يراه الإنسان أمراً يضحي لأجله بنفسه فداءً له."[81] اهـ

وكما رأينا فبدون إله لا معنى لأي فعل يفعله الإنسان، ويصبح عبثا في عبث. أما ذلك المتبع للمنهج فلا يجابه هذه المشكلة بتاتا ولا تخطر بباله، لأنه يعرف لم خُلق الكون وإلى ما يسير ولماذا يسير! وقد تحقق لديه الإلزام الداخلي والاتباع للمنهج، لذا فهو يعرف أن ما جاء به المنهج من الأوامر والنواهي هو من الثوابت، التي لا يمكن إهمالها بأي حال، أو الادعاء أنها لم تعد مناسبة لعصر ما، نعم قد تختلف أدوات التطبيق والمباشرة ولكن يظل المأمور به واجبا والمنهي عنه محظورا أبد الدهر! فهو يعلم أن هناك شكلا محددا للصلاح، تتنوع وسائله وتختلف، ولكنها توصل في النهاية إلى نفس الشكل، والذي ينبغي أن يتخذه الإنسان كمنطلق له في حياته، يجابه الصعوبات على أساسه، لا أن يظل في حيرة من أمره، فلا يدري من أين يبدأ!

وإذا فُقدت البداية فلن يصل الإنسان بداهة إلى أي مكان، وإنما سيظل في مكانه، يدور حول نفسه! ومتبع المنهج لا يساوره أي شك تجاهه، فليس المنهج بدعا يُجرّب حديثا، وإنما المنهج قديم قدم الإنسان، بدأ معه ويستمر إلى قيام الساعة، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ ...﴿١٣﴾﴾ [سورة الشورى, ١٣]

[81] منقول من مقالة للشهيد مرتضى مطهري بعنوان: أسس الأخلاق وركائزها.

ولقد أثبت المنهج جدارته وصحته، ولا تزال البشرية كلها مدينة له فيما عرفته من أصول وقواعد الصواب، فما صار الإنسان إنسانا إلا بنفخة الروح وبالتلقي من الملائكة، ثم بعد ذلك بالقواعد التي أرستها الرسل. ويرجع ضلال البشرية إما إلى تحريفها المنهج أو لتركها إياه، أما من أخذ المنهج صافيا نقيا من التحريف، كما ورد في الكتاب، فيضمن وجود القاعدة السليمة الثابتة التي ينطلق منها، قاعدة صحيحة صحة مطلقة، تستمدها من أصلها الإلهي، الذي يعلم من خلق، ويعلم ما يحتاج وما يناسبه، قاعدة ترسخ عنده مبدأ الثبات والإحكام في الكون، فهو يسير على نظام راسخ ﴿...وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ [سورة القمر, ٣] ".

فمتبع المنهج قد أُمد بكم كاف من السنن الكونية التي تساعده في حياته، وهو يعلم أنها سنن الكون الثابتة المتحققة الوقوع، ولن تتخلف أبدا: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ۝٤٣﴾ [سورة فاطر, ٤٣] فسنة الله الكونية تسري على الأقدمين كما تسري على المحدثين: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ [سورة الفتح, ٢٣] لذا فعلى المتبع أن يتحرك تبعا لهذه السنن ولا يصادمها، وإلا فإنه سيكون من الخاسرين، لأنها لا تتبدل ولا تتحول، والفائز من يتبعها!

وكما أن سنن الله الكونية غير قابلة للتغيير وهي عين الثبات دوما، فكذلك المنهج غير قابل للتغير وصالح دوما، ولقد طُلب سابقا تغييره فرُفض: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ... ۝١٥﴾ [سورة يونس, ١٥] فما المنهج إلا تفصيل الكون، لذا لا يمكن تغييره، ولو تغير لفسد الكون كله، لأن هذ يعني ضياع الحق: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١﴾ [سورة المؤمنون, ٧١]

وأُمد المتبع كذلك بمنظومة أخلاقية متكاملة، قد تقترب منها غيرها أو تبعد ولكن لا يمكن أن تعلوها أخرى، تتميز بأنها منظومة ثابتة لا تغير فيها، لزاما أن يتخلق بها المتبع[82]، حتى يضمن الرقي والتقدم في حياته، وبدونها سيرتكس وينتكس في حياته.

والعجيب أن بعض البشر يرفضون أن توجد حقيقة مطلقة! وأن توجد هذه الحقيقة في الدين تحديدا، وذلك راجع إلى غرور الإنسان، واقتناعه أنه يستطيع أن يصل إلى الصواب بنفسه، وحتى لو أضاع في ذلك عمره وأعمار آخرين! ولست أدري كيف يكون هناك صواب إذا لم يكن هناك مطلق! وهكذا أصبح حال الإنسان مثل حال الطفل الذي تمرد على وصاية أبيه، لأن كثيرا من الآباء الآخرين لا ولم يحسنوا تربية أبنائهم وتوجيههم، فحتما سيكون أبوه مثلهم، لذا لا حاجة له في أن يستمع إلى أبيه، مهما قال ومهما قدّم، فليجرب هو حتى يصل. ويظل الإنسان في تجربة مستمرة ولا يجد ما يسكنه ويهديه!

ولا يزال البشر يخبطون خبط عشواء، فيجيزون ما منعه الأقدمون، ثم يمنعون ما أجازوه، ثم يعودون فيجيزونه! ويمنع أقوام ما يبيحه الآخرون، لأن فيه الخطر العظيم الذي لم ينتبه إليه المجتمع الآخر بأكمله لحمقه أو لغفلته، أو لأن قادتهم يريدون أن يسوقونهم إلى حاجة في أنفسهم! ويتقاذف مجموعةٌ من الأفراد القطيعَ البشري كله، ويجد الإنسان نفسه مرة في أقصى اليمين وأخرى في أقصى الشِمال، وكلاهما حتما صواب! تبعا لوجهة نظر الحزب الحاكم أو الرئيس القائد، وليس على الإنسان إلا أن يُسلّم ويتبع ويقتنع، فالتأرجح في أرجوحة تجارب البشر في البشر، أفضل من اتباع حبل الدين الثابت المتين!

---

(82) حتى يبين للقارئ ما نعنيه بأهمية التخلق، ننظر في الخارق الثاني "اللسان العربي" لنعرف ماذا يعني "خلق": إذا نظرنا في معجم مقاييس اللغة لابن فارس وجدناه يقول: "الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، والآخر مَلاسَة الشيء" اهـ إذا ف "خ ل ق" أصل يدور بين تقدير الشيء ونعومته واستوائه. فإذا نظرنا في معنى الأخلاق ودورها للإنسان، وجدناها تدور في هذه الدائرة تحديدا، بحيث لا تخرج عنها بتاتا، فهي تلعب دور التشكيل والتقدير بالنسبة للإنسان، ولولاها لأصبح الإنسان مثل الحيوان، بل ينحدر إلى درجة أقل منه لوجود العقل. وهذا التشكيل يؤدي في نهاية المطاف إلى النعومة والاستواء في التصرف والتعامل، فهو يقوم بإبلاء وإذهاب خشونة الإنسان وطباعه السيئة، ولا يبقي إلا السجايا الحسنة المرغوبة.

أصل بديل

قلنا أن المنهج وفر للإنسان عنصر الثبات، والذي لن يجده أبدا إلا في حالة وجود مطلق، وعلى الرغم من أن كثير من الكتّاب الغربيين لا يسلمون بمسألة المطلق هذه، ويرون أنه على الإنسان أن يجرب بنفسه، وبنفسه سيصل إلى ما يبتغي! وعلى رأسهم نيتشه فيقول: "من العبث أن نريد دفع وجودنا الذاتي إلى قصدية ما بعيدة. نحن هم من اخترع مفهوم ال"غاية". أما في الواقع فالغاية غائبة. لا بد منا، نحن جزء من القدر، نحن جزء من كل، نحن كائنون في هذا الكل، لا شيء يمكنه أن يحكم على كينونتها، أن يزنها، أن يقارنها، أن يدينها، لأن ذلك سيعني الحكم على الكل، وزنه مقارنته، إدانته ... على أن خارج الكل لا شيء هناك. (...) لقد كانت فكرة الإله حتى الآن الاعتراض الرئيسي ضد الوجود. إننا نجحد الإله، ننفي المسؤولية عن الإله، بهذا فقط، ننقذ العالم.[83]" اهـ

إلا أننا نجزم أن الإنسان لم ولن يصل إلا إذا سار على الدرب ... الذي يقدمه المنهج له. والمنهج يعطي البشري الإمكانية لتجربة ما يحلو له واختيار ما يَعِنُّ له من التوجهات والآراء! ولكنه يخبره أنه مهما شرّق أو غرب فلن يجد السكينة أو السعادة إلا فيما يقدمه المنهج، وبقدر اقترابه منه وتطابقه معه يتحصل على قدر من السكينة والقرار، وبقدر ابتعاده عنه يقع فريسة الحيرة والاضطراب، فلن يأتي الإنسان أبدا بجديد، فلقد حكم المنهج على كل إمكانيات السلوك البشري، فهي تدور دوما في فلكه، فالإنسان إما متوافق مع المنهج أو معارض له: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران, ٨٥] فنفسه قبل أي آخر لن تقبل أو تقر إلا بالإسلام، فمهما أُعطيت من بدائل ومسكنات، فلن يصل أبدا إلى تحقيق السكينة ... سكينة القوة! نعم، قد يجد في بعض البدائل سكينة

(83) فريدريش نيتشه، أفول الأصنام، تعريب: حسين بورقيبة، محمد الناجي، ص. 55،56.

ولكنها سترتبط بانكسار القوة عند الإنسان، أما في المنهج فسيجد الأصل، والذي يُقدم نفسه كحل دائم وأخير، فالمنهج هو الحل!

ودعوانا أن المنهج هو الأصل البديل عن كل المناهج المطروحة ليست دعوى بلا بينة، فالأدلة على ذلك كثيرة، أهمها شمولية المنهج، فلم يترك المنهج صغيرة أو كبيرة مما يحتاجها الإنسان أو سيحتاجها في يوم من الأيام إلا وذكرها: ﴿... مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ... ٣٨﴾ [سورة الأنعام ,٣٨]

ونحن نتحدى، أن يأتينا إنسان بحاجة للإنسان لم يعالجها المنهج! فلقد أجاب المنهج كل أسئلة الإنسان الخالدة، وقدم له تصورات شاملة للحياة، وعرفه طريق الحق والصواب، فماذا ينقصه بعد ذلك! وكذلك فإن فشل المناهج الأخرى في تحقيق السكينة على الرغم مما توفر لها، يُعد من أكبر الأدلة.

ومن أهم الأدلة على "أصلية" المنهج هو مسلك المتبعين له، ومسلك غير المتبعين له، فعلى الرغم من أنه قد توفر لغير المتبعين من الإمكانيات المادية، ومن المدارس النفسية والروحية ما لم يتوفر معشاره لأتباع المنهج، إلا أننا نجد الفارق شاسعا بين الإثنين، ونضرب على ذلك مثلا واحدا رئيسا وهو الموقف من الموت والحياة! فنحن نجد لدى أتباع المناهج الغربية حرصا شديدا على الحياة ورفضا شديدا للموت، فهم لا يريدون أن يفرطوا فيها بحال، ولكنهم في الوقت عينه يتحركون إلى ما يؤدي بهم إلى الموت والهلاك بلا مبالاة!

وذلك لشعور الإنسان الداخلي بعدم انسجامه مع الحياة، على الرغم من كثرة ما جرب. ولقد قُدمت العديد من التفسيرات لهذا المسلك المتناقض، الذي يرفض ويتمسك في نفس الوقت. ويعد أهم التفسيرات لهذا المسلك العجيب هو فقد الإنسان الغربي الأمل في وجود منهج بديل قويم، فإذا كان النهج الغربي العظيم لم يقدم السعادة، فبداهة هي غير موجودة عند الآخرين المتخلفين! وقليل هم من يعرفون أن الخلل يكمن في المنهج كله لا في فرعياته، فيتجه إلى نقده ويحاول أن يقدم له

بديلا، وممن انتبهوا إلى هذه النقطة إريش فروم، والتي كانت محور كتاباته، ويعلق على مسألة حتمية وجود بديل، فيقول: "وعلاوة على هذه التفسيرات، التي تقدم لسلبية الإنسان المهلكة تجاه المشكلات المتعلقة بالحياة والموت، يوجد تفسير آخر وهو من بين الأسباب التي دفعتني لكتابة هذا الكتاب .. وأعنى الرأي القائل إنه ليس أمامنا من بدائل سوى رأسمالية الشركات الكبرى، أو الاشتراكية الديمقراطية، أو الاشتراكية السوفيتية، أو الفاشية التكنوقراطية ذات الوجه المبتسم. ويرجع الرواج الكبير لهذا الرأي إلى حقيقة أنه لم يبذل إلا أقل القليل من الجهد لدراسة إمكانية قيام نماذج اجتماعية جديدة تماما والتجريب عليها. والحق أنه طالما ظلت مشكلات إعادة البناء الاجتماعي لا تستحوذ –ولو جزئيا– على اهتمام أفضل العقول والمواهب التي كرست نفسها –حتى الآن– للعلوم والتكنولوجيا فسنظل نفتقر إلى الخيال اللازم لرؤية بدائل واقعية وجديدة. [84]" اهـ

فإريش فروم ينتقد المنظومة الغربية عامة، ويرى أنها بحاجة إلى كثير من التغيير، ويدعو في كتاباته إلى تقديم بدائل لهذه المنظومة، وإلا ستؤدي إلى كوارث حقيقية!

فإذا أخذنا الإنسان المتبع للمنهج كمثال معاكس نجد أنه قد حقق قمة السعي في مسألة الحياة والموت، فهو يحب الحياة ويتحرك لها، ولكنه يتحرك بأمل وثقة في منهجه، ولديه القدرة في نفس الوقت على التخلي عن حياته كلها من أجل منهجه، فينهي حياته من أجل تحقيق هدفٍ ما يؤمن به، ورسالة يسعى إلى تبليغها، أي أن أتباع المنهج قد حققوا ما فشل نيتشه وعامة الغربيين في الوصول إليه؛ وهو الموت الارادي! فلقد دعا نيتشه إلى انهاء الحياة في الوقت المناسب، وكرر ذلك في مواطن عدة، فقال على لسان زرادشته: "كثير من الناس يموتون في وقت متأخر جدا، وبعضهم يموتون في وقت مبكر جدا، ولا زال هذا القول: "مت في الوقت المناسب" يبدو غريبا، "مت في الوقت المناسب هكذا يدعوك زرادشت"اهـ

---

[84] إريش فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، تعريب: سعد زهران، ص: 26.

ونحن وإن كنا نجد أن كثيرا من الغربيين ينتحرون أو ينهون حياتهم اختيارا، إلا أنهم يفعلون هذا فرارا من الحياة ويأسا منها، لا تحقيقا لهدف أو غاية، فلم يحقق لهم كل هذا الرخاء المادي، ولا الحرية الفردية ولا المنظومة الفكرية الروحية السعادة أو الاستقرار، وإنما صبغت الحياة أمامهم بصبغة جافة مقتمة! فلقد اكتشف الإنسان تلك الخدعة الكبرى، أن تحقيق الرغبات واشباع الحاجيات ليس هو الطريق الأمثل للسعادة، وأن الحرية! لم تعد حرية وإنما صارت عبودية! ويعلق إريش فروم على إخفاق المنظومة الغربية في هذه النقطة فيقول: "فالحق أن العصر الصناعي أخفق في الوفاء بوعده العظيم، ويوما بعد يوم يتزايد عدد الناس الذين أصبحوا مدركين لما يأتي:

إن إشباع كل ما يعن للناس من رغبات بغير قيود، لا يوصل للحياة الطيبة وليس هو السبيل إلى السعادة، ولا حتى إلى المتعة القصوى!

إن حلمنا بأن نكون السادة الأحرار لحياتنا قد انتهى، وذلك عندما بدأنا ننتبه إلى أننا جميعا قد أصبحنا مجرد تروس في الآلة البيروقراطية، وأن الصناعة والحكومة وأجهزتهما الإعلامية هي التي تشكل مشاعرنا وأفكارنا وأذواقنا وتتلاعب بها كما تريد. إن التقدم الصناعي ظل مقتصرا على الأمم الغنية، وإن الهوة التي تفصل الأمم الغنية عن الأمم الفقيرة تزداد اتساعا يوما بعد يوم.

إن التقدم التكنولوجي نفسه قد حقق مخاطر إيكولوجية أي تهدد البيئة الطبيعية ومخاطر الحرب النووية. وهذه أو تلك أو كلتاهما معا، يمكن أن تكون السبب في إنهاء كل أشكال الحضارة وربما كل أشكال الحياة على ظهر الكوكب.[85]" اهـ

ويبحث الغربي عن البديل ويطرق كل السبل، إلا سبيل الإسلام، لأن المنظومة قد صورت له الإسلام بالمنهج البدائي الدموي!

[85] المرجع السابق، ص.16.

والمنهج عندما يقدم نفسه بديلاً، فإنه يقدم نفسه كمنظومة قادرة على أن تحل محل المنظومة الحالية بمبادئ أخرى، يجزم أنها ستتوافق مع طبيعة الإنسان، وتشمله بداخلها، مبادئ قد يجد فيها الغربي غرابة، وقد يميل إلى رفضها، بدون أن يخبر مضمونها، لتجربة مريرة مر بها فيما مضى، ولكنه سرعان ما سيغير رأيه إذا ما عاشها!

وترتبط هذه المبادئ كثرت أو قلت بالأصل الإلهي والتطبيق الإنساني، فليس التطبيق ولا من يقومون به مقدسين، وإنما هم أناس يقع منهم الخطأ والصواب، ومن أهم المبادئ التي يقدمها المنهج كعوض وبديل عن المنظومة المطروحة حاليا، هو ما ذكره الأستاذ المودودي: "وحين نعارض هذا النظام لا نكتفي بمعارضته بل نقدم تجاه مبادئه الثلاثة، ثلاثة أخرى نعتقد بصلاحيتها وسدادها، ونضعها تحت أنظار المنصفين، ونحتكم إلى ضمائرهم ليمحصوها، وينظروا فيما إذا كانت سعادتهم ورفاهيتهم وسعادة العالم كله ورفاهيته تقوم على قبول هذه المبادئ النزيهة الحقة التي نقدمها، أم تقوم على تلك المبادئ الخبيثة الفاسدة التي ذكرناها آنفا.

1- إننا نقدم مبدأ التسليم لله وطاعته بديلا عن العلمانية.

2- ونقدم مبدأ الإنسانية العالمية بديلا عن القومية المحدودة الضيقة.

3- ونقدم مبدأ سيادة الله وخلافة المؤمنين بديلا عن مبدأ سيادة الشعب أو حاكمية الجماهير.[86]" اهـ

فإذا نجحنا في إعادة الإنسان إلى المنهج الأصيل، عن طريق هذه المبادئ الرئيسة، الكفيلة بتحريك القطيع البشري تبعا للخطوط العريضة الواردة في المنهج، فإنا نضمن تحقيق أفضل النتائج الممكنة للإنسان الفرد قبل المجتمع!

[86] أبو الأعلى المودودي، الإسلام والمدنية الحديثة، ص.19.

دراسة المنهج

الطامة الكبرى التي تعرض لها الفكر الإسلامي بعد القول بتفسير كتاب الله تعالى لغير العرب، هي قول السادة الفقهاء بجواز التقليد، لأن الانشغال بكتاب الله مؤد إلى خراب الديار وإهلاك الزرع والنسل! وذلك كله راجع لأنهم أضافوا إلى الدين ما ليس منه وحملوا الإسلام ما لم يقل به، فإذا أراد أي إنسان أن يتجه لدراسة دينه —كتاب ربه— فأمامه السنون الطوال، لكي يُلقّن كل ما قاله فلان وعلان من العلماء ومن الصحابة والتابعين، وحتى يعرف كل شاردة أو واردة من السنة —والتي هي ليست سنة[87]— وحتى يقرأ شروح عدد من العلماء على كتاب كذا وكذا. وهكذا ضُخِّم حجم الدين وأصبح العنصر الدافع إلى الأمام عنصر مُعطِّل مؤد حتما إلى هلاك الحرث والنسل —كما قال بعض الفقهاء!—.

والمشكلة أنه إذا تُحدث عن دراسة القرآن، انصرف ذهن المسلم مباشرة إلى دراسة الفقه أو العقيدة، كأن القرآن لا يحتوي إلاهما! ونحن وإذ كنا نرمي بدراسة المنهج إلى إخراج جيل من الفقهاء، إلا أنهم فقهاء حياة لا فقهاء أحكام، ويكفي الدارس للقرآن أن يعرف المنهج الذي يتعامل به معه، ثم يطبقه عند أخذه الأحكام من كتب الفقه! لذا فلن تكون دراسة الفقه محطة توقف وتعطل، وإنما وقفة سريعة لضبط الاتجاه.

وأما العقيدة فلا تحتاج إلى دراسة، وإنما تؤخذ هكذا مباشرة من الكتاب، فهي واضحة ميسرة، ذات دور رئيس، وهو الإقناع وتثبيت القلب، ودراستها بشكل جاف كعلم فلسفي فكري، لا يقدم ولا يؤخر، لذا ستُترك دراستها بهذا الشكل لمن سيتخصص فيها، من دارسيها في الكليات الشرعية.

---

[87] نحن لا نعني بهذا أن السنة لا حاجة إليها أو أننا ننكرها، وإنما نقصد أن السنة هي ما جاء تابعا لكتاب الله تعالى مؤولا له، فتأويل الصلاة أو الزكاة أو الحج مثلا كان أمرا واجبا على الرسول فهو من السنة، لأنه كان مأمورا بتعريف الناس بها، وما زاد عن ذلك من مقولات ارتبطت بمواقف مخصوصة فهي من التاريخ، الذي ينفع معرفته ولا يضر الجهل به، لأنه كان من الممكن عدم وقوعها!

أما نحن فنقدم القرآن بطريقة مختلفة تماما، تمكن كل إنسان من الأخذ منه، كما أخذ الصحابة منه، وبذلك يثمر معنا مثلما أو قريبا مما أثمر مع الصحابة رضوان الله عليهم. وتتلخص طريقة الدراسة هذه هي أن نجعل الإنسان المعاصر مثل الجيل الأول الذي تلقى القرآن! ويختزل الأمر في نقطة واحدة فقط وهي اللسان، فالفارق الكبير بيننا وبينهم هو اللغة، فلقد كان اللسان العربي هو وسيلة حديثهم اليومي، لذلك تفاعلوا مع القرآن عظيم تفاعل، أما اليوم فهو العائق الرئيس أمام تدبر القرآن، فإذا نحن نجحنا في إزالة هذا العائق عن طريق دورات مكثفة في اللغة[88]، يحصر المتلقي نفسه في مرحلة الإعداد هذه قدر المستطاع في الألفاظ القرآنية، والواردة في السنة النبوية ولا يتعداها إلى غيرها من الألفاظ الجاهلية المعقدة -إلا بقدر-، والتي لا حاجة له إليها. فإذا استطاع أن يُنمي الحس اللغوي لديه حتى يتمكن بشكل كبير من فهم كلمات القرآن، يبدأ في تدبره مُضيفاً إلى هذا الأحاديث المؤولة للقرآن.

وبهذا نكون قد أخرجنا جيلا قريبا من جيل الصحابة[89]، يستطيع أن يتعامل بنفسه مع القرآن الكريم، ولا يحتاج فعلا إلى إضاعة عمره كله من أجل الدين، والذي يُفترض فيه أن يكون بدهية دافعة إلى الأمام، لا أن يكون محطات توقف! نعم، ستكون هناك محطة توقف ... ولكنها محطة واحدة فقط، قد تأخذ من عمر الإنسان سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر –في أوقات الفراغ، وليس مع تفرغ تام للكتاب– ولكن النتائج ستكون بعد هذه الوقفة هائلة، وستثمر ثمارا لم يكن يحلم بها الإنسان على كل مستوياته الحياتية!

---

(88) لا يحتاج الإنسان الذهاب من أجلها إلى أي مكان، فالحس اللغوي يُنمّى بكثرة القراءة، -الأمر القرآني الآول- ومعاجم اللغة وكتبها ودواوين الشعر متوفرة، ويمكن تنزيلها من الشبكة المعلوماتية مباشرة.

(89) لا بد أن نلاحظ أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا على علم بكل صغيرة أو كبيرة تحدث للنبي الكريم، ولم ينشغلوا إلا بالقرآن أو السنة التابعة له، أما قول الرسول لفلان كذا أو كذا في الموقف الفلاني فلم يتوقفوا معه، لأنهم عرفوا أن هذا قول نابع من القرآن، فإذا فاتهم مشاهدته يمكنهم أن يستخرجوا مثله من القرآن، ونسأل: هل كان الصحابة رضوان الله عليهم الذي يبعثهم الرسول بعثات طويلة ثم يعودون إلى المدينة، يسألون: ماذا قال الرسول في غيابنا؟ أم كانوا يتعلمون القرآن الذي أنزل في غيابهم، وإذا كان هناك تأويل له من السنة يطبقونه؟!

ونحن إذ نتحدث عن دراسة القرآن فإننا نقصد دراسته كله، كوحدة واحدة متكاملة، يتداخل فيها الفقه مع الإيمانيات مع آيات الطبيعة مع التاريخ، كما ورد في النص، وكما يظهر في الواقع، فالحياة عناصر متداخلة كما القرآن، ولا يمكن عزلها وتصنيفها كعناصر مستقلة، كما يفعل البشر عند تصنيفهم الكتب، فيفردون لكل مجموعة عناصر، تابعة لمسألة ما، بابا! فلزاما درس القرآن من خلال إسقاطه على الواقع وربطه بأحداثه، لا أن يُربط بأسباب نزول أو بأقوال عقول! وإنما يكون الجهد كل الجد في تطبيقه "تأويله"، والبحث عن الآليات المناسبة للتنفيذ بأدوات العصر.

والعجيب أن يضيع الناس من أعمارهم سنوات كاملة في تعلم الأساسيات، ويضيعون سنوات أخرى في تلق دورات متخصصة في مجال ما أو في لسان أعجمي، من أجل الحصول على فرصة عمل أفضل، وهناك من يقضي الأوقات الطوال في دورات التنمية البشرية، من أجل أن يحسن حاله وقدراته البشرية (لا الإنسانية!) ويفعلون هذا بكل سرور وتفهم، لأن هذا ضروري ونافع لهم في حياتهم، فإذا طولبوا بالانشغال بالمنهج الأسمى في أوقات الفراغ الكثيرة لسنتين أعرضوا، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون!

وسيتميز هذا الجيل عن جيل الصحابة رضوان الله عليهم بالموروث الثقافي، الذي أنتجته البشرية بعد الرسول الأعظم، فإن كان الصحابة صُنعوا على عين الرسول الأكرم وبآي القرآن، فإنهم كانوا محصورين في ميراثهم الثقافي المحدود، أما إنسان هذا الجيل فهو ينطلق من القرآن مزودا بموروث ثقافي أكبر، يستطيع به أن يُثوِّر العالم!

خطاب مجرِّد!

إذا قلنا أن هناك منهج صالح لكل زمان ومكان، يُطرح مباشرة السؤال المعهود: كيف يكون هناك كتاب صالح لكل زمان ومكان، فمن المعروف أن المجتمعات البشرية تختلف من بيئة لأخرى، فليس مجتمع أدغال أفريقيا مثل القطب الشمالي أو الجنوبي،

وليست القبائل البدوية مثل المدن اليابانية، بغض الطرف عن التغيرات التي تطرأ بسبب تقدم الزمان وتغير العادات، ناهيك عن التطورات العلمية الكبيرة التي شهدتها البشرية في القرنين الآخرين، والاكتشافات التي غيرت بنية المجتمع وأولويات الإنسان، فكيف يكون الكتاب مناسبا في زماننا وفي الأزمان القادمة ولكل البيئات على وجه الأرض، فهل الكتاب مناسب للمجتمعات التي ظهر فيها الحاسوب والجوال والمرئيات؟ نقول: إن من يطرح مثل هذا السؤال يقدم لنا اعترافا صريحا، أنه لا يعرف من وما هو الإنسان، كما يُظهر أنه يجهل جهلا بيّنا على ماهية الخطاب القرآني.

وبما أنه إنسان غير عالم، نوضح له كيف يكون الكتاب مناسبا لكل إنسان في أي مكان وزمان: الإنسان –منذ أن تركته الملائكة بعد أن علمته ما يحتاج–، هو الإنسان إلى قيام الساعة، ولا فارق بين إنسان القرن الأول والقرن الأخير، يفعل نفس الأفعال ويحتاج نفس الاحتياجات، والفارق الوحيد هو في مظهر الاحتياجات والأفعال، ليس أكثر! فالإنسان كائن في مجتمع يتفاعل ويتعامل مع غيره، على أرض هذا الكوكب وتحت سماءه، يحتاج مأكلا وملبسا ومشربا، وغذاء الروح؛ والمتمثل في التقديس، وبعض الاحتياجات النفسية الأخرى مثل الأمن والتقدير والحب!

ولست أدري حقا ما الفارق بين إنساننا وإنسان القرون الغابرة، هل أقلعنا عن قرب الطعام أم توقفنا عن ممارسة الجنس، أم لم نعد بحاجة إلى المأوى أم استغنينا عن التقديس، أم هل انعزلنا عن غيرنا وأصبحنا نعيش في بروج مشيدة، هل أقلعنا عن الحب والكره والخداع؟! كل ما هنالك أن أدوات ووسائل هذه الأمور أصبحت أكثر نعومة وليونة، –والذي ترتب عليه ميوعة الإنسان أيضا!– وأصبحت أكثر سهولة وسرعة وزخرفة، ما عدا ذلك فلا اختلاف، فالإنسان لا يزال يقتل ويزني ويغش في الموازين –المتطورة– ويشهد زورا ويزور ويحتال وينتحر. وأتساءل: ما هي الجريمة الحديثة التي ظهرت في زماننا هذا ولم يكن لها وجود مسبق؟ هل هي سرقة الأعضاء مثلا؟ ما هي إلا نوع من السرقة، نوع حديث ولكنها في نهاية المطاف سرقة! هل البنوك مسألة حديثة؟ ما هي إلا نوع من الربا بتوحش! ما هو الجديد في حياة الإنسان؟

الإنسان كان يلوث بيئته فيما مضى ببساطة، أصبح التلويث الآن معقدا هائل الحجم والكم! ما هو الجديد؟ بعض الإمكانيات الطبية الجراحية، ينطبق عليها ما جاء في النصوص الكلية، فإذا كانت نافعة فلا حرج فيها، وإذا كانت ضارة فهي محرمة، إذا فلا جديد بحال في أفعال الإنسان، ويعلق الدكتور القرضاوي على هذه النقطة فيقول: "إن معظم النصوص جاءت في صورة مبادئ كلية وأحكام عامة، ولم تتعرض للجزئيات والتفصيلات والكيفيات، إلا فيما كان شأنه الثبات والدوام، برغم تغير الزمان والمكان، كشئون العبادات والزواج والطلاق والمواريث ونحوها من شئون الأسرة، فقد عالجته الشريعة بالتفصيل الملائم، سدا لباب الابتداع والتحريف في أمور العبادة وحسما للنزاع والصراع في أمور الأسرة، وإرساء لدعائم الاستقرار في الجانبين معا، وهما أخطر أمور الحياة. أما فيما عدا ذلك مما يحتلف تطبيقه باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد، فكانت النصوص فيه –غالبا– عامة ومرنة إلى حد بعيد، لئلا يضيق الشارع على الناس إذا ألزمهم بصورة جزئية معينة قد تصلح لعصر دون عصر، أو لإقليم دون إقليم، أو لحال دون آخر[90]." اهـ

إذا فالإنسان في القطب الشمالي منهي عن السرقة ومأمور بالصدق وبالأمانة، سواء كان يتعامل بميزان إليكتروني أو يعتمد على الأحجار! قد يقول قائل: إن مسألة المنظومة الأخلاقية القانونية قد لا يختلف فيها عامة البشر، فهم متفقون في معظمها، والاختلاف في نقاط بسيطة فيها، وإن كانت جوهرية!، وإنما النقطة الرئيسة في الباب، هي مسألة: كيفية خطاب الإنسان بلغة تناسب عقله وفكره في القرن الحالي وفي القرون القادمة، بحيث لا يشعر أنه يتعامل مع كتاب تاريخي قديم لا يشبع نهمه الفكري ويريح فضوله؟ نقول: وهنا تكمن العبقرية في الخطاب القرآني، فلقد استغل القرآن العنصر الذي لا يمكن أن يحدث فيه اختلاف أو تغير، وهو الكون والتاريخ، أضف إلى ذلك الاحتياجات الإنسانية الأساسية! فنجد أن الكتاب قد استغل الكون المحيط بالإنسان كعنصر أولي في خطابه للإنسان، فهو يدعوه إلى التفكر والنظر فيه:

[90] يوسف القرضاوي، عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية، ص.40.

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ [سورة يونس, ١٠٢]

وأمره بالسير في الأرض ليرى الآيات البينات، ويتفكر في طبيعتها وكيف تسير وكيف تعمل: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [سورة العنكبوت, ٢٠]

ففي هذا كله إشارات إلى خالق واحد، وإلى حكمة في الخلق!

والناظر يجد أن الإنسان سيظل إلى قيام الساعة يسير في الأرض، يكتشف جديدا في خلق الله، ويحاول أن يستغل ما أودعه الله من قوانين طبيعية في حياته، ليجعلها أفضل وأيسر.

كما أنه مأمور بالتفكر والتدبر في آثار الآخرين، حتى لا يهلك المجتمع بما هلك به سابقوه، فالمجتمعات هي التي تردي بنفسها إلى مواطن الهلاك: ﴿أَوَ لَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [سورة الروم, ٩]

لذلك فالكتاب يعجب ممن يسير في الأرض بدون نظر أو تدبر، ويعتبر هذا من العمى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [سورة الحج, ٤٦]

إذا فمهما تطور الإنسان فكريا، فهو محصور في فلك الطبيعة المحيطة به، يأخذ منها ويقلدها ويستفيد بها، والكتاب يأمره بذلك. كما أن الكتاب عمل على إثارة الحس الجمالي عند المتبع من خلال عرض الظواهر الطبيعية المحيطة بالإنسان وعرض آثارها عليه بصورة أدبية بديعة في آيات عدة؛ فنجد أن الله تعالى يتحدث عن الرياح في

سورة المرسلات، ويعرض مشهد سير السحاب واحتكاكها ونزول الماء بما يحتاجه الإنسان عرضا بديعا في سورة العاديات[91]! ويعرض عملية نزول المطر وإحياء الأرض وخروج الزرع في كثير من الآيات: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩﴾ [سورة الأنعام, ٩٩]

وفي هذا دعوة إلى النظر والتفكر في التغير، وفي عملية الإحياء التي تحدث أمام الإنسان بتكرار كبير!

ويكثر من ذكر الشمس والقمر والنجوم، وسباحتهم في أفلاكهم في آيات عدة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ [سورة الأنبياء, ٣٣] **ويتحدث عن الليل والنهار وسباحتهما في فلك الأرض وتداخلهما:** ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩﴾ [سورة لقمان, ٢٩]، **إلى غير ذلك من كثير آيات، تتخذ الطبيعة والكون محورا لها.**

والغاية من ذلك كله حس الإنسان على التفكر والرقي والتجريد، باستنتاج العناصر المشتركة الموجودة بينها، وتحويل آلية عمل الطبيعة إلى آلية عمل في أدوات الإنسان تُيسر حياته! لذا، ففي أي بيئة أو زمان كان الإنسان، فسيكون محاطا بها من رياح وسحب وسماء وشمس وقمر ونجوم وليل ونهار وأرض وأنهار! وعليه أن ينظر فيها ويسخرها!

---

[91] من المشتهر أن مطلع سورة العاديات يتحدث عن الخيول أو الجمال! ولكنا نرى أنه يتحدث عن السحاب وعن عملية سقوط المطر، لمزيد من التفاصيل: انظر كتابنا: قرآءة لسور الطعن.

فإذا انتقلنا إلى العنصر الآخر الذي استخدمه الكتاب في مخاطبة الإنسان نجد أنه عنصر الاحتياجات الرئيسة، وأهمها بالنسبة للبشر هو الطعام! فقد يستغنون عن كثير من الاحتياجات الأخرى، وهذا ما حدث ويحدث، ولكن لا يمكن الاستغناء عن الطعام والشراب، وإلا ستنتهي الحياة. لذلك استخدم الكتاب هذا العنصر الهام في تذكير الإنسان باحتياجه إلى الله الخالق، الذي أوجد له هذا الطعام وأمده به[92].

والعجيب أن البشر يأكلون ولا يتساءلون ويشربون ولا يحمدون! فإذا نحن نظرنا في طعام الإنسان وجدناه لا يخرج عن عنصرين إثنين، وهما النبات أو الحيوان! ويعتمد الإنسان والحيوان على النبات في طعامه، لذلك أمره الله بالنظر في كيفية إنشاء هذا الطعام، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة عبس, ٢٤-٣٢]

ونجد أن النصيب الأكبر من الغذاء الحيواني للإنسان يكاد ينحصر في الأنعام "الإبل، البقر، الضأن، الماعز"، فالإنسان يربيها ويستخدمها استخدمات عدة بخلاف أكلها: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [سورة النحل, ٥]
والأنعام من أكبر النعم! –لاحظ التشابه بين مبنى الكلمتين!– التي أنعم الله بها على الإنسان، فالإنسان منذ قديم الزمان يربيها ويستخدمها[93]!

[92] ليست قضية الطعام بالأمر الهين الذي أنهاه الإنسان، وإنما ستظل إلى قرب قيام الساعة مسألة رئيس يسعى الإنسان إلى حلها، ونحن لا نزال نعاني في زماننا هذا من هذه النقطة –على الرغم من كميات الطعام التي تلقى في البحر حتى لا ينخفض سعره، فهناك: 60 مليون شخصا في 13 دولة بالعالم يعانون من نقص الأغذية. وهناك 11 دولة آسيوية تواجه أوضاعاً غذائية حرجة، مثل كوريا الشمالية وأرمينيا وطاجيكستان وجورجيا. وهناك في بلدان منظمة التعاون والتنمية الأكثر تقدماً حوالي 100مليون شخص تحت خط الفقر. فهل حل المجتمع المدني، الذي يضم 358 ملياردير اً –حسب تقارير الأمم المتحدة– تعادل أصولهم المالية مجموع الدخول السنوية لبلدان تمثل نصف سكان العالم، أزمة الطعام؟!

[93] من نعم الله على الإنسان أنه لا تنشأ بين الإنسان والأنعام علاقة قلبية، فنحن نجد أن بعض البشر يرتبطون قلبيا بالقطط أو الكلاب أو العصافير ... إلخ الكائنات، فإذا مات أو مرض حزن له وعليه حزنا شديدا، أما الأنعام فالإنسان يربيها ويذبحها ولا يتحرج من ذلك، وهي نفسها تقف تنتظر الذبح بدون اعتراض أو محاولة تفلت! لأن الله تعالى أعدها لهذا الغرض وسد باب العلاقة بينها وبين الإنسان، لذا فنحن نذبحها ولا نحزن لذلك!

ولعظم نعمة الأنعام على الإنسان، نجد أن من بين أغراض الحج الرئيسة، شكر الله عزوجل على بهيمة الأنعام: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الحج ,٢٨] فمن منا ذهب إلى الحج وتذكر أن يذكر الله ويشكره على ما رزقه من بهيمة الأنعام؟! هذه الآية وكثير غيرها تحتم علينا التفكر في هذه الأنعام! ما هو هذا السر الرهيب المرتبط بها، الذي يجعل الله عزوجل يكثر من تذكيرنا بها، حتى أنها تتقدم على الإنسان أحيانا؟!: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة السجدة ,٢٧]

بل إن الله عزوجل يأمرنا بتربية الأنعام، ويدعونا إلى التفكر في إمداده الأرض بما يناسبنا ويناسب الأنعام: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة طه ,٥٣-٥٤] فهو يربط بين أكلنا لما تخرجه الأرض من النباتات المختلفة وبين رعي الأنعام بالحشائش التي تحتاجها، وبعد ذلك ننتفع نحن بها!

وقد تبدو مسألة الأنعام هذه هينة عند كثير من البشر! ولكنا ندعوك عزيزي القارئ إلى تصور حياة البشر بدون أنعام! هل تتصور وجود حضارات بشرية أولى بدون أنعام؟ هناك الكثير والكثير من الدواب على وجه الأرض، ولكن الحضارات البشرية قامت مرتبطة بهذه الأنعام، ولو لم توجد لاختلف شكل الأرض تماما، ولتخلفت الجماعات البشرية ولما كانت هناك حضارات على الإطلاق، نعم فحضارة الإنسان ارتبطت وترتبط بالأنعام: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى ,١١] فوجودنا وتكاثرنا وانتشارنا مرتبط بالأنعام! ولقد لاحظ الإنسان القديم المرتبط بالطبيعة أهمية وخطورة هذه الأنعام لطعامه ولحياته عامة! —على عكس إنساننا

الأخرق الذي عُزل عن الطبيعة تماما، وأصبح يعتقد أن الطعام يأتي من السوبرماركت، حيث يُخلق هناك!!!- حتى أنه من عظم شعوره بأهميتها، وقع في فخ تقديسها وعبادتها! لذلك على الإنسان ألا يستهين بها أبدا، فالبقرة هي أول إله أشرك به الإنسان في الأرض، وكانت أول مخلوق يعبده بنو إسرائيل بعدما خرجوا من مصر، على الرغم من وجود نبيي الله معهم! والبقرة لا تزال تُعبد حتى الآن، فهي ثاني إله يُعبد في الأرض بعد الله تعالى! لذلك لا عجب أن تكون أكبر سورة في القرآن هي سورة البقرة[94]!

ولقد استغل القرآن الأنعام في مخاطبة الإنسان مذكره بنعمة الله عليه، وآمره بالنظر فيها والتفكر في حالها وفي خلقها، ففيها الدليل البين على الخالق وفيه الفوائد الجمة للإنسان!

وكما رأينا فلقد خاطب القرآن الإنسان بما هو فيه دوما "الطبيعة والكون"، وبما هو في حاجة إليه "الطعام والشراب"، وهما أكبر عنصر ثبات في حياة الإنسان، فلن ينقطع الإنسان عن اكتشاف الكون ولن ينفك عن احتياجه إلى الطعام.

وقد لا يشعر الإنسان المعاصر –والغربي خاصة– بخطورة مسألة الطعام هذه، لأنه يجد الطعام في السوبرماركت، ولأنه نسى أن هناك الملايين والملايين لا يزالون يحتاجون إلى الطعام، وأن هناك الكثير من المجاعات التي تجتاح العالم. فقضية الطعام هي مفصل صراع البشر الأكبر، والذين لا يزالون يسعون للسيطرة على موارده! فيُذكرهم الكتاب بالرب خالق الطعام ليلجأوا إليه!

ولا يعني هذا أن الكتاب أغفل باقي جوانب الاحتياجات الإنسانية، لا فلقد خاطبه بكل احتياجاته الثابتة والباقية، مثل الجنس والزينة والتطلع إلى الجديد والتفاخر بالأبنية والتعالي فيها، والارتباط بينه وبين بعض الحيوانات، ولكن هذا الخطاب كان

---

[94] أصل البقر هو التوسع والتفتح في الشيء، وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي الباقر، لأَنه بقر العلم وعرف أَصله واستنبط فرعه وتَبقَّر في العلم. ومن ينظر يجد في البقرة فوائد عظمى، ومن يرد أن يتعرف عليها فلينظر إلى الأسباب التي دعت الهندوس إلى عبادتها.

أقل كمّاً من الآخر ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ[95] وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾] سورة آل عمران, ١٤[فهذه خصال ثابتة في الإنسان لن تتغير، –وإن تغيرت أشكال حدوثها– لذلك كان لزاماً أن يحوي الكتاب أصولها، وهذا ما كان فعلا!

ويبقى الاحتياج الأخير الرئيس عند الإنسان وهو الحاجة إلى التقديس والعبادة، وهو لُب أي دين، وهو ما وفره الكتاب للإنسان بدرجة لا يحتاج معها إلى النظر في أي كتاب آخر، توفيرا يربط العقل بالقلب، وليس ذلك القاضي على العقل من أجل القلب! ونحن في غنى عن ذكر أي آية عن حديث الكتاب عن الله رب السماوات والأرض وما بينهما!

إذا لقد خاطب القرآن الإنسان –كائنا من وأين ومتى كان– بكل احتياجاته، مادية كانت أو روحية أو فكرية، وعليه أن يبتكر هو في الأدوات والوسائل، فما قدمه الكتاب هو الثابت، أما الأدوات والوسائل فهي خاضعة للتغير والتطور، وعلى الإنسان أن يُطور بقدر ما يستطيع. ولكن الإنسان لا يزال ذلك الطفل الرضيع، الذي يريد أن يجد في الكتاب كل شيء بالاسم وليس بالإشارة والرمز! فيريد أن يجد العربة والحاسوب وكل ما يخترعه، مهتديا بما في الكون وبما ذُكر في الكتاب!

وهذا مطلب مرفوض بداهة، ولو حدث ووُجد هذا في الكتاب لكان معناه أنه ينهاه ويعطله عن التفكر، ويعطيه كل الحلول والأجوبة التي تساعد على التبلد، –والذي أصبح السمة الغالبة في مجتمعاتنا الحديثة، حيث لا يُراد للإنسان أن يجهد نفسه في أي شيء! وإنما عليه أن يكون ذلك المستهلك الذي يشتري كل شيء حتى التفكير،

---

[95] من المشتهر أن المراد من النساء في الآية هو النسوة! وهذا عجيب، فمعنى هذا أن السحاق حلال مباح، فالناس يشتملون الذكور والإناث، ولا يمكن أن يكون المراد منهم الذكور! والذي نراه أن المراد من النساء هنا هو المستجدات والمتأخرات، فالنسأ أصلا بمعنى التأخير، فالمراد منه شهوة التطلع إلى الجديد والملل من القديم المتوفر، والتي يلعب عليها كل التجار بتوفير أشكال جديدة للسلع. وكذلك نرى أن المراد من *البنين* في الآية هو الأبنية!

فاسترح عزيزي القارئ فسنفكر لك!- والكتاب يريد للإنسان أن يتفكر وينظر، ويأبى الإنسان إلا ألا يتفكر، فلا يزال يعتبر العقل منحة ثقيلة التبعة، ويريد أن يركن إلى تلبية ذلك الحيوان الرابض فيه والمسيطر عليه!

فطام!

قلنا أن الكتاب كتاب شامل جامع، خاطب الإنسان بكل ما يحتاجه، وبما يناسبه في أي بيئة وزمان كان، ولكنا نعود فنقول: خاطب الكتاب الإنسان بما يحتاجه لإثارة عقله ويحثه على البحث والتفكر! فقدم له الأجوبة على كل ما يحتاجه، ولكن ليس بشكل تفصيلي لكل صغيرة وكبيرة، بحيث يصبح معها الإنسان ذلك المتلقي الغبي، الذي لا يُعمل فكره في أي مسألة، فإذا صادفه أي أمر هرع إلى الكنز الخارق، يبحث فيه عن الإجابة ثم يعود منتشيا منتفخ الصدر بما لم يجهد فيه! وإنما قدم له الإجابات بشكل عام كلي، بحيث تندرج تحت هذه الكليات والعمومات كل ما يحتاجه الإنسان، وعليه أن يجتهد هو في إسقاطها على أرض الواقع –القيام بتأويلها!- كما أنه حدّ له الحدود الذي ينبغي عليه السير عليها أو تجنبها، إذا أراد الوصول إلى ما يقصد!

ونحن نتفق مع الدكتور العلامة يوسف القرضاوي في حديثه عن منطقة العفو في القرآن والتشريع، –وإن كنا نختلف معه في التسمية-! إذ يقول: "إن أول هذه العوامل ما يلمسه الدارس لهذه الشريعة وفقهها من اتساع منطقة "العفو" أو الفراغ التي تركتها النصوص قصدا، لاجتهاد المجتهدين في الأمة ليملؤوها بما هو أصلح لهم، وأليق بزمانهم وحالهم، مراعين في ذلك المقاصد العامة للشريعة، مهتدين بروحها ومحكمات نصوصها.[96]" اهـ

---

[96] يوسف القرضاوي، عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية، ص.15.

لذا فيمكننا القول أن الكتاب قد أرضع الإنسان وفطمه في عين الوقت، ففيه كل شيء، ولكن لمن يعمل عقله ويقرأ الكتاب ويقرأ الكون، أما من ينتظر اللبن السائب فلن يصله بحال! فلقد خُتمت الرسالات فليس هناك رسول يأتي فيأول القرآن، وإنما علينا نحن القيام بذلك: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝﴾ [سورة الأحزاب, ٤٠]

وتمت كلمة الله إلى البشر واكتملت، فليس هناك كلمة سليمة صحيحة إلا القرآن، لذلك على الإنسان أن يقلع عن الانتظار، فعليه حمل الرسالة والانطلاق لنشرها وتبليغها البشر جميعا، ومجاهدتهم كلهم –عقلا– بها، وإبطال حججهم بما ورد في الكتاب الشافي الكافي .. الأخير: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝﴾ [سورة الفرقان, ٥١-٥٢]

فالكتاب إعلان لانتهاء مرحلة الإعداد الرباني للبشرية، وعليها، من الآن فصاعدا، أن تعتمد على نفسها في حياتها وإنتاجها وابداعها المادي والفكري[97]، مسترشدة بهدي ربها في مسيرها، فإن أعرضت فلتبحث بنفسها لنفسها، مثلما يفعل أي ابنٍ عاق!

لذا، فمن أكبر الفروق بيننا وبين نيتشه؛ أننا نؤمن أن السوبرمان الأعظم قد أتى وخُتمت به الرسالات، فبه انتهى عصر وبدأ عصر جديد، نعيشه وعاشه من سبقنا، وعلينا أن نعتمد على أنفسنا في إنشاء مجتمعات وحكومات قوية، تسير تبعا للمنهج، أما نيتشه فيرى أن السوبرمان سيظهر عندما تختفي الحكومات: "لا يظهر الإنسان الأصيل في الحياة إلا حيث تنتهي حدود الحكومات، فهنالك يتعالى نشيد الضرورة بنغماته المحررة من كل مطاوعة وتقييد .. هنالك عند آخر حدود الحكومات، قفوا

(97) أبدعت البشرية ماديا وفكريا جيدا، إلا في الجانب الروحي فلقد انتكست فيه انتكاسة كبيرة، وذلك لعدم رغبتها في إخضاع الجانب الروحي للعقل!

وتطلعوا، يا أخوتي، أفما ترون تحت قوس قزح المعبر الذي يجتازه الإنسان المتفوق؟[98]"

والعالم كله لم ير سوبرمان نيتشه ولن يراه، وإنما رأى السوبرمان الأعظم وشهد أعماله، وأقر أنه أعظم من ظهر في التاريخ، إلا أنهم يأبون اتباعه! وحتى لا نطيل على القارئ، نبدأ في تقديم الخطوات اللازمة للسوبرة، مصحوبة بالمنظور القرآني الشامل في الإجابة على الأسئلة الخالدة لدى الإنسان، وسيرى القارئ كيف أن كلاهما حتمي لاستخراج ذلك السوبرمان.

[98] فريدريش نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تعريب: فليكس فارس، ص.41.

الفصل الرابع: خطوات السوبرة

بعد هذا التمهيد وذلك التقديم الضروريين، نبدأ بتقديم خطوات السوبرة، التي استطعنا استخراجها من الكتاب العزيز. ونحن لا ندعي بحال أننا أحطنا علما بكل جوانب المنهج القرآني، وإنما نذكر الخطوط الرئيسة له، مدعومة ببعض الفرعيات، حتى يعرف القارئ كم هو محيط شامل ذلك الذي قدمه القرآن، وأنه لا يمكن بحال أن يقارَن مع أي نظرية بشرية، قُدمت في مجال استصلاح الإنسان وتقويمه، وما تركناه هو إما سهو منا أو لأننا رأينا أنه يندرج بشكل أو بآخر تحت ما ذكرنا.

وسيرى القارئ أن هذه الخطوات مرتبطة بعضها ببعض، ومترتبة كل منها على أختها، بحيث لا يمكن الوصول إلى درجة متقدمة في عملية السوبرة بدون المرور على أخواتها السابقات، وإذا حدث ووصل فلن تؤتي الدرجة ثمارها كما ينبغي، ولن تفلح في إنتاج ما بعدها وسيتوقف عندها.

وقبل أن نبدأ في حديثنا عن خطوات السوبرة نعرف القارئ الكريم أن البرنامج المذكور هو برنامج يهدف إلى رفع الإنسان من درجة الحيوانية إلى درجة الإنسانية ثم يرتقي به بعد ذلك إلى درجة السوبرمانية! ونحن إذ نستعمل هذا المصطلح "الحيوانية" فهو جري على المألوف، وإلا فالأولى والأدق تبعا للاستعمال القرآني أن نقول أنه "الإنسان" في حالة الموت وبهذا البرنامج المأخوذ من الكتاب تُجرى عملية إحياء، فتنقله من مرحلة الموت (الحيوانية) إلى مرحلة الحياة (الإنسانية) ثم إلى مرحلة العلو (السوبرمانية).

ونُذكر مجددا، أن البرنامج يحتاج جهدا متواصلا في سنين قليلات، حتى يؤتي ثماره المرجوة، إلا أن الثمار تستحق أكثر من هذا الجهد.

اقرأ وجرِّد!

أول خطوات الأنسنة هي التجريد، ولقد ذكرنا سابقا في تعريف الإنسان أنه كائن مُجرِّد، أي ذلك الكائن الذي يستطيع أن يوجد تصورا ذهنيا للأشياء ولأحوالها، الذي يُحول الأشياء من واقع محسوس إلى فكرة في الرأس، بخلاف الحيوانات، التي لا تتعامل إلا مع الواقع الحسي –ظاهريا!–.

وتصاحب التجريد مع الكلام، ثم ازداد التجريد بتحويل الكلام إلى كتابة، وعندما يقرأ الإنسان فإن مقابل المقروء يظهر في ذهن الإنسان، وكلما قرأ الإنسان أكثر كلما زاد تجريده واعتماده على عقله، وكلما زاد تجريده ارتفع وابتعد عن المرتبة الحيوانية، والتي تعتمد كل الاعتماد على المحسوس المشاهَد وعلى رد الفعل الانفعالي التلقائي –وللأسف الشديد تعمل الحضارة! المعاصرة على تنمية رد الفعل الحيواني عند البشر أيما إنماء!–. والقراءة في البرنامج القرآني ليست مجرد خيارا شخصيا للإنسان، يأتيه متى يحلو له، وقد لا يقربه لأنه حر! وإنما هي أمر من أهم أوامر القرآن، يأثم الإنسان بتركه![99]

وهي قراءة شاملة موجهة، الغرض الرئيس منها هو المعرفة والعلم! لذلك لم يكن من العجب أن تكون أول ما أنزل من القرآن العظيم، هو قوله تعالى آمرا: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ② ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ③ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ④﴾ [سورة العلق, ١-٤]

ونلاحظ أن الأمر بالقراءة أمر مطلق، لم يحدد الله مقداره أو نوعه، وإنما أمرَ بمطلق القراءة، والشرط الوحيد لذلك أن تكون القراءة باسم الله عزوجل، وهذا يعني أنه يمكن

[99] الأمر في الآية صريح "اقرأ"، والقاعدة أن الأصل في الأمر هو الوجوب ما لم يصرفه صارف! ولست أدري ما الصارف في السورة أو القرآن كله! ولا يوجد أي دليل على أن الأمر خاص بالنبي الكريم!

إدخال كل قراءة تحت هذا الأمر[100]، ما دامت خاضعة للأمر الإلهي بأن يذكر اسم الله في أولها. وكما رأينا فإن الله تعالى ربط القراءة بالخلق، وتحديدا خلق الإنسان، وكأن الله تعالى يشير بهذا إلى دور القراءة كغاية من الغايات في عملية خلق الإنسان، وكأن الله تعالى يشير بتكرار الأمر "اقرأ وربك الأكرم" أن التكرار مطلوب في القراءة، وأن الإنسان كلما قرأ أكثر، ازداد علمه واتسع، والله عزوجل أكرم، فإذا كان الكتاب قد فتح لك مقدارا من المعرفة والعلم، فسيفتح الله عزوجل لك أكثر وأكثر بكرمه فتزداد علما!

ثم يعرض الله عزوجل للإنسان نموذجا من كرمه وفضله على الإنسان وأنه هو الذي علمه التجريد الثاني بالقلم، كما ألهمه التجريد الأول –الكلام–، وبذلك انتقلت الحضارة الإنسانية نقلة نوعية كبيرة، وبدون تدوين العلوم لظل الإنسان يتخبط في ظلمات الجهل لدهور ودهور. ولدور الكتابة العظيم في أنسنة الإنسان لم يكن من العجب أن يقسم الله تعالى فيقول: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [سورة القلم, ١].

إذا فالقراءة والتعلم هي أول خطوة من خطوات الأنسنة، لذلك كانت أول ما نزل في الكتاب، وما المنهج كله إلا كتاب! على الإنسان أن يقرأه ليعلم، ويقرأ ما يحلو له ليتأكد من صدق ما في الكتاب، وبذلك يرتبط الإنسان طيلة عمره بالكتاب كقائد وموجه. ومسألة التوجيه في القراءة أمر حتمي لا يمكن التنازل عنه، فالقراءة وإن كانت في كل حال عنصر محفز للتجريد، إلا أنها قد تكون عنصر تجريد يؤدي إلى إلغاء عنصر التميز (التجريد ذاته) وتقود إلى تردي الإنسان مرة أخرى إلى منزلة الحيوانية، عن طريق إحياء غرائزه الدفينة ولكونها ليست وسيلة علم!

[100] حتى القراءة في الكتابات الإلحادية يمكن إدخالها تحت هذا الأمر، لأن إيمان الإنسان المسلم قائم على العلم وليس على الظن، فإذا قرأ الإنسان في كتابات الإلحاد لمعرفة ما يقولون وحجتهم فيه، يظهر له عظمة دينه ومنهجه ويزداد إيمانا على إيمان! وتظهر له سطحية وضحالة الإلحاد، ويستثنى من هذا الكتابات الجنسية أو الداعية إلى الإفساد في الأرض فلا يمكن إدخالها بحال!

ومسألة أهمية ارتباط العلم بالقراءة تظهر في آيات كثيرة من آيات القرآن، منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [سورة الجمعة, ٢]، فليست وظيفة الرسول الكريم أن يقدم الكتاب فقط للبشرية تلاوة، وإنما عليه أن يؤوله، ويعلمهم إياه وبذلك ينالوا الحكمة وينتقلون من مرحلة ضلال إلى هداية وعلم، فالغرض من القراءة تحقيق غاية محددة، تظهر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [سورة الجمعة, ٩].

وجليٌ تركيز القرآن على الغاية من إنزاله، لأنه إذا كان منزلا من أجل قرائته، تبعا لشعار: القراءة من أجل القراءة، أو الأدب من أجل الأدب! لما صار له كبير فائدة، وليس هذا من غايات إنزال القرآن، وإنما الغرض منه تقديم نقلة كبيرة في سلوك البشرية عن طريق تقديم علوم شاملة للإنسان، لم يكن على دراية بها: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝١٥١﴾ [سورة البقرة, ١٥١]، فالكتاب عنصر متجدد يقدم للبشرية الجديد في كل العصور، وبذلك يقدم للبشر ما يحتاجون مهما تقدم علمهم، لأنه يعلمنا ما لم نكن نعلم!

وليست القراءة بالأمر اليسير الذي يُستهان به، فعلى الرغم من اختلاف وتنوع وسائل التعليم المعاصرة، إلا أن القراءة تظل وستظل دوما العنصر الأول في التعلم، بخلاف الوسائل المرئية التي تقضي على عنصر التجريد والتخيل عند المتعلم. وقبل أن نختم هذا العنصر الأول لا بد أن نُذكر بالاختلاف الرئيس بين المنهج وبين غيره من المناهج الأرضية، وهي أن كل المناهج الأرضية جعلت القراءة والتعليم حق للإنسان، أما

المنهج فجعل القراءة فرض واجب على الإنسان، وشتان بين من يرى القراءة حق يمكن التنازل عنه –لأن الإنسان حر!!– وبين من ينطلق من وجوبها[101].

وعلى الرغم من الدعاوى العريضة لنشر القراءة والتعليم، إلا أنه قد جاء في مقدمة تقرير صادر عن منظمة اليونسيف حول حق التعليم، أن نحو مليار[102] من البشر دخلوا القرن الحادي والعشرين وهم غير قادرين على قراءة حرف واحد، وتوقعت التقارير أن يرتفع العدد، ليشكل غير القادرين على القراءة نحو سدس سكان الكرة الأرضية. وقال تقرير بأن أكثر من 130 مليون طفل –ثلثاهم من الإناث– محرومون من حق التعليم نهائيا، وان اثنين من كل ثلاثة أطفال لايتلقون تعليما ابتدائيا هم من الفتيات، ويقدر عددهن بأكثر من 73 مليونا.

فإذا كان هذا واقع القراءة العادية، والتعليم والتعلم المباشرين، فما بالنا بالتعلم الحر، وقراءة الكون! كم نتوقع أن يكون عدد غير القادرين على قراءة الكون والتعلم منه؟! إنّا نجزم أن الأغلبية الساحقة من البشرية لا تستطيع، وذلك لأنها لا تريد التعلم، على الرغم من أن الله تعالى خلق الكون مناسبا للإنسان، ليتعلم منه وبه، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾ [سورة يونس ,٥]، فالكون

---

(101) تأثر المسلمون الأول كثيرا بالقراءة والدعوى إليها، حتى أنه حدثت في تاريخنا واقعة فريدة، علقت عليها المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه منبهرة، قائلة: "أين ومتى حدث مثل هذا في التاريخ، قبل العرب أو بعدهم؟ لقد أحاط العرب الكتب بقلوبهم، حتى المؤلفات الفنية الدقيقة في الهندسة والميكانيكا والطب والفلك والفلسفة. وكما تطلب الدولة المنتصرة من الدولة المنهزمة تسليم أسلحتها وسفنها الحربية كشرط أساسي لعقد الصلح، هكذا طلب هارون الرشيد بعد احتلاله لعمورية وأنقرة تسليم المخطوطات الإغريقية القديمة. وكما يستولي المنتصرون اليوم على المناجم والصناعات الحربية الهامة والأسلحة المدمرة مع مخترعيها، نرى المأمون بعد انتصاره على ميخائيل الثالث قيصر بيزنطية، يطالب بتسليم أعمال الفلاسفة القدماء التي لم تتم ترجمتها بعد إلى العربية، ويعتبر ذلك بديلا عن تعويضات الحرب."اهـ (شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب: فاروق بيضون، كمال دسوقي، ص. 375).

(102) هناك من يقدر عدد الأميين في العالم بما يزيد عن مليارين ونصف بشري! والغريب أن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من ثمن غواصة نووية واحدة لتعليمهم!

كله كتاب قابل للقراءة، ولكن من يقرأ؟! بداهة قليل من يفعلون، لأن البشر أحرار أن يكونوا عبيدا غير عالمين!

كون مخلوق .. ذو غاية!

تدعي كل فرقة ومذهب ودين وفلسفة أنها تقدم للإنسان وللبشرية أفضل ما يمكن تصوره للحياة على هذه البسيطة، وأن كل الفرق الأخرى تتصف باللاعلمية وبالخرافة وبالنقص. وضع ما يحلو لك من صفات النقص فهي حتما في الآخرين، أما المدعي فهو صاحب أفضل نظرية مناسبة للإنسان في هذا الزمان.

ويختلف الإسلام عن هذه الفرق والفلسفات كلها أنه يجزم أن لديه البرنامج المناسب لجميع البشر في كل زمان ومكان، وقد قدمه بالفعل للإنسان. ولكن لمّا كان كثير ممن تصدوا لعرضه لا يحسنون العرض! ولمّا كان الإنسان مُعرضا، مُغمض العينين، صام الأذنين احتاج الأمر إلى أن نُسمي له كل شيء بما يعرفه هو، حتى لا يكون له حُجّة فيما يقول أو في إعراضه، وليحكم بنفسه أي البرامج هو الأكمل في تناوله والأنسب في طبيعته. ونبدأ بعرض التصورات القرآنية حول خلق الكون: كثيرة هي النظريات العلمية والفكرية والخيالية! التي طرحت بخصوص مسألة خلق الكون، وعلى الرغم من اختلافها وتنوعها إلا أنها كلها تصب في مصبين لا ثالث لهما، وهما:

1- الكون اللامحدود، الذي لا بداية زمانية له، فهو موجود هكذا أبدا وسيبقى هكذا[103]! –وهذا أعجب ما أتى به الفكر البشري كله!–، لذا كان منتظرا أن يتبنى هذه النظرية الفلاسفة الماديون أمثال ماركس وإنجلز. ولم يعد لهذه النظرية مستند علمي قوي في زماننا هذا.

---

[103] ظهرت فكرة الكون اللامحدود في اليونان القديمة، وتلقفها علماء عصر النهضة في العالم الغربي، وكما هو معلوم فإن الفكر الأوروبي الحديث قائم على إحياء *تراث* اليونانيين القدماء. ونعجب ممن يرفضون ويعجبون من أن تنهض أمتنا استنادا إلى ميراثها الإسلامي ذي الأصل الإلهي.

2- الكون ذو البداية (والذي يسميه المؤمنون: المخلوق)، وهذه النظرية أصبحت ذات ثقل كبير في زماننا هذا، ويعترف بها العلم حاليا بوصفها "النموذج المعيار". ولقد كشفت البحوث العلمية أن النظرية الأولى غير علمية على الإطلاق، فالكون له بداية زمنية محددة.

ومن البدهي أن الأديان قاطبة ستقول بأن الكون مخلوق، وهذا يعني أنه وجد بعد ما لم يكن، والذي أوجده هو الخالق. والمشكلة التي يقع فيها كثير من علمائنا أنهم يقولون أن الكون خلق من عدم! فيتلقف الملاحدة هذه المسألة ويأخذون في الطعن في مسألة إمكانية خلق الكون من العدم! فيرد المؤمنون بالحديث عن قدرة الله عزوجل، وأنه على كل شيء قدير!

أما نحن فنقول أن الكون خُلق، ولكنه لم يخلق من العدم! ولست أدري صراحة أين قال القرآن أن الله خلق من العدم! إن حل إشكالية خلق الكون ليس أمرا عسيرا، ويكمن في الخروج على قوانيننا الفيزيائية! فالمعترضون على هذه النقطة يقولون: لم يكن هناك زمان أو مادة قبل خلق الكون، فكيف يحدث الفعل في اللازمان؟!

والإجابة المنطقية هي أن الخالق لا تصدُق عليه قوانين كوننا المادي هذه، فما المانع الفلسفي أو العقلي أن يكون خلق طاقة أو مادة ذات طبيعة –وفي بيئة– مخالفة تماما لكوننا، ثم حوّر هذه الطاقة أو المادة إلى ذرة واحدة، جد عالية الكثافة، ومن هذه الذرة خُلق الكون؟ والذي يؤيد وجود عالم قبل عالمنا، بقوانين طبيعية مختلفة، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [سورة هود ,٧] فهنا يتحدث الله العليم عن الخلق، ويذكر أن عرشه كان على الماء، فمن أين أتى هذا الماء وما أصله؟ كما قلنا، في هذه إشارة إلى وجود عالم ذي خواص فيزيائية مخالفة لعالمنا!

ومن البدهي الذي تقول به العقول أن يكون الكون مخلوقا! لذا لو اكتفى القرآن بهذا القول لما قدم جديدا، وإنما كان لزاما أن يقدم القرآن الكريم التوصيف العام لعملية خلق الكون، وهذا ما كان فعلا، فإذا نحن نظرنا في سورة الأنبياء وجدنا أن الله تعالى يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٣٠] ففي هذه الآية يخبرنا الله تعالى عن كيفية خلق الكون وهو عن طريق عملية الفتق لما كان مرتوقا، والرتق في اللغة يشير إلى التجمع والاختلاط، وهذا ما كان في أول الكون، فلقد كان كل عناصره مجتمعة ومختلطة في هذه الذرة، ثم فُتقت.

وهناك كثير من العلماء يأولون هذه الآية على أنها إشارة إلى نظرية الانفجار الكبير (**Big Bang**)، ولكنا نرى أن التوصيف الرحماني لا يتفق تماما مع هذه النظرية، فلو كان هناك انفجار لقال الله تعالى "لفجرناهما" ولكنه قال "ففتقناهما"، والفتق يختلف عن الفجر، فالفتق كما جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس: "الفاء والتاء والقاف أصلٌ صحيح يدلُّ على فتحٍ في شيء. من ذلك: فتَقت الشّيء فتْقاً. والفَتْق شقُّ عصا الجماعة. والفَتْق الصُّبح. وأعوام الفَتَق: أعوام الخِصْب. قال:ويقال: أفْتَقَ القمر، إذا صادَفَ فَتقاً من سَحابٍ وطَلَع منه." اهـ

فالفتق يدل على فتح في الشيء وبروز شيء منه! وهذا ما نلاحظه من الاستعمالات التي أوردها ابن فارس، ومن استعمالاتنا نحن للكلمة.

إذا فالقرآن يشير إلى بداية خلق الكون وأنه كان عن طريق الانقسام التصاعدي، ولتنظر ولتبحث أيها الإنسان وستكتشف في نهاية المطاف أن ما قاله الله هو الصواب. وهذا التوصيف وإن كان قريبا من نظرية الانفجار، إلا أنه يختلف عنها بعض الشيء. وفي هذا التوصيف إشارة إلى وحدة طريقة عمل الله في كل خلقه، فكل الخلق يبدأ من واحد يحمل في داخله زوجه، فينقسم الواحد إلى إثنين وهكذا إلى أن يستقر

الخلق على الصورة التي يريدها الله عزوجل، والتي أودع برنامجها في تلك الذرة الأولى!

ثم يواصل التوصيف القرآني تحديد مراحل خلق الكون، فيعلمنا أنها مرت بست مراحل إلى أن وصلت إلى الشكل الذي نحن عليه الآن، والله تعالى يذكر أنه خلق العالم في ستة أيام في القرآن الكريم، فيقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [سورة ق ,٣٨]

وليس المقصود من هذه الأيام أيامنا هذه، لأن الأرض والشمس لم يكونا قد خلقا أو أُنشا بعد، ويبعد أن يُنسب خلق الكون كله إلى زمن ما لا يذكر فيه! وإنما هي ستة أيام بزمان ذلك العالم الذي لا تصدق عليه مقاييسنا ولا فيزيائنا، والذي كنا قد تكلمنا عنه عند حديثنا عن خلق العالم. وكلمة اليوم في اللغة لا يُراد منها فقط تلك الفترة الزمانية المتعارف عليها حاليا، وإنما لها استعمالات عدة، والقرآن الكريم نفسه استعمل اليوم مع فترات زمانية مختلفة، فهناك يوم كألف سنة وهناك يوم مقداره خمسين ألف سنة، وكل هذا إشارة إلى النسبية في استعمال اليوم وما يصدق عليه. كما أن اليوم الآخر هو يوم مكون من عدة أيام[104]. لذا فمن المنطقي جدا، بل من المحتم ألا تكون هذه الأيام مثل أيامنا هذه وإنما هي مختلفة عنها تماما.

ثم يعطينا القرآن تفصيلا أكبر لعملية الخلق هذه في سورة فصلت، فيقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

(104) المشتهر أن لليوم الآخر عدة أسماء، فهو يوم القيامة ويوم الفصل ، ويوم الحشر ويوم التغابن ... إلخ الأسماء الواردة في حقه! إلا أن هذا الاستعمال غير صحيح تماما ومخالف للقرآن، ومؤد إلى وقوع التناقض في القرآن. فهذه الأسماء الواردة هي أسماء لمواقف ومراحل معينة تحدث في اليوم الآخر وليست اسما لليوم كله، فهناك في اليوم الآخر: يوم الخروج وهو غير يوم الفصل وهو غير يوم التغابن. ولم نطالب إلا بالإيمان باليوم الآخر، لأنه هو اليوم الشامل لكل هذه الأيام. لمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة تناولنا لسورة المرسلات في كتابنا: قراءة لسور الطعن. ففيه تفصيل لهذه المسألة.

قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [سورة فصّلت ,٩-١٢][105]

ثم يأتي التوصيف الرحماني لكوننا الحالي بقوله سبحانه ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الذاريات ,٤٧] فالسماء مخلوقة في توسع إلى أن يشاء الله تعالى أن يتوقف التوسع فتطوى.

وتبعا لاختلاف نظرة الإنسان إلى خلق الكون وإليه نفسه، يختلف نظره كذلك إلى سيره، فالإنسان الملحد يرى أن العالم موجود هكذا بلا سبب، وليس هناك شيء غيره، وبداهة هو مستمر هكذا بلا غاية ولا نهاية، ويؤدي هذا لا محالة إلى القول بالعبثية وانعدام الغائية. وينعكس هذا حتما في تصرفه، فإذا كان هذا هو حال الكون، فلماذا يشذ الإنسان محاولا أن يجعل لنفسه غاية أو هدفا في هذه الحياة؟!

أما الإنسان المؤمن فيعلم من خلال القرآن أن الكون كله له غاية، وهو يؤدي دوره المحدد، الذي رسمه الله عزوجل له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة لقمان ,٢٩] فكل المتحركات تجري إلى أجل مسمى، وكذلك لأجل مسمى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ [سورة الزمر ,٥]

فالآية الأولى تتحدث عن وقت انتهاء الكون، وهو الأجل الذي حدده الله عزوجل، وعندما يحين ينتهي الكون، والآية الثانية تتحدث عن الغاية من الجري وهو أن تكمل

(105) لن نعرض لتفصيل عملية خلق الكون، لأن هذه التفاصيل غير ضرورية في البرنامج، فالذي يحتاجه الإنسان هو إرواء غليله وفضوله حول هذه النقطة، بمنح تصور عام، وتتكفل الأيام وعلم الفلك بإثبات صحتها ودقتها.

كل المتحركات الكونية من شمس وقمر وليل ونهار ونجوم دورها في البرنامج الكوني الرحماني، إلى أن يأتي الوقت الذي ينتهي فيه هذا البرنامج فينهار هذا الكون كله، عن طريق الانكماش ورجوعه إلى ما كان عليه، وينشأ عالم جديد على أنقاض هذا الكون، كما قال الله تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾] سورة الأنبياء, ١٠٤[فالكون كله سيُطوى ويعود إلى ما كان عليه عند بدء الخلق، وبعد ذلك: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ٤٨﴾] سورة إبراهيم, ٤٨[، فهناك نشأة لعالم جديد، فيه الأرض غير الأرض وكذلك السماوات.

غيب غائب

أول سمة نعت المنهج المتبعين له بها، وعمل على ترسيخها هي مسألة الإيمان بالغيب. وهذه النقطة من أهم نقاط التميز عن الدواب، وهي أن يؤمن الإنسان بوجود ما لا يراه عن طريق أدلة وبراهين صريحة تشير إليه. وكما قلنا من قبل فإن من أهم سمات الإنسان هي التجريد، والتي تتحقق بالقراءة. وبما أن الإنسان كائن قادر على التجريد، فتكون الخطوة التالية لذلك هي الإيمان بالغيب.

أما أن يظل طالبا وقانعا بما تراه عيناه وتلمساه يداه، فهو بذلك لم يفترق كثيرا عن الحيوان. وليس الغيب من المنظور القرآني هو ما لا يمكن التحقق منه أو إثباته معمليا، وإنما يُثبت فقط عقلا، كوجود الخالق أو وجود الملائكة واليوم الآخر، وإنما الغيب هو كل ما غاب عن الإنسان. فيدخل تحت الغيب ما يمكن تسميته بالغيب المطلق، مثل الجنة والنار والملائكة، وهذا ما لن يراه الإنسان إلا في اليوم الآخر.

وهناك غيب نسبي، بمعنى أنه صار غيبا بالنسبة لقوم وإن كان مشاهدا لآخرين، مثل أحداث التاريخ الغابرة، كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا

كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾] سورة هود, ٤٩]، أو أنه يصير مُشاهَدا لقوم بعد أن كان غيبا لأقوام آخرين، وذلك مثل أحداث المستقبل والتي وردت في الكتاب، والتي لن يراها إلا أهل المستقبل، –والذي هو حاضرهم– أو مثل الاكتشافات العلمية الحديثة، والتي تأتي مطابقة لما ورد في القرآن.

والغيب النسبي في القرآن يتحركان أماما وخلفا كدليل إثبات للغيب المطلق، فإذا شاهد الإنسان بعينه تأويل آيات القرآن بالواقع والطبيعة، بعدما كانوا غيبا لآخرين، يؤمن أن باقي ما فيه من الغيب صحيح، ويزداد إيمان من آمنوا به غيبا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾] سورة فصّلت, ٥٣]

والقرآن لا يعرض الغيبيات –نسبية كانت أو مطلقة– هكذا بدون تدليلات منطقية وعقلية، وإنما يعرض معها دوما ما يبرهن عليها عقلا، وإذا كان الذكر لغيبيات مطلقة، فإنه يعرض معها دوما نماذج دنيوية تُقرب للقارئ الغيب المطروح وتعلمه أنه قد شاهد عيّنة منه في الدنيا، ولكنه غافل عن ذلك، ونضرب للقارئ مثالا سريعا على ذلك: عندما ذكر الله عزوجل في سورة الهمزة أن نار الآخرة حطمة –أي شديدة التحطيم–، كان من البدهي أن يتعجب الإنسان، فمن المعلوم أن النار تحرق ولا تُحَطِّم، فيذكر الله عزوجل في السورة التالية "سورة الفيل" نموذجا على وقوع ذلك في الدنيا، فإذا كانت حجارة السجيل، التي ألقتها الطير الأبابيل، قد جعلت جيش أبرهة كالعصف –التبن أو ما شابه–، أي أنها جففتهم حتى تحطّموا تماما، فما العجب في أن تحطم نار الآخرة أجساد هذا الصنف المتوعد[106]!

وتتبع هذه المسألة في القرآن، فلن تجد غيبا مطلقا إلا ومعه دليل ونموذج دنيوي.

[106] لمزيد من التفاصيل يرجى الإطلاع على موضوع: الهمزة ، الحطمة، الفيل، ما العلاقة؟ على موقعنا الخاص: www.amrallah.com/ar فقد تناولنا فيه بالتفصيل سورة الهمزة، والعلاقة بينها وبين سورة الفيل، وكيف أن سورة الفيل كلها تصديق لآية واحدة في سورة الهمزة!

وتركيز المنهج القرآني على مسألة الإيمان بالغيب أمر لازم لتطور الإنسان، وللقضاء على تعصبه للموروث وللمظنون، وخطوة كبيرة في إبعاده عن أصله الحيواني، فهي تربي الإنسان على الإيمان بمحدودية تصوراته وعلمه وقصوره، وكذلك على الشك في علوم عصره، فلا يسارِع بالإيمان بأي نظرية، وإنما يعمل على فحصها والتأكد منها تمام التأكد، —حتى لا يتبع الظن– وكذلك على زيادة معارفه، حتى يؤدي إلى تقليل حجم الغيب النسبي في حياته، وعلى التخطيط للمستقبل لا الاكتفاء بالمشاهَد.

ولقد عرض القرآن للإنسان الكثير من الأمثلة على ذلك، والتي تظهر له أن كثيرا من علوم عصره قاصرة خاطئة، إلا أنه وبكل ألمعية! ألغى الرسالة الواضحة الواردة في الآيات عن طريق القول بالمجاز، أو عن طريق المرور عليها مرور الكرام، بدون محاولة فحص الواقع من أجل إثبات صدق المذكور أو حتى كذبه.

أما ذلك الإنسان الذي لا يؤمن بالغيب[107] فمترسخ لديه أن تصوراته العقلية هي التصورات السليمة المحيطة بالعالم كله، أو ليس لديه أي قناعة في المسألة، ولا يجهد عقله في القضية، فالدنيا أهم! والملحد لا يقول هذا بلسانه، وإنما يصدقه بأفعاله، فهو يسخر ممن يؤمن بالغيب على الرغم من كونه أيضا مؤمن بغيب يبحث له عن دليل، فلقد نفى مسبقا وجود إله، واستدل على ما يقول بخواطر ذهنية!

وكلما تظهر نظرية صالحة لنفي الإله يسارع إلى تصديقها؛ فالملحد صدق بنظرية دارون المتهافتة لأنها تخدم منظوره المسبق، وهو القول بالصدفة، وعلى الرغم من تهافتها إلا أنه يستميت في الدفاع عنها. وسارِع الملحد بالتصديق على نظرية الجاذبية يوم كانت لا تزال نظرية تحتاج إلى كثير من الأدلة العلمية، على الرغم من كونها في ذلك الوقت تفتقر إلى الأدلة ولم تكن أكثر من افتراضية علمية. ونحن لا نعيب على أي أحد الإيمان بأي نظرية أو اكتشاف علمي، فلن يوجد أي اكتشاف علمي يثبت أو يرجح عدم وجود خالق، بل كلها تؤكد وتثبت عنصر التخطيط والتوجيه الرباني. فحتى

(107) في المسألة الإلهية فقط، لأنه لا يريد أن يفكر فيها، وإلا فإنه لا يوجد إنسان لا يؤمن بغيب، ولكن يختلف نوع الغيب الذي يؤمن به الإنسان، هل هو غيب غير موجود (وهم) أم أنه غيب مستند إلى مقدمات سليمة.

لو صحت نظرية داروين وكل النظريات التي يتمسك بها الملاحدة، فليس فيها أي دليل على نفي الخالق، أو على نفي عوالم أخرى لا تتبع لقوانيينا، وإنما نعيب الإيمان المسبق بقضية والمسارعة لتصديق أي ظن قد يوافقها.

إذا فالفارق بين الإيمانين أن الإيمان بالغيب ينطلق من الموجود لتوسيع أفق الإنسان، عن طريق الشك وإعمال عقله وإثراء فكره وعدم جموده على المجسم لإثبات موجودات أخرى لم نحط بها علما، أما ذلك الآخر فينطلق من الموجود المادي – الذي لم يحط به علما أو يخبره حتى وقتنا هذا– مؤمنا بصحة علومه، إلى نفي آخر لم يحط به علما، حتى ولو أدى ذلك إلى تزوير وتلاعب.

وكشف الغيب النسبي هو مطمح كل البشرية، فهي تحاول كشفه لتزيل الغموض عن أحداث الماضي الغابر، وكذلك لتستشف مستقبلها، لتضمن عوائل المستقبل، حتى أنها طالبت الرسل بالإخبار بالغيب كتصديق لهم على دعوى إرسالهم من الله. والمنهج يعلمنا أن الغيب المستقبلي سيظل دوما غيبا ولن يُكشف إلا مع حلوله حاضرا، فيقول على لسان الرسول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [سورة الأعراف, ١٨٨] وأنّ على الإنسان أن يستشرف المستقبل عن طريق استنتاجه من مقدمات الحاضر، –وهذا هو عين المطلوب مع الغيب المطلق–.

وفي نهاية المطاف سيظل الغيب غيبا بالنسبة للإنسان وسيظل متطلِعا مترقبا وجلاً، إلا أنه لن يستطيع أن ينكر أن المستقبل قادم أو أن الماضي قد انقضى!

خالق كامل حاكم

لُب أي دين أو منهج هو وجود المقدس،[108] وبدونه لا يمكن جمع البشر حوله، إلا أن لب الدين الإسلامي لا يدور في فلك أي مقدس، وإنما ينحصر في الله العلي العظيم، الخالق الظاهر الباطن. وبما أن هناك كون ذو بداية، فلزاما هناك خالق لهذا الكون، ولهذا بدأنا بذكر الكون قبل حديثنا عن الخالق، لأن أول ما يواجهه الإنسان في حياته هو كونه وبه يتعرف على خالقه. وتُعد قضية موجودية[109] الخالق وتصوره أهم قضية تقابل الإنسان في حياته كلها، فعليها يترتب كل سلوكه وتصرفه في هذه الحياة. فهناك من يرى أن العالم بلا خالق وأنه خالق نفسه، وهذا التصور كارثي لا محالة ومؤد لزاما إلى طوام ودواهٍ.[110]

وهناك من يرى أنه ثمت خالق للكون، ولكنه خلق الكون وتركه يسير، وهناك من يرى أن الخالق أكبر من أن ينشغل بهذا الكون، وهناك من يرى أن الله خلق الكون وسيره ونظمه، ولكنه في عين الوقت إله لا يتملك نعوت الكمال، فهو إله مندفع يغضب ويحزن ويندم، وهو إله عنصري في عين الوقت، فهو لا يحب إلا أمة واحدة "شعب الله المختار"، ولا يساند إلا إياها، وليس إلها إلا لها.

وهناك من تردى به فكره، فجعل الإله يتجسد في حيوان أو حجر أو حتى بشر! ويكون مظهر التجسد هذا رمز القداسة، فيعبد الناس بقرة أو شجرة أو إنسانا، هو إله أو ابن إله، أتى ليحرر البشرية من ذنب لم ترتكبه.

---

(108) حتى المناهج الأرضية المادية لها مقدساتها! فالحزب مقدس في الشيوعية، ومؤسسوها كذلك، وفي الرأسمالية يُقدس الوطن أو الدولة، وعلى الرغم من ذلك فهم يعيبون على الأديان تقديس الإله، مع أنه لا منطقية إلا في تقديسه هو فقط!

(109) نحن لا نقول أن "الله موجود" لأن هذه الجملة غير صحيحة ومؤدية إلى الدور، وإلى السؤال: ومن أوجده؟! وإنما نقول أن الله تعالى "واجد الوجود" لأنه واجب الوجود!

(110) نحن لا نُهول بقولنا هذا، ونحن وإن كنا نُقر أنه ثمت ملاحدة، لا يؤذون ويفعلون الخير للناس أكثر بكثير مما يفعله مؤمنون، إلا أن هذا من عجب الدهر، ومن جملة إثبات تناقضات الإنسان وأنه كائن لا منطقي على الإطلاق، سواء ذلك الملحد الجيد أو المؤمن السيئ، وسنعرض لهذا لاحقا.

أما التصور الإسلامي للإله فتصور مخالف تماما لكل هذه التصورات البشرية القاصرة، تصور يمكن حصره في كلمات أربعة فقط، وهما: الوحدانية والمخالفة والكمال والغاية. فكل ما خطر ببالك في أوصاف الله فالله تعالى غير ذلك (أعلى من ذلك!)، وإذا خطر ببالك نسبة أي نقص أو خلل أو خطأ لله عزوجل فأنت في طريق الضلال سالك، فليس الله حتما ذلك، وإنما الله هو جماع الكمال كله وله فقط المثل الأعلى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الروم, ٢٧] وهو الغاية النهائية لكل فعل وحركة لإنسان أو .. لكون!

وقضية كمال الله عزوجل ليست هي القضية التي يُختلف حولها، فالمفكرون مجمعون على وجوب كمال الخالق، ويقر بذلك أيضا الملاحدة، فهم عندما ينقدون أي مسألة في الدين يتساءلون: كيف يتفق ذلك مع كمال الله؟ ولكن المشكلة أن البشر قد يقرون بالشيء من زاوية ويستأصلونه من زوايا أخرى، وهذا ما حدث مع عامة البشر، فلقد أقروا بكمال الله عزوجل، ولكنهم عادوا فألصقوا له وبه أبشع الأوصاف، التي تنفي أي كمال! فقالوا أنه أهوج يندم، وقالوا أنه تجسد أو حلّ في حجر أو حيوان، وقالوا بوحدة الوجود فجعلوا الخالق هو المخلوق، ووصل الأمر بهم أن دعوا له ولدا ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [سورة مريم, ٨٨-٩٢]

كما أنهم غفلوا عن حتمية وحدانية الخالق عزوجل، فقال فريق أن الخالق آلهة وليس إله واحد، وقال آخرون أنه إله مكون من عدة آلهة، وقالت طائفة أن الخالق أوكل التصرف في الكون إلى عدة رموز. وهكذا تنوعت الأهواء والمشارب في توصيف الإله حسبما يهدي كلَ فريق شيطانُه، لذلك كان لزاما أن يقدم الله عزوجل للبشرية ذلك التصور السليم التام عن الخالق، وما يتميز به من صفات كمال وإحاطة.

ومنهج القرآن في الحديث عن الخالق العليم هو حديث عن كمال صفاته، ومناقشة ورد على المنقصين من قدره والواصمين له بأبشع الصفات، والمُصرين في ذات الوقت على أنها صفات كمال! فحديث الله عن نفسه حديث عن كمال ووحدانية ليس أكثر، فهو يفند كل دعاوى الشرك والنقص في آيات عدة، بأسلوب أدبي منطقي علمي بليغ، اجتمع فيه الإيجاز والإحاطة، فالله تعالى في القرآن هو العليم بكل ما يدور في الكون وبكل أفعال عباده، ما ظهر منها وما بطن، ما كان وما يكون، إحاطة علم من دون إجبار، وهو الخبير بكل شيء العالم بأسراره ومكانينه، وهو السميع البصير فلا يعزب عن سمعه وبصره أي صوت أو مشهد في الكون كله، وهو اللطيف الخبير، وهو العلي الكبير، وهوالرزاق يرزق الخلق كله كما يشاء ويريد، وهو القوي العزيز، وهو الخالق البارئ المصور الذي خلق الكون جمادات ونباتات وإنسانا، وصورها كلها في أحسن صورة، وتتوالي أسماء الرحمن في القرآن تترى، حتى تقدم للإنسان تصورا عقليا راقيا للخلاق العليم، نافيا في الوقت ذاته المشابهة للخلق. ومما عرّف الله الخلق به، رادا على المخالفين قوله سبحانه: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾
[سورة الشورى, ١١]

ونتأمل قليلا في هذه الآية، فالله هو الذي خلق الكون كله عن طريق الانفطار (والذي هو قريب جدا من معنى الانشطار: الانقسام)، ولا يزال هذا الانفطار موجودا ومستمرا إلى يومنا هذا، والذي يقوم به هو الله عزوجل، لذا جعله اسما من أسمائه الحسنى! وجعل لنا من أنفسنا أزواجا فلا يتم تكاثرنا إلا عن طريق الأزواج، وكذلك الأمر في الأنعام، فليس تكاثرنا عن طريق الفطر الذاتي كما حدث مع السماوات والأرض، وإنما عن طريق الزواج، ومن اجتماع الزوجين يكون التكاثر. ثم يقول الله بعد ذلك: ليس كمثله شيء، فهو لا ينقسم بذاته ولا يحتاج إلى زوج كما يحتاج الإنسان والحيوان، وبالتالي لا يحتاج إلى ولد، فمن يحتاج إلى الولد هو الفاني العاجز، أما من كان الأول والآخر، ومن كان أمره عمله فلا يحتاج إلى الولد ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ

ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾] سورة يونس ,٦٨[فهو واحد كامل غني مخالف للجماد والنبات والحيوان، فليس كمثله شيء. والإنسان لا يستطيع أن يتصور إلا ما كان من السماء والأرض والله ليس كذلك، ولكن هذا لا يعني أن الله غائب عن الأرض وعما يحدث فيها، لا فهو السميع البصير.

ويأتي نعت شامل للرحمن في سورة الإخلاص: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾] سورة الإخلاص ,١-٤[فهو أحد غير مكون من أجزاء، لأن المكون يحتاج إلى ما تكون منه، وهو قائم بذاته، لا يحتاج إلى أحد وإنما يحتاجه كل الخلق، ولم يلد فليس له ابن كما ادعى كثير من البشر، ولم يولد كما ادعى نفس الصنف، وليس له أي شبيه.(111)

ويأتي أكبر جمع لأسماء الرحمن في سورة الحشر، وفيها يقول الرب العليم: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾] سورة الحشر ,٢٢-٢٤[

فإذا نحن تركنا الآيات التي تُعرف بأسمائه الحسنى، وانتقلنا إلى الآيات التي ترد على المشركين، وجدنا كمّاً كبيرا من الآيات التي يثبت لله الوحدانية ويزيح كل مظان الشرك من عقول البشر، فيرد على القائلين بوجود آلهة للعالم بقوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾] سورة الأنبياء ,٢٢[فمن المعلوم أن المركب ذا القائدين يغرق، فما بالنا بقواد عدة!

(111) عندما كنت أقرأ سورة الإخلاص وأنا صغير كنت أعجب وأتساءل: إن الذي تذكره هذه السورة من البدهيات، وأي إنسان يعرف هذا، ولكن عندما كبرت، علمت أن هذه السورة سورة إدانة للبشرية، وإثبات لعماها وصممها، حتى أن مليارات منها احتاجت وتحتاج إلى أن تُذكر بهذه البدهيات!

ويؤكد هذا المعنى بقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة المؤمنون, ٩١]، ويرد على القائلين بالولد بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة مريم, ٣٥] فالإنسان إنما يتخذ الولد لسببين رئيسين وهما الرغبة في الخلود ومن أجل المساندة والأنس به، والله عزوجل غني عن هذا، فأمره يتحقق بالقول، فلا حاجة له إلى ولد أو مساند أو أنيس،[112] ويرد بقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [سورة الزمر, ٤]، وهنا يرد كذلك بقوله أنه حتى لو كان هناك ولد لله تعالى فلن يكون عن طريق الولادة أو وجود علاقة بين الله والولد –كما يدعي المسيحيون!– وإنما سيكون الأمر كله مجرد اصطفاء من الخلق أي اختيار من الأفضل، وتعالى الله أن يتخذ الولد فهو الغني الصمد.

والله عزوجل إذ يقيم الأدلة على وحدانيته، فإنه لا يستخدم أدلة فلسفية تستعصي على الإنسان وإنما يستخدم أدلة جامعة مانعة نابعة مما يراه كل إنسان، فالله يستخدم الكون كدليل على وحدانيته، ويدعو الناس إلى التفكر فيه ومراقبته، لأن هذا التفكر سيقودهم حتما إلى معرفة وحدانية الخالق عزوجل والتيقن من ذلك، فنظام الكون كله صارخ بأن مُسيّر ومُنظم هذا كله واحد، وفي هذا يقول الله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الذاريات, ٢٠-٢١] ويقول في سورة النمل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ

---

[112] في الآية إشارة أخرى في الرد على المسيحيين، وهي أن الله تعالى إذا أراد أن يتخذ ولدا لما احتاج أن يُنشأ هذا الولد في بطن امرأة بشرية لمدة تسعة أشهر، وإنما كان يكفي أن يقضي خلق الولد فيكون! أما الحمل البشري فهو وسيلة العاجز –نحن معشر البشر–.

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾] سورة النمل, ٦٠-٦٤[فكل هذه المظاهر تنفي أن يكون هناك إله مع الله سبحانه وتعالى، ونكتفي بهذا القدر من الآيات ونُحيل القارئ إلى القرآن ليتدبر وينظر بنفسه.

والملاحظ أنه هناك الكثير والكثير من الآيات حول وحدانية الله عزوجل، ولكن لا توجد آية واحدة لإثبات وجود الله عزوجل! فالمنهج يرى أن وجود الله عزوجل هو من البدهيات، التي لا ينبغي أن يُجادل فيها، وإنما الجدال أو الاختلاف ممكن الوقوع في أسماءه ووحدانيته وأفعاله، لذلك اكتفى القرآن بأدلة الوحدانية والكمال. ومع القرآن كل الحق في موقفه هذا، فهذه القضية محسومة عقلا وقلبا ومنطقا ورياضيا وبكل أشكال ووجوه الاستدلال، والإنسان الذي يجادل في هذه القضية يناقض نفسه ويخادعها. وبداهة لن يعجب هذا الكلام الملاحدة فهم يرون أنه لا يوجد دليل قوي على وجود الله عزوجل، بل إن الواقع يرجح عدم وجوده!

ويحاولون تفنيد الأدلة العقلية على وجود الله عزوجل، ويرون أنها لم تحسم الموضوع وتبقي دوما مجالا للشك وللاحتمالية. ولأن كتابنا هذا لا يناقش هذه النقطة[113]، ولأنها من الوضوح بمكان، فسنكتفي بعرض دليل واحد ينسف كل دعاوى الملاحدة في مسألة عدم وجود الله عزوجل:

إذا حدث وقابلت شخصين في الطريق، فسلم عليك أحدهما، وتحدث معك بطريقة مألوفة وتناقش معك في بعض المسائل ثم ودّعك وانصرف. أما الآخر فقذفك

[113] سنقوم بإذن الله في كتابنا القادم "تهافت الملاحدة" بالرد التفصيلي على أهم نقطتين يطعن فيهما الملاحدة على المسلمين، وهما مسألة وجود الله عزوجل ومسألة صحة نسبة القرآن إلى الإله، وسنطيل النفس في هاتين المسألتين، عارضين للنظريات الإلحادية حتى يظهر للقارئ الكريم كم أن دعاوى الإلحاد كلها تافهة سطحية متناقضة مصبوغة بصبغة شبه علمية، وكيف أن الملاحدة أجمعين يخالفون بكل أفعالهم استدلالاتهم في قضية الألوهية تحديدا.

بالحجارة بدون أي مبرر، ثم أخذ في تمزيق ملابسه، إلى أن تجرد منها نهائيا وصار عاريا تماما، وأخذ يعدو في الطريق بهذه الهيئة. فماذا يكون حكمك على هذين الشخصين؟ بداهة سأحكم أنا وكل إنسان عاقل –وبما في ذلك الملاحدة– أن الإنسان الأول إنسان طبيعي عاقل، أما الآخر فمجنون لا عقل له. وهنا نسأل الملحد: هل توافق إذا قلت أن الإنسان الآخر عاقل؟ بداهة سيرفض الملحد. فإذا أصررتُ على موقفي وقلت أن الإنسان الآخر عاقل، سيرى الملحد وأي إنسان عاقل أنني أُكابر، فعلامات الجنون وفقدان العقل واضحة على ذلك الآخر، ويبدو ذلك جليا من خلال أفعاله.

فإذا كان الملحد قد حكم على إنسانين بأن أحدهما عاقل والآخر لا عقل له –وكلاهما متشابهان في الهيئة ولا يوجد أي دليل مادي على الاختلاف– عن طريق فعليهما، فكيف ينفي وجود الله عزوجل؟ فإذا كان مجرد أربعة أو خمسة تصرفات كافية للحكم وللجزم بوجود عقل –لا نراه ولا نلمسه– لإنسان، وأربعة أو خمس حركات حمقاء كافية للحكم بفقدان العقل، أفلا يكفي الكون كله، بنجومه ومجراته وكواكبه وحيواناته وسيره المتقن ونظامه البديع، أن يكون دليلا على وجود إله –عقل غير مادي– يسيره وينظم حركته، بدون أن نرى نحن هذا العقل أو نلمسه؟

سيعترض الملحد، ولكنه لن يجد أي فرق يبرر به إثباته لوجود العقل عن طريق آثار الفعل وبين نفيه لوجود خالق عن طريق آثار الفعل! وجرب بنفسك هذا الدليل مع أي ملحد ولن تجد لديه أي فارق!

ومن أهم النعوت التي يقدمها القرآن لله عزوجل بخلاف الكمال والوحدانية نعت الحاكمية. ومما أعجب له أن يجادل كثير من المخلوقين المعترفين بالإله في هذه النقطة! كأنه ليس من حق الله عزوجل الذي خلق أن يُسيّر، إنهم يتصورون الإله ربا خالقا وحسب، أما الألوهية فليست له. فعندهم يكفي هذا الإله أن يخلق ويهب العقل، ويترك الباقي للإنسان الحكيم لكي يُسير حاله بنفسه، فالإنسان حكيم بما

يكفي للقيام بهذه المهمة، أما الرب الخالق فليس لديه الحكمة الكافية لهداية البشرية! ثم يتساءلون ببراءة التماسيح: كيف يوجد قانون جامع شامل مناسب لكل البشر في كل زمان ومكان؟ هذا ما لا يمكن حدوثه بأي حال! وأعجب ممن يتصدون للقول بهذه الفرية وأتساءل: ألم ير هؤلاء فعل البشر حولهم؟ ثم يزول عجبي عندما أتذكر أنهم هم أيضا بشر!

والمنطقي أن يعجب الإنسان من إدعاء بعض البشر قدرتهم على الوصول لما فيه خير البشرية، كأنهم أعلم بأمور دنياهم، أما خالقهم فلا! والأعجب أن يصدقهم الباقون ويسلمون لهم زمام أمورهم. ولكن وإن كان البشري قد سلم لبشري مثله في مسألة قيادته ووضع القوانين والأحكام له وحاسبته عليها، إلا أنه ما عاد يجد الحرج الكبير في اختراق هذه القوانين غير المتفق عليها، حتى ظهرت المقولة الشهيرة: ما وُضعت القوانين إلا لاختراقها! وذلك لإيمان البشري أنه لا يحق ولا يمكن لبشري مثله أن يسيره، فمن أين له أو لهم "الحكام" بالحكمة والحيادية التجرد؟

ومسألة حكمة وحيادية البشري في إصدار الأحكام وتطبيقها على كل بني الإنسان أمر محال بجميع المقاييس، وأقصى ما يمكن تحقيقه هو الوصول إلى قدر كبير من الحيادية والتجرد، –وهذا لا يتأتى إلا بعد إعداد طويل مستمر من بشر محايدين متجردين!– لذلك فقد أصاب أفلاطون كبد الحقيقة عندما دعا إلى حُكم الفلاسفة، –ويكون هذا عند افتقاد الحكم الإلهي– لأن حكم البشر العاديين هو الذي أدى وسيؤدي لا محالة إلى شقاء وتعاسة البشرية، ولقد ذكر أفلاطون في سمات الفيلسوف الحاكم أو الحاكم المتفلسف ما يلي:

1– فطرة سليمة هائمة بكل أنواع المعرفة.

2– شغف بحقيقة الوجود الخالد، الذي لا يغيره الزمان ولا تسطو عليه عوادي المحن.

3– محبة الصدق محبة حقيقية، ومقت الكذب مقتا كليا.

4- هجر اللذات التي محورها الجسد.

5- عفة لا يسودها طمع، (...)

6- نبذ الصَّغار فهو أكبر عدو للنفس المتجهة لامتلاك الحقيقة الإلهية والبشرية.

7- الزهد في الحياة الحاضرة وعدم مهابة الموت (...)

8- النزاهة والرقة وحسن المعاملة ولين الجانب، (...)

9- سرعة الخاطر، وقوة الذاكرة، ومحبة الجمال، وزكاة الفؤاد (...)"[114] اهـ

وكما رأيت عزيزي القارئ فإنه من المستحيل توفر هذه السمات في بشري، ما لم يكن إنسانا خارقا، وهذا لا يكون إلا بعد خضوعه للبرنامج القرآني! وعند خضوعه له فإنه يجتهد في تطبيق أحكامه بما يلائم الواقع، لا أن يبتدع من عند نفسه!

أما القرآن فيقدم الخالق على أنه الإله الخالق الحاكم المطلق، فهو الذي يهدي البشرية إلى ما فيه خيرها وصوابها وصلاحها، ثم يكافئها بعد أن وهبها الهداية بأن من يتصرف بما فيه خيره فله الخلود الأبدي والنعيم المقيم، وأما البشري الذي يخالف قانون الرب فيشقى في الدنيا ويورث نفسه بعد الموت شقاءا أبديا. وأعتقد أننا قدمنا وبيّنا، كيف أن المنهج صالح للناس في كل زمان ومكان.

وقبل أن نختم هذه النقطة لا بد أن نذكر أن الله الخالق الحاكم لم يجبر البشر على الامتثال لما أمر به، وإنما أعطاهم الإمكانية والخيار للطاعة وللمعصية، وليس لأحد سلطة إجبارهم على الإيمان أو الطاعة وليس لأحد الإثابة على ذلك في هذه الدنيا وإنما يكون ذلك في الحياة الآخرة.

وسيقارن القارئ بنفسه بين آثار التعامل مع العالم والبشر عبر هذا المنظور والتعامل معه عبر المنظور القائل بعدم الإله أو الإله الناقص الحكمة الذي أنزل قوانين غير

---

[114] محمد أحمد المسير، المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه، ص.100، 101.

صالحة إلا في فترة معينة، ثم تجاوزها البشر بعد ذلك بفضل تقدمهم العلمي العظيم العقيم، أو ذلك الإله غير الرحيم الذي ترك البشر يتخبطون في تيه الحيرة والضلال.

خلق الإنسان المكرور

كيف ظهر الإنسان على سطح الأرض؟ اختلفت الإجابة على هذا السؤال الخالد بين الحضارات المختلفة، وقُدمت تصورات مختلفة لإجابته، إلا أن أهم الإجابات المطروحة لهذا السؤال انحصرت في التصور التوراتي، والذي أُلصق زورا وبهتانا بالقرآن، والتصور الدارويني. وينحصر التصور التوراتي في أن الله خلق آدم على صورته! في اليوم السادس من الخلق، وخلقه هكذا مباشرة من الطين إلى إنسان! كما جاء في سفر التكوين في التوراة: "1: 26 وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. 1: 27 فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله[115] خلقه ذكرا و أنثى خلقهم"

أما التصور الدارويني فهو تصور علمي بعض الشيء[116]، فهو يرى أن الخلق كله نشأ عن طريق خلية واحدة، ثم تطورت هذه الخلية تطورات عدة إلى أن ظهر من هذه الخلية كل الأشكال الحيواتية الموجودة على أرضنا الآن. والملاحظ أن دارون لم يقل أن الإنسان كان أصله قرد، كما يدعي كثيرٌ، وإنما قال أن الإنسان والقرد ينتميان إلى

---

[115] لهذه النظرية كبير الأثر في تصور الإله الخالق عند الغربيين،-والذي هو في الإسلام: ليس كمثله شيء- فكثير من المسيحيين الغربيين يتصورون الإله على أنه إنسان كبير الحجم، طاعن في السن ذو لحية كبيرة! ولا يسقطون على الخالق كل معاني الحكمة أو القدرة المطلقة، فلأنه مشابه للبشر هيئة فحتما لا بد أن يشابه البشر *صفاتا* !

[116] هناك الكثير والكثير من أوجه النقض والهدم لهذه النظرية، أهمها أنها تدعي أن الأحياء قد تطورت من خلية واحدة إلى أحياء ذات خلايا متعددة، ثم تشعّبت مساراتها في التطور، حتى ظهرت الأحياء الحالية، التي تبلغ أعدادها عدة ملايين. لذا فحسب هذه النظرية لابد من وجود عشرات الحلقات الوسطى أو الحلقات الانتقالية بين كل نوعين، أي أن عدد أحياء الحلقات الوسطى يجب أن تبلغ عشرات ومئات الملايين، ولكن لم يتم العثور حتى الآن على أي حلقة وسطى.

أصل واحد، وأن القرد هو أقرب الحيوانات إلى الإنسان! وهذا أمر بدهي لمن يقول بأن الخلق كله بدأ بخلية واحدة، ثم تنوعت الأشكال الحيواتية، فلزاما أن يقترب الإنسان من القرد صفاتا.

وهذه النظرية، على الرغم من رفضنا لها، من أكبر الأدلة على وحدانية الخالق[117]! ويتفق التصور القرآني مع كلا التصورين ويخالفهما! ومما يأسف له المرء أن التصور السائد بين المسلمين هو أن الله عزوجل خلق آدم على شكل تمثال من طين ثم نفخ فيه من روحه فتحول إلى إنسان! ومن ضلع آدم خُلقت حواء! ولست أدري أين أتى تصور خلق آدم هذا في القرآن أو في السنة؟!

إن هذا التصور من الإسرائيليات التي دُست في الدين. أما التصور القرآني فهو تصور واضح معتمد على الخلق المباشر من الرحمن، القائم على التطور. فمن الملاحظ أن القرآن يقول أن الله خلق الإنسان من تراب ومن طين ومن ماء ومن حمأ مسنون، ... إلخ، ومن المعلوم بداهة أن هذا حديث عن مراحل، فلو كان الأمر مجرد خلق تمثال وتحويله إلى إنسان، لما احتيج إلى المرور بهذه الأطوار ولأتى الله بطين وشكله كتمثال ثم حوله إلى بشر!

أما التصوير القرآني لعملية خلق الإنسان –كما أفهمه– فهو يقول بالخلق المباشر للرحمن عن طريق التحول من تراب إلى طين إلى حمأ مسنون ... إلخ المراحل

[117] العجيب أن الملاحدة يتمسكون بهذه النظرية ويعتبرونها دليلا على صحة قولهم، على الرغم من أن داروين نفسه لم يكن ملحدا، وإنما كان مؤمنا وقال أن الإله هو الذي أوجد هذه الخلية! ونحن إذا نقول أن نظرية داروين دليل كبير على وحدانية الخالق فإنما نعني أن النظرية التي ترجع الخلق كله إلى أصل واحد هي مُلزِمة لا محالة بوجود خالق واحد وليس أكثر من خالق، وهذا الخالق هو الذي حورها من تراب وطين إلى كائن حي أولي. ولقد كان داروين منطقيا عندما أعلن أن الإله هو الذي خلق الخلية، أما الملاحدة فيقولون أن هذه الخلية نشأت وتحورت عن طريق الصدفة. ولا نريد الدخول في متاهات العمليات الرياضية التي تثبت استحالة هذا الأمر علميا، ولكنا نسأل سؤالا واحدا فقط: لم يتماثل كل الخلق في وحدات البناء من الخلايا ومكوناتها الجزيئية من الأحماض النووية؟ لم لم ينشأ الخلق الصدفوي بأشكال وتركيبات مختلفة، طالما أن الأمر لا يزيد عن مجرد صدفة؟ إذا فحتى نظرية دارون تقول بوجود الخالق، ولكنها حُورت وحُرفت من أجل التوافق مع المنظور الإلحادي، حتى يتم الخلق كله بالصدفة. ومن يرى أن الخلق لا خالق له ونشأ صدفة واعتمد على مبدأ البقاء للأصلح، لا بد أن تكون له نظرة مخصوصة للعالم وللحياة، سنعرض لها فيما بعد.

المذكورة في القرآن ثم حُوِّلت هذه الذرات الجامدة إلى خلايا أولية، وغُرست هذه الخلايا في ما يمكن تسميته ب "أرحام أرضية"[118] وانقسمت هذه الخلايا ونمت حتى صارت بشرا كاملين ناضجين، ثم تشققت هذه الأرحام وخرج الناس من الأرض كما يخرج النبات! إلا أنهم كان لهم حرية الحركة.

وتختلف هذه النظرية عن نظرية دارون في كون كل جنس خُلق من خلية مخصصة له، لا أن كل الخلق خُلقوا من نفس الخلية، فكانت هناك خلايا ستنقسم إلى أن تصير بشرا، وخلايا ستصير أُسودا وخلايا ستصير تماسيحا ... وهكذا. وكانت هذه الأفراد منحنية الظهر بعض الشيء، وكانوا يعيشون عيشة الدواب، يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء. وتوالى خروج الأجيال إلى أن خرج الجيل الذي كان فيه آدم عليه السلام، حيث مُنح العقل واستقامة الظهر، ومن هذا الجيل أُصطفي آدم عليه السلام وعُلم الأسماء وعَلّمها لمن معه[119].

ويخالف هذا التصور ما تعارف عليه عامة المسلمين، ولهم كل الحق أن يتساءلوا: من أين أتينا بهذا التصور من القرآن؟ ولأن هذا الكتاب لا يعنى بمناقشة هذه المسألة فسنكتفي بعرض بعض الآيات التي تذكر مباشرة ما قلنا به، ومن أراد التوسع فليرجع إلى حيث ناقشنا هذه النظرية بالتفصيل: يقول الخلّاق العليم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة البقرة, ٣٠]
والآية نص صريح على أن البشر كانوا يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، أي أنهم

[118] هناك بعض الأساطير السومرية التي تذكر أن البشر خرجوا من الأرض، كما نقول نحن!

[119] هذا هو تصورنا الشخصي لآيات الخلق، الواردة في القرآن، والمعتمد على الفهم الحرفي الظاهري للآيات، لا ذلك التصور التوراتي الذي يجعل الجمع مفردا و"ثم" بمعنى قبل! والمضارع يدل على المستقبل لا الحاضر بلا دليل! ويخصص ويعمم بلا قرينة، وغير ذلك كثير من ترك الظاهر، ثم يتهمنا نحن بلي أعناق النصوص! وهناك بعض العلماء من يجعلها متوافقة مع التصور الدارويني، ولقد ملنا في فترة إلى هذا التصور ثم وجدنا أنهم كذلك يلوون أعناق بعض الآيات لكي تتوافق مع ما يرون، ومن يرد الاستزادة حول تفاصيل نظريتنا في خلق الإنسان فليرجع إلى كتابنا "لماذا فسروا القرآن؟" أو إلى موقعنا الشخصي:
www.amrallah.com في القسم العربي منه!

كانوا يتصرفون بهمجية، والمخالفون يقولون أنهم "سيفسدون" في المستقبل، بلا بينة على قولهم! قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧﴾ [سورة نوح ,١٧] فهناك مرحلة نباتية في خلق الإنسان، أما هم فلا يقولون بهذا!

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [سورة الانفطار ,٧] والتسوية يسبقها حتما اعوجاج! ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٢٢﴾ [سورة الـملك ,٢٢] والذي كان يمشي مكبا على وجهه هو الإنسان الأول الذي لم يكن لديه عقل، فمثل الكافر كمثل هذا البشري الذي كان لا عقل له!

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١﴾ [سورة الأعراف ,١١] وكما هو واضح من الآية فلقد خُلقنا –ولاحظ ضمير الجمع المذكور في الآية– ثم صُورنا، ثم أُمرت الملائكة بالسجود لآدم، والمخالفون يلغون "ثم" التي تدل على الترتيب والتراخي، مما يعني وجود فترات زمنية طويلة بين كل حدث وتاليه، ويجعلون الجمع مفردا!

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾ [سورة السجدة ,٧-٩] وكما هو واضح، فالله بدأ خلق الإنسان من طين، ثم أوصل الله الإنسان إلى مرحلة أخرى وهي أن ينجب عن طريق الماء المهين، وبعد أن جاء النسل بهذه الطريقة "سُوي الإنسان ونُفخ فيه من روح الله"، فكيف تكون نفخة الروح سببا في إحيائه وقد صار ينجب!

﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ۝٤٤﴾ [سورة ق ,٤٤] فكما خرج الجيل الأول من الأرض، سيخرج الناس في يوم القيامة! ونكتفي بهذا القدر من الآيات في التدليل على ما نقول به.

ونظرا لأن هذا الجيل لم يكن ناضجا بما فيه الكفاية وكان يحتاج إلى اكتشاف كل ما حوله بعقله المكتسب وليس بغريزته، وكان تعليمه عن طريق المُشخصات، تولت الملائكة تعليم هذا الجيل ما يحتاجه في حياته، وعرفته بالإله وما يأمر به. ويبدو أن مسألة تعليم الملائكة للجنس البشري أخذت مرحلة أساسية في حياة الجنس كله، وكانت الملائكة تظهر لهؤلاء البشر بداهة في أشكال تختلف عن شكل البشر، وتختلف في عين الوقت عن أشكالهم الحقيقية، لذلك نجد أن كل الأنبياء وجدوا معارضة من قومهم وقوبلوا بمطلب رئيس مترسخ في الذهن البشرية وهو الإتيان بالملائكة كدليل على أنه مرسل من عند الله عزوجل!

ولو لم يكن هذا قد حدث في الأزمان الغابرة مع الأجداد ورووه للأبناء والأحفاد، وسجلوه على جدران معابدهم وكهوفهم،[120] لما طالب الأحفاد بنفس هذه الطلب! إذا فالتصور القرآني يقول بخلق مباشر لا يمكن أن يحدث بأي حال إلا عن طريق وجود خالق مُوجِّه،[121] بنفس الطريقة التي لا يزال يُخلق بها الناس حتى قيام الساعة، إلا أنها كانت في باطن الأرض بأمر الرحمن وتنفيذ الملائكة.

وبعد الولادة الأرضية أرسل الله الملائكة لترعى البشر وتعلمهم، لأنه ما كان هناك آباء ليعطوا الأولاد الخبرة التي يحتاجونها في الحياة! وبعد أن بذلت الملائكة للبشر ما يحتاجون، ارتفعت وتركتهم يتعاملون بعقولهم وبما عُلموه، إلى أن ظهر الشرك والفساد في الأرض والظلم، فأرسل الله الرسول الإنسان ليعلم البشر ويهديه إلى ما فيه الصواب!

ونطلب إلى القارئ أن يقارن التصور العام لهذه النظريات الثلاثة: خلق مباشر خرافي لا علمية فيه، جاء من خالق يشابه البشر، خلق الإنسان على صورته، خلق حدث واستمر

---

[120] ليس من العجيب بأي حال أن يجعل علماء الآثار الغربيون رسومات الإنسان الأول للملائكة دليل خرافة وأسطورة، وأن يجعلها في نفس الوقت رسومات لآلهة وليست لملائكة ليثبت الخرافة والوثنية عند القدماء!

[121] لن أعجب كثيرا إذا حدث واكتُشفت هذه الأرحام في يوم من الأيام، أن تدعي الملاحدة أنها هي الأخرى تكونت عن طريق الصدفة!

بالصدفة ويعتمد على مبدأ البقاء للأصلح، خلق مشابه لما نراه كل يوم ثم أُتبع برعاية ربانية، ليحدد أيهما أكثر منطقية وأثرا في الإنسان!

إلزامات قليلة صريحة!

يميل الإنسان بطبعه الحيواني إلى التفلت وعدم الالتزام، وإلى الانطلاق في الحياة تبعا لغرائزه بدون قيود أو حواجز، فالإنسان ينتمي إلى الطبيعة كدابة سابقة صارت بشرا! ولأن كل تكليف هو حتما تقييد للبشري، -والتقييد إما ضروري مُسَبّب قاض على ضار جالب لنافع أو غير حتمي مُقيد مُعطِّل!- راعى برنامج الإعداد هذه النقطة، فقلّت التكاليف بشكل كبير في البرنامج، وكثرت فيه التصورات والأطروحات الفكرية التاريخية العلمية، ولم يكن منها إلا الضروري النافع!

بل إن البرنامج يعد من أهدافه رفع القيود عن البشر وتحريرهم، فيقول: ﴿... وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [سورة الأعراف, ١٥٧].

ولأن البرنامج برنامج فردي يخاطب كل فرد بذاته ليُعدّه ويؤهله، ظهر هذا جليا في الأحكام التكليفية، فالتكاليف صريحة مباشرة، لا يوجد بها أي لبس أو غموض! ويستطيع أي إنسان أن يأخذها بنفسه وينفذها مباشرة إذا هو ابتعد عن التكلف والتنطع[122]!

(122) ناقشنا في كتابنا الأول "لماذا فسروا القرآن" مسألة استخراج الأحكام من القرآن، وكيف أن الإنسان يمكنه أن يأخذ الحكم كما هو من القرآن وهو مطمئن الصدر، فليس القرآن مزلة أقدام ولا كتاب أحاجي وألغاز، وإنما هو كتاب محكم مباشر عاملة آياته كلها كما هي، وأظهرنا كيف أن أي قول يخالف ظاهر الآية هو قول مرجوح راجع إلى عدم دقة تأصيل القائل به. ووضحنا أن

فإذا نظر الإنسان في البرنامج يجد أن التكاليف الواردة في القرآن كله قليلة العدد، يمكن لأي إنسان أن يحيط بها، ولكن لا يعني هذا أنه مطالب بالعمل بها كلها في كل أوقاته، بل هناك تكاليف مستمرة مطالب بها دوما وهي التكاليف السلبية، أي الإلزام بعدم الفعل، فهذه مستمرة مع الإنسان دوما، وهناك تكاليف بالفعل الإيجابي وهي قليلة العدد[123].

فإذا نحن نظرنا إلى التكاليف بالسلب –تحريم الفعل– في القرآن نجد أنها قليلة العدد حتى أنها تُختصر أحيانا في آية واحدة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [سورة الأعراف, ٣٣] ففي هذه الآية جمع الله كل أصناف المحرمات، وهذا الجمع معتمد على قاعدة أصيلة؛ وهي أن التكاليف كلها منسجمة مع بدهيات الإنسان وتكوينه، وأن دور البرنامج فقط هو التذكرة! فالإنسان ينسى دوما ويحتاج إلى التذكرة، لذلك نجد أن الله تعالى يقول: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [سورة طه, ٢-٣] فليس القرآن سبب شقاء وإنما هو تذكرة للإنسان حتى لا يضل أو يزل.

هناك مراتب تصاعدية في التعامل مع القرآن، فهناك مستوى فهم العوام وهناك مستويات أعلى من ذلك، ولكن المرتبة الأعلى لا تلغي المرتبة الأدنى. لمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة الكتاب على موقعنا.

[123] اشتهر بين أصحاب الثقافة الدينية المتوسطة أن آيات الأحكام في القرآن تقرب الخمسمائة آية! ولكن لا يغرنك هذا الرقم فالأحكام المندرجة تحته أقل بكثير، فهناك العديد والعديد من الآيات التي أمرت بإقامة الصلاة، وبداهة المأمور في كل هذه الآيات تكليف واحد.

وإليك عزيزي القارئ تفصيل بتقسيم آيات الأحكام في القرآن: الطهارة: 12، الصلاة 62، الصوم 5، الزكاة 15، الخمس والأنفال 4، الحج 23، الجهاد 33، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 3. وعدد آيات المكاسب والعقود والإيقاعات وما يلحق بها (265) آية كالتالي: المكاسب 6، البيع 10، الدَّين 6، الرهن 1، الضمان 2، الصلح 6، الإجارة 2، الشركة3، المضاربة 3، الإبضاع 3، الإيداع 3، العارية 2، السبق والرماية 3، الشفعة 3، اللقطة 4، الغصب 4، الإقرار 6، الوصية 13، العتق 2، النكاح 39، الطلاق وما يلحق بها 22، العطايا 3، النذر 2، العهد 3، اليمين 3. وعدد آيات الأحكام 60 آية: المطاعم والمشارب 16، المواريث 9، الحدود 10، القصاص والجنايات 10، القضاء والشهادات 15.

ونجد أن التكاليف كلها سلبا وإيجابا قليلة العدد حتى أنها تُجمع في آيات ثلاث، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ[124] رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٥١-١٥٣] ففي هذه الآيات اختزلت كل التكاليف سلبا وإيجابا. والناظر في الإلزامات يجد أن عامتها مما يتفق عليه البشر ويحتاجونه، فليس كلها ثقل على الإنسان وإنما هي مما يحتاجه لا محالة، فإذا ترك القيام به انحدر انحدارا شديدا تجاوز فيه الحيوان ووصل إلى مرحلة الموت. فهناك تكاليف نافعة للجانب الروحي للإنسان مثل الصلاة، وأخرى للجانب الروحي الاجتماعي وهي الصدقات، فهي تطهر الإنسان من البخل والشح وتلزمه مساعدة الآخرين، وهناك تكاليف تعاملاتية مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعلاقات التجارية ... إلخ.

والملاحظ أن نقاط تميز البرنامج في مسألة الإلزامات هي التكليف بالسلب أي عدم الفعل. فالنقاط الفاصلة بين إلزامات برنامج السوبرمان والقيود في أي برنامج آخر تتجلى بشكل كبير في السلب، حيث يُمنع عن بعض النقاط، التي تشغله بنفسه، وبهذا المنع يركز جهده على العمل النافع للآخرين! فتتحرك الإلزامات إيجابا وسلبا من أجل إشغال المتبع بالآخر والإحسان إليه، والقضاء على الأنانية والذاتية، ويصل الإحسان إلى الآخر درجة لم يصل إليها أي تشريع آخر، وهو أن يمنع من نصيبه في

[124] ليس المراد من التحريم ابتداءا النهي عن الفعل، وإنما المراد من التحريم هو الإحاطة والتشديد والحماية، كما نقول: حرم الجامعة والحرم المكي، وهذا هو الواضح من الاستعمال العام للكلمة، ولكن غلب استعمالها بمعنى النهي عن الفعل!

الإرث جزءا ويعطيه لمن حضر تقسيم التركة، على الرغم من أنه ليس له أي حق فيها، كما جاء في الكتاب: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾ [سورة النساء, ٨]

إذا فمن أهم نقاط تميز برنامج التكاليف الإعدادية وضوحها وبساطتها، فأي إنسان يستطيع أن ينفذها مباشرة بدون الحاجة إلى طبقة كهنوتية تفسر له هذه الأوامر، فلا إضافة لأحكام جديدة ولا حذف ولا تحوير أو تعديل ولا خضوع لبشر وإنما الخضوع للخالق الحاكم عزوجل.

ولزاما أن نتذكر أن هذه التكاليف ليست مرادة ذاتاً، وإنما هي وسائل للإعداد وللإصلاح، لذا فقد كان من الواجب أن تكون من الصراحة والوضوح بمكان ألا يختلف فيها إثنان ولا ينتطح فيها عنزان، وهذا ما كان. فإذا نحن أخذنا نموذجا من نماذج التكليف بالسلب وهو الامتناع عن أصناف معينة من الطعام، نجد أنه جاء جليٌّ كالنهار، بأن المنهي عنه هو أربعة أصناف من الطعام لا غير[125]، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٥﴾ [سورة الأنعام, ١٤٥]

وجاء الأمر بتفصيل أكبر رافع لكل خلاف أو ظن في سورة المائدة حيث يقول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ...

---

(125) على الرغم من وضوح الحكم في سورة الأنعام، وعلى الرغم من وروده في صيغة خبرية لا تحتمل النسخ –المزعوم–، فإن السادة الفقهاء اختلفوا في هذا الحكم اختلافا كبيرا، وذلك راجع إلى تأصيلهم الفقهي الذي يُحكّم السنة في القرآن! أما نحن فنرى السنة تابعة للقرآن ولا تزيد عليه. لمزيد من التفاصيل: يُرجع إلى باب "السنة والقرآن" في كتابنا "لماذا فسروا القرآن" حيث وضحنا فيه طبيعة العلاقة بين السنة والقرآن، وأن القرآن هو الحاكم على السنة لا العكس! وأن السنة هي التي تحتاج القرآن لتُضبط لا العكس!

فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣﴾ [سورة المائدة, ٣]

ومما يأسف له المرء أننا تركنا الغرض الإعدادي من هذه التكاليف، وأصبحت هي نفسها محل خلاف ونزاع، فإذا انتهى المرء من النزاع ما عاد صاحب طاقة لتنفيذها كما ينبغي، ويكتفي بالانتصار لرأيه! ومن أهم مزيات هذه التكاليف مراعاتها لواقع الإنسان، فمنها ما يُلقَّنه الإنسان في مرحلة طفولته، ومنها ما يُمرَّن عليه بعد بلوغه، ومنها ما يُطالب به عند نضجه وهكذا. وبخلاف مسألة البساطة والوضوح وعدم الاحتياج إلى طبقة وسيط من أجل استخراج المراد، فإن من أهم خصائص التكاليف في هذا البرنامج أنها تكاليف موجِّهة وليست ماحية.

فإذا نظرنا في التكاليف السلبية، نجد أنها تُحجِّم ولا تستأصل، ولا ترى الترك المُطلق حسنا. ففي البرنامج يُطلَب إلى الإنسان أن يُضيّق قدر الإمكان على كل حاجياته الحيوانية، فلا يلبيها إلا في نطاق العقل وهي خاضعة له، ولكنه لا يدعو بأي حال إلى ترك أي حاجة، فلا يدعو مثلا إلى ترك الكسب أو الابتعاد عن الجنس أو ترك الاحتكاك بالناس، وإنما يركز كل التركيز على جعل كل أفعال الإنسان خاضعة لسلطان العقل وليست لنوازع النفس الحيوانية.

والناظر يجد أن عامة البرامج الأخرى –الحديثة– تركز أيما تركيز على مسألة تفلت الفرد، فتعطيه إمكانية التصرف كما يحلو له طالما أنه لا يؤذي الآخر! وفي هذا محو للآخر! وتضخيم للأنا بشكل هائل يعجز معها الإنسان عن إيقافه، وهذا التوجيه حدث كرد فعل وتمرد على المناهج والقيود القديمة التي محت الإنسان كاملا وجعلته تابعا لآخر! أو دعت إلى محو بعض جوانب كاملة في نفس الإنسان. أما في منهجنا فهناك تضخيم شديد للآخر، يقابله عدم تنفيذ تام من الإنسان لأنه مجبول على حب نفسه مُقدِّم لها، فيتم بهذا التوازن بين الأنا والآخر ويصير إنسانا، فإذا حدث والتزم بالمنهج كلية صار سوبرمانا.

وعلى الرغم من أهمية برنامج التكاليف وحتميته، من أجل تكامله مع التصورات الواردة في القرآن من أجل إعداد سوبرمان، وعلى الرغم من الإلزام الذاتي النابع من إلوهية المصدر، إلا أن البرنامج يعطي المتبع الخيار التام في التنفيذ، فلا يعاقب المخالف على عدم اتباعه، بل له الإمكانية في الالتزام أو عدمه، فإذا خالف في كل جوانب التكاليف الإيجابية بالفعل فلا عقوبة له –في الدنيا– ويتحمل هو مسؤولية انحداره وموته –انتكاسه إلى حيوان–، وإذا خالف في التكاليف السلبية فعليه العقوبة إذا ظهر فعله لأن فيه ضرر وانتهاك للآخر وللمجتمع، أما إذا أخفى فعله فلا عقوبة له كذلك في الدنيا.

ويصل الأمر إلى قمة الخيارية، عندما يُعطى المتبع الخيار في الانخلاع من البرنامج كلية؛ فإذا أراد البشري ترك المنهج فليس له عقاب في الدنيا ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ[126] ... ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الكهف, ٢٩] إذا فالتكاليف في هذه البرنامج مباشرة يستخرجها الإنسان بنفسه، قليلة لا ترهقه، موجِّهه لا تلغي أي حاجة من احتياجاته الرئيسة أو التابعة، ذات طابع مُطلق، لا دخل للإنسان فيه وإنما هو من خالق الإنسان الذي يرشده، مرحلية فلا يُكلِّفها مرة واحدة وإنما على مراحل مختلفة، له خيارية الاتباع أو المخالفة، فلا يُعاقَب على ذلك إلا إذا انتهك التكاليف السالبة فيُعاقب، لأنه يتعدى على حدود الآخر وعلى الجماعة، أما التكاليف الموجِبة كلها فلا عقوبة فيها.

ونكرر التأكيد: إن هذه التكاليف لا تؤتي ثمارها كاملة ما لم تكن مصحوبة بالتصورات التي ذكرناها وسنذكرها.

---

[126] السائد عند عامة المسلمين أن هناك حد للردة، ولكن الواضح الجلي من كتاب الله، وكذلك الراجح من سنة رسول الله، أنه لا حد للردة لمجرد الخروج من الدين، وإنما الحد *للخروج على الأمة*.

ولقد وضحنا في موقعنا الشخصي أن القول بوجود حد للردة مخالف وهادم لكثير من الآيات القرآنية الصريحة، التي توضح *خيارية* الإيمان والكفر. فمن أراد الاستزادة حول هذه الموضوع فليرجع إلى موقعنا: www.amrallah.com/ar

لست حرا! .. أنت رسول!

لماذا أتيت إلى هذا العالم؟ هل هناك غاية من هذا المجيء أم أنه كان عبثا أو صدفة؟ تختلف الإجابة على هذا السؤال تبعا للمنظور الذي يرى منه الإنسان الكون، فإذا كان الكون مخلوقا، فحتما لوجوده في هذا العالم غاية، أما إذا كان الكون بلا خالق، موجودا هكذا ابتداءا فليس هناك أي غاية لوجود الإنسان، فيمكنه بنفسه أن يحدد غايته في حياته أو لا يحددها، فيظل هكذا حائرا! بل ويمكن للبشري أن ينهي وجوده في أي لحظة! أليس حرا؟! فليفعل ما يحلو له، طالما لا يؤذي الآخرين، فهذا خيار شخصي! فلم الالتزام بأي منهج أو بأي قانون إذا كان الأصل عبثا صدفة؟! ألستُ حرا؟ فلأحيا حرا!

من الكلمات المميزة لعصرنا هذه كلمة "الحرية"، فعصرنا عصر التحررات، وليس هناك أي مهرب يحرره منها! وفي كل مكان تُعقد الندوات وتقام المؤتمرات من أجل المطالبة بها وبالمزيد منها في كل المجالات. فهناك المطالبة بحرية المرأة وحرية الشذوذ وحرية الشعوب وحرية الفرد وحرية .. وحرية .. إلخ أنواع الحريات التي لا تنتهي، حتى أنها صارت غاية لذاتها عند عامة البشر، لا أن تصير سبيلا لغيرها.

وأصبح النموذج المثالي عند هؤلاء هو ذلك الإنسان الذي لا يشغل نفسه بشيء أو بمسؤولية! وعلى الرغم من كثرة المطالبة بالحريات إلا أن هناك الكثير المنوع من صنوف الاستعباد، ولا يزال عامة البشر مستعبدين لأصناف عدة من القيود والأغلال، وعلى الرغم من ذلك لا نجد من يتحدث عن تحريرهم منها! وإنما نجد من يدعو إلى الارتماء في أحضانها، لأنها في نظرهم هي عين الحرية! –ونطلب إلى القارئ أن يتذكر مفهوم اللسان العربي للحرية، وكيف أنه يظهر أن دعاويهم هي دعاوى عبودية!– والمنهج لا يرفض الحرية أو يدعو إلى استعباد الناس للناس أو إلى اضطهاد المرأة أو الشعوب، فهذه من حقوق الإنسان الرئيسة، والتي يجب على الإنسان المتبع للمنهج أن يتحرك من أجل تمكينها للبشر الآخرين، وهو يستنكر أن يسيطر إنسان على إنسان

صراحة، حتى أنه ورد عن واحد ممن تشربوا المنهج –عمر بن الخطاب رضي الله عنه– أنه قال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا! وإنما يعتمد المنهج نقطة رئيسة، تحل محل الحرية عند الآخرين، وهي: صاحب رسالة.

فكل المناهج الأخرى تنطلق من منطلق رئيس، وهو أن الحرية أصل الإبداع والخلق والإنتاج الحسن. وفي هذا جانب من الصواب، أما المنهج فيرى أنها تابعة لرؤيته لدوره في الحياة، فالإنسان المؤمن بهذه النقطة يمحور حياته حولها، ويتحرك من أجلها طيلة حياته، وحتى ولو كان عبدا أو مستضعفا وهو مؤمن بها، فسينتج ويضحي من أجل رسالته، فهي محور الحياة، ويمكنه من أجل ذلك أن يتنازل عن حريته أو حتى عن حياته من أجل تحقيق هذه الرسالة. ولك أن تقارن عزيزي القارئ بين إنسان يقول: "حريتي تنتهي عند حدود حرية الآخرين"، وبين آخر يرى أنه خُلق من أجل آخر وآخرين!

ومما يعجب له المرء أن كثيرا يجادلون من أجل إعطاء الإنسان الحرية المطلقة في التصرف ما لم يؤذ الآخرين! أما نفسه فلا مانع من إيذائها أو تدميرها، فهو حر فيما يفعله بها! ولكن لا عجب من هذا الفكر طالما أن المنظور العام للحياة هو منظور مختل، فهي لا غاية لها ولا حاكم! ومن المشاهد والمعلوم أن الإنسان المشغول بحقوقه وغير المُكلف بالآخرين ينسى لا محالة الآخر، وإذا حدث ولم يضره –وهذا ما لا يحدث!– فهو حتما لن ينفعه، لأن نفسه قد تضخمت عنده فيتحرك من أجلها ومن أجل لذتها ومنفعتها، ويأتي الآخر في ذيل قائمة اهتماماته.

أما الإنسان المتبع للمنهج فهو يعلم أن حياته لآخر ولآخرين، والآخر هو الله العلي، والآخرون هم باقي خلق الله من البشر أولا، ثم بعد ذلك الحيوان والنبات والكون كله. فالإنسان المتبع للمنهج يعلم أن دوره هو تنفيذ وفرض منهج الله على الأرض –بدون تعدٍ على الآخر أو إجبار له–، ففي هذا المنهج الهداية للبشرية، كما قال الله تعالى:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [سورة إبراهيم ,١]

فمتبع المنهج يشعر أن الله تعالى أنزل إليه هو[127] الكتاب، ليقوم بمهمة عظيمة وهي: إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وبتعبير مغاير: إحياء الناس. ومتبع المنهج يعلم أن خالق الإنسان هو أعلم به من نفسه، ويعلم ما فيه نفعه، لذلك أنزل إليه المنهج الذي يصلح به حاله، ويحقق له مبتغاه من التحرر من القيود والتلاءم مع الطبيعة والكون، وبذلك يضمحل الشعور بالحقوق وينمو الشعور بالواجبات.

وحتى لا يكون كلامنا كلاما إنشائيا ودعاوى لا دليل عليها، مثل دعاوى الآخرين الذين يدعون أن للآخر مكانة عظمى عند متبعيهم ويقدمونه على أنفسهم، نقدم دليلا قاطعا على ذلك من الكتاب، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾ [سورة النساء ,٧٥] فالله تعالى يلوم المسلمين على عدم نصرتهم للمستضعفين في الأرض، ويعد القتال لنصرتهم قتالا في سبيله سبحانه! أي أنه علينا معشر المسلمين أن نقاتل من أجل نصرة المستضعفين![128] فهذا من الأدوار الرئيسة لنا: إقامة العدل على الأرض، فنحن خلفاء الله! وفي هذا القتال سيسقط حتما الكثير من المسلمين، ولكن لا بأس في ذلك، طالما أنهم يؤدون رسالتهم، وينفذون منهاج ربهم! فأين يا تُرى ذلك المنهج الذي يأمر أتباعه بالقتال من أجل نصرة المستضعفين؟!

---

[127] خاطبت هذه الآية بداهة أول ما خاطبت الرسول الكريم، ولكن لا بد أن نلاحظ الفرق في الاستعمال القرآني، فعندما يقول الله تعالى "عليك" فلا يمكن أن يكون هذا الخطاب إلا للرسول الكريم فقط، لأن الكتاب لم ينزل إلا عليه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ٤١﴾ [سورة الزمر ,٤١]، فإذا استعمل "إليك" كان للرسول ولكل مؤمن!

[128] تظهر هذه النقطة جلية في وصايا أبي بكر للجيش، فلقد بعث جيوشا للشام فخرج يشيع يزيد بن أبي سفيان، فقال له: إني أوصيك بعشر: لا تقتل صبيا، ولا امرأة، ولا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تغرقن نخلا ولا تحرقنه، ولا تغلل ولا تجبن.

نعم، توصي كل المناهج بمد يد العون للمستضعف، أما نحن فمأمورون بقطع يد الباغي ونُصرة المستضعف! حتى ولو هلكنا في سبيل ذلك، وشتان ما بين الإثنين! أما نيتشه فكان له منظور مختلف تماما لحب الإنسان، فيرى أن القاعدة الأساسية لحب الإنسان إهلاك الضعفاء، حتى تحتفظ البشرية بتقدمها ورقيها، فقال:"الضعفاء والفاشلون يجب أن يهلكوا، تلك هي القاعدة الأساسية في حبنا للإنسان. وفوق ذلك يجب أن نقدم لأولئك المساعدة كي يهلكوا.[129]" اهـ

والعجيب أنهم يلومون المسلمين على قتالهم لنصرة الحق والمستضعفين، ويقبلون أن يقاتل السوبرمان من أجل ذلك! ومن المعلوم أن الباطل لا يستسلم إلا بالقوة، ولست أدري لم يرفضون البطل المنقذ في الواقع ويقبلونه في الوهم والخيال؟!

ولقد عمل المنهج على تذكير المتبع بدوره كملك مرسل في آيات كثيرة في الكتاب، منها قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [سورة الأعراف, ١٥٨] فالمتبع يشعر أنه رسول رسول الله إلى الناس جميعا، وأن الغرض الأول من رسالته هي أن يؤمن الناس بالله وبالرسول الأعظم النبي الأمي[130]، وأن يتبعوه، وفي هذا الهداية والفلاح!

وإذا كان الفرد يشعر أنه رسول! فالأمة كلها تعلم أنها ذات غاية عظمى، فهي لم تُوجد لتعيش مثل أي أمة أخرى، وإنما أخرجت لتحمل عبء البشرية كلها، وإذا لم تقم بهذا الدور فلا تستحق التشريف أو الخيرية! ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ...١١٠﴾ [سورة آل عمران, ١١٠]

---

[129] فريدريش نيتشه، عدو المسيح، تعريب: جورج ميخائيل ديب. ص.26،25.

[130] ليس المقصود من "الأمي" هنا الذي لا يستطيع القراءة ولا الكتابة، وإنما هي نسبة إلى "أم" كما نقول : مصري نسبة إلى مصر! والأم في اللسان بمعنى الأصل والمنشأ، ولقد اجتمع في الرسول الكريم كل أنواع الأميات، فعنده أم الرسالات وهو في أم القرى ولقد جاء باللسان الأم اللسان العربي المبين، لذلك فهو الرسول الأمي!

والمتبع للمنهج يعلم جيدا أن لا راحة في الدنيا، فليست هي دار القرار، وإنما هي دار الحركة والسعي والجد والكد، وكلما زاد جهده كلما ازداد مكانة ورفعة ورقيا، ففي هذا خلق الله الإنسان: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [سورة البلد, ٤]، أما المتحررون العبيد، فهم الذين يسعون لإيجاد عوالم وهمية لا كبد فيها، وتضيع البشرية كلها من أجل إنشاء عوالم الوهم هذه!

ولقد زُودت الأمة بما يؤهلها لتقوم بهذا الدور، فأمدت بمنهج وسط مناسب لطبيعتها، وبذلك تستطيع أن تستمر عليه ولا تعجز، فإذا هي فعلت نالت بذلك شرف الشهادة على الناس أمام الله عزوجل، أنهم بلغوا لهم كتابه ومنهجه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ۝١٤٣﴾ [سورة البقرة, ١٤٣]

ولكي يصل الإنسان إلى مرتبة "رسول" لا بد أن يكون قد نال منذ زمن بعيد حريته الحقيقة، والتي سترقيه إلى هذه المرتبة، فهي خطوة لا غاية! وأول خطوات المنهج من أجل نيل الحرية هو العبودية! نعم، عبودية من أجل الحرية، ولكنها عبودية هي عين الحرية، فالإنسان عندما يعبد الله الخالق، فهذا يعني أنه يخضع بعض طباعه لإرادة أخرى، ولكن حتما في هذا الإخضاع مصلحة ونفع، لأن المخضوع له هو الحكيم الخبير، وبهذا الإخضاع يتحرر العبد من الأغلال والأوهام والخرافات ومن الحيوانية، فهو سيصير عبدا لسيد واحد، سيد حكيم عليم.

ولأن المنهج من أوله إلى آخره قائم على العقل، فهو لا يدعو الإنسان هكذا إلى الخضوع ومن ثَم إلغاء عقله لمن وما يخضع له، وإنما يدعوه إلى التفكر فيه وفي كل محل خضوع، فهو يلوم عليه عبوديته للموروث ويدعوه إلى التفكر فيه، فليس كل موروث صواب، ويلوم عليه عبوديته لهواه ولجانبه الحيواني. بل إنه لام من اتبع المنهج نفسه بلا بينة، وكان مستنده التخرص والظن ، ولام كذلك من يتبع أي منهج بلا دليل، وأمر بالاتباع استنادا إلى الأدلة واليقين، فلام من كان فعله تقليدا أو مستندا إلى الظن

فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الحج, ١١]، ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الحج, ٧١]، ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الروم, ٢٩]

فليس الغرض الخضوع، وإنما المقصود الاقتناع ثم الخضوع. وعامة البشر مستعبدون بالموروث الفكري ويرفضون الجديد المخالف للمتعارف عليه والهادم له. والمنهج يرفض تقليد الآباء ويعلنها حربا على كل تقليد أعمى موروث بلا دليل، ويدعو إلى تحرير الفكر فيقول: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الزخرف, ٢٤] ويطالب الإنسان ببرهانه في كل صغيرة وكبيرة: ﴿... قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة النمل, ٦٤]

وعندما يستطيع الإنسان أن يقيم حياته على مبدأ الشك الذاتي[131] والفحص الفردي والتسليم الجماعي بعدم الإحاطة، يكون قد وضع نفسه على أول الطريق الصحيح للحرية، وحتما ولزاما سيواصل بنفسه البحث إلى أن يتحرر حرية شبه تامة، أما ذلك المتبع للآخرين كائنا من كانوا فهو حتما من العبيد.

وبهذا المنهج يُرفع الخلاف والاستعباد بين الناس، فليس الغرض منه هو التعسير وإنما التحرير وإرواء الفضول البشري، وإرشاد الإنسان إلى الحكمة عند السابقين: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ

---

[131] هنا يتقاطع المنهج مع دعوة نيتشه وغيره من المفكرين إلى الشك في كل ما يقابله الإنسان، ويدعوه إلى عرضه على عقله بدلا من التسليم الأعمى، ولكنه لا يدعو بحال إلى ترك القديم والثورة عليه وهدمه لأنه فقط قديم، فكم من قديم صالح وكم من جديد طالح! وبالشك سيصل الإنسان إلى اليقين، ويعلم أنه بعبوديته للخالق فهو يتبع المنهج الأقوم، كما قال الخالق: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ... ﴿٩﴾﴾ [سورة الإسراء, ٩].

﴿٣٦ ... يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [سورة النساء, ٢٦-٢٨] لا أن يهدم كما فعل نيتشه ثم لا يقدم للإنسان ما يبني به!

فعندما أكون عبدا للواحد أتحرر من باقي الأسياد، أما إذا رفضت عبودية الخالق فسأقع عبدا لأرباب كثيرة، تُشتت الإنسان وتبقيه دوما عبدا حائرا مضطربا، لا يستطيع أن يخرج طاقاته الكاملة ويبدع ويؤدي دوره كما ينبغي، كما قال الرب سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾ [سورة الزمر, ٢٩] وبهذه العبودية لا يشعر الإنسان فقط بأنه حر، وإنما يشعر أنه "ملك" حاكم للأرض وما فيها بإذن الله عزوجل!

وينطلق في تنفيذه لهذا المنهج من منطلق كونه خليفة الله في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ... ٣٠﴾ [سورة البقرة, ٣٠] فالله جعل الإنسان خليفة له يتحكم في الأرض ليس كما يشاء، وإنما كما يشاء الله، فإذا خالف منهج الله ظهر الفساد في البر والبحر!

وكذلك يعلم متبع المنهج أنه أُنشا من الأرض من أجل دور محدود وهو أن يعمرها لا أن يفسدها، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١﴾ [سورة هود, ٦١]

فإذا نظر الإنسان إلى نفسه من خلال هذا المنظور وعرف مكانه في الدنيا، خفَتَ عنده صوت الأنا وارتفع لديه صوت الآخر والكون، وتحرك على هذا الأساس. قد يقول قائل: ما تقوله جيد، ولكن مسألة إعداد الإنسان ليكون صاحب رسالة أمر ممكن –بل ووقع فعلا– في المناهج الأخرى. فنقول: نعم، هو موجود عند مناهج عدة، ولكنه ليس بهذه النظرية الشمولية التي يقدمها هذا المنهج لأنه يفتقد إلى عدة عناصر، أهمها الخلافة الإلهية، ومعرفة مكانة الإنسان ودوره في هذه الحياة. ونطلب

إلى القارئ ألا يتناول كل عنصر نقدمه كعنصر قابل للعزل عن باقي العناصر أو التصورات، وإنما عليه أن يأخذها كلها كوحدة واحدة مكملة لبعضها. وسيرى القارئ الكريم من خلال العناصر القادمة أنه من غير المنطقي للبشري غير المتبع للمنهج أن يكون صاحب رسالة، وإذا حدث فلن يكون صاحب رسالة عالمية كونية ذات جدوى، وإنما ستكون رسالة فرعية قد تضر أو تنفع، مفتقدة إلى كثير من العناصر اللازمة لأي رسالة، أهمها احتياج الآخر فعلا لما يقدمه صاحب الرسالة.

السوبرمان والآخر!

لكي يقوم المتبع للمنهج بدوره كملك مرسل كان لزاما أن يُعرّفه المنهج بالآخر، وبطبيعة العلاقة معه، وتهيئته لتقبل هذا الآخر! ولقد رسم المنهج صورة شاملة للآخر وقدمها للمتبع، وعلى خطاها يجب عليه السير والاهتداء. فأعلمه أول ما أعلمه أن كل من في الكون مسلم لله تعالى، إما طوعا أو كرها: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة آل عمران, ٨٣]

والفارق أن المتبع للمنهج أسلم قلبا وقالبا، أما المعرض فهو وإن تمردا قلبا إلا أن القالب لا يزال مسلما لله تعالى! وكذلك أعلم المنهجُ المتبعَ أن الاختلاف ضرورة بشرية لا فكاك منها، بل هي من أهم أهداف خلق الإنسان، أن يحدث ذلك الاختلاف النابع من اختلاف العقول والمناظير والهمم والاتباع لكلمة الله والإعراض عنها، لذلك قال الرب العليم: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [سورة هود, ١١٨-١١٩]

لذا فعلى الإنسان أن لا يتحرج من هذا الاختلاف ويسعى إلى القضاء عليه تماما، وإنما عليه الحركة لرفع مواطن الخطأ والضلال، وما عدا ذلك فمقبول! وهذا

الاختلاف كائن ومستمر إلى قيام الساعة، ولن يحدث أبدا أن يأتي ذلك اليوم الذي يُرفع فيه الخلاف وأن تتحد كلمة البشر، ولن يحدث أن يدخل الناس في الإسلام أو أن يصير أكثرهم مسلمين، بل ستظل الأكثرية دوما غير مؤمنة ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [سورة يوسف, ١٠٣] فإذا كان هذا ما كان وما سيكون، فالواجب على المتبع أن يتقبل الآخر على ما هو عليه، ويلتزم في تعامله معه مسلك الحكمة والروية: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [سورة النحل, ١٢٥]

ولا يعني هذا الخلاف أن تقوم العلاقة مع الآخر مبنية على الكره والتوتر، وإنما هي علاقة إنسانية عادية مترتبة على سلوك الآخر، فإذا أحسن أُحسن إليه، وإذا أساء ردت عليه، لذلك قال الله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾ [سورة الممتحنة, ٨-٩]

لذلك فُرض الجهاد على المتبعين للمنهج، فيدافعوا عن أنفسهم وعن الآخر[132]، فليسوا هم أولئك القطيع من النعاج التي تُحسن إلى الآخر، فإذا أساء إليها أو حتى ذبحها، تركته يفعل ما يحلو له وأدارت له الخد الأيسر، وإنما هم يردون عليه عدوانه حتى لا يفكر في الاعتداء عليهم أو على غيرهم مرة أخرى، وفي هذا حفظ لتوازن المجتمعات البشرية وللسلام العام فيها! لذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن

(132) القتال في الإسلام دفاعي فقط، لرد عدوان المعتدين، أو لدفع العدوان عن غير المسلمين، وكذلك لرفع الاضطهاد والحصار الفكري، فإذا أراد العدو مثلا أن يمنع دعاة المسلمين من تبليغ الإسلام إلى مواطني دولته فهذا مبرر كاف لإعلان الحرب! –وهذا ما كان يحدث في الماضي حقا بخلاف أيامنا هذه– ولكن هذا يعني في عين الوقت أنه ليس للدولة الإسلامية –شرعا– أن تمنع دعاة الأديان الأخرى من الدعوة إلى دينهم! وإلا فإنهم بذلك يعطون لأنفسهم حقا يسلبونه من غيرهم!

دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦١﴾ [سورة الأنفال, ٦٠-٦١]

فالمسلم يعد العدة ليس من أجل الاعتداء على الآخر، وإنما هذه العدة قوة ردع، تجعل الآخر يفكر ألف مرة قبل الإقدام على الاعتداء، فإن مال الآخر للسلم فعلى المسلم أن يميل هو الآخر، فالمتبع إنسان مسالم، وليس هو ذلك الذي يبدأ الآخر بالاعتداء: ﴿... فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ۝٩٠﴾ [سورة النساء, ٩٠]**، فعندما يعتزل الآخر المسلم فلا يؤذيه يعتزله المسلم هو الآخر، فالمتبع إنسان مسالم بطبعه لا يميل إلى القتال أو الاعتداء على الآخر، وإنما يُضطر إلى ذلك اضطراراً وكراهة!:** ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [سورة البقرة, ٢١٦]

ولكن إذا حدث واضُطر إلى ذلك فعليه تحمل المسؤولية، وعليه صد العدوان فلا يتهاون ويدعو إلى السلم مع معتد، وإنما عليه تقليم أظفاره حتى لا يفكر في تكرار الاعتداء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٣٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ۝٣٤ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٥﴾ [سورة محمّد, ٣٢-٣٥] **فأنتم الأعلون باستنادكم إلى الحق ودفاعكم عنه وبصدكم للعدوان وباتباعكم لكلمة الله!**

وعلى الرغم من ذلك فهو مأمور بمسالمة الكون كله، بشرا كان أو حجرا، فليس المتبع مفسدا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [سورة البقرة, ٢٠٨]

وأعجب ممن ينتقدون المنظور الدفاعي الردعي للإسلام، وينسون أو يتناسون منظور نيتشه للسلام: "أحبوا السلام كوسيلة لتجديد الحروب، وخير السلام ما قصرت مدته. إنني لا أشير عليكم بالسلم، بل بالظفر. فليكن عملكم كفاحا وليكن سلمكم ظفرا.[133]" اهـ

<u>والمسلم ينظر إلى جهاده في الدنيا على أنه جهاد فكري بالدرجة الأولى وليس جهادا قتاليا، فالدنيا عند المتبع داران: دار إسلام ودار دعوة!</u> وأعجب ممن يقسمون العالم إلى دار إسلام ودار حرب! كأن الإسلام جاء ليحمل الناس على الدخول فيه كرها وجبرا، ناسين قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [سورة يونس, ٩٩] فليس لأحد ولا للرسول نفسه أن يكره أحد، وإنما عليه أن يدعوه، وبهذا يكون الطرف الآخر واقعا في دار الدعوة وليس في دار الكفر[134].

والمتبع ينظر إلى الآخر نظرة تسامح، فهو لا يرى نفسه المحتكر للحقيقة وللصواب لمجرد قناعات مجردة، وإنما العبرة باتقان العمل، وفي هذا يقول الله تعالى حاكيا رأي المدعين امتلاك ناصية الحقيقة بدون إعطائها واجبها: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ [سورة البقرة, ١١١-١١٢]

---

[133] فريدريش نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تعريب: فليكس فارس، ص. 37.

[134] لا يُطلق الكفر إلا على من دُعي وعرف الحق وعاند وكتم واستمر على الباطل، فهذا يُسمى كافرا، أما من لم تبلغه الدعوة فكيف يكون كافرا وهو لم يعرف ولم يسمع؟!

فأول خطوات التكبر هو الجزم بتملك ناصية الصواب وبهلاك الآخر لتمام خطأه، ولقد أنقذ الربُ المتبعَ للمنهج من هذا الظن بأن أعلمه في آيات عدة أن هناك من الآخر مفلحون مثله، عندهم جزء من الصواب قد يكون نافعا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة البقرة, ٦٢] فالعبرة بالإيمان بالله وباليوم الآخر وبالعمل الصالح[135]، فإذا تخلف أحد الشرطين انعدم نفع الآخر. فإذا عرف المتبع أن هناك صواب مطلق –يتبعه هو– وصواب جزئي مع الآخر، يجعله هذا يتقبل الآخر ويتسامح معه!

ولهذا الاختلاف بين المجتمعات والطبائع البشرية غاية واحدة وهي التعارف، والذي هو الخطوة الأولى في تقدم البشرية، لذلك قال الرب العليم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحجرات, ١٣]

ومما يأسف له الإنسان أن الهدف الرئيس في زماننا هذا أصبح السيادة والتحكم، وهذا يعني امتصاص خيرات طرف لآخر، لا تبادل المنفعة، وهذا نتاج بدهي للإيمان بكلمة البشر "البقاء للأصلح"، والذي يحتم الصراع بين البشر، وعدم الإنصات لكلمة الرب الآمرة بالتعارف!

فالمنهج يرفض الصراع ويحث على التعارف، والذي ينشأ عنه تبادل سلمي للمعارف، بدون استغلال مادي أو فكري للآخر، وإنما تبادل قائم على العرض والطلب! فلا إجبار ولا إكراه على الدخول في الدين أو على اتباع رأي ما، بل للإنسان الخيار التام في الاتباع أو الإعراض! لأن الإجبار لا يجدي نفعا مع الإنسان، فقد يسلم الإنسان

---

[135] بداهة هذا لمن لم يسمع عن الإسلام أو سمع عنه سمعا مشوها، ولمن بحث عن الحقيقة فلم يجدها فاكتفى بما هو فيه، أما من أخذ الدين تقليدا ورضيه على الرغم من احتوائه على الكثير من التناقضات –التي يقر بها هو شخصيا– وعلى نقصان قدر لله تعالى، فهذا لا يدخل في هذه الآية!

ظاهريا مع عدم اقتناع في الباطن، لذلك لا يتحرك إلا لعكس ما أُجبر عليه ما استطاع لذلك سبيلا! وخير وسيلة لكسب الآخر، هو ما جاء في الآية الكريمة، المخاطبة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى، أما الإكراه أو الإجبار فمرفوض ابتداءا، لذلك قال الله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [سورة البقرة, ٢٥٦] فللآخر خيار الدخول في الدين وفي الخروج عنه، فليس هناك أي إجبار على البقاء فيه، وما النفع من بقاء إنسان منافق في وسط المجتمع يبدي خلاف ما يبطن، فمن الأفضل أن يظهر ما يعتقد به. أما إذا أُجبر على ما لا يؤمن به، فلن يُنتج إلا مجموعة أفراد لا تتحرك إلا للإفساد وللتدمير لذلك المنهج الذي يضطهدهم. أما مع الخيار في الاتباع أو الترك فسنجد أفرادا نافعين في بعض المجالات، تابعين للأمة، لا ينقمون على المجتمع ولا يتعاونون مع الأعداء.

فإذا حدث هذا التعارف والتعاون بين البشر، بغض النظر عن اختلافاتهم العرقية والدينية، فإن هذا ينشأ جوا من الألفة والمودة والحب بين البشر، وما منشأ عامة الصراع الموجود على البسيطة إلا بسبب عدم معرفة الآخر! فليس ديننا هو الذي يدعونا إلى كره الآخر أو عدم تقبله، لكونه غير مؤمن و غير متبع، فتصور الكراهية هذا دخيل على الإسلام لا يقر به، فالبشر كلهم أخوه في الإنسانية: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦﴾ [سورة العنكبوت, ٣٦]، وإنما يدعونا إلى التعارف، والذي لن يكون بداهة إلا بالاحتكاك والتعامل، والذي سينتج عنه حتما ألفة ومودة للآخر، أما الانعزال والتقوقع على الذات، فهذا مبرر كاف للاعتقاد بالتميز والنظر إلى الآخر نظرة دونية، قد تبرر له في يوم من الأيام إبادته!

فإذا تعارفنا وتعاملنا كما أمر ديننا وكما فعل نبينا، وتذكرنا رسالتنا وأننا أُخرجنا للناس، والذين هم غيرنا بداهة، أصبح شعورنا للآخر هو نفس شعور الرسول تجاههم، والذي

يحزن على الآخرين، وتكاد نفسه تذهب حسرة وأسفا عليهم، على الرغم من اضطهادهم له، شعور بالحب والرغبة في الهداية، كما قال الله تعالى له: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾ [سورة فاطر, ٨]، ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [سورة النحل, ١٢٧] حيث يصبح الآخر محور اهتمام الإنسان، وحيث يتقطع القلب على تلك الأنفس التي تتفلت إلى النار، والتي لم نُنجز لها خير السعي!

عليك السعي .. ولك!

قلنا أن المتبع للمنهج يؤمن أنه مرسل للعالم كله، وأنه يحمل عبئه على كاهله، لأنه يجب عليه أن يبلغ كلمة الله عزوجل إليه! ولكنه لا يحمل هماً في عين الوقت، فله سعيه فقط وعليه وزر إساءته وتقصيره! فإذا سعى كما أمر الله فسيجازيه الله الجزاء الأعظم، سواء أفلح أو لم يفلح، فعلى المرء السعي وليس عليه إدراك النجاح، فمسألة التوفيق هذه ليست بيد الإنسان، فهو مطالب بالسعي وسيجزى عليه خير الجزاء: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ ... ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ۝٤١﴾ [سورة النجم, ٣٩-٤١] يضاف إلى ذلك أنه سيُحاسب على سعيه هو فقط، فليس هناك خطيئة موروثة أو حمل لخطايا الآخرين: ﴿... وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ [سورة الزمر, ٧]، وإنما المجازاة على ما قدمت يد الإنسان، فكل إنسان سيُسأل عن نفسه وأعماله فقط يوم الحساب، وطريق النجاح والفلاح واضح .. واحد وهو: الإيمان والعمل الصالح.

فلن ينفع المرء انتسابه إلى الأمة المُخرجة للناس، لكي يكون من الفالحين في الدنيا أو في الآخرة، ففلاح كلٌ لنفسه، وكلٌ سيُسأل بمفرده: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [سورة مريم, ٩٥]، لذا فعلى المرء أن يتخلق بخلقهم ويقتدي بعملهم ويسير على دربهم، وبذلك يصير بينهم ويُجزى مثلهم! وإذا اكتفى الإنسان بالانتساب فسيصبح مثل الجاهلين بالمنهج، ولن ينفعه انتسابه في شيء! فأعماله هي الطريق الوحيد إلى الفلاح.

ولا يعني كونه سيُحاسب ويُسأل عن نفسه فقط أن هذا معناه التخلي عن حمل هم الأخرين، وإنما سيُحاسب عن المسؤوليات التي وقعت على كاهله فقط، وهي كثيره لكونه حامل رسالة الله بما فيها! لذلك وضح الرسول الأعظم أن كلٌ مسؤول عما تولاه، فقال: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالامام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيّده وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته"، فمعنى الفردية في الجزاء ألا يُسأل عما قصر فيه الآخرون! طالما أنه أدى الدور كما أمر الله، بأن أعلم الطريق القويم، وما بعد ذلك لا يُسأل عنه الإنسان، فكما قال الله للرسول: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [سورة الغاشـيـة, ٢١-٢٢].

فليس على المتبع أن يحمل الآخرين على رأيه، وإنما عليه الاستمرار والمداومة على طريقه، بغض النظر عما يفعله الناس، ولا يركن بحال إلى مجاراة العوام، وإلا سيصبح مثلهم، ولا ينبغي له ذلك، لذا قال الرسول الأعظم: "لا يكن أحدكم إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تسيئوا"

والذي أعجب له أن كثيرا من المتبعين للمنهج غير متبعين له في جل أعمالهم! فهم محسوبون عليه فقط، وما هم إلا متبعين لعقولهم، ويظنون أن الانتساب كاف! فيبررون لأنفسهم أن الانتساب بلا سعي كاف، فيكفي الإيمان فقط!

وهذا الظن منتشر بشدة في كل الأديان تقريبا، فنجد أن كثيرا يظنون أن الإيمان بفكرة ما وتصور ما –قيامة المسيح مثلا! أو شفاعة الرسول الأعظم– كافٍ للفلاح بغض النظر عن العمل. وهذا من مكائد الشيطان التي نُسبت إلى منهج الله عزوجل عبر العصور، وهي أول خطوات الضلال والهلاك، فالرب أنزل المنهج ليتُبع لا ليُعرَض عنه، ولا يستوي المتبع مع المعرض والمخالف ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۞﴾ [سورة السجدة, ١٨]، فلا يستوي الخبيث والطيب!

لذا فلا تنازل عن السعي بحال من الأحوال، ومن يتركه فهو مخالف تارك متبع لهواه! فالسعي حتمي وكلما عظم سعي الإنسان كلما زاد ثوابه عليه، وبقدر تقصيره وتركه يكون عقابه، فالإيمان! بالأفكار المجردة بدون سعي لها دليل على وجود خلل عند الإنسان، ومبرر أكبر من كاف لأن ينال الإنسان العقاب، لا لأن يكون ذلك دافعا للتخفيف والثواب بقدر بسيط!

فإذا أنا قلت لإنسان أن الطريق مليء بالحفر، وصدقني واستمر في السير حتى سقط فيها، فهو إنسان أحمق يستحق مزيد عقاب أكثر ممن سقط فيها، لأنه لم يسمعني! وسواءٌ أسمع الإنسان أو أعرض فهدايته لنفسه في الدنيا قبل الآخرة، وضلاله عليها، وفي كلتا الحالتين لن يُجزى إلا على ما قدمت يداه خيرا أو شرا: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۞﴾ [سورة الإسراء, ١٥]

أنت .. حيوان!

من نقاط الاختلاف الرئيسة بين المنهج وغيره من المناهج مسألة حيوانية الإنسان! فالمنهج يرى أن الإنسان كان حيوانا "دابة" ثم رُقي –بأمر الله– إلى إنسان، واستُخلف في الأرض من أجل غاية محددة، أما عامة المناهج فهي تركز أيما تركيز على أن الإنسان حيوان .. عاقل! ونحن لا نتنكر للجانب "الحيواني" في الإنسان، ولكن المنهج يسعى إلى نسيان هذا الجانب، عن طريق تحكيم عنصر التميز وهو الروح في الإنسان، أما الغرب فينظر للإنسان على أنه حيوان "فلتة"، اختلف عن باقي الحيوانات وتميز عنها صدفة! فإذا لازم الإنسان شعوره بحيوانيته، فما المانع أن يتمرغ فيها ويحياها كما ينبغي أن تكون، ويتفنن فيها ويبتكر بعقله؟! أليس حيوانا سيعيش فترة محدودة ثم يَنفق! فليترك لحيوانه العنان يقوده حيث شاء فلا حرج فيما يفعله، المهم ألا يصطدم بالقطيع! وهكذا انقلب الحال فأصبحت الروح خادمة للحيوان الدابة!

أما المنهج فلم يصم الإنسان أبدا بأنه حيوان، –وصم فقط بعض أصناف منه بأنهم كالأنعام بل هم أضل!– وإنما ذكّره دوما بأنه مختلف وراق عن هذه الأصناف، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [سورة الإسراء, ٧٠]، وتكريمه هذا ناتج عن كونه خليفة صاحب رسالة! ولذلك فهو يستحق معاملة خاصة من ربه وخالقه، ولقد أُعطيها الإنسان فعلا، فجعل الله على كل إنسان حفظة، يحفظونه هو وكل ما يصدر عنه[136]، فقال: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ٤﴾ [سورة الطارق, ٤]، وهذا الحافظ له دور يشبه ما تعارف عليه الفكر الغربي بأنه الملاك الحارس للإنسان! إلا أنه يزيد عن ذلك في تدوينه ما يصدر عن الإنسان.

[136] يسجل الحافظ كذلك كل ما صدر عن الإنسان من أعمال كما صدرت، ثم يعرضها للإنسان ويريه إياها مشاهدة يوم الحساب! لمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة مقال: الطارق والحافظ والرجع نظرة مغايرة! على موقعنا الخاص: www.amrallah.com/ar

ولم يكتف المنهج بالتذكير وإنما عمل على ترقيته وإبعاده قدر المستطاع عن الدرجة الحيوانية، بأن قدم له المنهج العقلي[137] القويم الذي يُرقّيه كثيرا عنها، وتوعده في نفس الوقت الوعيد الشديد إذا ما اقترب منها! بأن أمره بلهجة قاسية حازمة بالابتعاد عما يقربه من الحيوان أو يدنيه عنه! وبهذا نفهم اللهجة القاسية الحازمة الواردة في القرآن بشأن القتل والزنا والشرك[138]! فالله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩﴾ [سورة الفرقان ,٦٨-٦٩] فهنا نجد أن الله تعالى خص ثلاثة أنواع من الذنوب بالوعيد الشديد وهو المضاعفة في العذاب والتخليد في النار مهانا، وذلك لأن الإنسان بشركه وكفره يرتكس إلى مرتبة أدنى من الحيوان ويتنازل عن عقله تماما، وهو بزناه وقتله يرتد إلى المرحلة الحيوانية، حيث كان يسفك الدماء ويمارس المسافحة كما تفعل الحيوانات مع أي أنثى تشتهيها!

وهو بذلك قد رفض المنحة الإلهية، ورضي أن يكون كالدواب، فيستحق من أجل ذلك أن يضاعف له العذاب، وأن يخلد فيه مهانا. ولذلك استحق هذا الصنف بالذات أيضا أنه إذا تاب أن يبدل الله سيئاتهم حسنات: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾ [سورة الفرقان ,٧٠]

لأنهم بتوبتهم هذه قد جاهدوا أنفسهم وارتفعوا عن مرتبة الحيوان وعادوا إلى عامة الإنسان، فاستحقوا لهذا الترقي أن تبدل سيئاتهم حسنات!

وختاما فإنا نقول: من المفترض في المتبع للمنهج أن تظهر عليه آثار الحيوان!

[137] سنضطر أحيانا إلى استعمال "العقل" مكان "الروح" في الكتاب، وذلك لأنه قد يساء فهمنا إذا استعملنا كلمة "الروح" فينصرف الذهن إلى النفسيات والغيبيات!

[138] ورد الوعيد في القرآن مع كبائر أخرى، مثل السرقة والرياء وأكل الربا وشهادة الزور، ولكنه لم يكن أبدا بهذه الدرجة من الوعيد، فلم يقل مثلا: من يسرق يخلد في النار، أو من يأكل الربا سيضاعف له العذاب!

والحيوان هي الحياة الحقيقة النموذجية المثالية، كما قال الرب العليم: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة العنكبوت, ٦٤] فالدار الآخرة هي الأنموذج المثالي للحياة، وكذلك المتبع ينبغي أن يبدو عليه آثار الاختلاف عن باقي البشر من حيث الرقي والتنعم، فيكون مثله في الاختلاف واتساع البون، كمثل الآخرة بالنسبة للدنيا، ولم لا؟ أليس هو سوبرمان وهم حيوانات .. عاقلة؟!

إلزام ذاتي

قلنا أن الإنسان المتبع للمنهج يتميز بإيمانه بأنه صاحب رسالة، وهو يجتهد من أجل تحقيق هذه الرسالة على أجمل وجه وأكمله، بخلاف ذلك الإنسان الذي عظم عنده عنصر الحرية. فالأول لا ينسى دوره أبدا ولا يحتاج إلى أي إلزام خارجي، وذلك لأن إلزامه نابع من داخله، فلا يحتاج إلى رقيب، فإلزامه نابع عن حب لصاحب المنهج ﴿... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ و... ﴿١٦٥﴾﴾ [سورة البقرة, ١٦٥] وإيمان بصحة المنهج المطلقة، لذا فمن العسير جدا أن يزيغ أو يميل، لأن في هذا الميل هلاك وضلال له وللأمة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الأحزاب, ٣٦] فليس بعد قضاء الله ورسوله مجال للفكر، إلا إذا كان هناك احتمالية أن يضل الكامل ويصيب الناقص! وهذا ما لا يقول به عاقل.

إذا فحتى ولو كان في الأمر ثقل على النفس، فهناك إقبال عليه لما فيه من الخير العام. والمتبع للمنهج لا يرى فيه أي ثقل وإنما يرى فيه خيرا للبشرية، وتذكيرا لها بما فيه الخير وتحذيرا لها مما قد تضل فيه فتتجنبه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً ... ﴿٣﴾﴾ [سورة طه, ٢-٣]

أما عند ذلك الآخر فعنصر الإلزام موجود معدوم، فمتى وافق منفعته أو رأى فيه ضررا مباشرا له أو لآخر فقد يتجنبه، أما إذا خالف الأمر هوى البشري، وضمن النجاة من عقوبته، ولم ير فيه ضررا قريبا فسيخالف البشري الأمر، وذلك لأن هذا الأمر صادر عن بشري مثله، قد يكون أفضل منه حقا، ولكنه بشري يعتريه النقص والخطأ، ثم إنه لم يُحط علما بكل الحالات الممكنة، وحالاته هذه بالتأكيد حالة استثنائية لم تخطر ببال المشرع!

لذا فلا حرج في المخالفة، فيخالفها البشري بدون أي تأنيب ضمير، على الرغم من أن مخالفته هذه قد تؤدي إلى أضرار جسيمة لاحقا. –وهذا ناتج عن تنشأته على أن يعيش يومه ولحظته وينسى ما سوى ذلك!–، كما أن ذلك الآخر يرى في أي تكليف ثقلا، فلم يصبح صاحب رسالة، لم لا يحيى يومه، ويتمتع بالحياة طالما أنه سيعيش مرة واحدة فقط، ويكتفي بعدم ضر المحيطين به، وليترك أمر الرسالات هذه للآخرين يشقون وينصبون فيها؟!

إذا فقد يخضع البشري لمنهجٍ إعدادي ليصبح صاحب رسالة، ولكنه سيكون من غير المنطقي أن يصير لديه إلزام داخلي باتباع هذا المنهج.

ونحن نُقر أنه ثمت قليل من أصحاب الرسالات، يتحركوا من أجل رسالتهم، بغض النظر عن دين أو جنس أو موطن من يتحركون من أجله، ولكن هؤلاء وكما قلنا قلة قليلة، أما الأكثرون فيتحركون من أجل نفعهم الشخصي أو نفع بلادهم وأبناء ملتهم وجنسهم ولونهم. وأصحاب الرسالات هؤلاء وإن كانوا أصحاب رسالات إلا أن أقصى ما يمكن وصفهم به أنهم "أصحاب رسالات"، ولا يمكن أن يتخطى توصيفهم إلى مرحلة السوبرمانية، وذلك لأنهم استطاعوا ترويض جانب واحد من أنفسهم، إلا أننا نجد الكثير والكثير من الجوانب السلبية عند هؤلاء، وهم يعترفون بها ولا يرون في ذلك حرجا، ويكتفون بإخلاصهم لرسالتهم الرئيسة، أما حياتهم الشخصية فلا ترتبط بالرسالة. وأعتقد أن كثيرا من أصحاب الرسالات عند الغربيين كانوا نموذجا لذلك.

أما السوبرمان فهو صاحب رسالة، ولكن لا يمكن أن يحصر نفسه في هذه الرسالة، وتناقض باقي تصرفاته هذه الرسالة، وإنما تسير كلها في طريق واحد، وهو طريق التكامل الجماعي الفردي حتى يصل الإنسان إلى مرحلة السوبرمانية!

كل شيء بقدر .. ولحكمة!

قلنا أن الإنسان المتبع للمنهج يؤمن أن الكون كله بما فيه مخلوق بقدرة الإله الحكيم، وهذا يعني أنه لا مجال للصدفة أو للفوضى، وكل ما يحدث فيه هو بقدرة الله ومشيئته، ولن يحدث أي شيء أبدا بغير إرادة الله تعالى، فما أراده كان وما لم يرده لن يكون. فليس الكون كله أو بعضه إلها يُعبد، كما تُصوره بعض الديانات، وإنما يؤمن المتبع أن الكون في رحلة بدأت منذ زمن طويل وستنتهي بأجل مسمى عند الله عزوجل، وهذه الرحلة ستنتهي فقط عندما ينهي الله عزوجل الحياة الدنيا، بأن ينهي الكون هذا كله ويرده إلى ما كان عليه، وينشأ كون جديد فيه سماوات غير السماوات وأرض غير الأرض، وهو ما يتعارف عليه المسلمون بالدار الآخرة.فنظرة المتبع للكون أنه خادمه المسخر له –بإذن الله–: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ... ﴿١٣﴾﴾ [سورة الجاثية, ١٣]

فلم يُنشأ هذا الكون كله إلا ليكون مسرحا للاختبار الإلهي للإنسان، فليس الكون عدوا للإنسان عليه قهره، كما يتعامل معه الصدفويون! وهذا يعني أنه على الإنسان أن لا يخشى أبدا أن ينهار الكون في يوم ما، بسبب خطأ طبيعي أو كارثة تقنية، منا أو من غيرنا! وإنما سيستمر الكون كله بهذا النظام البديع في رحلته ودورته إلى أن يأتي اليوم الآخر، فقد أعطى الله عزوجل الإنسان الأمان من هذا الخوف الأزلي بانهيار البيت الكبير –الكون– فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ... ﴿٤١﴾﴾ [سورة فاطر, ٤١]، فلن ينهار الكون أو يرتد إلى حالته إلا عندما تصل الرحلة الإنسانية

الكونية إلى منتهاها! فهو في أمنين، أمن لمعرفته بمسار الكون، وأمن لوجود الحافظ الذي يحفظه من كثير من الأضرار!

كما يؤمن متبع المنهج أن كل شيء مخلوق في الكون هو لحكمة ومن أجل توازن الكون، فلم تُخلق ذرة عبثا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة القمر, ٤٩] وإنما كلٌ يؤدي دورا رسمه الله عزوجل له، فليس الأمر عبثا وليس الكون "كوميديا إلهية": ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الأنبياء, ١٧] وإنما هو لحكمة وغاية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة ص, ٢٧]

ويؤمن المتبع أن الله الحكيم هو الذي يسير الكون، لذا فحتما ولزاما أن يكون كل ما يحدث في الكون لحكمة ما، حتى ولو غفل عنها الإنسان، لذا يطمئن الإنسان ويستريح باله، حتى إذا نزلت الكوارث والمضار، فالإنسان لا يعلم أين الخير.

ولقد حرص المنهج أيما حرص على تعليم متبعيه مسألة "التقدير" والنظام في حدوث الأشياء ووقوعها، فلن يقع إلا ما أراده الله ولن يقع إلا ما اجتمعت عناصره وشروطه، وما بخلاف ذلك فلن يكون، فليس الأمر فوضى وإنما أسباب توجد لتتحقق مسببات ونتائج، فيجتهد في تحصيل الأسباب والأقدار حتى يتحقق له مراده! فيقول للرسول ولكل متبع: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الحج, ٤٧]

فليس الإنسان ذا العمر القصير ميزان الصلاح والفساد والصواب والزلل، فقد تضل أقوام أجيالا ثم يظهر لهم ضلالهم بعد أجل بعيد! فما وعد الله به سيكون ولو بعد حين، لأنه يكون بقدرٍ مُقدر مسبقا! ويظهر ذلك جليا في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ ... اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ

وَمَا تَزْدَادُۚ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾] سورة الرّعد, ٦-٨[فكل كبيرة وصغيرة في الكون تحدث بقدر، فإذا كان حمل الإناث وإجهاضها يحدث بقدر، فكذلك لن يحدث نصر لفرقة وهزيمة لأخرى، إلا إذا اجتمع للفرقة الأولى مقدار ما يمكنها من هذا النصر، ولن ينزل العذاب بأقوام لمجرد أن آخرين يدعون الله عزوجل أن يهلكهم، وإنما ينزل عندما يفسدون في الأرض بمقدار كبير فيستحقون الهلاك، فليس الكفر وحده كافيا لإهلاك الأقوام، وإنما لا بد من وجود الفساد حتى يتحقق الهلاك: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾] سورة هود, ١١٧[

ولما علم المتبع أن كل شيء بقدر وبحكمة ولحكمة، اطمئن إلى قضية عظمى أخرى وهي أمن المطعم والاحتياجات! فبدهي أن الذي خلق الكون وسخره للإنسان، قد أعد له ما يحتاجه من المطعم ومن المواد، حتى تستمر الحياة والاختبار، فلن يحدث أبدا ألا تكون الأرض كافية لإطعام من عليها، حتى ولو صاروا أضعاف أضعاف ما هم عليه الآن، وإنما المشكلة كلها تقع في طريقة توزيع ما تنتجه الأرض وطريقة استهلاكه، فلم ولن يحدث أبدا أن تكون هناك "ندرة"، وإنما كل شيء موجود موفور ... بقدر: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾] سورة الحجر, ١٩-٢١[

فالله عزوجل أمد الأرض بثروات تناسب احتياج الإنسان بل وتزيد، وأعد سبل الحياة للإنسان ولمن لا يتكفل الإنسان برزقه، حتى لا يجور عليه الإنسان في يوم من الأيام! وهذه الثروات تعمل بتوازن مع بعضها فلا تسبب أي كوارث، فإذا قضى البشر على التوازن ظهر الفساد.

وكلما تطور الإنسان وزادت حاجاته، قابلها ذلك اكتشافه لأنواع جديدة من الثروات الزائدة المخزونة في الأرض –أو فوقها– تسد احتياجاته، فقديما استعمل الإنسان الفحم، وبعد ذلك أعقبه اكتشاف البترول، وبدأ الحديث في عصرنا عن نفاد البترول

في القريب، وحتى لو نفد البترول فلا مشكلة، فيسكتشف الإنسان –بإذن الله– بديلا له، يغنيه عنه وستستمر الحياة ولن تظهر أي إشكالية في حياة الإنسان، وستستمر من تطور إلى آخر: ﴿... وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ ۝٢١﴾ [سورة الحجر, ٢١] فالله يتيح للإنسان دوما اكتشاف الجديد واستغلاله حتى يتسنى له الحياة على وجه الأرض بشكل كريم!

ومسألة الاكتشاف التدريجي للثروات هو من تقدير الله عزوجل، فلو حدث وتمكن الإنسان من قدرات كبيرة جملة واحدة، لطغى في الأرض وتجبر وتكبر ولأضاع هذه الثروات وبددها، وهذا ما نراه الآن بأم أعيننا، هناك ... في الغرب: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ۝٢٧﴾ [سورة الشورى, ٢٧]

إذا فالمتبع يؤمن أن الله يكشف للإنسان ما يحتاجه دوما ولن يتركه هملا، وأما ضيق الرزق على فرد واتساعه على آخر فليس معيار بأي حال للإصابة والضلال، وإنما كلاهما بلاء واختبار، على الإنسان ألا يزيده عن قدره، فيرتب عليهما نتائج أخرى من صحة منظور إلى حياة أو خلافه!

فإذا انتقلنا إلى التصورات الأخرى للكون، وجدنا أنها تنطلق من منطلق الفوضى والصدفة أو الإهمال،[139] فالكون إما نشأ هكذا أو أنه كان هكذا! أو أن الخالق خلقه وتركه!

[139] العجيب أن الملاحدة يقولون بالفوضى والصُدفية في بدء الخلق ولكنهم يجزمون بالإحكام في سير المخلوقات! والعجيب أننا نرى أن البشر المؤمنين بالفوضى هم أكثر الناس تخطيطا وتوجيها لحياتهم، فيتحركون من أجل اكتشاف النظام الذي يسير عليه العالم ويحكمه، –والذي نشأ صدفة–، ويتحركون من أجل اكتشاف طباع وخصائص الطبيعة من أجل التحكم فيها والسيطرة عليها! وعلى النقيض نجد المؤمنين بالتقدير والتوجيه هم أكثر الناس فوضى وإهمالا! وترجع هذه الفوضى إلى عنصر التواكل الذي نجح المشائخ في زرعه بجداره عند المسلم، لأن الله ذو قدرة مطلقة! فلم البحث عن الأسباب واتباعها؟! مع أن الله عرفنا أن كل شيء بقدر، وأن علينا أن نتخذ الأسباب لنصل إلى المراد!

وتبعا لنظرة الإنسان إلى الكون وخلقه تكون نظرته إلى الحياة، فإذا كان يرى أنه غير مخلوق وأنه موجود هكذا أزلا، وأن سيره ما هو إلا فوضى –منظمة صدفة– وأن البشر ما ظهروا إلا نتيجة لبعض التفاعلات الكيميائية، والتي حصلت هكذا صدفة على مر العصور، فلا بد أن يحمل هذا الإنسان في داخله عنصر الفوضى. فإذا كان كل الكون فوضى –منظمة!– فلم يحمل في داخله هو النظام والتخطيط؟ فإذا كان كل هذا الكون العظيم يسير بهذا النظام البديع بدون مشاكل بلا تخطيط، فلم لا تسير حياته هو الآخر بلا تخطيط، ولن يقابل أي مشكلة كما يحدث مع الكون كله؟!

وإذا كان الكون بلا غاية فلم يحمل هو غاية؟! فليعبث كما يحلو له. وبالفعل عبث المبسوط له في الرزق وأفسد، فعبث بالإنسان وبالحيوان وبالنبات وبالكون كله، وأصبح الإنسان أداة لهو في يد أخيه الإنسان، فلم يعد يقتصر اللهو على الحيوانات: فأصبحنا نرى مسابقات ومهرجانات كاملة تقام، يُضيّع فيها الأطنان من الخضروات والفواكه، تُداس بالأقدام حيث يلهو فوقها ذلك الإنسان .. الحيوان الفوضوي الفاقد الغاية، وحيوانات تكاد تباد من أجل قطع من أجسادها تستغل في الزينة، وليذهب التوازن البيئي إلى الجحيم!

وأصبحنا نرى أناسا يصبح دورهم في الحياة قطعة زينة "ديكور"، يرضى لنفسه هذا الهوان من أجل لُقيمات! ويرفض المنهج بداهة العبث بالحيوان، فنجد في تراثنا أن ابن عمر رضي الله عنهما مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا أو دجاجة يترامونها، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا. فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا. –رواه البخاري ومسلم–.

وبخلاف اللهو والعبث والفوضى فلزاما أن يقع الإنسان، الذي لا يؤمن بالخلق والتوجيه الحكيم والتقدير، في فخ الخوف والقلق، فهو يظن أن الكون نشأ هكذا صدفة، فما المانع أن ينهار فجأة فوق رأسه ورؤوس كل من معه؟! لا يوجد –من وجهة

نظره- ما يمنع هذا على الإطلاق! ويصبح حال ذلك الإنسان مثل الطفل الذي فقد أباه، واضطر للاعتماد على نفسه منذ صغره، فهو في قلق من كل كبيرة وصغيره، لأنه يعتمد على نفسه فقط، ولا يدري ماذا سيحدث له ولغيره في الغد.

وبسبب هذا التصور نشأت بعض النظريات الاقتصادية العجيبة مثل نظرية الندرة،[140] والتي أدت إلى تصارع البشر وتقاتلهم حول فتات الطعام والثروات، لأنهم يؤمنون أن ما تنتجه الأرض هو أقل مما يحتاجه الإنسان، لذا لا بد من السيطرة على موارد هذه الثروات! على عكس الذي يؤمن أن الله تكفل له وللدواب بالرزق: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ... ۝٦﴾] سورة هود ,٦]

وكان من البدهي أن يحاول البشر –الذين لا يزيدون عن كونهم حيوانات تعتمد على نفسها- أن يجدوا حلا لأزمة الندرة الموجودة في أذهانهم، فظهرت حلول! عدة في نظريات اقتصادية كثيرة، أخطرها نظرية Malthus في السكان، والتي تتأسس على أن الموارد الاقتصادية غير كافية لتوفير الغذاء للعنصر البشري. وقد نادت هذه النظرية بضرورة التخلص من الزيادة بنوعين من الوسائل، الوسائل السالبة التي تمنع وصول بشر جدد، والوسائل الموجِبة، والتي يتم بها التخلص من جزء من البشر الموجودين، وهي الحروب والأوبئة والمجاعات، وكذلك منع إعطاء إعانات للفقراء!!!

ولا عجب من الذين ينادون بالتخلص من بعض البشر من أجل الطعام، بدلا من الدعوى إلى الاقتصاد فيه وتقاسمه مع الفقراء، لأن الإنسان حيوان بلا غاية، لذا ليلق الطعام الزائد في اليم حتى لا ينخفض ثمنه! أما أن يتبرع به مساعدة لإخوانه فهذا لا يتفق مع الشريعة في شيء! فشريعة الغاب هي الافتراس، لذا فليأكل .. معذرة فليقتل وينسف ويبيد القوي الضعيف حتى يبقى هو المسيطر المتحكم في الطعام ويبدده كما يحلو له!

---

[140] تعني نظرية الندرة باختصار شديد أن الحاجات الاقتصادية غير محدودة، بينما الموارد الاقتصادية التي تستخدم لإشباعها محدودة. ولقد وصل الأمر إلى حد أن جمهرة الاقتصاديين يعتبرون أن الندرة تمثل موضوع علم الاقتصاد –وهي ليست كذلك-.

فنحن حيوانات وعلينا أن نعيش تبعا لشرعتها.

وأقارن بين من يدعو إلى إبادة جزء من قطيع البشر وبين قوله تعالى: ﴿... مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ... ﴿٣٢﴾﴾ [سورة المائدة, ٣٢]

وبين ما رواه ابن عباس: "قُتل بالمدينة قتيل على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولم يُعلم من قتله، فصعد النبي على المنبر فقال: "يا أيها الناس ... يُقتل قتيل وأنا فيكم ولا يُعلم من قتله؟ لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ لعذبهم الله، إلا أن يفعل ما يشاء".

ولا أعجب، فعندنا الإنسان مكرم حتى أنه أعظم من الكعبة، ... عندنا كل المخلوقات أمم أمثالنا لا يحل ظلمها أو هضمها: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ... ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الأنعام, ٣٨]

أما عند الآخرين فالإنسان نفسه رقم زائد في المعادلة الاقتصادية، عليهم التخلص منه، لأنهم هم الذين يرزقون أنفسهم!

كون .. حي!

قلنا أن المتبع للبرنامج يعتقد أنه سيد الكون كله –بإذن الله–، وأن الكون مرتبط به، وأن الكون يسير بحكمة وقدر! ولكن لا تعني تلك السيادة أن يفسد الإنسان ويتجبر في الأرض ويتصرف فيها كما يحلو له، فهو وإن كان سيد الكون، إلا أنه ينظر إلى الكون نظرة تختلف عن نظرة غيره، فهو ينظر إلى الكون على أنه كون .. حي! نعم، يؤمن المتبع للبرنامج تمام اليقين أن الكون حي وليس ميتا، فكل ما في الكون حوله،

والذي تعارف الناس على تسميتها "جمادات" هي من الأحياء! لها حياة بشكل يعلمه الله عزوجل.

لذا فهو يتعامل مع الكون كله حوله من منطلق المحافظة على حياة الآخرين، حتى لا يؤدي إلى موتهم. ولقد ظهرت العديد من الأبحاث الغربية التي تحاول أن تثبت وجود جهاز عصبي عند النباتات، ولكن كتابنا قد سبق كل هذه الأبحاث وأنبأنا أن كل ما في الكون حي، بل إن الكون نفسه حي .. مثل الإنسان ولكنا نجهل طبيعة هذه الحياة! فالله تعالى يقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ [سورة الإسراء, ٤٤] فكل شيء يسبح بحمد الله، ولكنا لا نفقه كيفية هذا التسبيح لاختلاف الطبائع، ولا يقتصر الأمر على التسبيح، وإنما يتعداه إلى السجود: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝١٨﴾ [سورة الحج, ١٨] ، ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝١٥﴾ [سورة الرّعد, ١٥]

ففي الآية الأولى حديث عن السجود الاختياري لذا قال "وكثير من الناس"، وفي الآية الثانية يتحدث عن السجود الاختياري والجبلي المغروس في المخلوقات، وبداهة يتناسب كل سجود مع طبيعة ساجده! وهنا ينسجم المؤمن مع الكون، فكلاهما يسبح ويسجد لله تعالى، ويعلق على هذا العلامة القرضاوي فيقول: "فلا عجب أن يضمر لهذه الكائنات الساجدة المسبحة لله: الود والحب، لأنها تعبد الله تعالى، كما يعبده هو. وقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الود وهذا الأنس بهذه المخلوقات بهذا الحديث الرائع الذي قاله وهو عائد إلى المدينة من غزوة تبوك، وقد أشرف على المدينة، ولاح له جبل أحد، فقال: "هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه[141]" اهـ

[141] يوسف القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، ص.30.

وليس الأمر مجرد سجود وتسبيح، حتى لا يظنن ظان أن الآيات إشارات إلى خضوع الكون لله، وإنما هناك إرادة لما نسمية بالجمادات وتفاعل مع الأحداث، ونجد ذلك صريحا في آيات عدة، فالله تعالى يقول عند ذكره لقصة موسى والعبد الصالح: ﴿... فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الكهف ,٧٧]، فأثبت للجدار إرادة، وبكل براعة قام علمائنا الأفاضل برفض مضمون الآية وأخذوا يتحدثون عن المجازات!

وأثبت إرادة ومشاعر كذلك للسماوات وللأرض، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الأحزاب ,٧٢]

وأثبت لهما قولا، ومن ذلك مخاطبته تعالى لهما عند خلقه للكون: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة فصّلت ,١١]

وليس الأمر مقتصرا على مرحلة بدأ الخلق فقط، وإنما يستمر كذلك دوما، فالله يخبرنا عن حال السماوات والأرض عند موت الكافرين الظالمين، فيقول: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الدخان ,٢٩] أي أن السماوات والأرض تبكي وتحزن وتتأثر لموت المؤمن المسلم المتبع، أما غيره فلا تحزن عليه!

وكما رأينا فإن آيات الكتاب طافحة بأن الكون حي، ولكنّا غافلون عن هذه الحياة، ونُصر على معاملته على أنه جمادات، أما من صدّق بما جاء في الكتاب فيتعامل مع الكون من منطلق التآلف والتفاعل، فهو يعرف أن هذا خلق الله وهو حي مثله، سخره الله عزوجل من أجل خدمته، فلذلك يحبه! نعم يحب من سخره الله لخدمته، والذي لو أعطي الإمكانية لما استجاب للإنسان ولتمرد عليه! لأن الإنسان هو النشاز الوحيد في السيمفونية الكونية!

ولا يعني هذا الحب ألا يستخدمه، لا فهو يعلم أنه من أجل هذا خُلق، ولو تركه لضاعت الفائدة والغاية من خلقه، فيستغله بقدر موزون فيما أراد الله! حتى ينفع ولا يضر ويصلح ولا يفسد. ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "ما من مسلم يقتل عصفورا فما فوقها، بغير حقها، إلا يسأله الله عزوجل عنها" قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: "أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها ويرمي به".

أحسن خلق!

قلنا أن المتبع للمنهج يؤمن أنه سيد الكون، وأن الله خلقه كله من أجله وسخره له، ولكن هذا لا يعني أن له خيار التدخل والعبث في الكون والتغيير فيه من أجل الوصول إلى نتائج أحسن! فهو وإن كان سيد الكون إلا أن له دور واحد وهو المراقبة والتقليد لا التغيير! فعلى الإنسان أن يراقب الكون وطريقة عمله ليتخذ ذلك دليلا على وجود الله، وليستفيد منه في تحسين حياته وتطويرها، فهذا هو الطريق الآمن للتطور السليم، أما إذا عبث الشيطان في رأسه، وأيقظ عنده عقدة الخلق، وأوهمه أن طريقة السير هذه غير جيدة، وأنه يمكنه أن يعدل فيها ويغير وينتج خلقا أفضل، فهذه خطوة أولى إلى الانتكاس! فالخلق مخلوق في أحسن صورة، والله تعالى أحسن الخالقين!

ومنذ قديم الزمان أعلنها الشيطان صراحة، أنه سيتخذ التلاعب بخلق الله وسيلة لإضلال الناس، وحكى الله تعالى قوله لينبهنا لذلك، فقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [سورة النساء, ١١٩] واستغل الشيطان علم الإنسان للتلاعب بخلق الله، وكلما ازداد الإنسان علما أغراه بالتدخل في خلق الله، إلى أن وصل التلاعب بالخلق إلى الاستنساخ عن طريق خلية بدون عملية التزاوج! وأصبحنا نسمع كثير لغو عن تحسين الصفات الوراثية عند الإنسان،

وإنتاج إنسان ذي مواصفات خارقة، وظهر الحديث من جديد عن السوبرمان، ولكن بترهات علمية، مبنية على الظن أن التعديل في تركيب الإنسان سيؤدي إلى إنتاج إنسان أقوى وأعظم!

ويجزم المتبع للمنهج أن هذا المسلك مسلك ضال مهلك، فلو حدث وعُدل في الإنسان فلربما أنتج هذا كائنا زائد القدرات، ولكن سيؤدي هذا التعديل حتما إلى أمراض وأعراض جانبية، يعاني منها الإنسان أشد المعاناة! فالمتبع يؤمن بكمال الله في فعله، فكل خلقه أحسن وليس مجرد حسن: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧﴾ [سورة السجدة ,٧]، والإنسان خُلق في مراحل وأطوار معينة ضرورية للوصول إلى الهيئة السليمة ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [سورة المؤمنون ,١٤]. فلا بد من المرور بهذه الأطوار كما فعل أحسن الخالقين، وإذا لم تكن كما هي فلن يكون الإنسان في أحسن خلق! ولقد مر الإنسان بالمراحل التعديلية المطلوبة حتى وصل إلى قمة التطور، لذلك فلا حاجة إلى تعديل أو تطوير: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [سورة الانفطار ,٧]، ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ [سورة الـتين ,٤]، فخلق الإنسان أحسن خلق، وصورته أحسن صورة: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [سورة الـتغابن ,٣]

فالعبث في خلق الله مرفوض، وإنما على الإنسان إحسان الاستخدام وإتقان التقليد، وبذلك يصل إلى أسلم وأصح النتائج المرجوة، وأما بالنسبة للإنسان نفسه فالطريقة الوحيدة لتحسينه هي الترقية العقلية والروحية، عن طريق برنامج إعداد موجه منذ ولادته، أما العبث بالجينات فسيخرج بعض المسوخ، التي تفسد ولا تصلح، مسوخ مريضة، تُسام عذاب الأمراض النفسية!

وأنسب برنامج للإنسان هو ذلك البرنامج الذي أنزله خالق الكون والإنسان، المتطابق مع الفطرة التي فطر الناس عليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الروم ,٣٠]

فبهذا البرنامج فقط يُضمن التطابق التام مع نفس الإنسان، بدون أدنى درجة من الاختلاف، على نقيض البرامج الأخرى، التي قد تراعي جوانب وتترك أخرى! بل إن برنامج الإعداد يقدم نفسه على أنه الوعاء الذي أحاط الإنسان، والذي عليه أن يغمس نفسه فيه، ليخرج إنسانا مصنوعا على عين الرب: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [سورة البقرة ,١٣٨]، فليست هناك صبغة أفضل من صبغة الله، الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير!

استئصال الفساد

قلنا أن المتبع للمنهج يؤمن أنه يعيش في كون حي، كل ما فيه يعبد الله حق العبادة إلا الإنسان، ويؤمن أن الكون مخلوق في أحسن خلقة، وأن على الإنسان ألا يعبث وإنما عليه المجاراة والاتباع والانتفاع! ولكن لا بد من التذكير أنه ليس كل من يعيش على الأرض من المتبعين للمنهج، فهناك الكافرون به وهناك المنتسبون إليه بدون اتباع!

ومن البدهي أن يصدر عن هؤلاء البشر فسادا، ماديا ومعنويا، لذا فمن أهم واجبات المتبع محاربة هذا الفساد والقضاء عليه بشتى السبل الممكنة .. الصالحة! من نهيٍ عن الفساد ومن سعيٍ لرفع هذا الفساد، بل واستئصاله وعدم ترك أي باقية أثر له، لأن

الفساد عنصر قابل للانتشار وللانتقال وللتوسع بسرعة كبيرة، فإذا أُهمل زاد وعم الكون كله[142].

وكما قلنا فإن الكون كله مخلوق في أحسن خلقة، ولو تُرك لظل متوازنا صالحا، فلما خُلق الإنسان وساد الأرض، ظهر الفساد فيها نتيجة فعله، وذلك لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الواهم، وبسبب هذا الوهم كان الفساد العريض: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الروم, ٤١]، وينهانا الرب عن الإفساد في الأرض بعد أن أصلحها الله وهيّئها للإنسان: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الأعراف, ٥٦]

ونفتش بعض آي الكتاب، لنبصر كيف استعمل "الفساد": الناظر في الكتاب يجد أن كلمة "الفساد" أو مشتقاتها تكاد ترتبط ب "في الأرض"، فلقد وردت زهاء خمسين مرة في القرآن، جاءت كلها مع "في الأرض" ما عدا إحدى عشر موضعا تقريبا، لاختلاف السياق والمناسبة التي ذكر فيها الفساد، ونجد أنه ذُكر مرة مع البر والبحر ومرة مع السماوات والأرض! وفي هذا إشارة جلية إلى عموم وانتشار الفساد،

---

[142] نحاول أن نستخرج صورة *الفساد* من خلال اللسان العربي، فنقول: الفساد كما جاء عن الراغب: "خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً" اهـ، أما ابن منظور فيعرفه بالسلب: "الفساد نقيض الصلاح" اهـ،

لذا نحلل نحن الكلمة لنعرف كيف تبدو: الفاء حرف يدل على التفتح في الشيء، والسين حرف يدل على الانسيابية إشارة إلى حركة متواصلة غير محدودة، والدال حرف يدل على دفع شديد وصدم! فإذا أسقطنا هذا التصور على الفساد، فنجد أنه تفتحٌ في الشيء (فدور الفاء إيجاد فراغات في بنية الشيء "تفتح") ينتشر منسابا (ودور السين هو نشر هذا التفتح والفراغات في الشيء، لأنها حركة متواصلة)، وهذا الانتشار غير متفق مع طبيعة الشيء، لذلك فهناك حركة تدافع وتصادم بينه وبين الشيء (فدور الدال دفع الشيء وصدمه، وهذا لا يكون إلا مع غير المتوافق) تؤدي إلى هلاكه و إبلائه في النهاية. فإذا أخذنا فساد المواد الغذائية مثالا على ذلك، نجد أن الفطر يبدأ صغيرا وينتشر فيه وعليه، إلى أن يؤدي في نهاية المطاف إلى تعفن وبلاء المادة، فهذه هي صورة الفساد. والتي تختلف جزئيا عن صورة الفسق، وذلك لانتهاء الفسق بالقاف وليس بالدال، والتي تدل على الخروج والقطع، فصورة حدث الفسق تتفق مبدأيا مع حركة الفساد، إلا أنها تختلف في أنها تبحث لها عن مخرج تظهر منه! ولذلك وجدنا ابن فارس يقول في المقاييس: "الفاء والسين والقاف كلمة واحدة وهي الفِسْق وهو الخروج عن الطَّاعة. تقول العرب: فَسقَتِ الرُّطَبَةُ عن قِشْرها: إذا خرجَتْ ..." اهـ

لذا يمكننا بعد هذا التحليل البسيط القول أن الفساد هو:عنصر غير متوافق مع طبيعة الشيء ينتشر فيه مدافعا له إلى أن يبليه ويهلكه!

والضرورة الحتمية للقضاء عليه، لأنه يهلك المجتمعات لا الأفراد، وقد يزيد فيهلك الكون كله!

واستعمل القرآن تركيبة "الفساد في الأرض"، في مواطن عدة في الكتاب، منها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [سورة البقرة, ٣٠]، فالملائكة تعجبت من أن يكون الخليفة، ذلك الكائن غير العاقل الذي يسفك الدماء، وإفساد الكائن غير العاقل لن يزيد عن تحطيم وتكسير وتشاجر، والذي يمكننا أن نسميه "تخريب".

فإذا نظرنا في آية أخرى، وجدنا الله تعالى يقول: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۝٣٢﴾ [سورة المائدة, ٣٢]

فنلاحظ أن هذه الآية كذلك تفرق بين القتل والفساد في الأرض، فالقتل لا يعد فسادا في الأرض! إذا فالفساد في الأرض هو بمعنى إشاعة الفوضى والتخريب في الأرض التي أصلحها الله، ولكن لا يقتصر الفساد على الإفساد بالتخريب في الأرض، وإنما قد يكون هناك إفساد للمجتمع، ويقارب شر هذا شر الإفساد في الأرض. ومن أخطر صور الإفساد في الأرض هو الطغيان واستضعاف العباد، وأشهر من ضرب الله عزوجل به المثل في هذه المسألة هو فرعون وجنوده: ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾ [سورة الفجر, ١٢]، فبسبب طغيانهم عم الفسادُ البلاد!

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [سورة القصص, ٤]، فتقسيم أهل البلد الواحد إلى طوائف وعدم إيجاد تسوية بينهم إفساد للبلد أي مفسدة، وصلاحها

بالقضاء على هذا التقسيم والتمييز! ومن أعظم وأبرز صور الإفساد المجتمعي: الصد عن سبيل الله، بمنع الناس من سماع كلمة الله، فهذا فساد ما بعده فساد، لأنه يمنع سبيل الإصلاح من المبدأ، فكيف للناس الهداية؟!: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة النحل, ٨٨]

وقد يكون هناك فساد مجتمعي تخريبي، ولكن هذا لا يقع إلا في حالة الحروب، حيث يحدث إفساد وتخريب للقرى المفتوحة –وهو ما حرمه الإسلام–، وقلب للبنية الاجتماعية للمجتمع، ويذكر الكتاب على لسان ملكة سبأ هذه المقولة الصادقة: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة النمل, ٣٤]

وعدم إعداد القوة المناهضة للفساد فساد كبير، لأن هذا يعني سيادة الفساد واندحار الصلاح، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الأنفال, ٧٣] وهناك أشكال أخرى كثيرة للفساد، وأسبابها غير محدودة، إلا أن "القوى المفرطة المنفردة" تُعد من أهم أسبابها، فالإنسان إذا شعر أنه غير مُحاسب طغى وتجبر وأفسد في الأرض، فهذا هو المسلك الطبيعي من البشري الممتلك للقوة ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الشورى, ٢٧]، فهو أخبر بهم وأبصر، لذلك لا يبسط لهم الرزق!

لهذا انتقد المنهج الفردية في تسيير الأمور، لأنها مودية إلى الفساد والطغيان: ﴿... قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة غافر, ٢٩]

وعلى الرغم من تنوع أسباب الفساد إلا أن النتيجة والصورة واحدة، وهي أن الشيء يصيبه الخلل، فلا يؤدي دوره ووظيفته كما ينبغي، بل ربما يؤديها بطريقة معاكسة!

وضرب الله عزوجل لنا المثل على الأمة المفسدة ببني إسرائيل، وحذرنا من أن نصير مثلهم، فهم أمة دخلها الفساد والخلل وداخلها، فاختلط بها فلا يكاد ينفك عنها أو تنفك عنه، حتى أن نفسية أفرادها أصبحت مختلفة عن نفسية باقي الأمم، وذلك لما حاق بهم بسبب أفعالهم، فهم ينقضون العهد والميثاق ويغدرون، ويسعون في الأرض فسادا، ويسعون لإيقاد نار الحروب، وبسبب نفسيتهم المريضة أصابهم الجبن بسبب أعمالهم، فأصبحوا يبررون لأنفسهم أفعالهم التي يفعلونها بالناس، ويرون أفعالهم على أنها عقاب للناس على إساءتهم لهم! كأنهم يد الله على خلقه! ولم لا، أليسوا شعب الله المختار؟!

والفساد بلاء مستطير يصيب المجتمعات قبل الأفراد، لذلك سعى القرآن إلى اجتثاث جذوره، وإلا فإنه سينبت مرة أخرى ويتشعب وينتشر .. ويُهلك!

والفساد بجميع أشكاله وألوانه أمر مستنكر ومرفوض من الإنسان، ينفر منه ويحاول الابتعاد عنه، إلا أن المعضلة الكبرى تكمن في تدافع الفساد والمنفعة! فقد يكون في الأمر منفعة للإنسان، وينجم عنها مفسدة لغيره –أو حتى له–، وهنا يكمن السؤال: هل يجلب المنفعة أم يدرأ المفسدة؟ يرفض المنهج بشكل عام المنفعة التي تجلب فسادا، لذلك قال الفقهاء أن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع! فغالبا ما تكون المنفعة خاصة أو محدودة أما المفسدة فهي عامة! لذلك فالمفسدة مرفوضة كبيرة كانت أو صغيرة، لأنها ستعم وتكبر.

يضاف إلى ذلك خفاء المفسدة عن كثير من البشر وذلك لتأخر ظهورها، فلا يظهر لهم الارتباط والعلاقة بين الفعل ونتيجيته، لذلك فهم يأتون العمل ولا يرون فيه فسادا، بل يرون فيه إصلاحا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾ [سورة البقرة ,١١-١٢]، وقد لا يرونه فسادا وإنما يرونه خطأ بسيطا صغيرا، ولكنه في نهاية المطاف مؤد إلى الفساد.

ونلاحظ أن المنهج لا يعتبرا الكفر فسادا، فالكفر اعتقاد[143] والفساد عمل، والإيمان يؤثر في الإنسان حتما، سواء في تعاملاته مع إخوانه أو مع البيئة، وهذا يعني أن الإنسان الكافر سيفسد لا محالة، فإذا لم يفعله عمدا عالما بإفساده، اقترفه وهو يظن أن لا حرج أو أنه يُصلح! فإذا كان كمّ هذا الإفساد قليلا فإن المجتمع يتحمله ويسير به ولا ينزل به الهلاك أو العذاب!

ولهذا كله نجد في الكتاب آيات كُثُر في ذم الفساد والتحذير منه، وفي الحث على النهي عنه، فنجد ذما لفساد النشطين الذين يشيعونه في البلاد والعباد: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٠٥]، فنلاحظ أن الحديث هنا عن سعيه في الأرض ليفسد فيها، بخلاف من يكتفي بالإفساد في مكانه ولا يتحرك له: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [سورة الشعراء, ١٨٣]

وحث على النهي عن الفساد، لأن تضافر القوى مطلوب لاستئصال هذا الفساد: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة هود, ١١٦]

كما بيّن أن الفلاح في الدار الآخرة هو لمن لا يفسد في الأرض ولا يتكبر فيها: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة القصص, ٨٣]

[143] استعمال كلمة "عقيدة" استعمال غير صحيح، والأدق استعمال "إيمان أو ملة"، ولكن السياق لا يسمح هنا أن نقول: الكفر إيمان!

ونهى صراحة عن الإفساد في الأرض في أكثر من آية، فقال على لسان النبي شعيب: ﴿... وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨٥﴾ [سورة الأعراف, ٨٥]

وأعجب من المنتسبين للمنهج الذين يقرأون هذه الآية ثم لا يجدون حرجا في إلقاء المخلفات في مياه الأنهار! ولا يتحرجون من تلويث السماء بالغازات السامة، ولا يتحرجون من القضاء على التوازن البيئي طالما في الأمر نفعهم![144]

ويصل الأمر إلى درجة وضع عقوبة قاسية للمفسدين في الأرض، فنجد أن القتل تبعا للكتاب لا يكون إلا لمن قتل نفسا أو أفسد في الأرض، فهذا يستحق عقوبة قد تصل إلى القتل أو تقل عن ذلك تبعا لحجم إفساده: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣﴾ [سورة المائدة, ٣٣]

والعقوبة الشديدة المذكورة في الآية مناسبة لإفساد هؤلاء، فهم يفسدون ماديا ومعنويا، فيفسدون بمحاربة الله ورسوله وصد الناس عن الدين، ويفسدون ماديا في الأرض، لذلك استحقوا تغليظ العقاب!

ويختلف المنهج عن غيره في أنه كثيرا ما قالها ونبّه عليها، أن الفساد المعنوي هو مثل أو أكثر ضررا من الفساد المادي، وأنه جعل له عقوبة، بخلاف كثير من المناهج الأخرى التي تجعل الفساد المعنوي يندرج تحت حرية الرأي! وتختلف عقوبة الإفساد المعنوي عن المادي أنها لا تنزل بأفراد، وإنما تنزل بأمم وجماعات، كما أن الذي ينزل العقاب بهم هو الله تعالى وليس أفراد من البشر، وإن كان البشر أنفسهم هم من سببوا

[144] إني لأتحرج أن ألقي ورقة أو أياً من مخلفاتي الشخصية الصغيرة على الأرض، حتى لا أخالف هذا النهي. وأتساءل: أليس المذكور في الآية نهيا يأثم الإنسان بمخالفته؟ أم أن الحرام هو ما جاء في كتب الفقه فقط؟! النهي صريح في الآية، والمخالفة تستوجب الإثم، ويزداد الإثم بقدر الفساد، ومن يتحرج من الكذب ولا يجد في إفساد الأرض حرجا هو حتما إنسان مختل!

هذا العذاب بأعمالهم وإفسادهم: ﴿... فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾ [سورة الأنعام ,٦]، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٣﴾ [سورة يونس ,١٣]

وكما أعلنها حربا شعواء على الفساد وذمّه، دعا إلى الإصلاح في آيات كثيرة، كمحور مُكمّل في الحرب على الفساد الواقع، لكي يُتدارك ما أفسده الآخرون. وبهذه الآيات وغيرها من أخواتها يحمل المتبع همّ الإصلاح[145] معلنا الحرب على الفساد، تابعا أسياده من الأنبياء، كما قال سيدنا هود: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [سورة هود ,٨٨]

وتبعا لحجم الفساد وقدره يكون الجهد في استئصاله، واستئصال الفساد أمر هين، ولكن يكمن العسر في المنتفعين بالفساد والناشرين له، فمن هؤلاء توجد المقاومة الشرسة والتشويش على دعوة الإصلاح، والتي قد تصل إلى رمي الرسل والأنبياء ودعاة الإصلاح بالفساد! وقديما قالها الطاغية فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝٢٦﴾ [سورة غافر ,٢٦]، فلأن قوم فرعون كانوا مستخفّين مطيعين لهم أطلق دعواه فيهم ووجدت لها أذنا!

ولا عجب أن يدعي بعض المفسدين أن المصلحين أرباب فساد، لأن عملية الإصلاح هي عملية نقل وتغيير لحال المجتمع من حال إلى حال أرقى وأكمل، وعملية الانتقال

[145] الإصلاح المذكور في القرآن والمنسوب إلى البشر هو إصلاح ما أفسده الإنسان، أو إصلاح أواصر العلاقات البشرية الاجتماعية، أو إصلاح العمل، ولا يُراد منه بحال إصلاح الأرض أو الخلق، لأنه مخلوق على هيئة الصلاح ابتداءا: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ... ۝٥٦﴾ [سورة الأعراف ,٥٦]، وليس للإنسان دور فيه!

هذه لا بد أن تُصحب بتغيير لبنية المجتمع ولأسسه التي يقوم عليها، فتحدث عملية خلخلة طبقية وتوزيع جديد للأدوار، وتغيير للأعراف وللقيم السائدة وللعادات والتقاليد.

وعلى هذا الوتر يضرب أرباب الفساد، فهم يحاولون إيهام العامة أن الدعاة يفسدون في الأرض، لأنهم يحاولون هدم صرح حضارتهم وقِيمهم الصالحة القويمة–كما نسمع في أيامنا هذه من الأبواق الغربية!–، لذا فعلى المجتمع التصدي لهذه الدعوات الهدّامة من أجل المحافظة على الاستقرار القائم –كما نسمع من أبواق السلطة!–، وبهذا يصبح الداعي إلى الإصلاح عنصر فساد، لأنه يعمل على زعزعة الاستقرار، وإشاعة جو من الفوضى في المجتمع الهانئ السعيد!

ولا تظهر هذه الدعاوي ولا تعم إلا إذا كان القوم جماعة من المستغفلين المستخفّين الذين لا يفكرون ولا يعملون –كما هو حال عامة الشعوب المستغفلة بمنظومة الوهم العظمى!– والمصلح يدخل المعركة متوكلا على الله، فيتشاور مع إخوانه ويتسلح بالمنهج في معركته، فلا ينفرد برأيه مثل المفسدين، وهو يعلم أن المفسدين لا يلتزمون بأي قواعد للنزال، فقد يصل الأمر بهم إلى القتل –حفاظا على الاستقرار–: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة آل عمران, ٢١]

ولكن هذه هي رسالة المصلح، الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى ولو قضى فى سبيل ذلك، فالأهم كشف سوءة الفساد، والإصلاح الدائم والمستمر حتى قيام الساعة، لذلك قال الرسول الأعظم: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها؛ فليغرسها!"

وتميز المتبع للمنهج في معركته للإصلاح أنه واثق من تحقق العدل والنصرة، فإن لم ير هذا في الدنيا فسيكون في الآخرة، فالعدل متحقق ولن يُفلت المفسد بفساده، ولن يضيع أجر الذي أحسن عملا.

الغد أولاً!

من أبرز أوجه الاختلاف بين المنهج السماوي وغيره من المناهج الأرضية، الاختلاف في مسألة النظر إلى حياة الإنسان، فكل المناهج تكاد تجمع على أن تقول للإنسان "عش يومك" وما بعد ذلك فعشه لاحقا! وهناك مناهج تطرفت فألغت اليوم من أجل الغد! أما منهج القرآن فيقوم على تقديم الغد على اليوم، لا على إلغاء اليوم، فيتصرف الإنسان في يومه بما فيه خيره في يومه وغده، لأنه يعلم أن حياته كلها متوقفة على اليوم، فإذا هو عاش اليوم أو لم ينظر الغد فسيفقد اليوم والغد.

وعلى الرغم من أن البشر قاطبة يرون صلاح تأصيل منهجنا، إلا أنهم كلهم يتصرفون على خلاف هذا المنهج. فكل بشري يعرف أن عمره كله –والذي أكثره غد!– متوقف على القليل الأول، فالطالب الذي يلهو في صغره ولا يستذكر بجد، قد لا يكمل تعليمه ومن ثم يعمل عملا يحتقره هو طيلة عمره، أو يحتقره المجتمع! وإذا أكمل فيلتحق بما لا يريد من الكليات في دراسته الجامعية، ويتواصل الإهمال لالتحاقه بما لا يحب، ويتخرج بلا علم ولا عمل، ويشعر أنه أضاع عمره في تعليم لا فائدة منه، ويتجه إلى أي مجال، من أجل أن يستمر في الحياة –المادية–! والرياضي الذي ينشغل بالمعجبين والمعجبات يضيع مستقبله كله، ويفقد أسباب الإعجاب، ومدمن التدخين والخمور وما شابه من عشاق اليوم، فهو يراه وينسى غده، على الرغم من مشاهدته لعاقبة من سبقه!

أما ذلك الناظر للغد، طالبا كان أو عاملا أو رياضيا، فهو ذلك الإنسان الذي يضحك أخيرا .. وكثيرا، لأنه استخدم يومه من أجل غده، فلم يخسر يومه وفاز في غده الطويل. وليس من العجيب أن الإنسان، عندما يبلغ من العمر أرذله ويتفكر في حياته وماضيه، يضحك من نفسه ويسخر منها، بل قد يبكي بدموع الدم على تصرفاته، ويعجب كيف فعل هذا وكيف ترك ذاك، على الرغم من نفعه أو ضره الواضح؟ وكيف أضاع حياته كلها من أجل متعة (منفعة) عابرة!

وهذا دليل على أن أحلام وتحركات المنشغل باليوم دون الغد لا محالة هي تافهة الهدف والغاية، ومؤدية إلى انفعالات وتصرفات لا مبرر لها، وأكبر دليل على هذا أن البشري لا يزال ذلك الطفل الذي يريد كل شيء بسرعة، حتى ولو كان فيه ضرره، فإن لم يحصل عليه بكى!

ولا يظنن القارئ أن هناك بعض المناهج تدعو الإنسان إلى التفكر في الغد أو إلى التخطيط من أجل المستقبل، فما من منهج يدعو إلى هذا الغد بالنظرة الشمولية، فإذا حدث وكان من دعاوى أي منهج أن يتفكر الإنسان في المستقبل، فهو يدعو فقط إلى التفكر والتخطيط لمستقبل البشري في هذه النقطة عيناً لا غيرها، وما عدا ذلك فلا شأن له بها.

فهناك من يدعو الإنسان إلى تأمين مستقبله التجاري أو الاقتصادي، ومنه ما يدعوه إلى التفكر في المستقبل الرياضي أو أي مستقبل ينشغل به الإنسان، ولكن أين هو ذلك المنهج الذي يدعو الإنسان إلى التفكر في مستقبله كله من كل الزوايا؟ منهجنا هو المنهج الوحيد، الذي عالج كل الزوايا واهتم بالغد كله بجميع أنواعه، فاهتم بالغد القريب والغد البعيد، كما اهتم بذلك الغد الذي لا غد بعده؛ فعلّم المتبع أنه لا بد أن يكون في تطور دائم في كل جوانبه الحياتية، لأن هذه هي سنة الحياة، وإن لم يتطور ويتقدم فسيدوسه الآخرون.

وعلى الرغم من أن اليوم الآخر (الغد الأخير) له خطير الدور في إصلاح حال البشر، إلا أنا لا نزال نجد الكثيرين –من المنشغلين بيومهم!– يسخرون ممن يذكرون الغد الأخير، لأنه ليس كلاما علميا، ولست أدري ألم ير هؤلاء كل الأدلة عليه!

والمنهج يقر أن العجلة هي من طباع الإنسان، وأن الإنسان يقدم الحاضر على الغد الغائب، حتى أنه يقول: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾ [سورة الأنبياء, ٣٧]، فالإنسان يقنع بما يراه تأثرا بالجزء الحيواني الأرضي، فيستعجل الشر كما يستعجل الخير! ولكن المنهج يعلم الإنسان أن العجلة لا خير

فيها، فكل شيء بأجل، فإذا استُجمعت عناصره وقع لا محاله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [سورة النمل, ٤٦]

حتى أنه عندما أتى الدين استعجله الإنسان وأحب أن يأتي مرة واحدة، واستثقله البشري فأراد أن يراه مرة واحدة ليحكم عليه، فقال الله تعالى لهم: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾ [سورة النحل, ١]

ويربي المنهج الإنسان على التأني والصبر والنظرة المابعدية، حتى يُمكن من مقاومة الإغراء المعاصر، فيقول: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ[146] وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ [سورة الإسراء, ١٨-١٩]

فهذه الآيات تعلم الإنسان أن الرضا بالعاجل ونسيان الآجل مهلكة لا محالة، وأن الصلاح والفوز هو حتما في التطلع إلى المستقبل والتخطيط للتقدم فيه، ولكن المشكلة هي مسألة الاستعجال عند البشري، فهو يعمل العمل ويريد أن يرى نتاجه سريعا، فإن تأخر الناتج ظن أن العمل غير مثمر، وهذا يمنعه من التفكير الجدي في الحياة، لأن أكثر الأعمال لا تؤتي ثمارها إلا بعد حين، وهذا هي سنة الله في الكون.

وقدم المنهج نماذج كثيرة للإنسان، لكي يقلل كثيرا من سيطرة المشاهَد عليه، فقدم له نماذج لأفراد ولجماعات، فأعلمه أن هلاك الفرد أو الجماعة يكون عندما يصل إلى مرحلة من الاغترار بالقوة وبما ملكت يداه، –سبقها حتما مرحلة من الانتفاع والتمتع إلى أن جاوز الأمر مداه– فيفسد في الأرض فيحق عليه العذاب، وقد يتأخر نزول هذا

[146] ليس المراد اليوم الآخر فقط، وإنما يمكن التوسع في المعنى ليدخل فيه كل ما تأخر، وبداهة فإن اليوم الآخر الجزء الأكبر منه.

العذاب ولكنه سينزل حتما، وكذلك التمكين وتحقيق الغاية لا بد أن يقابل بكثير من المصاعب، ولكن بعد الشدة يأتي الفرج.

ولأن متبع المنهج يعلم أن دوره مرحلي في الحياة، فلا بأس من تحقق مناه في آخر مسعاه أو حتى بعد مماته، لأن من سيأتي بعده سينتفع به، وفيه حتما نفع للآخر ولقد قيل للرسول الكريم: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝﴾ [سورة الزخرف ,٤١-٤٢]

فحتى إذا لم ينجح الإنسان في مسعاه، لا يقنط، لأنه تعلم أن هناك برنامج مقدر واقع لا محالة، فإذا لم يفلح هو فسيفلح غيره، وهكذا سيتحقق ما أراد في يوم من الأيام، حتى ولو لم يره، وبهذا تقر عينه! ومن أجل أن ينتصب الإنسان فكرا كما انتصب ظهرا، أتى كل الرسل وجاهدوا، ولكن عامة البشر رضوا وقنعوا بالانكباب الفكري والروحي، وبالنظر إلى ما تحت أقدامهم.

لن تموت .. بل ستعلم!

من أكبر الحقائق التي يواجهها الإنسان: الموت، فهو الحقيقة التي ما استطاع أحد أن ينكرها، وكل الناس يقرون بها ويخشونها ويكرهونها في عين الوقت، ويظلون طيلة حياتهم في خوف من هذه اللحظة. وهذا من الغرائز التي جُبل عليها البشر. ولكن يختلف منظور كل إنسان إلى الموت تبعا لنظرته إلى الحياة، فإذا كان البشري يرى أنه هو وجنسه وكونه وُجدوا صدفة، وأنهم مستمرون أبدا بلا غاية أو نهاية، فمن المنطقي أن لا تعني حياته له شيئا، وتعنى له كل شيء في عين الوقت! فلأنه كائن سينتهي بالموت لا محالة فعليه أن يستغل كل ثانية في حياته بجميع الأشكال الممكنة، وأن يحصل على أكبر قدر من المتع!

ولأنه سينتهي بالموت، ولن يكون هناك شيء بعده فلن يختلف الأمر قليلا أو كثيرا! فليعش كما يحلو له، وما هي إلا أيام أو سنون وتنتهي الحياة ويتحول إلى تراب! وعلى الرغم من أنه مقر بفنائه، إلا أنه يحاول أن يهرب منه وينساه بجميع الأشكال، لذا كان ولا يزال إكسير الحياة الحلم الذي يراود البشرية! فهي تحلم بالقضاء على الموت حتى لا تواجه هذه اللحظة الأليمة، ولكن لا مفر من الموت: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ... ۝٧٨﴾ [سورة النساء, ٧٨]!

وأنا أجزم أن الإنسان إذا حصل على الخلود فإنه سينتحر!

فليست دنيانا هذه التي يظل فيها بلا موت، فالموت على الرغم من شدته، إلا أنه يصبح بعد زمن مبتغى كثير من البشر، ومفر لهم من هذه الحياة الأليمة.

أما متبع البرنامج فهو يعلم أنه في رحلة إلى الله عزوجل، فما هذه الحياة إلا فرصة للعمل وللكدح، ولهذا خُلق، لذا فعليه أن يأتي بأفضل الأعمال لكي يتشرف بها عند لقاء الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦﴾ [سورة الانشقاق, ٦]، ومهما طالت هذه الحياة أو قصرت فسيرجع إلى الله عزوجل ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [سورة العلق, ٨]

وعلى الرغم من علمه أنه ميت لا محالة فهو يعلم أنه لن يموت! فهو يعلم أنه هذه الحياة جزء من التقدير الذي قضاه الله عزوجل، وهو أن يحيا الإنسان حياتين، حيث حياته الثانية مترتبة على الأولى، فإذا أحسن الصنع في الأولى لاقى الجزاء الحسن في الأخرى وبالعكس: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [سورة النجم, ٣٩-٤٢].

فما الموت إلا لحظة انتقالية للإنسان، لا تقدم أو تؤخر كثيرا بالنسبة له، فإذا كان من المفسدين فكل ما بعد ذلك فهو جحيم مقيم، وإن كان من المحسنين فهو في جنات

النعيم. فإذا علم الإنسان هذا، لم ينشغل كثيرا بالموت وإنما ينشغل بما بعده، فهناك سيُحاسب ويجازى.

والأكثر تشويقا من ذلك هو حسم الخلاف بين البشرية كلها، فكل فريق وجماعة ومذهب يدعي صحته وخطأ الآخرين، ويدلل كلٌ على موقفه بما يستطيع، وفي ذلك اليوم يُفصل بين كل البشر فصلا مطلقا من الله العليم، فيُعلم الصواب والضلال: ﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٦٤]، وثمت تشويق آخر لا يقل عن الأول وهو الكشف التاريخي للإنسان!

فلقد قرأنا كلنا عن الماضي وما حدث فيه، ولكن لم يره منا أحد، وهناك في الجنة تكون عند الإنسان الفرصة لمشاهدة الماضي، فيرى بعينه ما رواه له القرآن، ويرى هل صدقت كتب التاريخ في عرضها للأحداث أم أنها كانت كاذبة، ويرى إلى أي درجةٍ كانت الأحكام البشرية على عظماء التاريخ صادقة أو مغلوطة، ويرى كيف كان يعمل هؤلاء الرجال العظام ودوافعهم. بل إن الإنسان يستطيع أن يشاهد نفسه هو، فيرى نفسه وهو يقابل المواقف المختلفة وكيف تصرف فيها[147]، فيبتسم من نفسه! فيحمد الله تعالى على توفيقه وهدايته!

إذا فالمتبع للمنهج لا يأبه كثيرا لمسألة الموت هذه لعلمه أنها مرحلة انتقالية، وما بعدها فهي المرحلة الحاسمة، لذلك فهو يعيش حياته في حالة عمل دائم وإقبال على الحياة حتى يغيرها إلى الأفضل، حتى تحل اللحظة التي تنتهي فيها الرحلة وتبدأ الراحة.

وليس من العجيب أن يوجد بعض المنتسبين إلى المنهج –وراثة– والذين لا يزالون يخشون الموت، ولكن ليس خوفا من الموت نفسه، وإنما لعلمهم أن ما بعده صعب

[147] يتناول الإنسان في حياته أطنانا من الطعام والشراب ولا يحمد الله تعالى عليها، ولو دخل الإنسان الجنة وطلب إلى الله تعالى أن يريه ما أكل من الطعام والشراب مركوما، لرأى كميات هائلة استهلكها طيلة حياته لكي يبقى ذلك الجسد، فيحمد الله على رزقه!

مرير، لذلك فهم لا يريدون أن تحل مقدماته ويودون الهروب منه، ولكن ما من مفر ولا منجى!

فكر ولا تكفر!

ليس المنهج هو من يأمر الإنسان بعدم التفكير[148]، وإنما المناهج الأخرى هي التي تدعو لذلك قولا وفعلا، فمنها من يأمر الإنسان بعدم التفكير في أكبر مسألة حياتية وهي مسألة الدين، فيدّعون أن الدين ليس له علاقة بالعقل، وأن على الإنسان أن يأخذه كما هو بدون تفكر، فيقدِّمون الدين على شكل ألغاز وأحجية مستعصية الفهم على أكثر الأذهان عبقرية، ويزيدونه غموضا ببعض الأسرار التي لا تتوفر إلا لطبقة محدودة. وهناك من يدعو إلى حصر التفكر في المشاهَد المحسوس، أما الغائب فليس للمرء فيه حاجة أو ضرورة.

وهناك الكثير من التيارات تدعو إلى عدم التفكر، ولكنها لا تقوم بهذا قولا وإنما فعلا، فتجد كل توجه لها هو دعوة لإلغاء الفكر والتصرف هكذا بانفعالية وتبعا لرغبات الإنسان، فكل منتِج يود لو يلغي القدرة على التفكير عند المستهلك، وذلك عن طريق إطلاق سراح كلب الاستهلاك والتملك عند كل إنسان.

وليس الإنتاج المُلغي للعقل إنتاجا ماديا فقط، وإنما هناك إنتاج فكري فني ترفيهي يقوم على نفس المبدأ، ولو تفكر البشري قليلا لما وجد هذا المنتَج مكانا، ولكن مع إلغاء العقل يجد كل منتَج مكانا وفرصة للانتشار.

---

(148) *فكر* عكس *كفر*، فال *كفر* يدل على التغطية والستر، ونشأ هذا عن اجتماع الكاف والفاء المتبوعين بالراء الدالة على التكرار، فلما اجتمع ال كف مع الراء صار "كفر" وهي كف متكرر متصل وهو ما نعرفه نحن بالتغطية والستر! وعلى العكس من ذلك فإن ال *فكر* يدل على التفكيك والكشف، ونشأ هذا عن اجتماع الفاء والكاف المتبوعين بالراء الدالة على التكرار، فلما اجتمع ال *فك* مع الراء صار "فكر" وهي فك متكرر متصل وهو ما نعرفه نحن بتحليل الشيء إلى عناصره الأوَل.

أما المنهج فهو الداعي دوما إلى إعمال العقل وإلى التفكر وإلى النظر في الكون وفي الطبيعة، ولقد أطال المنهج النفس في مسألة تأصيل قواعد الفكر السليم عند المتلقي، فأعاد فيها ونوّع، لأن أساس بناء الإنسان القويم يبدأ من رأسه، وكما دعا المنهج فيما مضى إلى الشك والتحرر، فهو يدعو كذلك إلى التفكر، ونلاحظ أن أول ذكر للتفكر في القرآن جاء مقرونا بتحريم الخمر والميسر، والخمر أكبر ملغ للعقل في التاريخ، والميسر أكبر مثير للشحناء، والتي بها يُلغى العقل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [سورة البقرة, ٢١٩]

فإذا كان هناك أي سبب يؤدي إلى إلغاء العقل فهو حتما مرفوع، حتى يظل الفكر دوما موجودا. فعلى الإنسان أن يتفكر ليصل إلى الحقيقة وإلى الغاية: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الروم, ٨]

وليس على الإنسان أن يتفكر في مسائل معقدة أو ليس له بها عشق، وإنما عليه التفكر في أشد ما يتعلق به ويحتاجه، وهو نفسه! كيف هي؟ لا أن ينظر بتعجب شديد لكل ما يمر به، فإذا تفكر الإنسان في نفسه وربط ذلك بالكون فسيصل لا محالة إلى رب هذا الكون وخالقه، فما الإنسان إلا نموذج مصغر للكون!

فكل إنسان بدأ من خلية واحدة –نشأت من اجتماع زوجين– وانقسمت الخلية إلى أن صارت إنسانا، وكل إنسان يمر بنفس المراحل المختلفة: طفولة شباب كهولة، وقد ينتهي "يموت" فجأة بلا مقدمات! وحياته مبنية على التكرار، مثله مثل الكواكب والكون المحيط به، فالكواكب تدور في نفس المدارات، تُنهي دورة فتبدأ أخرى! وهكذا الإنسان يأكل كل يوم ويشرب وينام ويستيقظ! وهكذا إلى أن ينهي مرحلة في حياته، فيدخل في مرحلة أخرى فيغير الشكل الخارجي لدورته، ولكن يظل يدور في

نفس فلك احتياجاته، فيأكل ويشرب ويلبي نفس حاجيات جسده! ولا يسأل نفسه لماذا يدور كل هذه الدوائر! هو أو الكون؟!

وليس التفكر من الرفاهيات أو الحريات الشخصية! في المنهج، وإنما هي من سمات العابدين المرتبطة بالإيمان، فالله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [سورة آل عمران, ١٩١]

وما المنهج إلا دين، -والذي ارتبط عند عامة الناس بالآيات،[149] فيطلبون الآيات للإيمان به- وهو يرفض أن يكون الإيمان بواسطة الآيات، التي لا مبرر لها عقلا، ويدعو إلى الإيمان عن طريق التفكر في الرسالة ذاتها. ونبه الكتاب على ذلك كثيرا فقال آمرا الرسول وكل متبع: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ [سورة الأنعام, ٥٠] فلا يستوي بداهة من نظر وتفكر، فاقتنع واتبع، ومن أعرض وتكبر، وطلب الآيات كدليل على مسألة عقلية واضحة، فشتان ما بين الأعمى والبصير!

والمنهج إذ يحث الإنسان على التفكر، لا يكتفي بالدعوة إلى ذلك مرات عدة، أو إلى مجرد اللوم على ترك التفكر، وإنما يضرب للإنسان الأمثال ليعمل فكره وليعرف

[149] اشتهر استعمال كلمة "معجزة" عند المسلمين، كمقابل للاستعمال القرآني "آية"! وشتان ما بين الإثنين، فلم يأت أي رسول بمعجزة، فالله أكبر من أن يعجز الناس أو يتحداهم، وإنما كان يعطي الرسل آيات -أدلة أو علامات- على كونهم مرسلين من عنده. ونجد للأسف الشديد انتشارا للمقولة التي تقول أن الله تحدى كل قوم بما برعوا فيه! فلما برع المصريون في السحر أرسل لهم موسى بالعصا ولثعبان، ولما برع بنو إسرائيل في الطب أرسل لهم عيسى يبرأ الأكمه والأبرص ويحي الموتى، ولما برع العرب في البلاغة والفصاحة أرسل لهم الرسول بالقرآن! وأعجب ثم أعجب، فمتى برع المصريون في السحر، وهل هناك سحر -بمعنى تغيير طبائع الأشياء- أساسا؟ وهل ما جاء به موسى سحر وهل لم يرسل موسى إلا باليد والعصا؟! ولست أدري أين ومتى اشتهر اليهود أو بنو إسرائيل بالطب؟! ما كانت شهرتهم إلا في المال و...! ولست أدري هل أُرسل الرسول إلى العرب فقط؟! فإذا كانت "*معجزة*" القرآن بلاغته، فهذا يعني أنه غير معجز لغير العرب، وأنهم لا يأثمون بترك الإيمان به! أما نحن فنقول أن الله هو الذي كان يعطي الرسل الآيات بما يناسب دعوتهم، لا ما يختاره أقوامهم، أو يتحداهم به! ونطلب إلى القارئ مراجعة مقالنا: دور الآيات في طريق الرسالات، على موقعنا الشخصي على الشبكة المعلوماتية: www.amrallah.com

موقعه في الكون، فضرب الله عزوجل للإنسان مثلا للحياة الدنيا كلها، والتي يعيش الإنسان فترة قصيرة جدا فيها، ليعلم حقيقتها وكيف هي، فيكون تصرفه نابعا عن معرفة وتفكر، لا عن جهل واندفاع، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يونس, ٢٤]

والكون كله وأحداثه وآياته لا يجدي نفعا إلا مع أناس يتفكرون، فإذا لم يتفكروا فلن يجدي أي مَثَل أوأي آية، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الزمر, ٤٢]

فمن المشتهر القول أن النوم نموذج مصغر للموت والبعث، ولكن الكتاب إذ يعرض لهذه النقطة يتناولها من منظور أعمق وهو مسألة رحلة النفس في النوم! فالإنسان عند نومه تقبض منه نفسه[150] وتذهب إلى عالم غيبي، وفي هذا العالم ترى النفس الرؤى والأحلام! وعند الاستيقاظ ترد إليه نفسه مرة أخرى! وعلى الرغم من أن الإنسان يحلم منذ أن صار إنسانا، إلا أنه يتجاوز مسألة الأحلام والرؤى هذه ولا يتفكر فيها، ولا يعطيها حقها وقدرها كشاهد على وجود عوالم غيبية، ويُصر بعناد شديد على وجود المادي فقط، ولست أدري كيف يفسر الملاحدة الأحلام بالماديات؟!

[150] نفس الإنسان هي التي تؤخذ منه عند نومه أو موته، والفارق أنها تُرد– طالما ظل الإنسان حيا– عند الاستيقاظ، فإذا مات بقيت عند الله عزوجل، والنفس هي نتاج الروح، وبدون الروح لا يكون للإنسان نفس.

حكمة .. بالغة

من أكبر المعضلات التي تقابلها سوبرمانات الوهم مسألة الحكمة! فهم يعانون من نقص حاد فيها، فالسوبرمان الوهمي، وإن كانت توفرت لديه القوة الخارقة بطريقة من الطرق، سواء كانت صدفة أو هبة من مخلوقات عليا، إلا أنه لن يكتسب بداهة مع هذه القوة الخارقة مزيات عقلية، لذا كان على مخترعي هذه السوبرمانات أن يسدوا هذا النقص والخلل، فالقوة الخارقة بدون حكمة تتحول إلى قوة غاشمة تضر ولا تنفع.

لذا كان لا بد من وجود مصدر للحكمة في حياة السوبرمان، وغالبا ما يكون مصدر الحكمة هذ شيخا طاعن السن، ذا لحية بيضاء[151]، يلتجأ إليه السوبرمان فيستشيره حول أفضل السبل لتحقيق ما يريد، فيعطيه الشيخ الحكيم النصائح، التي تساعده في التغلب على الأعداء والصعاب، وكذلك يساعده الحكيم على تجاوز بعض المآزق النفسية التي قد يقع فيها السوبرمان .. الوهمي!

أما سوبرمان المنهج فلا يعاني من هذه المشكلة على الإطلاق، فليست قوته في بدنه بقدر ما هي في عقله، ولا يمكن أن يكون السوبرمان فاقدا للحكمة، فالحكمة من أهم الأهداف التي أُرسل المنهج ومبلغه من أجلها: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [سورة البقرة, ١٥١]

فإذا اتبع الإنسان المنهج، تحصل على الحكمة[152] ولو كان في سن صغيرة، فلا يحتاج إلى أن يكون شيخا: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا

[151] لا نريد الدخول في الجدل الفقهي العقيم حول اللحية، ولكنا نود التذكير بأن اللحية كانت وستظل دوما رمزا للمهابة والرجولة والنضج، لذلك نجد أن كثيرا من العلماء الطبيعيين والفنانين يطلقون لحاهم لأنهم يريدون إصباغ لمحة وقار واكتساب مهابة!

[152] قبل أن نخوض في الحديث عن الحكمة، نُعرف القارئ الكريم بها، فنقول: الحكمة كما جاء في لسان العرب: معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم. وفي تاج العروس: العلم بحقائق الأشياء والعمل بمقتضاها. والحكمة والإحكام من أصل واحد وهو بمعنى الدقة في وضع الشيء في موضعه، وبذلك يتناسب معه تمام التناسب!

كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٦٩﴾] سورة البقرة, ٢٦٩[ولنا أن نتوقف ونسأل: إن الحكمة ليست مجرد معلومات يختزنها الإنسان في فكره، فكيف يكتسبها الإنسان من خلال المنهج، هل يكفي مجرد قراءة الكتاب ليصير الإنسان حكيما؟

بداهة لا تكفي قراءة المنهج أو حتى وعيه[153] ليصير الإنسان حكيما، وإنما المطلوب من المتبع التدبر في المنهج وتأويله، فإذا تدبر الإنسان الكتاب ظهرت له حقائق الأشياء وعرف طرقها المثلى، ومن ثم تختلف نظرته للواقع، وعندما يقوم بتأويله "تطبيقه" على أرض الواقع، يكتسب أسلوباً فريداً في الممارسة العملية للأشياء في المجالات الخاصة والعامة، حيث تتفاعل بداخله المعطيات المأخوذة من الكتاب مع الواقع.

وكما قلنا سابقا فإن متبع المنهج صاحب رسالة غير منعزل على نفسه، يتحرك على أكثر من مستوى: مستوى تعاملاته الحياتية، ومستوى الرسالة التي يتحرك لنشر مبادئها، فيقوده هذا السعي إلى عرك الكثير والكثير من المواقف الاجتماعية الفكرية، وعليه التعامل فيها تبعا لتعاليم وأحكام الكتاب، فيكسبه التفاعلُ –مسترشدا بنور المنهج– الحكمة المطلوبة في سن باكرة. ولا يعني هذا أن المتبع لن يخطأ في إسقاط بعض الأحكام على أرض الواقع، هذا وارد، ولكن سيكون الزلل مسألة سوء تقدير أو إسقاط ليس أكثر، وبذلك لن يكون الزلل فادحا، ومن العسير أن يكرره مرة أخرى.

والعنصر الأكبر الذي يتم إبرازه عند الحديث عن الحكمة هو الأناة، فنُلفي الحكيم في الأفلام أو الروايات، هو ذلك الشيخ البطيء الحركة، غير المتسرع، الذي يقدر الأمور قدرها، ويتصرف تبعا لطبائع الكائنات!

وعلى الرغم من بدهية هذه الأمور الثلاثة، إلا أن أكثر البشر يتصرفون بخلافها، فنجد أكثر البشر متعجلين، يريدون أن ينجزوا أمورهم بأسرع ما يكون! وإذا لم تُقضى كما أرادوا، يحنقون وينفعلون ويفقدون القدرة على التدبير، أو يقنطون فيقلعون عن العمل!

---

[153] أي أن يصير صدر الإنسان بمثابة وعاء للقرآن، وهو ما تعارف عليه المسلمون ب "الحفظ"!

وهذا راجع لما فُطروا عليه، فالبشري متأثرا بالجزء الحيواني عجول، إلا أنه –تبعا للمنهج– ملزم بأن يتخلى عن هذا العجل، ويعلم أن ما لم ينجز اليوم ينجز في الغد، فلن ينتهي العالم بهذه العثرة، والعجب أن أكثر البشر يتصرفون كأن العالم سينتهي فعلا، إذا لم تُنجز أمورهم!

أمّا تقدير الأمور مقاديرها فنابع من الإيمان بالنسبية، ولقد حرص المنهج أيما حرص على التأكيد على أن الله تعالى هو المطلق، وأن ما عداه نسبي، يختلف تبعا للمُستقبِل أو المصدر أو الحالة، وعلى الإنسان ألا يجعل نفسه أو حالته هي المقياس الذي يقاس عليه، لذلك نجد أن المنهج لم يقم بتحديد مقادير معينة للمعاملات البشرية، لاختلافها من زمان إلى آخر وفي الزمان الواحد، فلا يمكن أن يُعرّف فعل محدد بأي تعريف، إلا بعد النظر لفاعله ومكان وزمان فعله، فلا يمكن تحديد الغنى بمقياس معين يصبح به الإنسان غنيا! وكذلك الإسراف والتبذير، فقد يصدر الإنفاق من شخص فيكون مقبولا، ومن آخر فيكون إسرافا ومن غيرهما فيكون سفها، وذلك لاختلاف مستوى المُكنة المالية لهم.

ولهذا وجدنا المنهج لا يحدد مقادير وإنما يربطها بحال المجتمع "بالمعروف"، لأنه لو حدد لثبّت قيما[154]، وهذا مناف للنسبية ولعجلة التقدم، ولذلك لم يحدد وأطلقها نسبية، فحقوق الزوجين بالمعروف، والوصية بالمعروف، والنفقة بالمعروف. ويحتاج الإيمان بالنسبية إلى طويل نظر في أحوال الناس والكون، حتى تترسخ هذه القناعة في النفس ومن ثم يتحرك تبعا لها، إلا أن قليل من يفعل!

وأما بخصوص معرفة طبائع الأشياء، فإننا نجد عامة البشر يعرفون طبائعها، إلا أنهم لا يؤمنون بذلك، وبالتالي لا يتصرفون تبعا لمعرفتهم، ويحتاج الأمر إلى فترة طويلة من

---

[154] هذا المأزق هو ما وقعت فيه البهائية في كتابها "الأقدس"! حيث حددت قيما معينة للتعاملات الإنسانية، فالمهر مثلا حدد ب 19 مثقال من الذهب لأهل المدن! وتحديد التعاملات يعني ثبات القيم الاقتصادية وهذا ما لا يكون!

النظر والتفكر حتى يدرك الواحد منهم بديهيات مثل: الماء يطفئ لأنه ماء والنار تحرق لأنها نار![155]

ويفترض في متبع المنهج أن تتوفر فيه هذه العناصر الثلاثة، لم؟

نُوكل القارئ الإجابة!

ومسألة اكتساب الحكمة ليست بالخيار لدى متبع المنهج وإنما هي مسألة إلزامية التحقيق، فلا بد من اكتساب الحكمة، حتى يستحق ويستطيع أن يصبح عنصرا فاعلا ناشرا للمنهج: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ... ١٢٥﴾ [سورة النحل, ١٢٥] فالعمل على نشر المنهج يستدعي وجود الحكمة، وهو أمر واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب! فعلى الإنسان أن يُريض نفسه على اكتساب الحكمة والاستفادة من الكبوات السابقة، كنقاط انطلاق جديدة!

والعنصر الفصل هو أن يتصرف الإنسان بحكمة في قضاياه الكبرى، والتي سيترتب عليها تحقيق الحكمة في المسائل الصغيرة والفرعية! وحتى إذا تهاون فيها فليس هناك كبير ضرر ولا عظيم خطر! والمبكي أن عامة البشر يتصرفون بحكمة في أمورهم الصغيرة الفرعية، وينسون الحكمة تماما في قضاياهم الكبرى، لذا يُذكّر المنهجُ المتبع برؤوس الحكمة، وعليه هو أن يكيف باقي أموره تبعاً لها: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢﴾ [سورة لقمان, ١٢] فرأس الحكمة أن تعرف المعطي الحقيقي الذي يستحق أن توجه بوصلة حياتك له، فتطيعه وتشكره، وبذلك تنفع نفسك، فإن لم تفعل فقد أضعتها كلية!

[155] على الرغم من وضوح قانون السببية وبدهيته، إلا أن عامة البشر لا تؤمن به على الرغم من معرفتها له! ولو آمنت به لما ظهر الإلحاد وانتشر، ولما انتشرت عادات خبيثة مثل التدخين وما شابه! فأصحاب هذه العادات لم يترسخ في نفوسهم بعد ارتباط المسبب بالسبب، ولا يزالون ذلك الإنسان البدائي الذي لا يزال أمامه الكثير والكثير حتى يتطور!

وذكر رؤوسا أخرى للحكمة في جملة النصائح والإرشادات الواردة في سورة الإسراء، فقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ... ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الإسراء, ١٨-٣٩] فذكر فيها جملة من الإرشادات، التي إن التزم بها الإنسان وتصرف تبعا لها في حياته ومعاملاته، اكسبته التوازن المطلوب في جميع جوانبه الاجتماعية والمادية والنفسية، وهذا التوازن خطوة رئيسة لتحقيق الحكمة، فما من إنسان متهور حكيم، وإنما تأتي الحكمة من التصرف بموازين دقيقة لا عوج فيها!

وختاما فالمنهج كله حكمة ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [سورة القمر ٥]، حكمة بالغة تزيد من حكمة الإنسان، ولكنها تحتاج إلى من يتدبرها بقلب سليم، متعال عن الأوهام وعن تكرار الأخطاء التي قام بها الأقدمون!

ولكن الإنسان هو الإنسان، لا يزال يثبت أنه غير حكيم على الإطلاق، فيكرر نفس أفعال السابقين ويطالب بعين ما طالبوا به، ظانا أنه أتى بالجديد! فيثبت بذلك أنه لا يزال ذلك الكائن الذي لا يزال يبحث عن "خارقة" تثيره ويعتمد عليها في إصدار الأحكام بدلا من أن يعمل عقله!

ومنبت الحكمة إعمال العقل في إصدار الأحكام، ولكن .. قليل من يُعمله!

رحالة ناظر!

قلنا أن المنهج يحث متبعه جليل الحث على التفكر الشامل في كل ما حوله، ولكن التفكر يحتاج إلى خطوة أولى موصلة إليه، وبدونها لن يتفكر الإنسان، وهذه الخطوة هي النظر! فلا بد أن يفتح الإنسان عينيه وينظر فيما حوله ليبصر ويتفكر! ولقد صال القرآن وجال من أجل أن ينظر الإنسان فيما حوله، فيحكم بنفسه على الأشياء،

ويحدد لنفسه بنفسه طريقا في الحياة، فلا يظل ذلك الأعمى الذي يسوقه بعض العميان الآخرين! والمنهج إذ يأمر متبعه بالنظر، فإنه يتخذ الكون كله ساحة ودعوة للنظر، سماءا وأرضا، نجوما وجبلا، شمسا وقمرا، وردا وشجرا، إبلا وبقرا!

والعجيب أن أكثر الناس ما عادوا ينظرون، فما عادوا يرون الجمال الحقيقي المنثور في الكون، فيمرون على الأشجار اليانعة والزهور المتفتحة فلا يرون فيها شيئا، يشاهدون السماء فلا يرون فيها جمالا وزينة، -إلا إذا كانوا عشاقا!- ما عادوا يرون الجمال إلا في المصطنع المحور المقلد لخلق الله، فينبهرون لصورة تقلد مشهد الغروب! ولكن من ينظر لمشهد الغروب نفسه فينبهر له وبه؟! ينبهرون لبستاني نسق أزهار وأشجار حديقة بشكل ما، ولا يرون الجمال الكائن في الغابات وفي المروج الممتدة! مجملا ما عاد الإنسان يرى إلا صنعة يديه! أما خلق الرحمن فغفل عنه![156]

ولأن صنعة الإنسان مزخرفة، غير قائمة على الحق،[157] دعى المنهج إلى النظر في صنعة الله تعالى وخلقه، فهو مخلوق بالحق موصل إليه، وهو محل عمل الإنسان واحتياجه.

والمنهج إذ يأمر المتبع بالنظر فإنه يهدف من هذا إلى بذر نواة العلماء في المجتمع! فالمفترض في المتبعين أن يطيعوا الأمر كلهم فينظرون في السماء والأرض وفيما حولهم، فيتأملون في جميل صنعة الله، وسيفرز هذا النظر حتما جماعة من الأفراد الذين سيجذبهم هذا الجمال والإتقان، ولن يكتفوا بمجرد النظر الخارجي، وإنما سيصبح هذا الكون هو مجال عملهم وحياتهم، فيبحثون في الأرض وفي النبات وفي الحيوان وفي الفلك، فينشأ جماعة من العلماء الطبيعين الذين يحتاجهم المجتمع لا محالة! ولأن الإنسان لن يجد في بيئته حتما كل النماذج الطبيعية أو التاريخية المطلوبة

---

(156) لهذا قلنا سابقا أن كثيرا من الناس أصبحوا يظنون! أن الطعام يأتي من السوبرماركت!

(157) نقصد بذلك أن صنعة شيء تافه قد تتكلف الكثير والكثير مما لا تستحق، من أجل التزيين وموارة ومدارة العيوب، وعرضه على أنه شيء نافع ضروري، أو من أجل زيادةٍ كمية لجزء في الشيء يرى الإنسان *بقصر نظره* الحسن في زيادته! أما الطبيعة المخلوقة فلا تأخذ أكثر مما تحتاج وتظهر نفسها بدون تلون!

من أجل إعطاء تصور علمي صحيح، لذلك يأمر المنهج بالسير في الأرض، ليشاهد الإنسان في أمكنة أخرى ما لم يره في قريته!

وأنا إذ أنظر! في المنهج أجده قد أمر بالنظر في كل صغيرة وكبيرة، مما يحتاجه الإنسان وأمر بالسير من أجل النظر، ولام المنهج على من سار فنظر ولم يبصر ومن ثم لم يتفكر: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [سورة الحج, ٤٦]، واعتبر هذا النظر حجة عليه، فما فائدة النظر بلا بصر؟!

ونجد ذلك الأمر في آيات عديدة، نبدأها بقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ [سورة العنكبوت, ١٩-٢٠]

ففي الآية الأولى إخبار عن رؤية الناس لعملية بدء الخلق وتكرارها جزئيا وكليا أمام أعينهم يوميا، ولكنهم على الرغم من ذلك لا يتفكرون فيها، ثم يأمر الله تعالى في الآية الثانية بالسير في الأرض ليرى الإنسان بعينه كيف بدأ الخلق،[158] وكيف أن في طريقة بدء الخلق دليل على الخالق وعلى البعث، فذرات الكون كلها محكومة بالدور والزوال، فلا بد أن يأتي اليوم الذي تزول فيه، ثم ينشأ الله النشأة الآخرة، فمن لم يكفه ما يرى فليسر في الأرض وينظر بنفسه إلى الآثار الباقية الدالة على الخلق، ليعرف صدق كلمة الله!

ولم يكتف المنهج بالأمر بالسير من أجل النظر في بدء الخلق، وإنما أمر بالسير لاكتشاف سنة الله مع خلقه كذلك، فينُظر في أحوال الأمم الماضية، كيف كانت ولم

[158] أعجب كثيرا ممن يدعون أن القرآن من عند محمد، وأتساءل: لو كان من عند محمد حقا، فما الدافع الذي يجعله يأمر مجموعة من البدو بالبحث العلمي والتفكر في الخلق؟! *فهذه الآية آية* على أن الكتاب من عند الله!

بادت على الرغم من قوتها وتمكنها: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٣٧]، فالسنن كائنة واقعة فاتعظوا منها! فليست القوة هي الواقي من الهلاك، وإنما اتباع منهج الله هو العاصم، فإذا أعرض الإنسان مهما كان قوته فسيهلك لا محالة، ولقد رأى الناس ذلك ويرون ولكنهم لا يتفكرون.

كما أمر المنهج بالنظر في أصل الإنسان: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [سورة الطارق, ٥]، ليتفكر كيف خُلق من ماء مهين ثم صار إنسانا مكينا، ومن أعد له هذا ونظمه؟! وأمر بالنظر إلى فعل الله والتفكر فيه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة الروم, ٥٠] فعلى الإنسان أن ينظر إلى حال الأرض كيف تتقلب وتتغير بعد نزول الماء عليها فتحيى بعد أن كانت مواتا!

وحث المنهج على النظر في السماء وما تحتويه ليرى الإتقان ويعرف السُنة التي تسير عليها، ولام من أعرض عن النظر فيها وفي آياتها: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٣٢-٣٣] فكل الكون ذو سنن في سيره، وعلى الإنسان اكتشافها، ليسخرها له.

وكذلك حث المنهج على النظر إلى الإبل[159] وإلى السماء وإلى الجبال وإلى الأرض، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى

[159] لن نقول هنا أن الإبل تُعد من المخلوقات العجيبة! والتي تميزت بكثير من الخصائص التي تفوقت بها على كثير من الدواب، وإنما سندعو القارئ الكريم إلى قراءة كتاب: آذان الأنعام، للأخ السوداني العزيز الدكتور عماد محمد بابكر حسن، والذي يناقش فيه مسألة الخلق تبعا لنظرية دارون –والتي لا نتفق معه فيها– ولكنه يركز في الكتاب بشكل خاص على مسألة خلق الأنعام! ويعرض الرباط المتين بين الإنسان والأنعام، والعجب الموجود في الأنعام الأربعة "الإبل والبقر والضأن والمعز"، ثم يسقط بعضا من أعمال الجيل الأول للإنسان على الحج، مظهرا الرمزية الموجودة في كل أركان الحج!

ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠﴾] سورة الغاشيـة ,١٧-٢٠]

ففي كل هذه المخلوقات آيات بينات، والإنسان مأمور بالنظر إليها، أمرا لا يأثم فقط بتركه، وإنما يتخلف هو وأمته إلى مؤخرة ركب الأمم، حيث يعُمّهم الجهل والخرافة، فإذا نظر فسيرى في فعل الله فيها عجبا! ينفعه ويبهره ويقوده إلى الأمام .. وإلى الإيمان، المبني على العلم والنظر وليس على التقليد والخبر!

فقدان الخسارة!

يتعرض كل إنسان في حياته إلى مصائب وابتلاءات، وتختلف وتتعدد أشكالها وأنواعها، فهناك كوارث تحيق بالأمم، وهناك مصائب فردية مثل فقدان الحبيب أو الصديق، وهناك أمراض يتعرض لها الإنسان، تتراوح بين الأمراض البسيطة التي تنتهي بعد أيام قلائل بآلام لا تذكر، وبين الأمراض المزمنة، التي تلازم الإنسان طيلة حياته، وبين الأمراض التي تؤدي به إلى التضحية بأجزاء من جسده! وهناك خسارة مادية لكل أو بعض ما يمتلكه الإنسان، وهناك خسارة لمنصب ومكانة بين الناس، ... إلخ الأشكال المختلفة من الخسران الذي يمكن أن ينزل بالإنسان.

وتختلف ردود أفعال البشر تجاه هذه المصائب والكوارث، ولكن الغالب أن عامة البشر، عندما تنزل بهم المصائب أو الكوارث، يبدأون في التصرف بلا عقلانية، فيبدأ الصراخ والعويل والهيستيريا، ويفقد الإنسان القدرة على التفكير وأحيانا على التحكم في أعضائه، ويتصرف برد فعل انفعالي حيواني تماما!

وبعد أن تذهب روعة الصدمة، يزول معها معظم الأعراض المذكورة، ولكن يبقى في الغالب عرض واحد ملازم وهو الحزن! فنجد أن الإنسان يحزن حزنا شديدا، يتراوح في درجته ومقداره تبعا لنوع الخسارة وحجمها وتبعا للإنسان نفسه، فهناك من تصبح الدنيا في عينه سواد لا فائدة منه ولا نفع يرتجى، لمجرد مرض بسيط يلم به، أو

لإخفاق يقابله في عمله، فتلازم المرارة حلقه ويشعر أن هذه الدنيا جحيم لا يطاق، وهناك من يحزن حزنا شديدا ولكنه يستمر في حياته، وهناك من يصاحب حزنه قلق، من أن تنزل به المصيبة أو البلوة مرة أخرى.

وتبعا لرؤية الإنسان للحياة ولموقعه فيها ولغايته منها يكون فرحه وحزنه وقلقه وهمه وغمه، فالإنسان الذي يتكل على نفسه ويراها فقط هي عونه ومطيته في الوصول إلى غايته، والإنسان الذي يرى حياته تبدأ بمولده وتنتهي بموته ولا شيء بعد ذلك، والإنسان الذي يرى أن هناك إرادة واحدة في الكون هي إرادة الإنسان، لا بد أن يحزن ويغتم على ما يفوته من الفرص وما ينزل به من المصائب، فأيام عمره محدودة، فإن لم ينتفع بها فاتته إمكانية تحقيق ذاته، وليست هناك –من وجهة نظره– أي فرصة أخرى للتعويض! وإذ لم تسر خططه كما يريد فلا بد من الحنق الشديد، لأنه يرى أنه يرسم طريقه بنفسه، وها هو الطريق قد انقطع!

أما المتبع للمنهج بحق فيختلف موقفه من المصائب اختلافا جذريا، فليس لدى المتبع ما يخسره، وإنما كل حياته فوز وفلاح! ولا يعني هذا أن المتبع لا يحزن أو يقلق أو يهتم أو يغتم، فهذه الأعراض ملازمة للإنسان لا محالة، ولكن الأمر الفصل هو مقدار هذا الحزن أو الهم، وفي كيفية التعامل معه، فالمتبع مأمور بألا يترك نفسه عرضة للأحزان تسيطر عليه، حتى تصل به إلى درجة الأسى! أي أنه عليه أن يتحكم في مشاعره فيلغي السلبي منها ويترك النافع!

وهذا الإلغاء للمشاعر السلبية هو التصرف المنطقي العقلي السليم، الذي يجب على المتبع أن يقوم به تبعا لنظرته إلى دوره في الحياة، فمن كانت هكذا نظرته يجب أن يكون هكذا فعله! وحتى لا يظل القارئ في عماء مما نعني، نوضح له نظرة المتبع إلى الحياة الإنسانية ودوره فيها:

ينظر متبع المنهج إلى الحياة على أنها دار ابتلاء وامتحان، يترتب عليها مكاسب عظمى، لا تُقارن بحال بما يكتسبه الإنسان فيها أو يفقده، لذلك فمن المنطقي أن لا

يفرح الإنسان إلا بما يزيد من ربحه في الدار الآخرة، وأن يحزن على ما يؤدي إلى خسارته فيها، أما كل أصناف الخسارة الدنيوية فلا أسى عليها، فهي قابلة للتعويض! فالمكسب والخسارة ابتلاء! والمتبع للمنهج يتحرك لتحقيق هدفه، وحتى إذا أخفق في الوصول إلى غايته طيلة عمره، فيكفيه السعي والنية الحسنة وسيُجازى عليها الجزاء الحسن.

ويؤمن المتبع أن المصائب واقعة لا محالة فلا مفر منها، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾[160] [سورة العنكبوت ,٢]، ولكنه ينظر إليها باعتبارها فرصة للترقي في الدنيا، والفالح من يتجاوزها. فإذا نزلت به فصبر عليها ولم يجزع، استطاع تجاوز الأزمة، وزادته صلابة وقوة، تؤهله لتحمل أمثالها إذا قابلها فيما بعد، وتؤهله لأن يكون له الاستعداد لتحمل ما يزيد عنها، وتكسبه شعورا بالقوة والانتصار على الذات والغير، ينشأ عنها إقبال على الدنيا. أما إذا جزع، اكتسب شعور الخضوع والهوان والضعف، وأصبح كسيرا نفسيا، مهيئا لهزائم وانكسارات قادمة!

وهي كذلك فرصة للترقي في الآخرة لأن الله يثيبه على صبره وتحمله،والذي استفاد منه في الدنيا، في الآخرة، بأن يحط عنه من ذنوبه، كما قال النبي: "مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ" –رواه البخاري–

فالأزمة وإن كانت خسارة بشكل أو آخر، يترتب عليها حزن فطري لفقدان المُشاهَد الملموس الحاضر، إلا أن النظر إليها من هذا المنظور يقلل كثيرا من الحزن، بل قد يؤدي بالإنسان إلى الفرح، –بعد فترة الحزن القصيرة–، لأنه ينظر إلى المغانم التي سيجنيها فيما بعد.

[160] الفتنة هي ابتلاء موجه من أجل فرز الجيد من الرديء، وهي كما ورد في لسان العرب: جِماعُ معنى الفِتْنة الابتلاء والامْتِحانُ والاختبار، وأَصلها مأْخوذ من قولك فتَنْتُ الفضة والذهب إِذا أَذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيِّدِ، وفي الصحاح: إِذا أَدخلته النار لتنظر ما جَوْدَتُه." اهـ فما المصائب والخسارات إلا عملية فرز للبشر!

ولا يعني هذا أنه ينظر إلى المصائب من هذه الزاوية فقط، وإنما هناك منظور آخر يجعله يتقبلها، وهو أنه يؤمن أن فعل الله كله فيه خير، فحتما ولزاما وجود خير فيما ينزل به، فيبحث عن هذا الخير وعن الجانب الإيجابي ويستغله أمثل استغلال، وبذلك يكون قد استفاد من النازلة التي حلت به، فمن الممكن النظر إلى المرض أنه فرصة للاسترخاء وللتفكر وللقراءة وللتقرب من الله تعالى، وفرصة جيدة لرؤية الأقارب والأصدقاء الذين لم يشاهدهم منذ زمن بعيد، وهكذا دوما في كل نازلة ومصيبة جانب من الخير والمفلح من يستخرجه.

ولأن المنهج فطري وسطي لم يدع أبدا إلى إلغاء الفرح أو الحزن، فليس هذا ممكنا أو مطلوبا، وإلا تحول الإنسان إلى جلف! والسوبرمان إنسان رقيق المشاعر! وإنما دعى إلى التحكم في هذه المشاعر، والانفعال فيها تبعا للعقل وللموقف، حتى لا تقوده تلك المشاعر إلى الانكفاء على ذاته وإلى الضعف!

وقام المنهج بترسيخ هذه النظرة عند المتبع في كثير من الآيات، فقدّم له الحياة كما يحياها عامة الناس، حياة ذات مستوى بدائي لا يرقى عن حياة الحيوان كثيرا، وما الاختلاف إلا في أدوات تحصيل هذه الحياة، فقال له: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [سورة الحديد, ٢٠]

فالناس يقضون معظم حياتهم في اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر، وقليل من يرقى عن هذه المرتبة، على الرغم من أنها كلها مرحلة مؤقتة ممهدة للآخرة، ولكن المغترين ينخدعون بها! فلم الحزن على قليل ضائع وقد ضيع الإنسان معظمها وما بعدها، فمن تذكر أنه ضيع الأعم ولم يستغله في ترقية نفسه، فلم الحزن على بعض الفتات الدنيوي؟ وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي

كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ۝٢٣﴾ [سورة الحـديد, ٢٢-٢٣]

فالمتبع ينظر إلى المصائب التي تنزل في الأرض أو في الإنسان نفسه على أنها من قدر الله، وهو واقع لا محالة، فلم الأسى؟ فليحزن الإنسان ولكن ليكن في حدوده، كما قال النبي الأعظم بعد وفاة ابنه الصغير: "إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون"

والآية لا تعني أن الفرح شعور غير مرغوب فيه أو أن الحزن مرفوض، وإنما المرفوض أنه يفرح فرحا يؤدي إلى الغرور والكبر وينسى الله عزوجل فهذا هو المرفوض، يؤيد هذا قوله: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ۝١٨﴾ [سورة لقمان, ١٨]، ونلاحظ أن الآية لم تنه عن الفرح أو الأسى وإنما قالت "جُعل ذلك لكيلا"، فإذا نحن أسينا فذلك لقلة عقلنا فالمفترض أن نحزن فقط!

فلا حرج على الإنسان أن يفرح في مواطن الفرح: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ [سورة يونس, ٥٨] فالعبرة أن يكون الفرح بالحق، أما إن كان بغير الحق فهو مذموم: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ۝٧٥﴾ [سورة غافر, ٧٥] وقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ۝٣٦ أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣٧﴾ [سورة الروم, ٣٦-٣٧]

فالفطري في الإنسان أن يفرح بالسعة ويحزن للخسارة، ولكن الله تعالى يعلمنا أن الفوت والعطية ابتلاء!، فليس العطاء دليل صواب مسلك الإنسان، وليست الخسارة دليل خطأ وضلال، وإنما كلاهما ابتلاء! بل إن العطاء نفسه قد يكون عنصر ابتلاء أكثر من المنع والخسارة، وقد يهلك به أمم كاملة وليس مجرد أفراد، وذلك كما قال

الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الأنعام , ٤٤]

فها هي النعمة تصبح مصدر هلاك، لذا فإن الإنسان المتبع للمنهج يقيس الأمور بنصابها الحقيقي، فيعلم أن الفوز والخسران وجهان لعملة واحدة، وأن على الإنسان أن يتصرف فيهما تبعا لما أمر الله عزوجل، حتى يكون الإثنان وسيلة لترقيه في الدنيا وللفوز العظيم في الآخرة.

تفاوت حتمي

اختلفت التصورات المطروحة على الساحة البشرية لتصور المجتمع الإنساني الأمثل، فرأينا جمهورية أفلاطون، والمدينة الفاضلة للفارابي، ويوتوبيا توماس مور، وغيرها كثير من التصورات، التي نتفق معها في بعض ما تقدمه. وليس غرضنا من هذه المقدمة القصيرة الحديث عن التصور النموذجي للمجتمع، وإنما نهدف إلى تسليط الضوء على خطأ عظيم وقع فيه تصور حديث، ظهر في زماننا هذا وعايناه بأنفسنا، وهو الشيوعية.

هذا الخطأ الذي وقعت فيه الشيوعية هو إلغاء التفاوت بين الأفراد، والعمل على مساواة أفراد الشعب بعضهم ببعض! ظانة بذلك أن إلغاء هذا التفاوت وتوفير المطعم والمشرب والمسكن للناس سيؤدي إلى عموم العدل وتحقيق السعادة!

وهذا وهم وقعت فيه الشيوعية، فمن قال إن إلغاء التفاوت بين البشر وحدوث المساواة سينشأ مجتمعا سليما صحيحا قويا؟! فالمجتمعات البشرية قائمة على التدافع، ولولاه لأصبح المجتمع نفسه مترهلا، فالانفراد مفسدة وكذلك المساواة

مفسدة: ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٥١]

ولقد اندفع منظرو الشيوعية في مسلكهم هذا متأثرين بتصور الجنة في الأديان السماوية، على الرغم من موقفهم الرافض للدين لاحتوائه على الخرافة والوهم، ففي الجنة سيعيش الجميع في هناء لأنه سيتوفر لهم الطعام والشراب والمسكن الحسن بالتساوي بين الجميع، حيث يأخذ كلٌ ما يحتاج بدون غل أو تنافس! ونسوا وتناسوا أن هذا سيكون في عالم آخر، ذي طبيعة أخرى وذي غايات حياتية أخرى، يُسبق بعملية تغيير لطبيعة الإنسان، مترتب على ترقية الإنسان لنفسه في مرحلة الاختبار الأولى، وأنه لو لم يُرّق الإنسان نفسه فلا يستحق أن يصل إلى هذه المرتبة. نسوا وتناسوا هذا كله وأخذوا صورة الجنة،[161] وحاولوا أن يسقطوها على أرض الواقع، من خلال إنشاء المجتمع الشيوعي، والقائم على السيطرة على المجتمع ومقدّراته لصالح أفراد المجتمع بالتساوي، فلا يمتاز فرد عن آخر –وفشلت الشيوعية في تطبيق هذا العنصر وخاصة مع فئة معينة، كان حتما عليهم أن يميزوها وإلا سينهار تصورهم تماما، وسنتعرض لهذه الفئة عند حديثنا عن الأفيون!– وبذلك يكونون قد وصلوا إلى نهاية التطور البشري[162]، كما أن الجنة هي الطور الأخير للبشر، والذي يحقق السعادة والعدالة للبشرية كلها!

[161] ينظر عامة المسلمين إلى المتاع في الجنة على أنه متاع حسي بالدرجة الأولى! ونحن وإن كنا لا ننكر المتاع الحسي في الجنة، ولكنا نرى أن الصورة العامة لدى المسلمين عن الجنة ينقصها الكثير من الجوانب المطروحة في القرآن، ولمزيد من الإيضاح حول هذه النقطة يرجى مراجعة مقال: هل متاع الجنة حسي فقط؟ على موقعنا الخاص: www.amrallah.com

[162] يرى المناهضون للشيوعية أن التطور التاريخي يقود إلى مرحلة *العولمة*، ويرى فوكوياما أن العولمة هي نهاية التاريخ، وفي هذا النظام العالمي الذي تنبأ به فوكوياما سيكون حوالي 80% من البشر خارج سوق العمل، ويعيشون على الفتات.

أما نحن فنجزم أن نهاية التاريخ ستكون بسببنا، فدورة التاريخ تجزم بأننا من سنتولى ريادة وقيادة العالم، وفي تلك المرحلة الإسلامية سيكون هناك استخراج لثروات الأرض وردها على أصحابها، وليس نهبا لها كما يفعل الغرب وتُكدس لفئة قليلة من البشر! ويتقدم العالم كله ويتطور إلى أن يصل إلى مرحلة عظمى من التقدم العلمي، يكاد يسيطر به على الطبيعة وهنا يُسدل الستار!

ولأن هذا المنظور لا يتفق مع الطبيعة البشرية بحال، فُرض بالحديد والنار وقُتل الملايين من البشر من أجل تحقيق الجنة للباقين! والتي لا تزيد عن فتات مادي، لا يؤثر كثيرا نوعه أو كمه، فالهدف الرئيس منه أنه "وقود" للإنسان، لا أنه غاية لذاته، فليس الإنسان ذلك الكائن الذي يحيا ليأكل ويشرب ويتمتع، إن هذه من ضروريات الحياة، والتي تساعده ليصل إلى ما يصبو إليه، فقلبت الشيوعية –وحاليا الرأسمالية– هذا المنظور، وجعلت هذا الفتات والحطام غاية لنفسه، حتى لو أضعنا من أجله الإنسان وأحلامه وطموحاته!

أما المتبع للمنهج فيؤمن أن التفاوت ضرورة حتمية في المجتمعات البشرية، يفرضها التفاوت الخلقي والنفسي لدى البشر، فهناك قوي وضعيف وذكي وبليد ونشيط ومسكين، وهناك البيئات التي ينشأ فيها كل إنسان والتربية التي يتلقاها، والعلم الذي يحصل عليه ... إلخ الاختلافات. ويؤمن أن التميز هو من أهم محركات الإنسان، فإذا قُضي عليه خمل الإنسان، فإذا علم البشري أنه سواء اجتهد أو لم يجتهد فسيحصل على نفس القدر، فلم الاجتهاد؟

وقد يجتهد بعض البشر على الرغم من ذلك، لعلو نفوسهم، ولكن إذا فوجئ بأن غير المجتهد يصل إلى ما يصل إليه، فهذا سيكون أكبر مطعن له! ويوقعه في أزمة إحباط كبرى، فمن المعلوم أن تمييز المجتهد يحثه على مزيد اجتهاد، ويشجع المتكاسل على الفعل، أما إذا لم يجد المرء مقابلا وتمييزا ولو معنويا لفعله فسيحبط حتما.

ولقد أبرز المنهج ذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الزخرف, ٣٢] فالمجتمع قائم على الاختلاف في المعايش وفي المقدرات، وعلى الرغم من ذلك فالكل مسخر، فأنا أخدم غيري وغيري يخدمني وهكذا! وبداهة سيختلف نتاج فعل

بعضنا عن الآخر، ولكن في النهاية رحمت الله خير، ففي هذا حث على عدم الجشع وعلى التراحم بين الناس وانتظار الأجر الرئيس عند الله عزوجل!

والحاث الرئيس للبشر هو الامتلاك! فالطفل منذ صغره مجبول على التملك، فالناس بطبيعتهم يحبون التملك .. بزيادة عما يحتاجون، لذلك قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [سورة التكاثر, ١]، فهذا التكاثر نعيم، ولا حرج فيه ولكن الإنسان سيُسأل عنه، لذلك يجتهد في أن يكون من مصدر طيب!

ويؤمن المتبع كذلك أن التفاوت في المنازل والرزق والهبات الإلهية هو من ضمن الابتلاء الإلهي، فإذا طغى الإنسان مستغلا نعم الله عليه فسريعا ما سينزل به العقاب، ولو أحسن ورضى فستعمه رحمة الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝١٦٥﴾ [سورة الأنعام, ١٦٥]

ولم يذكر المنهج فقط حتمية التفاوت ليرضى الناس به، وإنما أعلمهم الطريقة التي يصلون بها إلى أعلى الدرجات، وهي العلم والإيمان: ﴿... يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١﴾ [سورة المجادلة, ١١]

فكلما ازداد الإنسان علماً وإيمانا ارتفع منزلة في الدنيا وعند الله، وتقدم في المنازل الدنيوية، وازداد بذلك حرية، فالإنسان مخير بقدر ما يعلم، مسير بقدر ما يجهل! فإذا آمن وعلم صار أكثر الناس حرية!

وفي النهاية يوجه المنهج المتبع إلى ضرورة إتقان العمل، حتى يتقدم الإنسان ويجازيه الله عزوجل عليه، ويتحقق ذلك عن طريق وجود الرقابة الذاتية لدى الإنسان، فإذا حققها أتقن عمله، وتقدم في الدنيا وبزّ غيره: ﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ... ۝١٠﴾ [سورة فاطر, ١٠]

تشريف بالجهد!

من أهم المبادئ التي حرص المنهج على ترسيخها عند المتبع، مبدأ "التشريف مقابل التكليف والنفع"، فالإنسان لا يستحق التشريف لمجرد كونه إنسان، وإنما عليه أن يبذل من الجهد الكثير حتى يستحق هذا التشريف. فما استحق البشر التكريم ابتداءا إلا لحملهم الأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ... ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الأحزاب, ٧٢]، ولولاها لما استحق البشر أي تمييز أو تكريم. ولا يستحق أي إنسان التشريف إلا بعد تقديم ثمنه مقدما، فالجهد ونفع الغير هو المعيار الذي ينبغي أن يقاس بهما درجة التشريف التي يستحقها الإنسان. فبهذا نرسخ مبدأ العدالة بين البشر ويحدث التفاوت بينهم على أساس سليم، يحث الإنسان على العمل والجد حتى يُشرف!

وظهر هذا الأمر جلياً في القرآن، فلكي تتمتع لا بد أن تدفع الثمن مقدما، أما عند الغير، والذين لا يهتمون لهدم الإنسان فلا مانع من التشريف بدون تكليف أو جهد، فلا بأس بأن يُشرف الإنسان لتوافه الأمور –والتي هي ضرورية من أجل الأفيون–، ولا بأس من أن يفوز الإنسان صدفة هكذا! وينتقل من حال إلى حال بدون أي جد أو تعب! وإنما عليه فقط أن يشترك في مسابقة ما، فيفوز بالألوف المؤلفة!

وكان لزاما أن تختلف النظرتان إلى مسألة التشريف والفوز، فتبعا للمنهج فإن الإنسان صاحب رسالة لا بد أن يتحرك لها ويُقوّم على أساس اجتهاده فيها: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحُجُرات, ١٣]، حيث مقياس المقارنة: أنا أنفع إذا فأنا أفضل!

أما عند الآخرين فالإنسان كائن بالصدفة، هو وعالمه، فلم الاجتهاد والنصب، طالما أن كل شيء يمكن أن يتحقق بالصدفة، وخاصة إذا كان الإنسان حُراً، فليتمتع بحياته المختلة، والتي قد يصبح فيها بشكل أو بآخر من الشرفاء!

ولم تقتصر فوضى ترسيخ ثقافة الفوز والتشريف بدون تعب وجهد على جوانب فرعية في الحياة –مثل المسابقات التافهة–، وإنما امتدت إلى جوانب أصيلة في حياة الإنسان الغربي، وبدأت تزحف على إنسان الشرق. ونأخذ الزواج من زوايا عدة كمثال على هذه المسألة:

ينظر الإنسان الغربي إلى الزواج على أنه تقييد للحرية، وعلى أنه بعض المراسم والهيئات الاجتماعية، التي لا ضرورة حتمية لها في هذا الزمان، فلم يتزوج؟ فإذا حدث وأحب امرأة فليتعاشرا كما يحلو لهما، وإذا حدث وأنجبا أطفالا فسيربونهما سويا! وإذا حدث وأبغضها أو حدثت بعض المشاكل فلينفصلا وليبحث عن أخرى!

والمشكلة في هذا المنظور أنه ألغى الحساسية تجاه مسألة البغاء! فإذا مورس الجنس خارج إطار الزواج فلا مبرر منطقي لاحتقار البغاء أو النظر إليه أو إلى من يعمل فيه نظرة دونية!

ونعود إلى هذا التصور الغربي للزواج، حيث يبدو فيه جليا آثار التنصل من المسؤولية، حيث يتيح هذا التصور التعرف على ومعاشرة العديد من النساء[163]، بدون تكلف مسؤولية ما، كل ما هنالك أن يقال: أني أحبك! وبعض هدايا ثم المعاشرة. –هذا إذا غضضنا الطرف عن العلاقات المدفوعة الثمن والحفلات الترفيهية!– ونحن لا نقصد بهذا أن الإنسان الغربي لا يحب وهو كاذب فيما يقول، ولكن هذه العلاقات كلها ينقصها عنصر الإلزام والتوطيد، فقد أكون محبا لامرأة ما، ثم نتشاجر مشاجرة كبيرة، فأنهي العلاقة وأبحث عن امرأة جديدة وهكذا! وخاصة إذا لم يكن هناك أولاد!

وحتى مع وجود الأولاد لا نجد أن هذا يمنع الغربي من أن يترك المرأة هي والأولاد، هذا إذا كان قد اعترف بهم، فقد يعاشرها ثم تحمل ويهجرها في فترة الحمل، لأنه لا يريد أطفالا يتحمل مسؤوليتهم، فهو يريد أن يحيى لنفسه! –وأعجب من هذا الإنسان،

[163] مما أعجب له أن الغرب ينتقد على الإسلام أنه أباح الزواج بأكثر من امرأة! ويصورون المسلمين كأناس شهوانيين، جل تفكيرهم في النساء! لأن الزواج بأكثر من امرأة مباح، فقط مباح! وأعجب وأتساءل: من الإنسان الشهواني، ذلك الذي لم ير غير زوجته أم ذلك الذي عاشر العشرات فعلا في حياته؟!

الذي لو فكر والده هذا التفكير لما جاء إلى الحياة– ويولد الطفل ولا يعرف أباه، وكل هذا لأن ثقافة التمتع بلا تكليف هي المسيطرة على المجتمع!

أما إذا كانت ثقافة التشريف مقابل التكليف هي السائدة فسيختلف الوضع كثيرا، فسأعرف أن عقد الزواج هذا هو انتفاع مقابل مسؤولية، فليس الزواج عقد لممارسة الجنس، –حتى لا يتنطع بعض المعارضين ويقولون: الجنس عملية حيوية، لا فارق بين ممارستها في إطار الزواج أو خارجه–، وإنما هو عقد لتأسيس أسرة وتحمل مسؤوليتها. والزواج علاقة متداخلة بين طرفين، يفترض فيها وجود نقاط اشتراك بين الطرفين، من حب ومودة وألفة .. وهدف مشترك!

وهذا الهدف المشترك الأسمى هو الأطفال، فالزواج هو أفضل مؤسسة لإنجاب وتربية أطفال في بيئة سليمة مناسبة، يقوم فيها كلا الطرفين بدوره في تنمية وتهيئة هذا الفرد الجديد المشارك في المجتمع، والذي أنجباه هما وعليهما تحمل مسؤوليته، والذي يكمل دورة البقاء والنماء في المجتمع كله! ويحقق لهما الحلم الأبدي بالخلود، والمنفعة اللحظية في وجود من تحب ويحبك! وهذا الطفل يمثل رباطا صعب الفصم بين الوالدين، فلقد أنتج حبهما هذه الثمرة التي عليهما أن يسقياها بما تحتاج!

ولا يعني هذا أن ينحصر الزواج في إنجاب الأطفال فقط، ولكنا نقصد أن الأطفال هي أكبر ثمرة للزواج، والتي تؤدي إلى التغاضي عن كثير من التجاوزات التي قد يصدرها طرف في حق آخر، فعلى الوالدين التضحية حتى يخرجا طفلا هو أفضل حالا منهما. وهذه النقطة الأخيرة تحديدا هي مما ترسخ في أذهان المسلمين والعرب تحديدا، وهي التضحية من أجل النشأ، فلا بد أن يكون أفضل منهما، فهكذا دورة الحياة وهكذا هو دور الإنسان فيها، أن يقدم للمجتمع نشأ أفضل مما مضى! وليتهم تحركوا لها كما ينبغي!

إذا فشتان بين من يريد أن يتمتع ولا يتحمل المسؤولية، –ولو كان يرى أنه لا يتهرب منها، فلم لا يلزم نفسه بها بعنصر أوثق وهو الزواج؟!–، وبين من يرى أن هذه المتعة

–المعاشرة– أبيحت له مقابل تحمل مسؤولية حب المرأة ومودتها والإنفاق عليها ومقابل إنجاب أطفال وتربيتهم، ومن أجل تواصل الأجيال!

وإذا أخذنا الزواج من زاوية أخرى وهي زاوية القوامة، والتي قال الله فيها: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ... ٣٤﴾ [سورة النساء ,٣٤] فقوامة الرجل على المرأة ليست قوامة جنس، أي أن جنس الرجال لا بد أن يتسلط على النساء، وإنما هي مقصودة بأن الرجل مكلف بأن ينفق على المرأة ويرعاها هي والأولاد، فإذا حدث وشاركت المرأة في الإنفاق فهو تفضل منها. إذا فالآية تقول في الواقع أن الرجل خادم للمرأة وللأولاد، فهو يتحرك من أجل راحتهم وهناءتهم. وبطبيعة الحال هناك اختلاف في طبيعة الرجل والمرأة، –كما بينا من خلال المدلول اللساني ل: رجل ول: مرو!– وهذا الاختلاف أدى إلى تولي الرجل قيادة الأسرة في جل الأسر في العالم، وهذا ما عبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿... وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨﴾ [سورة البقرة ,٢٢٨]

فعلى الرغم من أن الآية تقول أن الرجل يعلو المرأة بدرجة –نابعة من الاختلافات الطبيعية– إلا أن الآية تسبق ذلك بالقول أن للنساء من الحقوق مثل التي عليهن، فحقوق المرأة على الرجل مثل حقوق الرجل عليها، إلا أنه للرجل عليها درجة! فإذا حدث وتولت المرأة الانفاق على البيت لوفرة مال، وكان لها أمر تسيير البيت لرجحان عقلها على عقل رجلها، ففي هذه الحالة تنال هي هذا التشريف –القوامة–، وذلك لضلوعها بما يستدعيه وهو القيام بشؤون الأسرة!

وكما رأينا فشتان البون بين المنظورين، منظور الفوضى والصدفة في التشريف ومنظور التشريف المشروط بالجهد، وقياس مقداره بالعمل والنفع!

ورسخ المنهج هذا المنظور بآيات كثيرة، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحديد, ١٠] فهؤلاء أعظم ممن أنفقوا بعد، لأن هؤلاء تحملوا مسؤولية الرسالة إبان فترة الضعف وتكالب الأعداء، فلا يستوون مع من أنفق في مرحلة الغلبة! وقال: ﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الزمر, ٩] فعلوك على غير العالم جاء بجهدك في اكتساب العلم وليس صدفة! وقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة النحل, ٧٦]

فشتان ما بين الأخرق أو المصدق غير العامل وبين من يعمل ويطبق وطريقه في الحياة جلي صراح!: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ... ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة المائدة, ١٠٠]

فالمتبع يعلم أن النافع نافع وعليه الحركة له، حتى ولو كان الضار هو العام، فليست العبرة بالكثرة وإنما بالطيب والنفع! والنبي الأعظم يرسخ هذا المبدأ فيقول: "خير الناس أنفعهم للناس"، فالخيرية بالنفع، وكلما زاد النفع وعمَّ زادت الخيرية. ويقول كذلك: "الخلق عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله!" فلكي تكون خيّرا لا بد أن تنفع، فهذا مقياس خيريتك وتشريفك!

مجاهدة النفس

تعتبر "مجاهدة النفس" رأس الخطوات المحورية للوصول إلى المرتبة الإنسانية ثم الترقي إلى السوبرمانية، وبدونها لن تتحقق خطوة واحدة، فليس الوصول إلى تلك

المرتبة مما ينجزه الإنسان وهو يشاهد التلفاز! وإنما عليه أن يعلم أن التشريف لا يكون إلا بعد جهد وتكليف! والوصول إلى هذه المرتبة هو أعلى تشريف يتحصل عليه الإنسان، لذا فعلى الإنسان أن يتوقع أن يواجه الكثير من المصاعب ومن المشاق في هذا الطريق وفي هذه الرحلة، فإذا استسلم لها فسيظل كما وسينحدر لا محالاة، وإذا جابهها فسيصل إلى مبتغاه. ولله در المتنبي حين لخص المسألة كلها في بيت شعر واحد فقال:

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والإقدام قتال!

وأول ما على الإنسان أن يجابهه ويجاهده هو نفسه التي بين جنبيه، فنفسه كما تحتوي الخير تحتوي الشر: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [سورة الشمس, ٧-٨] ، فعليه أن يرقيها لا أن يتركها تنحدر إلى التراب: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [سورة الشمس, ٩-١٠]، فالاختبار البشري كله قائم على تزكية النفس –الترقية بالمصطلح المعاصر–، فمن ينجح في ذلك يفلح في الدنيا قبل الآخرة، ويخيب من يرديها إلى التراب فيدسيها! ولو اتبع الإنسان نفسه لضل وهلك، فالنفس كثيرا ما تأمر بالسوء: ﴿... إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾ [سورة يوسف, ٥٣] فنفس الإنسان تعرض له الأمور على غير حقيقتها، تبعا لما يريد أن يراها عليه، لذا عليه أن يقيس الأمور بمقياس العقل ولا يتبع هواه، وبذلك يصل إلى الحق وإلى الغاية: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [سورة النازعات, ٤٠-٤١]

إذا فأول خطوة هي التصرف تبعا للعقل بتزكية النفس والابتعاد عن الأهواء والأحكام المسبقة! وهذه الخطوة جد عسيرة، ولكي يصل الإنسان إلى إتيانها، فعليه أن يعمل على كسر أكبر معاكسين للعقل، وهما الشهوات والإنفعالات، وبذلك يستطيع أن يصدر أحكاما صحيحة، ويتبع الحق، حتى ولو كان عليه! وليس المقصود بالشهوات

شهوتي البطن والفرج فقط، وإنما هناك شهوات أخرى مثل التملك والعلو والتفلت، ويجب أن يعمل على تهذيبها جميعا.

وتبدأ عملية كسره لشهواته بإيمانه أن هذه العملية هي الخطوة الأولى على الدرب، وبدونها لن يصل، فلا يكفي مجرد العلم، بل لزاما وجود التحكم في النفس، وإلا سيصير مثل العوام ولا فارق سوى أنه مثقف! فيعد نفسه للتغيير، ويبدأ بمخالفة ما اعتاده من باطل الأعمال والأقوال، وتقديم بديل له، ولو لم يقدم لنفسه بديلا، لعاد إليه من تلقاء نفسه، لألفته لا لاشتهائه، ثم يترك الشهوة تدريجيا أو مرة واحدة، حسب تمكنها من نفسه وحسب مقدرته هو. ويبعد نفسه قدر الاستطاعة عن المواطن أو الأفراد أو الأسباب التي تهيئ له الفرصة لإتيان الشهوة، ويعمل على إشغال نفسه بشيء طيب، فالنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

ولن تخضع شهوته بسهولة، بل ستراوده عن نفسه! وستدعوه إلى العودة إلى الأيام الخوالي. فإذا زلّ وعاد، وغالبا ما سيزل، فعليه ألا ييأس أو يقنط، وإنما يعاود المحاولة مرة أخرى، لكي يتجنب نقاط الضعف، التي سببت سيطرة شهوته عليه، وهكذا كلما عادت عاد. وحتى إذا لم يستطع الإقلاع كليا عن بعض الشهوات، من الصغائر لا من الكبائر، -بعد نجاحه في الإقلاع عن كثير غيرها- فلا إشكال في الإقلاع الجزئي عنها، وكفى بالمرء فخرا أن تعد معايبه. فيمنع نفسه بأي وسيلة كانت، من يمين أو إلزام بدني أو مادي، حتى لا يعود إلى اقتراف هذه الشهوة إلا بعد فترة، تكون قد اشتدت عليه ويصعب عليه مقاومتها، أو أنه يأتيها من باب تجديد الهمة لمواصلة السير، فلربما يداخل الإنسانَ العجبُ أو الكسل، إذا دأب على الالتزام، أما مع معصية صغيرة كل حين، -لن يجد فيها عظيم لذة، لتأنيب الضمير عند ارتكابها- فسيشعر المتبع أنه لا يزال ذلك الذي يحتاج إلى مزيد ترقية، ذلك الذي فرّط وضيع، فيتجدد نشاطه وسعيه، ويبعد أن يداخله أي عجب بنفسه، قد يجعل قدمه تزل بعد ثبوتها!

وما قيل في كسر الشهوة يقال في كسر الانفعالات، فعلى المتبع أن يبسط سلطانه على انفعالاته السلبية بل والإيجابية، فتصدر عنه وقتما يشاء كيفما يشاء. فلا يطير فرحا لجائزة ينالها، ولا يموت حسرة لبلية تنزل به، ولا يتجمد خوفا وفزعا عند سماع صوت، وإنما يصدر منه الانفعال الطبيعي تبعا للموقف، فيتحكم فيه فلا يجاوز مداه، بل وليقدر على منع الانفعال نفسه من الظهور، ويحتفظ بثبات وجهه. إلا أن على المتبع أن يعي جيدا، أنه لن يصل إلى هذا التحكم بين ليلة وضحاها، أو حتى في شهر أو فصل، وإنما سيستغرق الأمر عديدا من الشهور أو السنين، يوطِّن الإنسان فيها نفسه، على الاستجابة العقلية، لا الانفعالية، للأمور. غير أنه لن يدخل في عزلة أو ما شابه،[164] وإنما عليه أولا أن يُعلي نفسه عن الذاتية، ويُعلمها أنها تُعد لحمل مسؤولية وأمانة آخرين، فعليها أن لا تنشغل أكثر من اللازم بنفسها، وإلا فلن يجد الجهد أو الوقت ليقدم للآخرين.

فيبدأ بالنظر إلى الجانب الإيجابي في أي أمر، وحتما هناك الكثير منه، وعليه أن يُظهره في المسألة، ثم يدخل في حوارات طويلة مع نفسه، حتى يثنيها عن ما شبّت عليه، فيقنعها أن الغضب الشديد أو الحزن لا يقدم وإنما يؤخر، وأن الإنسان لا يستطيع به تعويض ما فاته، بل قد يفوته أكثر منه بسبب انفعاله، وأنه عليه أن يرضى بقضاء الله، فلقد بذل الجهد المطلوب، ولكن لم يحالفه التوفيق، وإذا قصّر فيلوم نفسه على التقصير، ولكن لا يقتلها لوما، لأنه لا إمكانية للتغيير، ثم يدرك موطن تقصيره فيتجنبه في المرات التالية، كما يقنعها أنه قد يكون في هذا الفوت خير، لا يعلم من أين يأتي، ثم إن العالم لن ينهار، ولن يموت هو، لفوات هذه الفرصة، فهناك فرص أُخرى، يستطيع التعويض بها! كما ينظر إلى أحوال الناس حوله، فهناك دوما من هو أشد ابتلاءا منه، ويكيف نفسه على وضعه الجديد.

---

[164] ينظر عامة البشر بانبهار إلى الرهبان الأسيويين، وذلك لنجاحهم في التحكم في أنفسهم تحكما كبيرا، (وعملت منظومة الوهم على تعظيم هذه القدرة!) إلا أن المسلك الذي يسلكونه، فاقد للاتزان، وهم إذ يأتونه، فإنهم يكسرون القوة بداخلهم، ويبقى الضعف والاستكانة. ونحن إذ نتحدث عن كسر الانفعال، فإنما نعني بذلك كسر الانفعال، مع الاحتفاظ بجذوة القوة داخل الإنسان، نتحدث عن كسر انفعالات لأناس يتعاملون مع بشر غيرهم، لا أولئك المنعزلين المستغرقين في التأمل، والذين يعيشون في عوالم افتراضية، الذين لا يحملون هموما اقتصادية أو اجتماعية، ولا نفع لهم في المجتمع!

وهكذا يوجد لنفسه أسباب ومبررات يسكن بها انفعالاته، فلا تزيد حتى تغطي العقل، فيُقنع نفسه في حالة الخوف الشديد أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه مأجور في جميع الأحوال، لذا فلا مبرر للخوف،[165] ويتذكر في حالة المغنم أنه سيكون ابتلاءا، عليه التعامل معه كما ينبغي حتى لا يكون سبب خسران!

ولن تستجيب نفسه لحواراته، وسيستمر الانفعال كما كان أو قريبا منه، ولكن مع مرور الوقت، وكثرة الإقناع والتكرار ستخضع النفس وتسلم، فتقل تدريجيا ردة الفعل للأمور التي يمر بها الإنسان.

وليس الأمر مقتصرا على كسر الطاغي، وإنما يتعداه كذلك إلى القضاء على المتواري، فقد يكون الإنسان كسولا أو خجولا[166]، فيسعى بجميع السبل للقضاء على السلبيات، وإلا فكيف ننتظر نهضة من بشري لا يستطيع أن ينهض من السرير، وكيف ننتظر منه أن يتبعه البشر، وهو لا يستطيع أن يواجههم؟

وكل إنسان على نفسه بصيرة، ويعلم مداخلها جيدا، ويعرف من أين يستطيع أن يأتيها، فيجبرها على ما تكره، ليلغي نقاط الضعف والسلبية هذه قدر المستطاع. وبمسير دراسة المنهج بالتوازي مع عملية تهذيب الإنفعالات وكسرها، يتحصل لدى الإنسان منظور عقلي متسع، يساعد في تخفيف حدة الأنا عنده، والتي لها الدور الأكبر في تزكية انفعالات الإنسان، كما يعمل على تهدئة المشاعر، لحصول إحاطة جزئية بالأمور، كما ينشأ لديه طلاقة في الحديث، وهو عنصر جد هام لتحصيل الأتباع وللإقناع. فإذا اجتمعت الدراسة مع التهذيب، سهلت العملية على الإنسان، وهان عليه التحكم فيها.

---

[165] قد يستطيع الإنسان عقلا أن يتحكم في الغضب أو الحزن أو السرور، إلا أنه لا يستطيع هذا مع الخوف. إلا أن الخوف لا يكون إلا عن ضعف أو جهل بقدرة الطرف الآخر، والدارس للمنهج يكتسب قوة نفسية "إيمان" عظيمة، ومعرفة بطبائع الأشياء فيقدرها قدرها، وبهذا يُلغى الخوف من تلقاء نفسه، إلى أن يكاد يُمحى!

[166] الحياء هو أول درجات الخجل، وهو حسن مقبول، لتوافقه مع النفس التي لا تشعر بالكمال وتعرف منزلتها، أما المتكبر فليس بحيي. فإذا زاد تحول إلى خجل، يعوق عن التفاعل، وهو مذموم.

ولا يعني هذا أنه لن تصدر عن الإنسان ثورات غضب أو انكسارات أسى، أو طغيان فرح، إلا أن هذه الأحوال ستكون فلتات، وسرعان ما سيعود إلى حالة نفسه الهادئة المتوازنة مرة أخرى، التي تحزن بقدر وتفرح بقدر، وتغضب بقدر، .. والتي لا تخاف أبدا!

ولا بد من الاستمرار في عملية كسر الانفعال طيلة الحياة، فلو أهمل الإنسان نفسه، ستعود الانفعالات إلى السيطرة عليه مرة أخرى، ويعود إلى ما كان عليه من انفعالات مشوهة لسلامة الفكر! ثم تكون الخطوة التالية، بعد بعد أن نجح في ترويض نفسه وكسرَ الشهوة والانفعال، هي التريض على الفعل، وكما كان عليه أن يصبر في الخطوة السابقة، فعليه أن يواصل الصبر في هذه المرحلة كذلك، لأنه ضروري حتى لا يتراجع الإنسان، لذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [سورة العصر, ٢-٣] ففي هذه المرحلة يصبح الأمر مسألة تواصٍ جماعية بالاستمرار على الحق، وبالصبر على ما يجابهه الإنسان، لأن جني الثمار غالبا ما يتأخر! ومن لم يجمع هذه الشروط فسيقع حتما في الخسران!

ويقابل المتبع صعوبات عدة في حياته، تعمل على ثنيه عن هدفه، كالمصاعب المادية، يضاف إليها العناد الذي يجده من الآخرين، وكذلك السخرية التي قد يتعرض لها من بعض الجهلة، الذين لا يفهمون لماذا يتصرف بهذا الشكل المغاير، الذي لا يجلب ثمارا –حاضرة–، وكذلك محاولة الإقصاء من غير متبعي المنهج، الذين يرون فيه خطرا عليهم وعلى مناهجهم، لذلك فهم يحاولون قدر الإمكان تشويه الصورة والقضاء عليه بجميع الصور، لذلك فعليه الصبر والاستعداد النفسي لمجاهدة هؤلاء، وأن يتذكر أنه سينفق في هذا الرخيص والغالي، حتى يصل إلى مبتغاه، ولكن في هذا الفلاح: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨٨﴾ [سورة التوبة, ٨٨]

ولقد أمد المنهج المتبع بما يساعده على هذا الصبر وعلى تلك المجاهدة، ويأتي على رأس هذا المدد النفسي ذكر الله عزوجل والصلاة، فقال للمتبعين: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة البقرة, ٤٥] فبالصبر والصلاة وبذكر الله، يجد الإنسان العزيمة والقدرة على المواصلة!

فهذه بعض الأمور التي تساعد الإنسان على أن يستمر في نضاله وجهاده ضد نفسه، حتى يصل إلى مبتغاه. وفي نهاية المطاف يعلمه المنهج أن جهاده هذا كله لنفسه، فهو ينفع أول ما ينفع نفسه قبل غيره: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [سورة العنكبوت, ٦]

زرع الخشونة!

راعى البرنامج المراحل المختلفة التي يمر بها الإنسان في حياته، فليس مقبولا فيه ذلك التصور، أن السوبرمان يولد بقوة خارقة، فليس هناك سوبرمان طفل أو مراهق، وإنما لزام أن يمر بأطوار عدة حتى يصل إلى درجة السوبرمانية، فإذا وُجد الإعداد المناسب فإن ذلك يقصر المسافة كثيرا، ويجعل الوصول إلى درجة السوبرمانية أيسر! لذا فسيدور هذا العنصر حول التربية[167]، ومحورها الأم: يمكننا القول أن برنامج التربية قائم على الحب والقسوة! إلا أنا نرى أن العنصر الرئيس فيه هو إظهار النقص. ونعرض سريعا الخطوط العريضة له:

[167] لا يعني هذا أن التربية الأولى تبعا للبرنامج عنصر رئيس في الوصول إلى السوبرمانية، وإنما هي عنصر ثانوي مساعد، إذا لم يتوفر فإن الوصول سيتأخر لا أنه سيُمنع، فالعنصر الفصل في هذه القضية هي تفاعل الإنسان البالغ مع المنهج نفسه! ونُذكّر مرة أخرى أن العناصر التي ستُذكر بعد سطور قلائل، هي أمور مطلوبة لصنع إنسان قابل بيُسر لأن يصير سوبرمانا، لا أنها هي التي ستصنع منه سوبرمانا.

تبدأ أولى خطوات الإعداد بأن ترضع الأم الطفل عامين كاملين من ثديها: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ... ﴿٢٣٣﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٣٣]، وهذا جد ضروري لإكساب جسد المولود القوة والمناعة، اللازمتين له في مراحل عمره البعدية!

ويضاف إلى الأهمية الجسدية للرضاعة تلك الأهمية النفسية، حيث ينشأ الطفل متعلقا ومرتبطا بأمه شاعرا بالحب والحنان والتواصل مع الآخرين، بخلاف ذلك الطفل الذي يرضع لبن الحيوان أو لبنا معالجا، ويبدو أن روسو كان معه كثير حق عندما تحدث عن الشرور التي تنشأ عن عدم رضاعة لبن الأم. في هذه الفترة وبعدها لا يُطالَب الطفل بأكثر من اللعب والحركة قدر الاستطاعة، وعلى الوالدين تنمية مهارة الطفل الحركية، عن طريق إدخاله في بعض الألعاب التي تتناسب مع قدراته وسنه، ولكنها تحتاج إلى بعض الجهد حتى تؤدى!

والعنصر الأهم في تعامل الآباء مع الولد في هذه المرحلة هو ألا يستجيبوا لصراخه، وإنما يستجيبون تبعا لما يقتضيه الموقف، حتى لو اقتضى الأمر أن يرتدوا سدادات الأذن، ومرة بعد مرة سيتعلم الطفل أن البكاء ليس هو الوسيلة الأمثل للحصول على ما يريد!

وعلى الوالدين أن لا يُعودوا ولدهم الرفاهية، وإنما ينشأونه في محيط خشن[168] وحصول مقنن على ما يحتاج، حتى لا ينشأ الطفل ناعما خرعا، وحتى يشعر الطفل بقيمة ما في يده فلا يبدده، ويحاول الاعتماد على نفسه، بدلا من انتظار العون والغوس في كل كبيرة وصغيرة.

وما أن يصل الطفل إلى سن السابعة حتى يبدأ الوالدان في غرس حب القراءة في النشأ، فهذا هو دور الوالدين في الأسرة، فإذا كان دور المدرسة هو تعليم القراءة

---

[168] أدرك العرب القدامى أهمية هذه النقطة فأرسلوا مواليدهم لينشأوا في البادية حيث الجو النقي والعيشة الصلبة والتي بها ينشأ الطفل صلب العود والعزم.

والكتابة والعلوم، فدور الوالدين هو توسيع دائرة أفق الطفل، وبداهة لا يمكن للوالدين أن يُحببا من لا يتقن الخط القراءة، وإنما تكون الخطوة الأولى إثارة خيال الطفل، عن طريق بعض القصص والحكايا التي ترويها الأم له، قبل أن يبلغ هذا السن، ثم تبدأ بعد ذلك في تقديم هذه الحكايا له مرتبطة بالكتاب الموجود في يديها، وتعلمه أن الكتاب هو مصدر هذه القصص، ثم تثيره أن يكمل هو القصص بنفسه عن طريق القراءة، أو بأي طريقة أخرى تحثه على القراءة.

ومن الأجود أن تكون نوعية القصص التي تقدم للطفل قصص بطولة وشجاعة وإقدام، وتخلو من العنف والدماء في عين الوقت، قصص ترسخ المبادئ في نفس الطفل بطريقة غير مباشرة، قصص تحتوي الحكمة في قالب من السكر! فإذا نجحت الأم في جعل ابنها مدمن قراءة، مع عدم السقوط في مأزق العزلة عن الآخرين، فلقد وضعت اللبنة الأولى في مكانها القويم، وفي هذه الأثناء يُقدم له تصور عام عن العالم وعن الخالق وعن الأمور الرئيسة في الحياة، وسيكتشف هو غيرها من خلال القراءة.

وبعد أن عُود الطفل على الخشونة في الحياة يبدأ الوالدين في تعريفه على الألم، حتى يصبح إنسانا قوي الشكيمة، يعرف أن الألم عرض مرحلي سرعان ما يزول، ويعود بعده الإنسان إلى ما كان بدون أي ضرر وإنما يزداد قوة وقدرة على التحمل! وإني لأعلم أن كثيرا يرفضون العقاب البدني في التربية، وسيزعجهم حديثنا عن الألم، ولكن هؤلاء الأخوة لا يخرجون سوى جيلا من التابعين المستكينين للآخرين، وما ذكرناه ليس عقابا، فنحن نتحدث عن إخراج إنسان صلب قوي، لذا فمن الأفضل أن يذوق الطفل الألم في عقاب بناء، كتمرين ثقيل أو أداء مهمة ما، تحتاج كثير جهد ويُجبر على إنجازها في وقت قصير، فيستفيد من العقاب.

وإني لأعجب من الآباء الذين يعملون على ترفيه أولادهم وتجنيبهم التعرض لأي موقف من المواقف التي تتطلب الاعتماد على الذات، ناهيك عن مقابلة مواقف عسيرة، ويعتقدون أنهم بذلك يربون أولادهم خير التربية!

وأعجب أكثر لمن يسعون إلى خلق بيئة غير واقعية للأطفال، يعيشون فيها بعيدا عن الواقع، بيئة نظيفة ملمعة، يجدون فيها كل ما تشتهيه أنفسهم بيسر وسهولة! ويدفعني هذا إلى الاعتقاد أنه لو واصل الأثرياء حماقاتهم هذا، فلن يبعد كثيرا أن يحدث ما ذكره ويلز في رائعته آلة الزمن[169].

والمشكلة أن الآباء يجهدون أنفسهم ويضيعونها في إعداد المستقبل لأولادهم، بدلا من أن يعدوهم هم للمستقبل، وفعلهم هذا تبرير للتقصير في حق أولادهم، فهم يقنعون أنفسهم أنهم وإن قصروا فإن هذا التقصير من أجل تأمين المستقبل لأولادهم! وأقارن بين فعلهم هذا وبين ما ورد عن الرسول الأعظم الذي ربى أتباعه على الاعتماد على الذات في كل صغيرة وكبيرة، وذلك كما روى عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، حيث قال: كنا حديثي عهد ببيعة، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تبايعوني؟ فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: "أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا" وأسر كلمة خفية: "ولا تسألوا الناس شيئاً" فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه. رَوَاهُ مُسلِمٌ.

فهؤلاء النفر حديثي عهد بإسلام، ولكن الرسول يعلّمهم من أول الأمر الاعتماد على النفس، وألا يسألوا الناس شيئا، وإنما يقومون بكل أمورهم بأنفسهم لها. ولله در الإمام الشافعي إذ يقول:

ما حك ظهرك مثل ظفرك فتولى أنت جميع أمرك

[169] ملخص هذه القصة أن عالما يصنع آلة الزمن وينتقل بها إلى المستقبل، وهناك يجد انقساما عجيبا في المجتمع البشري، فبسبب اتساع الفوارق الطبقية بين الأغنياء والفقراء يظهر جنسان من البشر، ويمثل كل جنس صفات من سبقوه بحدة، فأحفاد الأغنياء سيكونون جنساَ غبياَ ضعيفاَ، يسمى (الأيلو) وذلك بسبب عدم احتياجهم إلى القوه أو الذكاء، سواءا بالنسبه لهم أو لابائهم أو لأجدادهم، لأنهم كانوا مرفهين! أما أحفاد الفقراء فسيتحولون إلى بشر شبيه بالحيوان (المورولوك)، ويحيون تحت الأرض ويعملون ويكدون دوما، كما كان يحيى أبائهم وأجدادهم، إلا أنهم أصبحوا يأكلون هؤلاء الأيلو!

وقد يرفض بعض القارئين هذه الطريقة ظانين أن وظيفة الوالدين ستتحول إلى معذبي الطفل، وهذا ما لا نقصده بحال، نحن قلنا أن المنهج يعتمد على الحب والقسوة، فلا بد أن يحيط الوالدان الطفل بالحب ويغمرانه به، وفي أثناء المواقف الحياتية المختلفة يعرضانه لما قلنا به، فينسى الطفل هذه القسوة ويتذكر الحب، ولكنه ينتفع من تجربة الألم والخشونة التي مر بها!

لذا لا يُقبل أن يعطى الحب بلا قسوة أو القسوة بلا حب، وبخلاف هذا وذاك سيعيش الطفل مرحلته السنية بشكل طبيعي! وما أن يكبر الطفل قليلا ويصل إلى سن البلوغ، فإنه من المحبذ أن يُلحق بأي عمل، يدوي كان أو غير يدوي، المحوري هو أن يتعلم الاعتماد على نفسه في هذه المرحلة، وليس الغرض منها بداهة الاكتساب، وإنما الهدف هو تحمل المسؤولية! وما أن يدخل الغلام مرحلة المراهقة حتى يُكلف من الأعمال الكثير والتي تشغل جل وقته، فلا يجد وقتا كافيا للتفكير في المسألة الجنسية، وتضييع وقته وجهده في البحث عنها[170]!

وختاما فإن النقطة الرئيس التي لا يجب أن تتخلف في أي مرحلة من مراحل تربية الطفل أو الغلام أو الشاب هي نقطة إبراز النقص! ولا نقصد بذلك أن نجعل الطفل يعاني من عقدة النقص، وإنما نعني أن نعود المُربى دوما على عدم الإعجاب بالحال، فنحمد له فعله ولكن نذكره دوما أن هناك أفضل وعليه تحسين نفسه في المرة القادمة! فعليه ألا يرضى ويقنع بحاله، وعليه أن يتطلع دوما إلى مستوى أفضل من المستوى الذي وصل إليه، مقنعا نفسه أنه يستطيع الوصول إليه، وبالتوازي مع عدم الإعجاب يُغرس الإيمان بالمرحلية والرضا بإرادة الله تعالى، والغرض من ذلك هو عدم الإحباط، فسيقابل هذا الساعي حتما الكثير من المشاكل والمصاعب، التي تعطل سعيه وتؤخر هدفه، فلا يتوقف من أجل هذا، وإنما يعلم أن ما لم يدركه في هذه

---

[170] لا ينبغي تطبيق هذا البرنامج الإعدادي بحال مع الفتيات، فهو معد للفتيان فقط! فالمرأة لم تُخلق لتكون سوبرمان، فهي وإن أمكنها الترقي إلى درجات عُلى، إلا أنها لا ينبغي لها أن تكون سوبرومان! وسنناقش ذلك عند حديثنا عن المرأة!

المرحلة يمكن أن يُدرك في مراحل لاحقة، فهكذا تظل عزيمته متقدة دوما وسعيه متواصل، أما إذا غرسنا السعي بدون مرحلية فقد يقلع سريعا بسبب الإحباط!

والرضى بإرادة الله تعالى ضروري للرضا في حالة الإخفاق، فكثيرا ما يخفق الإنسان في محاولاته رغم تكرارها، فهنا يتذكر المربى الله عزوجل، فيرضى بقضاءه.

ونحن لم نُسم هذه النقطة زرع الكمال لأن التطلع إلى الكمال من وجهة نظر المنهج أمر غير منطقي، فالكمال لا يحدث للبشر بحال، ونحن وإن كنا نتكلم عن منهج يخرج سوبرمانا، إلا أننا لم نقل بحال أن السوبرمان سيصير إنسانا كاملا، فسيظل السوبرمان إنسانا يخطأ ويخفق، والفارق هو في طريقة التعامل مع الخطأ والإخفاق وكمّهما وفي سرعة النهوض بعده.

والمنهج يقر أن الغالب في من يصل إلى درجة السوبرمانية الكاملة هم رجال كبار وليسوا شبابا، وذلك لكثرة التجارب والخبرات التي يمر بها ولوصوله إلى منزلة تؤهله للعمل بشكل أفضل، ففترة النضج هي التي يجتمع فيها عناصر القوة كلها وذلك لضعف سيطرة القوة الحيوانية على الإنسان: ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾ [سورة الأحقاف ,١٥]

فالمنهج يتقبل الأخطاء الطبيعية لكل مرحلة عمرية، وذلك لأنه من غير الممكن أن يقدم المنهج إلى الأطفال، فإلى أن يصل الإنسان إلى المرحلة التي يبدأ فيها بالتعامل مع البرنامج والتفاعل معه، لا يمكننا أن ننتظر منه شيئا بارزا قبلا.

حب الجمال!

لا يعني حديثنا عن الخشونة والقسوة في برنامج إعداد الطفل، أن البرنامج يسعى لإخراج جماعة من الأجلاف منتفخي العضلات، فليس هذا مقصودا بحال، فلقد راعى البرنامج جميع العناصر النفسية الموجودة للإنسان، وعمل على إزكاءها جميعا في نفس الوقت! ومن بين هذه الأركان حب الجمال ورقة الفؤاد! فتبعا للمنهج ليست الزينة أو الجمال ذلك الأمر التافه، الذي ينبغي الانصراف عنه أو إهماله، وإنما هي من الأهمية بمكان في حياة الإنسان!

لذلك رأينا المنهج كله عبارة عن درة أدبية فريدة، ما لها مثيل ولا نظير، مليئة بالجمالات الأدبية والعقلية، تجذب الإنسان إلى الكتاب، فليس الكتاب مخاطباً العقل فقط وإنما العقل والوجدان. وهذا يعلم الإنسان أهمية الجمال مع الكمال، ودوره في سكينة الفؤاد. ورب المنهج الخبير بخلقه يعلم ميل الإنسان إلى الجمال والتزين، ويعتبر هذا ميلا مقبولا لا حرج فيه، ويذكره بنعمته عليه أنه أخرج له هذه الزينة: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة فاطر, ١٢] وذكّره كذلك بالجمال الموجود في الأنعام ودعاه إلى النظر إليها: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة النحل, ٦]

ويرفض المنهج الدعوة إلى ترك الزينة والتقشف ويعتبر هذا مسلكا مرفوضا: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ... ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأعراف, ٣٢]، فليس الجمال أو الزينة أمرا سيئا، ولقد صحح الرسول الأعظم هذا التصور الموجود –عند كثير– للسائل الذي قال له: "إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة؟"، فرد عليه المصطفى بقوله: "إن الله جميل يحب الجمال". رواه

مسلم. وقال في موطن آخر: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"، بل إننا مأمورون بالتزين عند العبادة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [سورة الأعراف ,٣١]. والفيصل ألا يغالي الإنسان في الانشغال بالزينة، فيكون سعيه لها، فيضيع عمره من أجلها، وإنما تكون هذه الزينة عرضا جانبيا في حياة الإنسان.

والمنهج يعمل على لفت نظر الإنسان إلى الجمال والزينة المتناثرة في الكون، فقد كان من الممكن أن يخلق الله تعالى كونا نافعا ولكن لا جمال فيه ولا زينة، ولكن الزينة والجمال تظهر في كل خلق الله الأحسن، فإذا رفع الإنسان نظره إلى السماء وجد النجوم في هيئة بديعة تجذب الناظرين إليها: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦﴾ [سورة الصّافّات ,٦]، وليس من العجب أن لا ينسى الكتاب الحديث عن هذه الزاوية من أغراض النجوم والكواكب، فهي زينة للسماء: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦﴾ [سورة ق ,٦]. وما فتئ العشاق في كل زمان ومكان يتطلعون إلى القمر وإلى النجوم ويبثون همومهم[171]. ويمكن تلخيص فلسفة الجمال في الكون في عنصر واحد وهو التوازان والتناسق، وصورتهما المثلى هو ما أودعه الله في الخلق!

ولم يع الإنسان هذه النقطة حتى الآن، فلا يزال يرى الجمال في إبراز جوانب معينة، فيضيع باقي عناصر الصورة، والإنسان لا يزيد في فعله عن أن يتطرف في زيادة أحد سمات الشيء، فيقضي على هذا التوازن والتناسق، فيضيع الجمال الحق بدون أن يدري ويوجد زخرفا. فالفاكهة مثلا لذيذة المذاق، فإذا أُضيف إليها سكرا أو عسلا، فلا يستطيع الإنسان أن يتناول منها إلا أقل القليل، لأنه زيد في صفة التسكير أكثر مما وضع الله تعالى.

---

(171) مما آسف له أنه ما عاد أحد ينظر إلى السماء، وأصبح من يفعل ذلك إنسانا *عاطفيا* غير مشغول البال بحال! فما عادت الزينة إلا ذلك الزخرف الباهت الذي يصنعه الإنسان!

والمرأة جميلة إنسانة، فإذا صُبغت بالألوان ما ازددنا حباً لها، وإنما ازدادت الشهوة الحيوانية تجاهها، فتصبح هذه الألوان نداءا مستمرا للجنس، وليس هذا هو دور المرأة الطبيعي بداهة.

والمنهج وإن ذكّر بالزينة والجمال ودعا إلى التزين، ولكنه يحذر في عين الوقت من الانزلاق إلى فخ الزينة! فالزينة كما قلنا هي زينة ليس أكثر أو أقل، وينبغي ألا تشغل اهتمامنا بأكثر من هذا الدور المفترض لها، فإذا تكالب الإنسان —وخاصة النساء– على التزين المبالغ فيه، وأصبح كل همه تملك أكبر قدر منه، فإنه بهذا يسقط في الابتلاء الذي وضعه الله في هذه الزينة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝﴾] سورة الكهف ,٧[ويصبح بذلك مثل الطفل الذي استعذب طعم السكر فأكثر من تناوله، إلى أن أصابته التخمة فمات من كثرة ما تناول!

الإنسان يحيى مرتين!

من المقولات الشهيرة والمنتشرة بين عامة البشر —حتى المسلمين!–، أن الإنسان سيحيى مرة واحدة!!! لذا عليه أن يتمتع بحياته! فليس هناك شيء بعد الموت يبكي عليه أو يخشاه! والعجيب أنه من الممكن النظر إلى الأمر من زاوية أخرى، فالحياة الأخرى هي التي تعطى الحياة الأولى معنى، فإذا لم يكن ثمت شيء بعد الموت، فليس هناك شيء يفقده الإنسان بفقدان الحياة، فلم يكافح للبقاء فيها؟ فليُنه حياته مع أول أزمة تقابله. ولقد ذكر نيتشه وجهة النظر هذه على لسان البهلوان الذي سقط من على الحبل: "فقال زارا: وشرفي يا صديقي إن ما تذكره لا وجود له، فليس من شيطان وليس من جحيم، إن روحك ستموت قبل جسدك فلا تخش بعد الآن شيئا.

فرفع الرجل رأسه مشككا وقال: إذا كان ما تقوله صحيحا فإنني لا أفقد شيئا بفقد الحياة. فلست أنا إذن إلا حيوانا قد رُقصت بالضرب وغذيت بأفخر غذاء.[172]" اهـ

وتختلف نظرة المتبع للمنهج إلى الحياة تماما، فهو يؤمن تمام اليقين من خلال الأدلة الكثيرات المذكورة في البعث أن الإنسان يحيى مرتين، مرة في الدنيا ومرة أخرى عندما يبعثه الله تعالى ليحاسبه على ما قدمت يداه، فيجازي المحسن ويعاقب المفسد، حتى يتحقق العدل تمام الحق! والحياة الأخرى التي سيحياها لا اختلاط فيها، فهي إما نعيم مقيم أو عذاب أليم.

لذا فعليه –تبعا للمنهج– أن يعمل ويكدح ليعمر الأرض وليفوز في الآخرة! وإيمان المتبع بمسألة البعث نابع من أدلة كثيرات على هذه المسألة، منها قوله تعالى[173]: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾ [سورة ق, ١٥] فالله يُوضح أن اللبس في أذهان الناس في مسألة الخلق الجديد خطأ غير مقبول منطقياً، فمن خلق مرة بلا جهد ولا نصب قادر على أن يخلق من جديد، ويكرر هذا الاستدلال في آيات عدة، مثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [سورة الروم, ٢٧]، ﴿أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣﴾ [سورة الأحقاف, ٣٣]

ويذكر الوقوع الجزئي كدليل على الوقوع الكلي، فعملية بدأ الخلق وإعادته تتكرر أمام عين الإنسان يوميا، وفي هذا دليل على إمكانية وقوعها كليا يوم البعث: ﴿أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩﴾ [سورة

---

[172] فريدريش نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تعريب: فليكس فارس، ص: 12.

[173] قلنا أن القرآن الكريم يعتبر مسألة "وجود الله" مسألة بدهية، لذا فهو لا يتعرض لها، وإنما يناقش الاعتراض أو الشك في أفعال الله، فيوضح الصورة!

العنكبوت ,١٩]، ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾] سورة الروم ,١٩]

ونتيجة لهذا الإيمان اختلف منظوره إلى الحياة، فهو يعلم أن هذه الحياة كلها لا تساوي شيئا إذا ما قورنت بالآخرة، لذا فلا مبرر للتكالب عليها، والسعي إلى تملكها بشتى الوسائل! ونحن لا نرمي بهذا إلى أن المتبع إنسان زاهد في الدنيا يتركها لغيره، وإنما نقصد أن شهوة التملك الحيوانية تسيطر على كثير ممن لا يؤمنون بالآخرة فيسعون للسيطرة وللعلو في الأرض، حتى ولو أدى ذلك إلى الإفساد في الأرض أو سفك الدماء أو تزوير الحقائق، المهم أن يصل البشري إلى مبتغاه، وإلا سيكون ممن أضاع حياته عبثا!

أما عند المتبع فهو يعرف أنه صاحب منهج ودعوة للحق، ولا يُقبل بحال أن يتوصل إلى الحق بالباطل وإنما يسعى إلى الحق بالحق! ومنطلقه في هذا هو الوحدة بين الدنيا والآخرة، فلا تعارض بينهما، وإنما الدنيا مزرعة الآخرة، فمن زرع هنا –في الدنيا وفي الناس– فقد اتبع وأطاع ومن ثم يحصد في الآخرة، ومن زرع في نفسه فقد أضاع عامة المنهج وأهمله!

ومما يؤسف له أن بعض دعاوى الزهد في الدنيا ظهرت وازدهرت في مجتمعاتنا الإسلامية، متأثرة بالمسيحية والبوذية وغيرها من الديانات! وهذه دعاوى باطلة فالمسلم إنسان خُلق ليسود العالم بالحق وللحق، فإذا زهد فيه ساده غيره، وهذا يعنى سيادة الباطل، ولست أدري حقيقة من الذي أوجد هذا التضاد والتعارض المزعوم، وأن على البشري لكي يفلح في الآخرة أن يترك الدنيا!

إن آيات الكتاب طافحة برد هذا التصور الوهمي النابع من أقوال البشر التي دُست في الكتب الربانية السابقة! فنظرة المتبع إلى الدنيا أنها دار صراع وتناحر بين البشر، فأنى له التنحي؟! وعلى الإنسان أن يأخذ موقعه في هذا الصراع حتى يوصل إلى طريق

ربه، طريق السلام: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [سورة يونس, ٢٥]

فالمنهج يدعو إلى تحقيق السلام في الدنيا، وهو ما لن يتحقق إلا جزئيا، أما في الحياة الآخرة فسيكون هناك الوقوع التام له .. في جنة الخلد! والإيمان بالحياة الآخرة له الأثر الأكبر في الإحياء في الدنيا! فكثير ممن يعيشون في الدنيا غير أحياء وإنما هم جماعة من الأموات! وذلك لعدم سماعهم كلمة الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [سورة الأنفال, ٢٤]

فمن نظر فيما حوله وشاهد أدلة البعث المكرورة أمامه تيقن بوجود رب وبعث، فإذا سمع المنهج وجد فيه تطابقا لما تيقن به قلبه فيستجيب له فيحيى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾ [سورة الأنعام, ٩٢]

أما من لا يؤمن بالآخرة –بلا دليل أو حجة!– فيجد المنهج ثقلا: ﴿... وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [سورة فصّلت, ٤٤]

فلا استجابة من هؤلاء لكلمة الله، لأنهم من أول الطريق لا يستجيبون للعقل وإنما يتبعون الهوى وما وجدوا عليه الآباء، فإذا عُرض عليهم ما فيه موتهم –ما خالف المنهج– من زخرف القول طربوا به وأنسوا، لأنه يؤيد تصوراتهم الخالية من الأدلة والبراهين، ويثبتهم على فسادهم: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾ [سورة الأنعام, ١١٣]

لذلك استحق هؤلاء أن يمدهم الله في طغيانهم، ويتركهم في ضلالهم وموتهم معجبين بأعمالهم، ظانيها عين الصواب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [سورة النمل, ٤]

ثم تأتي النقطة الفاصلة وهي مسألة الاستجابة للقضية الإلهية، فمن لا يؤمن بالآخرة يستثقل الحديث عن الإله،[174] لأن في هذا تذكير له بحياته الأخرى وبما يُسأل عنه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الزمر, ٤٥]

وانظر إلى حال العلمانيين والملاحدة عند الحديث عن الرب الحبيب كيف ينفرون ويتضايقون، ويدعون إلى عدم الحديث عن غيبيات لا نفع فيها، فإذا انتقل الحديث إلى ماركس أو هيجل تنتفخ أوداجهم ويسرون ويطربون! على الرغم من أن ماركس أو غيره لا يدعوهم إلى ما يحيهم، وإنما الله ورسوله هو من يفعل!

إذا فالفارق الرئيس بين المنظورين أن الأول يدعوا إلى اغتنام الدنيا بالتمتع فهذه هي الفرصة الوحيدة، أما الآخر فيأمر بالعمل وبالتعمير وبالتفكر للسيادة وللحياة وللفوز في الحياة الآخرة، التي يجب عليه أن يتأكد من منطقيتها بعقله ونظره!

وجوب الحياة

"ليس لك الخيار!" هذا ما يعلنه المنهج صراحة في مسألة الحياة والموت، فالإنسان ملزم بأن يحيي ويحيى إلى أن يأتيه الموت عندما يأذن الله تعالى! فكما قلنا سابقا فليس الإنسان طليقا، وإنما هو مخلوق لرسالة واجبة التنفيذ، لذلك فلا يمكنه أن

[174] يرفض كثير من الأوروبيين الحديث حول الدين، على الرغم من عدم إلمامهم بكثير من قضاياه، وينطلقون في ذلك من منطلقات واهية يستطيع أي دارس للدين عندنا تفنيدها، فإذا نوقشوا في الدين وجدوا ضيقا في صدورهم لعدم وجود حجة معهم فيما يقولون به، فيميلون إلى انهاء الكلام حول هذه النقطة التي يريدون أن ينسوها حتى يتمتعوا بحياتهم!

ينخلع من هذه الحياة عندما يحلو له، وإنما عليه الاستمرار في تأدية رسالته حتى ينهي دوره فيها، ويسلمه لمن بعده، وهكذا يستمر تواصل الأجيال في حمل الرسالة.

وينهانا الله تعالى عن قتل أنفسنا، فالحياة مهما كانت عسيرة فهي يسيرة، والله تعالى رحيم بعباده ولا يكلفهم ولا يحملهم ما لا طاقة لهم به: ﴿... وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمٗا ۝٢٩﴾ [سورة النساء, ٢٩]. لذلك فلا مبرر للهروب من الحياة، وإنما على الإنسان أن يواجهها ويُحسّنها بدلا من أن يفر من مواجهتها! فالإنسان مخلوق ليسود الأحياء، فإذا انتحر السيد فماذا يفعل المَسُود؟! والناظر يجد أن أكثر الناس انتحارا هم الملاحدة، وذلك لأنهم –كما تعرض الدراسات الحديثة– أكثر الناس يأساً وإحباطاً وتفككاً وتعاسة!

فقد أكدت الدراسات العلمية المتعلقة بالانتحار أن أكبر نسبة للانتحار[175] كانت في الدول الأكثر إلحاداً، وعلى رأسها السويد التي تتمتع بأعلى نسبة للإلحاد. أما الدانمارك فهي ثالث دولة في نسبة الإلحاد، حيث تصل نسبة الملاحدة واللادينيين إلى 80%. والملحد إذ ينتحر فإنه يأتي التصرف المنطقي، فليس للحياة هدف ولا غاية، وليس بعدها شيء، فلم الاستمرار في العذاب؟! وهذا منظور تام الغلط!

فإذا حدث وقتل الإنسان نفسه فإنه يستحق من أجل ذلك عذابا شديدا، لأنه قتل نفسا من خلق الله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١٥١﴾ [سورة الأنعام, ١٥١]، والنفس لا تُقتل إلا بالحق، فمن قتلها بغير حق فقد أتى كبيرة يستحق عليها الخلود في النار، فلقد أعلن

---

[175] أكدت هذه الدراسة العلمية أن أعلى نسبة للانتحار كانت بين الملحدين، ثم البوذيين ثم المسيحيين ثم الهندوس وأخيراً المسلمين الذين كانت نسبة الانتحار بينهم تقترب من الصفر. وأعتقد أن في هذا إشارة بينة إلى دور الإيمان بالله في الاستمرار في الحياة.

فراره من الدنيا فليس له في الآخرة إلا النار، لذلك قال الرسول المعصوم: "من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن شرب سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا" رواه مسلم!.

وهكذا تتحول أداة الفرار من الدنيا إلى عذاب دائم مستمر لا فرار منه!

ولقد حرص المنهج أيما حرص على الإبقاء على الحياة –العضوية– للنفس، فجعل قتل نفس واحدة يساوي قتل الناس جميعا وإحياءها يساوي إحياء الناس جميعا: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ... ﴿٣٢﴾﴾ [سورة المائدة, ٣٢]

ولشدة حرص المنهج على حياة الإنسان اعتمد مبدأ القصاص، والذي به تتحقق الحياة: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [سورة البقرة, ١٧٩]، فإذا نحن طبقنا القصاص على القتلة قلّ بشكل كبير عدد المقبلين على القتل، ولتفكر الإنسان كثيرا قبل أن يقدم على هذه الفعلة، أما أن نجعل عقوبة القتل السجن[176] فهذه إضاعة لأموال دافعي الضرائب على بعض المجرمين، وإهدار لقدرات بشرية في السهر على حراستهم. فما أروع هذه العدالة! أقتل نفسا ثم أعيش بقية حياتي آمنا على نفقة إخواني من البشر! وحتى يغلق المنهج الطريق أمام القاتل جعل عقوبة القتل الخلود في النار ومضاعفة العذاب.

ولا يعني هذا أن المنهج أغلق جميع الأبواب أمام قتل النفس، وإنما ترك بابا مفتوحا هو عنوان الشجاعة والإقدام، فإذا كان الانتحار عنوان جبن وفرار، فإن الباب المتروك

[176] قالت العرب قديما "القتل أنفى للقتل"، وليت الغرب يقتنع بهذه الكلمة وبما جاء في القرآن من أنه حياة!

هو دليل الإيمان والثبات، وهذا الباب هو باب الشهادة! فهو وإن كان قتل إلا أنه قتل من أجل حياة الآخرين وللمبادئ وللقيم!

فإذا حدث وقُتل الإنسان في القتال في سبيل الله، أو قتل نفسه من أجل نصرة المستضعفين، فإنه يُعطى مكافأة تماثل فعله وهي الحياة! فإذا كان قد تنازل عن حياته إيمانا بكلمة الله تعالى ونصرته لكتابه، فإن الله تعالى يعطيه حياة تستمر إلى قيام الساعة، فهو مقتول حي: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩﴾ [سورة آل عمران, ١٦٩]، وهكذا يصبح الموت سبيلا لأفضل حياة، حياة لا انقطاع لها!

وجوب الانتحار!

"إذا لم يكن الله موجودا فيجب أن أنتحر!"

قلنا في العنصر السابق أن المنهج يلزم التابع بالحياة، ولكن ماذا بشأن غير المتبعين للمنهج، وخاصة الملاحدة؟ نقول: الإجابة هي ما ذكرناه بأعلى وهي أنه يجب أن ينتحروا! نعم، بكل صراحة يجب أن ينتحر الملحد، ولست أدري لم وكيف يظلون أحياءا؟! إن العالم بدون إله أمر بشع صعب، يحتم على الإنسان الانتحار! والعجيب أن الملاحدة ينتحرون، ليس من أجل إخوانهم البشر، وإنما لأسباب تافهة يفرون منها!

وقديما دعى نيتشه إلى موت الإله وادعى أنه مات، وأن هذه هي الوسيلة الوحيدة ليتحمل البشر المسؤولية ولينتجوا وليتحرروا ويتقدموا، وأمات الغرب الإله –في قلوب أتباعه!–، فما كانت النتيجة إلا أن تحول العالم إلى عالم لا يستحق الإنسان أن يحيى فيه، وتحور إلى غابة كبيرة تقتل سكانها!

وحتى لا يظنن ظان أننا نبالغ، ندعو الإنسان الأعمى الميت إلى النظر حوله، ندعو الغربي أولا إلى تذكر المذابح والإبادات التي أجراها أجداده، ولا يبكي بدموع الدم على إخوانه في الإنسانية، الذين أبادهم أجداده ولا يزال متمسكا بقيمهم! والتي لا أدري حقا أي نوع من القيم هي! ندعو الغربي الداعي إلى حقوق الإنسان والمساواة ثانيا إلى الانتباه أن بلاده تسرق البلاد الأخرى وتمتص خيراتها! ولكن بما أن الغربي هو من يتمتع بهذه السرقة فمن الأفضل أن يغض الطرف عن هذه الأمور! أو يتظاهر أنه لا يستطيع تغيير شيء، لذا فلا حرج من الانتفاع بالمسروقات والمنهوبات!

ثم ندعو كل البشر على وجه الأرض إلى النظر حولهم وعدم الاكتفاء بأنفسهم، فإذا نظر الإنسان نظرة واحدة سريعة إلى العالم –الذي يفترض أنه لا إله فيه– فسيصيبه يأس وحزن عميقان، قد يدفعاه إلى الانتحار، وهو ما يجب عليه فعله بعد أن يكتشف أنه ليس له من الأمر شيء! فالظلم والفوضى يسيطران على العالم، وعلى الرغم من ذلك فإن البشرية سائرة في طريقها نحو مزيد من الظلم والخراب، على الرغم من وضوح طرق الإصلاح. فإذا أخذنا النظام العالمي كلاً كنموذج، فسنجد أنه نظام مختل واضح الخلل. فالمجتمع الدولي مشترك في مجموعة من المؤسسات، يأتي على رأسها مجلس الأمن، ويفترض أن تكون كل الدول في هذا المجلس متساوية، أليس البشر كلهم سواسية –كما صدعوا رؤوسنا!–؟!

إلا أن الأعمى يجد في هذا النظام عجبا، فهناك دول دائمة العضوية بدون أدنى وجه حق، أما الأكثرية الباقية فتشارك في المجلس بنظام الدورات. وليت الأمر اقتصر على العضوية الدائمة والعضوية المتقطعة وإنما تعداه إلى عجيبة الدهر "حق الفيتو"، والذي يعطي دولة واحدة من ضمن خمس دول حق الاعتراض على قرار صدّق عليه العالم كله، فيصبح القرار غير واجب التنفيذ! –وضع من علامات التعجب ما يحلو لك أمام هذه النقطة!– ناهيك عن القرارات التي تصدر ولا تنفذ وكثير هي. ويحق لي أن أتساءل: ألا تعد هذه النقطة قاصمة بالضربة القاضية لكل دعاوى الغرب الجوفاء عن

الحرية والمساواة والإخاء، وأعجب من الغربيين –دعاة حقوق الحيوان قبل الإنسان– الذين لا يعترضون ويحتجون ويضربون من أجل إلغاء هذه النقطة!

إن النظام الدولي مختل بوضوح من القمة ولا اعتراض من المستفيدين، ولست أدري أين المضربون والمحتجون على الظلم من هذه المسألة، والذي هو سبب عامة بلاء البشرية؟! فالواجب على الملاحدة الغربيين أن يجعلوا هذه النقطة محور حياتهم، وذلك بأن يهددوا بانتحار جماعي إذا لم يُلغَ هذا الظلم الدولي، وإذا لم تستجب دولهم فيبدأوا في تنفيذ انتحاراتهم الجماعية، حتى تتساوى كل الدول في الحقوق في المجتمع الدولي، بدلا من الانشغال بحقوق القطط!

فإذا نحن تركنا النظام العالمي المختل ككل وأخذنا بعض جوانبه كنماذج، فسنجد أنها مختلة أكثر من الخلل الموجود في النظام نفسه؛ فإذا علمنا أن إجمالي الإنفاق العسكري في العام 2007 –كما أعلن معهد بحوث السلام الدولي في ستوكهولم– بلغ 1339 مليار دولار، ووفقًا لما أوردته وكالة الأنباء الألمانية فإن الولايات المتحدة قد استأثرت بنحو نصف إنفاق العالم العسكري في 2007، حيث ذكر الكتاب السنوي للمعهد أنها استأثرت بـ 45% أو ما قدرة 547 مليار دولار. أضف إلى ذلك كم العقول العاملة في مجال صناعة السلاح والتي كان يمكن أن تنفع البشرية النفع الجزيل، حيث يُقدر عدد العلماء العاملين في هذه الصناعة بشكل مباشر أو غير مباشر بما يقرب من 90% من علماء العالم!

وهذه الأرقام المهولة عن الإنفاق على السلاح وإنتاجه تحتم أن يوجد لها مصرفا وغاية، فلن تنفق هذه المليارات عبثا، ولكي تستمر مصانع السلاح في العمل ولا تتوقف، لا بد من خلق الحروب وإختلاق مبررات لها، وبالفعل تُعلن الحروب وتُشن، لا لشيء إلا لتصريف مخزون السلاح ولاستمرار عمل مصانعه، ويسقط مئات آلاف من البشر ضحايا حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل! ولنا أن نتساءل: كم يحتاج العالم كله من أجل القضاء على الأمية والأوبئة الخطيرة، وتحقيق مستوى جيد من الدخل

لكل سكان العالم؟! لم لا يتجه الإنفاق العالمي إليه؟ مما يأسف له المرء أن الحديث عن هذه الأهداف العظيمة هو حديث مؤتمرات ولا تنفيذ إلا بالفتات!

أما على أرض الواقع فالسعي هو لمزيد من التملك والسيطرة، مهما تكلف ذلك فسيُمتص مجددا من الضحية، فإذا كانت تكلفة الحرب الأمريكية على العراق من أجل تحريره[177] أو بتروله تبلغ في الشهر الواحد أكثر من 25 مليار دولار –كما نشرت صحيفة "كريستيان ساينس مونيتور" الأمريكية–، فإن حديثنا يدخل في نطاق التريليونات! من أجل البترول! ولست أدري كم ينفق من أجل الأخوة الإنسانية؟! فهناك ما يقرب من ثمانمائة مليون شخص مصابين بمرض الملاريا وتكفى النفقات العسكرية لنصف يوم واحد لعلاجهم! ولكن ليموت من يموت، فالمهم السيطرة!

فإذا نحن تركنا التسلح والحروب لأنه لا رحمة فيها وانتقلنا إلى حياة البشر العاديين، فسنجد أن سدس سكان العالم –كما صرح البنك الدولي في عام 2007– يعيشون تحت خط الفقر والذي يقدر بدولار يوميا، ولك أن تتخيل عزيزي القارئ عدد من يرتفع قليلا عن خط الفقر، لتعرف أن عامة البشرية لا تزال تلهث من أجل تحقيق الحاجة الأولى للإنسان وهي الطعام! وهي بعيدة كل البعد عن الحاجة الثانية .. الأمن! والحروب والإنفاق العسكري خير برهان! وعلى النقيض من هذا الفقر المدقع الذي يأنُّ من وطأته المليارات، نجد أفرادا معدودين يمتلكون ثروة تكفي لحل كل مشاكل العالم المادية[178]!

وليس الأمر مقتصرا على أفراد معدودين جشعين وإنما المسلك مسلك المواطن الغربي عامة، فالإنسان الغربي مسرف –وهذا هو المنتظر من جل الأغنياء!– فقد

---

(177) حجة التحرير هي الإسطوانة المشروخة الذي يكررها المحتل الغربي في كل مرة، والتي يحاول بها أن يخدع أو يسكن مواطنيه ليقتنعوا ويرضوا بما يقوم به جنوده من مذابح! فقديما قالها نابليون عندما أتى ليحتل مصر وحديثا كررها بوش، وسيظلون يكررونها إلى أن تقوم الحضارة الإسلامية ببسط سلطانها على العالم وفرض السلام العالمي .. بقوة السلاح الردعي!

(178) طبقا للدراسة التي قامت بها مجموعة (ميريل لينش) المتخصصة برصد الثروات المالية في العالم أُثبت أن: **167000** مليار دولار هي مجموع الثروات الشخصية في العالم، منها **800** مليار دولار هي إجمالي الثروات الشخصية في المشرق العربي باستثناء لبنان.

أظهرت دراسة حديثة أن قيمة المواد الغذائية التي يلقيها المواطنون البريطانيون في القمامة قد سجلت رقماً قياسياً، وصل إلى 10 مليارات جنيه استرليني سنوياً. وورد في الدراسة أن البريطانيين يلقون كل صباح 4.4 مليون تفاحة، و1.6 مليون موزة، و660 ألف بيضة، و550 ألف دجاجة[179] و440 ألف وجبة جاهزة. وتصل كلفة هذه المواد التي تلقى في القمامة يومياً إلى 420 جنيها استرلينيا لكل عائلة صغيرة.

أما العائلات التي لديها أطفال فترتفع عليها الكلفة إلى 610 جنيهات. كما تلقي العائلات الأمريكية في صناديق القمامة 30% من الطعام، ما يعادل تبديد 48.3 مليار دولار سنويا! فكل هذه الكميات من الطعام تُلقى وسدس البشرية لا يجدون ما يسد رمقهم ويستر بدنهم!

فمن المسؤول عن هذا التفاوت الرهيب، ومن الذي سيُحاسب عن البشر الذين هلكوا جوعا أو بردا[180]، ولم حدث هذا الظلم في التوزيع طالما أن الإنسان قد تولى مسؤولية نفسه؟ حدث هذا لأن الهدف الرئيس للإنسان أصبح المادة ولأن الإله مات في قلب الإنسان، فليكسب المادة بأي شكل حتى ولو يكن في مكسبه هذا إنتاجا، لذلك كانت ظاهرة غسيل الأموال[181]، حيث تمثل عمليات غسيل الأموال نحو 25% من إجمالي التعاملات في أسواق المال العالمية!

ونُجمل فنقدم للقارئ الكريم نظرة عامة على العالم المعولم، وكيف صار حاله في هذه العولمة، والتي يراها الغربيون نهاية التاريخ! ونراها نحن موت الإنسان، يقول الدكتور محمد عمارة: "حضارة الشمال –الذين بنوا رفاهية مجتمعاتهم الغربية على فائض النهب الاستعماري العالمي. والذين يمثلون اليوم 20% من سكان المعمورة– يملكون

---

[179] تذكرني هذه الإحصائية بمزحة كان يقولها صديق دراسة، أنه من شدة ثرائه يستيقظ كل يوم فيلقي من النافذة كيلوين من اللحم ودجاجتين وعشرين جنيها! وكنا نضحك من تصوره للثراء، ولكن الواقع أن هذا هو مسلك الأثرياء فعلا!

[180] جاء في تقرير حديث للمجلس النرويجي للاجئين أن عدد المشردين في العالم يقدر بحوالي 26 مليون مشرد، نصفهم في إفريقيا!

[181] يقصد بعملية غسيل الأموال إعادة تدوير الأموال الناتجة عن الأعمال غير المشروعة في مجالات وقنوات استثمار شرعية لإخفاء المصدر الحقيقي لهذه الأموال، ولتبدو كما لو كانت قد تولّدت من مصدر مشروع.

ويستهلكون 86% من الانتاج العالمي (...) بل إن ثلاثة أفراد في أمريكا تبلغ ثروتهم مثل 48 دولة من أعضاء الأمم المتحدة أى نحو ثلث أعضاء المنظمة العالمية. ومثل هذا الخلل الجنوني في الملكية نجده في الانفاق (...) و400 بليون من الدولارات هي حجم الانفاق العالمي على المخدرات و105 بليونات من الدولارات تنفق على الخمور والكحوليات في أوروبا وحدها و67 بليونا من الدولارات تنفق على القطط والكلاب المنزلية في أوروبا وأمريكا وحدها. أي أن مجموع ما ينفق على هذا السفه والدمار يبلغ 1442 بليونا من الدولارات، بينما مجموع الإنفاق العالمي على كل من الصحة والتعليم والغذاء لا يتجاوز 19 بليونا: للتعليم ستة بلايين وللغذاء والصحة ثلاثة عشر بليونا. (...) توجهت أغلبية رؤوس الأموال العالمية 100 تريليون دولار أى 97% من حجم الأموال السائلة إلى السمسرة والمضاربات بينما الموظف في الإنتاج والتجارة هو 3.5 تريليونات دولار فقط لا غير. وعلى حين ارتفع حجم التجارة السلعية العالمية من 25 تريليون دولار 1990 إلى 38 تريليون دولار 1998م فإن حجم التجارة في الأوراق المالية أي المضاربات غير المنتجة بل والمدمرة قد ارتفع في ذات المدة من 15 تريليون دولار إلى 180 تريليون دولار[182]. (...) وإذا كانت ديون العالم الثالث، أي 80% من البشرية، قد بلغت عام 1997م 1950 مليارا من الدولارات تقتطع فوائدها مجردا أربعة اضعاف ما تنفقه دول العالم الثالث على الصحة والتعليم مجتمعين، فإن صورة هذه المأساة لا تُفهم إلا إذا علمنا أن الشركات متعددة الجنسيات ومتعدية القارات التي تعولم هذا الاقتصاد العالمي تقترض الدولارات من وول ستريت حى المال والأعمال في امريكا بفائدة قدرها 6% ثم تقرض هذه الدولارات لبلاد الجنوب بفائدة تتراوح ما بين 20 و50% الأمر اذي جعل استدانة الجنوب من الشمال تبلغ حد تمويل الجنوب للشمال لا العكس[183]" اهـ

---

[182] أعتقد أن هذه الأرقام خشبة تفقأ عين كل من يقول بحل الربا! فإذا حرم الربا فعلا لن يجد الإنسان طريقا لاستثمار ماله إلا التجارة السلعية أو الصناعة وهو ما يترتب عليه نماء الاقتصاد العالمي كله وعموم الخير لعامة البشر!

[183] محمد عمارة، مقال بعنوان: أبعاد العولمة وميادينها!

وعندما صار الإنسان مادة تطورت بالصدفة لم يعد يمثل أي قيمة إلا أرقاما تذكر، وكان من اللازم القضاء على الزوائد البشرية، لذلك كان من المنطقي أن يقوم جوزيف ستالين بارتكاب أكبر المذابح في تاريخ العالم دموية، بأن يأمر بإعدام أكثر من 20 مليون شخص. ولم يقتصر الأمر على ستالين، فكذلك كان الأمر مع "بول بوت" الشيوعي الدكتاتوري في كامبوديا، فقد كان مسئولاً عن ذبح نحو ثلاثة ملايين شخص، من بين السكان البالغ عددهم تسعة ملايين نسمة!

ولن نتكلم عن الإبادة الأمريكية للهنود الحمر، ولا عن إبادة السكان الأستراليين الأصليين، حتى لا نؤذي مشاعر إخواننا الغربيين ونذكرهم بالماضي القبيح!

فإذا نحن تركنا ظلم الإنسان لأخيه الإنسان واتجهنا إلى الكون والطبيعة فسنجد أنها هي الأخرى قاسية، فهناك السيول والفيضانات والزلازل والجفاف والبراكين التي تضرب البشر في كل مكان بلا غاية أو سبب، وتؤدي هذه الكوارث إلى موت ملايين البشر مباشرة، أو بشكل غير مباشر عن طريق المجاعات[184] والتشرد! وهكذا تنتهي حياة وأمال ملايين من البشر –الذين وجدوا بالصدفة– في ثورة حمقاء من ثورات الطبيعة!

ولا يكون رد فعل البشر كمساعدة للناجين من هذه الكوارث إلا مساعدات وهمية، تصور بالكاميرات ولا يصل منها إلى المتضررين إلا الفتات الفاسد، الذي لا يجدون له مصرفا في بلاد البشر المتبرعين، فيُلقى إلى الآخرين!

وفي النهاية يموت الإنسان ويتساوى الصالح مع الطالح والظالم مع المظلوم، ومن مات في سبيل الحق أو الوطن ومن مات في سبيل المال والشهوات، ويفر الظالم بظلمه ويموت المظلوم بحسرته، ويستمر مسلسل الظلم والفوضى على كوكب

[184] إذا نحن تكلمنا عن المجاعات التي حدثت بسبب بعض السياسات البشرية فيأتي على القمة المجاعة التي حدثت في الصين بسبب سياسة ماو تسي تونغ الشيوعية والذي حاول تنفيذ ما يسمى بخطة "القفزة الكبرى" للاقتصاد الصيني في أواخر الخمسينيات وأول الستينيات والتي أدت إلى مصرع ما يقرب من أربعين مليون شخصا!

الأرض، ظلم الإنسان وفوضى الطبيعة! ويقف الإنسان الملحد البسيط عاجزا عن دفع المظالم أوالفوضى فلا يجد أمامه إلا أن ينتحر، وعليه أن يفعل!

اقتصادي!

قلنا أن القرآن خاطب الإنسان بالثوابت مثل الطبيعة المحيطة، وباحتياجاته الرئيسة مثل الطعام والأمن! واختلفت الطرق الموصلة إلى هذه الاحتياجات وطرق التعامل معها! وهي محل صراعات البشرية وتنازعها في أمثل الطرق! ولقد أدلى المنهج بسجْله في المسألة، فعرّف المتبع الطريقة المثلى لذلك، والتي يمكننا إجمالها في كلمة واحدة، وهي أن المتبع للمنهج "اقتصادي"! ولا يعني هذا بحال أن المتبع خبير اقتصادي، وإنما المقصود أنه اقتصادي بالمدلولين الرئيسين للكلمة! فالقصد كلمة تدل على الإتيان والتوجه، يقال قصدت فلان أو الشيء. فهو اقتصادي بمعنى أنه يعي ويدرك جيدا حاجاته ويتوجه إليها، لا أنه واقع فريسة لفخاخ الاستهلاك غير المبرر!

كما أنها تدل على الوسط بين طرفين، فالمتوسط بين الإفراط والتفريط يقال له مقتصد. لذلك قال الله تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ... ﴿١٩﴾﴾ [سورة لقمان, ١٩] وقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة فاطر, ٣٢]، فهذا المقتصد خلط عمل صالحا وآخر سيئا، فهو وسط بين المفسد والسابق، وكذلك المتبع للمنهج فهو مقتصد في مسألة اكتساب المال والاحتياجات، وكذلك في مسألة الإنفاق والاستهلاك، وخاصة في مسألة الاستهلاك، فهو يستهلك بقدر ما يحتاج، وليس ذلك الجامع المبدد، فهو لعلمه أنه مسؤول عن النعيم، حريص أشد الحرص على ألا تضيع قطرة ماء، بدون أن تُستخدم، حريص على كسرة الخبز، أن تضيع!

وليس هذا الحرص بخلا، بقدر ما هو تذكرٌ للآخر، فهو يعلم أن هناك من هو في حاجة إلى قطرة المياة النقية هذه، أو كسرة الخبز التي يلقيها. فإذا استطاع أن يقتصد في استهلاكه،[185] هو ومن معه، توفر لديهم فائض، يحسنون به إلى إخوانهم من البشر، فيبقونهم أحياءا، لا أنهم يُلقونه في البحر، حتى تظل أثمانه مرتفعة!

والاقتصاد مطلوب، حتى ولو كان في الصدقات! فالله تعالى يقول: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾ [سورة الإسراء ,٢٦]، فنهى عن التبذير بعد ذكر إعطاء الحق للقريب والمسكين وابن السبيل، ليُعلم أن الاقتصاد في كل شيء هو عين الصواب.

وليس الجانب الاقتصادي بالأمر الفرعي في حياة المتبع للمنهج، وإنما هو من الملامح الرئيسة، التي لا يمكن التفريط فيها، لذلك نجد في سمات عباد الرحمن، الذين يمثلون قمة المتبعين للمنهج، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [سورة الفرقان ,٦٧] فإنفاق الصفوة وسط بين الإسراف والتقتير، إنفاق باستواء مناسب للمنفق فيه.

ولمتبع المنهج فلسفة واضحة في التعامل مع الماديات مستقاة من نصوص المنهج، يلتزم بها في كل تعاملاته، وسنحاول أن نعرض في إيجاز الخطوط العريضة لهذه الفلسفة:

يؤمن المتبع بثبات المنهج وصلاحيته ونافعيته، وذلك لأنه إلهي المصدر والغاية. والمتبع في تعامله به يبتغي وجه الله، فيتحقق بذلك عنصر هام في التعاملات المادية وهو المراقبة الذاتية، لذلك فهو لا يغش ولا يخدع، وإنما يتعامل بالحق وبالقسطاس المستقيم.

---

[185] نذكر بالنسبية في المسألة، فحتما سيختلف اقتصاد الغني عن اقتصاد الفقير، فحاجات وضروريات كلٌ منهما تختلف عن ذوات الآخر، وهذا يجرنا إلى التنبيه على أن الاقتصاد لا يكون بالتقتير والتقليل، بقدر ما هو اكتفاء بالحاجة، وعدم تعديها إلا بقدر!

وهذا التعامل العادل نابع من نظرة الإنسان إلى الماديات، فهو ينظر إليها على أنها وإن كانت من المتع المباحة والواجب تملكها بالنسبة للإنسان، إلا أنها ليست الغاية من حياة الإنسان ولا هي مقياس نجاحه وفلاحه، وإنما هي وسائل تعين الإنسان على تأدية رسالته العالمية، ويعلق الدكتور يوسف القرضاوي على هذه النقطة فيقول: "فإذا كانت بعض النظم العالمية تجعل الخبز هدفها، والبطن محورها، والاقتصاد مشكلتها، والدنيا أكبر همها ومبلغ علمها، والمادة دعامة حياتها، بل عماد حضارتها ومدار فلسفتها وتفكيرها، فإن نظام الإسلام يهتم بهذه الأمور على أنها وسيلة لا غاية وفرع لا أصل، ويوجه أكبر همه وعنايته إلى السمو بالروح، والرقي بالإنسان من ظلمة المادة، وجاذبية الطين، وهبوط الغرائز، إلى إشراق الروح، وهداية السماء، والتطلع إلى الملأ الأعلى.[186]" اهـ

فالمتبع يضع أمام عينيه خاطرة رئيس وهي: ما الذي سيجنيه المجتمع إذا حقق رخاء اقتصاديا وفسادا أخلاقيا؟ إنه لن يجني إلا الضياع والهلاك، بسبب مسلك أبناءه والذي لن يؤدي إلا إلى الإفساد في الأرض والطغيان والبغي، فالمعادلة القرآنية واضحة: مال بلا أخلاق= طغيان وبغي وترف، يتبعه إهلاك.

لذلك فلا بد من أن تكون الأخلاق هي الحاكمة والمسيطرة على السوق، فلا مكان للدعاوى القائلة بفصل الأخلاق عن السوق وتقديم الفائدة النفعية، لأن هذا الفصل سيصحب بمضار عامة أكبر بكثير من المنفعة الفردية العائدة على الإنسان، ودفع الضُر العام مقدم على النفع الفردي!

ويحبذ المنهج تحقيق التقارب بين الأفراد، لا أنه يسعى إلى القضاء على الفوارق كما فعلت الشيوعية. ويكون هذا التقارب بتحقيق مستوى ملائم من المعيشة لجميع الأفراد، مع البعد كل البعد عن ظهور طبقة المترفين المرفهين، لأن ظهور هذه الطبقة هو سبب عامة الفساد والظلم الذي يصيب المجتمع، اجتماعيا كان أو ماديا، فما

[186] يوسف القرضاوي، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، ص.35.

تحقق ترف في جهة على سطح الأرض إلا وقابله فقر في ناحية أخرى. فظهور هذه الطبقة مؤذن باتساع الفوارق بين الطبقات المختلفة، وتضييع وجهة أفراد هذه الطبقات.

والناظر يجد أن عامة البشر يسعون إلى تحقيق مستوى الرفاهية والرخاء، مع أن هذا المستوى قاتل لإبداع الإنسان ولإنسانيته، ولا يتوصل إليه في جل الأحوال إلا بالغش والخداع. أما المنهج فيوصي بتحقيق مستوى اقتصادي محدد يبقى الإنسان فيه إنسانا مؤديا لجميع أدواره في الحياة، فيكون ذلك الأب والعامل والقريب والجار والصديق والإنسان والمبدع، ويكون ذلك بالوصول إلى مستوى الكفاية أو تمام الكفاية![187]

فهذا هو المستوى الذي يمكن للإنسان فيه أن يبدع وينتج ويبقى إنسانا! فالملاحظ –المغفول عنه!– أن المبدعين لا يكونون أغنياء غنى مفرطا ولا فقراء فقرا مدقعا، وإنما في الطبقة الوسطى، الذين لا تشغل المادة إلا جانبا في حياتهم، فيتحركون من أجل تحقيق أحلامهم ومبادئهم وتصوراتهم، أما الأغنياء فهم مشغولون بتنمية ثرواتهم بكل السبل الممكنة وغير الممكنة، والفقراء يسعون أول ما يسعون إلى تغطية حاجاتهم الرئيسة من مطعم وأمن!

ولا يمكننا أن نلوم الفقراء في هذا واللوم كله على الأغنياء! وقد يقدح الفقر زناد الإبداع عند الإنسان، أما أن يقدحه الغنى فنادر مستبعد، وإذا قدحه فيقدحه في مجال الفساد والوصول إلى المال، وليس هذا من الإبداع الإنساني مثقال ذرة!

---

[187] يذكر الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه "دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي" –ص170– مستويات الاحتياجات الإنسانية، فيقول: "للمعيشة الإنسانية –في المجال الاقتصادي– مستويات أربعة، بعضها دون بعض. هناك "مستوى الضرورة" وهي الحالة التي يعيش فيها الإنسان على ما يمسك عليه الرمق، ويبقي عليه أصل الحياة، ويدفع عنه الهلاك أو الموت ... وهناك مستوى أحسن من هذا وهو "مستوى الكفاف"، وهو الذي يمثل الحد الأدنى للمعيشة دون زيادة ولا نقصان، فلا مجال فيه للون من السعة والترفه ... وهناك مستوى أفضل من هذا، وهو الذي يسميه الفقهاء "تمام الكفاية" للإنسان، فليس المقصود إذن هو مجرد الكفاية، بل الكفاية التامة بكل عناصرها ومقوماتها، وهذا هو المستوى الذي يريده الإسلام لأبنائه، بل لكل من يعيش في ظله، مسلما أو غير مسلم ... وهناك فوق ذلك: مستوى الترف، وهو مرفوض إسلاميا." اهـ

إذا فكما أن المتبع وسط "مقتصد"، فكذلك التصور الأمثل للمجتمع هو ذلك المجتمع "المقتصد"، الذي لا تتسع الفوارق الطبقية فيه، ولا تظهر فيه طبقة المرفهين، وإنما يعيش عامة البشر فيه في حالة الكفاية التامة، عارفين بأن المادة وسيلة لا غاية! غير مصابين بالسعار الاستهلاكي، متمثلين قول الشاعر:

وإذا غلا شيء علي تركته فأراه أرخص ما يكون إذا غلا

وكناتج لاختلاف المنظور إلى الحاجات الإنسانية كغاية أو وسيلة، اختلف المنظور إلى المال، والذي هو تابع للحاجة وليس حاجة أصلية. فنجد أن المنهج لا يقبل بحال أن يتحول المال إلى غاية ويلزم باعتباره وسيلة، لما في هذا الأمر من الصلاح الاقتصادي والاجتماعي للبشر، ومن أجل هذا حرم الربا وحرم أن يصير المال سلعة تباع وتشترى، وألزم المتبعين بحصر دور المال كوسيلة. أما باقي المناهج فجعلت المال نفسه سلعة تباع وتشترى وأباحت الربا وجادلت في إباحته!

وعلى الرغم من كوني غير دارس للاقتصاد، إلا أن الربا معضلة لا حل لها، وهي من عجائب الدهر مثل التثليث! فإذا كان المال لا يلد، وإذا كان المال الموجود في السوق هو س، فكيف يرد من استدان س بأكثر منها؟[188]

ولا يرى قصار النظر في الربا أو في المتاجرة في المال ضررا، على الرغم من ضرره الفتاك. ونوضح للإنسان المغفل الضرر البالغ في صيرورة المال مادة للمتاجرة؛ فنقول: جعل الله المال ليتمول به وليتوصل به إلى المنافع، فإذا أراد الإنسان أي حاجة توصل إليها بالمال. والمجتمع البشري كله قائم على السخرية المتبادلة، فأنا أخدم غيري وغيري يخدمني، وجُعل المال معيار تقديم الخدمات المتبادلة.

فإذا قُدم المال لقاء المنفعة، عُلم أن السبيل الوحيد للوصول إلى المال هو العمل والجد، فيعمل كل البشر، كلٌ في مجال، من أجل التحصل على الحاجيات الأخرى

---

[188] هناك الكثير من الاقتصاديين الغربيين الذي ينقدون وينقضون الاقتصاد الربوي ويجزمون بفساده، لأنه قائم على الخراب! ويرون أن الخطوة الأولى لإصلاح الاقتصاد هي خفض الفائدة إلى صفر مئوي كبير!

بالمال. فإذا استخدم المال كعنصر للتجارة، دخل في دائرة مفرغة لا تستفيد منها البشرية قطميرا، وهكذا يستمر المال في الدوران كعنصر مجرد لا ينتج زرعا ولا صناعة ولا علما، ومن ثم تخرب المجتمعات البشرية!

ونطلب إلى القارئ الرجوع إلى العنصر السابق "وجوب الانتحار"، ليرى كيف أن المال فقد دوره في تنمية المجتمعات، فالذي يدخل في المضاربات والسمسرة قرابة "100 تريليون دولار"، والذي يدخل في التجارة والإنتاج الفعلي هو حوالي 3.5 تريليون دولار! ولا وجه للمقارنة أو المقاربة!

ونختم هذا العنصر بسؤالين إثنين: كيف سيكون حال البشرية لو دخلت كل الأموال الموجودة في التجارة والإنتاج الفعلي؟ والسؤال الثاني: هل يمكن أن ندخل هذه الأموال في الإنتاج الفعلي، ما دام يمكن اعتبارها كسلعة وعنصر متاجرة في النظام الاقتصادي الحالي؟ أنا أجزم أنه من غير الممكن أن تدخل في ظل النظام الحالي، إلا أننا نترك للقارئ الكريم الخيار التام في الإجابة.

سباق ذو مضمارين!

سباقان منصوبان في دنيانا هذه: سباق لها، وسباق عليها. وشتان بين السباقين! فالسباق الذي هو للدنيا امتلأ ويمتلأ ولا بد أن يمتلأ بالخداع والغش والتزوير، وهذا ما نجده في أي تنافس في دنيانا هذه، بدءا بالمسابقات الرياضية التي أصبحت تعتمد بالدرجة الأولى على نوع المنشط الذي يتعاطاه الرياضي، وكذلك على الخدع التي تؤهله إلى إحراز المراكز الأولى، حتى أصبح الحديث عن التنافس الشريف في الرياضة كلاما تلوكه الألسن بلا مقابل على أرض الواقع، وانتهاءا بأي تنافس مادي أو حتى فكري، والذي قد يصل التناحر حوله إلى تصفية الطرف الآخر أو تشويهه!

وانحدار مستوى التنافس البشري إلى هذه الدرجة هو أمر طبيعي، وذلك لانعدام الغاية في التسابق، حيث أصبح عنصر التسابق هو الغاية، ولا مُقوِّم للنجاح إلا الوصول إلى السبق! لذا فمن المنطقي الوصول إليه بأي وسيلة كانت، فالغاية تبرر الوسيلة!

أما السباق الذي هو عليها حيث يتخذها مجرد أرض له، فهو سباق آخر ذو مضمارين، يشترك أحدهما مع الآخر في عنصر التسابق وهو حصاد الدنيا، وإن كان يختلف معه في الغاية، فالغاية هي السيادة تنفيذا لكلمة الله العلي، من أجل الوصول إلى أعلى ترقية ممكنة للإنسان –في الدنيا– عن طريق تحقيق أكبر قدر من السلام والعدل، فالغاية إذا في النهاية هي الله وليس التملك. ومقوم النجاح في هذا السباق هو الله الرقيب، واتباع كلمته، لذا فلا نجاح إلا بسبيل واحد، وليهلك الإنسان دونه فلا سبيل إلاهُ، فلا خداع أو غش أو تحايل!

أما المضمار الثاني والذي يخالف الأول تماما في العنصر وفي الغاية فهو التقرب إلى الله عزوجل وتحقيق حبه! فهذا العنصر عنصر تفردت به الأديان، وفتحت فيه بابا كبيرا للتنافس. ويتحقق هذا الحب عن طريق النظر في خلق الله وفعله وعن طريق التدبر في الكون وفي كتاب الله، وعن طريق الإكثار من ذكر الله عزوجل، فمن واظب على ذلك تحقق له حب الله وقربه والأنس به: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ ... ١٩١﴾ [سورة آل عمران, ١٩١]، ﴿... وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [سورة الأحزاب, ٣٥] فيفيض لسانه في كل حياته، في سيره، في عمله، في كل وقت وحين، بذكر الله وشكره على نعماءه عليه، التي تحيطه فلا يستطيع أن يحصيها! ذكر نافع مقرب من علام الغيوب، وليس مجرد كلمات تلوكها الألسن، بدون أثرٍ يذكر في القلوب.

ولكن المعضلة الكبرى في هذا الباب هي الجذب! فهذا المضمار ذو جاذبية كبيرة، لما يجد المتنافس فيه من لذة وحلاوة وانشراح وانبساط، حتى أن هذه اللذائذ قد

تشغل الإنسان عن المضمار الأول للسباق ويكتفي بهذا المضمار! ولزاما بداهة أن يسعى المتسابق المتبع في المضمارين على التوازي، بلا تقصير في أحدهما، فكلاهما ضروري ومكمل للثاني.

ولقد حث المنهج المتبعين على التسابق والتنافس في آيات عدة، فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحديد, ٢١]، ﴿... وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة المطففين, ٢٦] ولكنه أعلمهم أن الجودة والإخلاص وانتظار الأجر من الله، هي أهم عناصر السباق وبدونهم تتحول وجهة السباق ويُرفض: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة المؤمنون, ٦٠-٦١]

فمن خاض المضمارين على مراد الله عزوجل متبعا قانعا خاضعا، استحق المكافأة على ذلك، فما من سباق إلا وله جائزة، وتأتي الجائزة على مقدار معطيها، جائزة أكبر بكثير مما بذله الإنسان، جائزة تستحق بذل النفيس والغالي، وهي السعادة والسكينة في الدنيا وعيشة راضية في الآخرة، فليس فقط هو الراضي وإنما كذلك العيشة راضية، فكيف هذه العيشة التي رضت؟!: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحاقة, ٢١]

شورى واجبة!

على الرغم من أن الكتاب أمر المتبع بإعمال عقله وبالنظر في الكون وبالتفكر فيما حوله، وفي سنن الله في خلقه وكونه وفي حوادث التاريخ، إلا أنه لم يتركه يقع في وهم الإعجاب بالذات فيعمل على اتخاذ قراراته بنفسه فقط، وإنما حثّه على التشاور في

كل صغيرة وكبيرة في حياته، فمهما كان ألمعيا فليتخذ القرار في شكل جماعي، فسيؤدي هذا إلى الوصول إلى تصورات أفضل وأعم وأشمل، فقد يكون رأيه وتصوره سليما، ولكن حتما عند الآخر نظرة مغايرة، وهناك غالبا من لديه تصور أفضل، فنخرج باجتماع الآراء إلى أفضل التصورات.

كما أننا نساهم بهذه الشورية في تنمية المقدرة عند غير المحنكين على سلامة اتخاذ القرار، وهذا مما نعاني منه عند شبابنا خاصة، فنجد منهم خرَقا ظاهرا في اتخاذ القرارات، وذلك لبعدهم و استبعادهم من مجالس الشورى، أما إذا شاركوا وشوركوا وشاوروا وشووروا، فسيتحصلون في سن باكرة على خبرة كبيرة بمجريات الأمور وحكمة في التدبير.

كما أن في التعود على الشورى تعظيم لدور الفرد في الجماعة، فيجد أنه فرد فاعل فلا يشعر بذلك التهميش الذي يجده الأطفال أو الشباب، فينصرفون إلى اللهو واللعب ويتركون هذه الأمور للكبار فهي من اختصاصهم! وإنما يشعرون بدورهم في المجتمع فيحملون المسؤولية منذ صغرهم، فينشأ أطفال رجالا.

ولقد رسخ المنهج الشورية عند متبعيه في كثير من الآيات، ولكنها للأسف من كثير من الآيات التي أُعرض عنها وأهملت من المسلمين! فنجد أن الله تعالى يذكر في سمت المتبعين المفلحين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الشورى, ٣٨] فهم قوم يسمعون لكلمة الله ويتقربون إليه، ثم لا ينفرد أحدهم باتخاذ القرار وإنما يتشاورون ليخرجون بأفضل النتائج، أما الانفراد بالرأي فهو مفسدة أي مفسدة، ولقد ذم الكتاب هذا المسلك في آيات عدة، والذي يظهر أيما ظهور في مسلك فرعون، حيث قال الله في حقه: ﴿... قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة غافر, ٢٩] فالاعتقاد بتملك ناصية الصواب هو الخطوة الأولى إلى الهلاك والإهلاك، خاصة إذا كان هذا المتفرد هو قائد الجماعة!

وكما عرض المنهج النموذج الفاسد للمنفرد بالرأي عرض كذلك النموذج الصالح الذي يجب اتباعه، وهو فعل ملكة سبأ بشورتها: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة النمل ,٣٢]

وكذلك فعل النبي الكريم سليمان الذي كان يشاور ملأه! ولم يكتف المنهج بعرض نماذج تحث على الشورى، وإنما أمر الرسول الأعظم –والذي لنا فيه الأسوة الحسنة– بأن يشاور من معه فقال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ[189] فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران ,١٥٩]. فالرسول القائد مأمور بمشاورة من معه، وكذلك كل قائد مأمور بالمشاورة! ثم اتباع المشورة بداهة! ومما يعجب له المرء أن بعض الفقهاء قالوا حقا أن الشورى واجبة، ولكنهم ألغوها من الناحية الأخرى حيث قالوا أنها غير ملزمة! ولست أدري ما هو التأثير الكبير لشورى غير ملزمة!

وكما رسخ المنهج مسلك الشورى في رأس المجتمع وهي القيادة، قام بترسيخها عند الوحدة الرئيسة لكل مجتمع بشري، وهي الأسرة! فعلّم أن الشورى واجبة في الأسرة، يشاور الرجل زوجه وبالعكس، وكما يشاور الأبناء والديهم، والآباء يشاورون الأبناء كذلك، وفي هذا إشاعة لجو الحب والمصارحة والتعاون في البيت! فليس البيت محلا لسطوة الأب، وإنما هو مكان للحب .. وللشورى، فكل قرار يجب التشاور فيه، –انطلاقا من أن للمرأة مثل ما عليها وللرجل كذلك–، وبهذا تتحقق التقوية المثلى لوحدة المجتمع الرئيسة، فننشأ أسرة سليمة مترابطة متحابة، تخرج أفرادا صالحين أقوياء للمجتمع.

---

[189] نزلت هذه الآية بعد غزوة أحد والتي انهزم المسلمون فيها بسبب مخالفتهم لأمر الرسول، وبسبب خروجهم لقتال المشركين خارج المدينة، في حين كان الرسول وكبار الصحابة يريدون القتال في المدينة، ولكن نزولا على أمر الأكثرية –من الشباب– خرج الرسول والصحابة وكانت الهزيمة، وبعد الهزيمة يأت الأمر من الرب بالمشاورة فليست هي سبب الهزيمة، ففيها كل الخير وعلى القائد التمسك بها حتى ولو أدت –ظاهريا– في بعض الأحيان إلى الهزيمة!

ونجد أن حديث المنهج حول هذه المسألة واضح في آيات عدة، ولكنها على الرغم من ذلك ضُيعت: ﴿... فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾] سورة البقرة ,٢٣٣[فإذا أراد الوالدان مثلا أن يفطما الطفل، فيكون هذا عن رضى الطرفين ومشورة مسبقة! وليس بانفراد أحد الفريقين بالرأي[190]! فالشورى مأمورة في كل كبيرة وصغيرة، وهي عنصر تقوية ورشاد أمثل!

التعالي عن الذاتية والمحورية

من أخطر الضلالات التي يقع فيها عامة البشر مسألة المحورية، فنجد أن عامة البشر يظنون أن عائلتهم أو قبيلتهم أو قريتهم أو دولتهم هي محل الصواب ومركز الأهمية وموطن الرفعة والتعالي على الآخرين!

وهكذا بدون أي أسباب منطقية أو غير منطقية، تجد أن الفرد يشعر أن عائلته أفضل وأعظم، لم؟ ربما لأنه منها! يشعر أن طريقة النطق، التي تتلفظ بها بلدته، هي الأصل الصحيح للسان، وما عداها فلغو، يجب التراجع عنه واتباع لهجة بلدته، لذا فمن حقه أن يسخر منهم! يجزم أن أسلوب الحياة التي تسلكه جماعته هو الأقوم والأصوب والذي ينبغي حمل الناس عليه، ويحتقر الآخرين لعدم سيرهم على منهج جماعته، حتى ولو كان المجتمع قائما على السرقة والاستغلال والتحكم في مقدرات الآخرين، يكفي كون الآخرين أقل درجة في الماديات ليكونوا في ضلال مبين!

---

[190] المسألة مشورة بلا إجبار، حتى أن الوالد ليس له القدرة أن يجبر الأم على إرضاع الصغير –إذا رفضت!–، ويحق لها أن تطالبه بالأجر على إرضاع الولد: ﴿... فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾] سورة الطلاق ,٦[

وحتى لو لم يكونوا أقل منهم درجة يكفي كونهم ليسوا من جنسهم ليكونوا أقل درجة أو درجات! فنجد أن الأبيض ينظر إلى الأسمر نظرة تعالٍ، وكذلك الأسمر ينظر نظرة استخفاف بالأبيض، نجد أن بعض البشر يسخرون من الآخرين لطريقة تناولهم للطعام أو لنوعية الطعام الذي يتناولونه! فحتى الطعام لا بد أن يقلدنا العالم فيه، وإلا فهم مستحقون للسخرية والاستهزاء!

وأعجب ثم أعجب من بعض المرفهين المترفين، والذين لا فائدة لهم في الحياة، –إلا إذا كان الإفساد في الأرض والتبذير فائدة!–والذين هم عالة على المجتمع، الذين يسخرون من الفلاحين والعمال، لأن أيديهم متسخة وثيابهم قذرة ولا يعيشون في مستوى اجتماعي مناسب. وأعجب أكثر ممن لا يفتخر بعمله ويودُّ أن يكون مُرفّها مثل هؤلاء الحمقى فاقدي النفع جالبي الضر.

وهكذا نجد أن المجتمعات والأفراد البشرية يمركزون العالم حولهم، فيجب على الجميع أن يقتدي بهم، فهم القدوة الحسنة الصحيحة، ولكن البشر حمقى ولا يفعلون، ويتمسكون بعاداتهم وأساليبهم لذلك فهم يستحقون أن يُسخر منهم!

والمنهج يعلمنا أن هذا التصور وهم باطل لا أساس له من الصحة، نابع من ألفة الإنسان واعتياده على ما يراه ويحتك به، والمألوف منطقي مقبول والغريب عجيب مرفوض، وهذا منطق غير صحيح بتاتا فليس كل ما لم يألفه الإنسان غير منطقي، لذا فعلى الإنسان أن يتعالى عن الذاتية والمحورية وأن يتبع العقل والمنطق والحق في التعامل، فليس هناك أي مبرر للسخرية من هذه الأمور كلها، فالاختلاف ضروري وحتمي في أمور الحياة، وإنما على الإنسان أن يحاول أن يرشد أخيه الإنسان إلى موطن الصواب، لا أن يسخر منه –هذا إذا كان الآخر مخطئا أصلا، فربما يكون الإنسان هو المخطئ!–: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا

تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾] سورة الحجرات, ١١]

وعليه كذلك أن يقيس الأمور من الزوايا التي تخضع لها، لا أن ينطلق من زاوية واحدة ليسقط منها الحكم على أمور لا تعلق لها بها!: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾] سورة البقرة, ٢١٢]

فنجد أن الكافرين يسخرون من المؤمنين ويستخفون بهم، ويظنون أنهم على ضلال حتمي، لأن المؤمنين فقراء، ولو كانوا على صواب لما افتقروا! وهذا وهم، فما ذنبي إذا كان الكافر جبارا مفسدا متسلطا يسرقني وينهبني، ثم يتهمني بالخطأ والضلال لأني فقير، ولو كنتُ مصيبا لما صار هذا حالي.[191]

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾] سورة سبإ, ٣٤-٣٥] ففي هذه الآية نموذج على الاغترار بالمال والتحصن به، والاعتقاد أنه مانع من العذاب، وهو وهم مماثل للأول وإن كان مرتبطا بالدنيا وبالآخرة معا! على الرغم من عدم وجود أي علاقة بين الترف والنجاة من العذاب، ولكنها المحورية والذاتية التي يقع فيها عامة البشر!

وختاما فالمنهج يعلمنا ألا نظن أننا المحور أو الاستثناء! ففي الحالات العادية نحن الصواب الأصل، أما في حالات الضرورة فنحن استثناء حتمي لا تُطبق عليه الأحكام والقوانين. ونجد عند كل إنسان ميلاً شديدا لجعل نفسه استثناء لا يصدق عليه الأحكام، بدون أي مبرر لذلك سوى الرغبة في التهرب من العقاب أو التبعة! وهذا نابع من تضخم الذات عند الإنسان، لذلك فالمنهج ينبه أن الحق حقٌّ واجب الاتباع

[191] لا يزال كثير من الغربيين يقيسون الأمور بهذا المقياس، وينسون تماما أنهم يمتصون دمائنا ويسرقوننا بالتعاون مع حكامنا الخانعين لهم، المتجبرين علينا!

بغض النظر عن هيئة وقوعه، كانت للإنسان أو عليه، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [سورة النساء, ١٣٥]، ويقول: ﴿... وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [سورة الأنعام, ١٥٢]

فالإنسان يبحث لنفسه عن مبررات، مبتعا هواه في ذلك، لذلك نُهي عن اتباع الهوى وأُمر باتباع الحق حتى ولو أدى ذلك إلى ضره أو ضرر قومه،[192] فالحق فيه النفع والصلاح والعدل، وهذا ما يجب أن يُقام على الأرض، لا أن يكون كل الهم البحث عن مبررات لتصرفاتنا وسلوكنا.

تأريخ الإنسان!

قلنا أن الكتاب قدّم للإنسان إجابة الأسئلة الأبدية، التي راودت الإنسان بخصوص خلقه ونشأة الكون، إلا إن هذه الوقائع لا تمثل إلا نقطة البداية، ليس أكثر، والإنسان ككائن مجبول على الفضول يريد استنكاه الماضي واستكشافه، ليعرف ماذا حدث على وجه البسيطة إلى أن أنزل الله تعالى القرآن، الذي ذكر تاريخ الأقدمين، والذي به ومعه بدأ التاريخ الحديث.

ولم يُغفل الكتاب العزيز هذه النقطة وقدمها للمتبع على صحف من نور! ولا يعني هذا أن الكتاب كتاب تاريخ، أو أنه ذكر كل الوقائع والأحداث التي وقعت على سطح

[192] أتذكر نقاشا دار بيني وبين صديق حميم حول هذه النقطة، ومما ذكره أنه قال: لو دخل المسلمون بلدا من البلدان لتحريره من ظلم معتد أو ما شابه، ثم انحرفت بعض القوات واعتدت على بعض الرهبان أو المدنيين وقتلتهم فسأجد نفسي مضطرا إلى قتل المسلمين، فهذا هو الحق وهؤلاء حادوا عنه، وخالفوا تعاليمه!

البسيطة للبشر، فليس هذا هو محور قص الكتاب للتاريخ! وإنما يريد بقصه أن يعطي المسلم الإحساس بالتاريخ، وبدوره فيه، وكيفية قراءة الوقائع المحيطة، حتى لا يصير إلى ما صار إليه الأقدمون. وبذلك يعلم المنهجُ الإنسان أنه هو الذي يصنع التاريخ، وأن هذه هي المهمة الموكلة إليه، وبذلك تختلف نظرته إلى الوقائع.

ويعلق المستشرق ولفريد كانتول سميث على اختلاف النظرة هذه، في كلمة رائعة في كتابه "الإسلام في العصر الحديث"، فيقول: "إن المسلم يحس إحساساً جادّاً بالتاريخ على نحو يختلف عن فهم البوذي والمسيحي والماركسي، فالرجل الهندي لا يأبه بالتاريخ ولا يحس بوجوده لأن التاريخ هو ما يسجله البشر من أعمال في عالم المادة وعالم الحس، والهندي مشغول أبداً بعالم الروح عالم اللانهائية، ومن ثمّ فكل شيء من عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن، والتاريخ بالنسبة إليه شيء ساقط من الحساب. وأما المسيحي فيعيش بشخصية مزدوجة أو في عالمين منفصلين، لايربط بينهما رباط:

1- المثل الأعلى غير القابل للتطبيق.

2- الواقع البشري المطبق في واقع الأرض منقطع عن المثال الأعلى المنشود.

هذان الخطّان يسيران في نفسه متجاورين أو متباعدين ولكن على غير اتصال، والتاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه. وأما الماركسي فهو مؤمن بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي الى الخطوة التالية بطريقة حتمية، ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس، بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده وكل شيء عداه باطل. والماركسي يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجهها ولا يقيسها بأيّة مقاييس خارجة عنها. وأما المسلم فإنه يحس إحساساً جاداً بالتاريخ، إنه يؤمن بتحقيق ملكوت اللّه في الأرض، يؤمن بأن اللّه قد وضع نظاماً عملياً واقعيّاً يسير البشر في الأرض على مقتضاه ويحاولون دائمًا أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره، ومن ثمّ فهو دائماً يعيش كل عمل فردي أو جماعي، وكل شعور فردي أو جماعي، بمقدار

قربه أو بعده عن ذلك النظام الذي وضعه اللّه، والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق. والتاريخ في نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت اللّه في الأرض، ومن ثم فكل عمل وكل شعور، فردياً كان أو جماعياً ذو أهمية بالغة، لأن الحاضر هو نتيجة الماضي والمستقبل متوقف على الحاضر." اهـ

ولكي يُنشأ القرآن هذه النظرة عند المتبع، انتُقيث باقةٌ من الوقائع التاريخية وعُرضت فيه بأسلوب بديع، يجذب الإنسان إلى التفكر فيها واستجلاءها. والكتاب إذ يقص يكتفي بأحسن القصص،[193] التي يحتاجها الإنسان: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [سورة يوسف ,٣]، والتي يخرج منها بأكبر وأعظم الفوائد!

وكراكز رئيس لاستكمال عجلة التطور كان لزاما أن يعلم الإنسان كيف تتبعته يد العناية الإلهية وأمدته بما يحتاج من العلوم والمعارف، التي أهّلته لحياة تسير بخطى ثابتة إلى الأمام على سطح هذا الكوكب!

لذلك نجد أن القصص القرآني اقتصر على ذكر عملية أنسنة البشر، والتي حدثت بواسطة الأنبياء والرسل، والتي بها يتذكر الإنسان فضل الله عليه؛ فلولاه لكان لا يزال ذلك الكائن الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فالله لم يخلقه ويهمله، وإنما أعد له كل ما يحتاج من غذاء بدني وروحي،[194] حتى تستمر حياته على الشكل الأمثل! وأرسل له الرسل حياة، فخاضوا الصراعات الشرسة ليحرروه من الوهم، الذي يسعى أعداء الله والدين إلى تعميمه ونشره بين البشر، حتى يصل البشري إلى درجة لا يستطيع معها أن يرى أو يسمع أو يعقل .. فيموت!

---

[193] قد يأخذ القارئ انطباعا غير إيجابي عند قراءته لكلمة "قصة"، وذلك لاستعمالها القاصر كدال على الأحداث المبتكرة ذهنا، وهذا الاستعمال غير دقيق، فهي كما وردت في المقاييس: "القاف والصاد أصلٌ صحيح يدلُّ على تتبُّع الشَّيء. من ذلك قولهم: اقتصَصْتُ الأثَر، إذا تتبَّعتَه. ومن ذلك اشتقاقُ القِصاص في الجِراح، وذلك أنَّه يُفعَل بهِ مثلُ فِعلهِ بالأوّل، فكأنَّه اقتصَّ أثره. ومن الباب القِصَّة والقَصَص، كلُّ ذلك يُتَتَبَّع فيذكر ..." اهـ

[194] يرجى مراجعة تناولنا لسورة التين في كتابنا: قراءة لسور الطعن، والتي تناولنا فيها الإشارات الواردة في أول السورة، والتي دلل الله عزوجل بها على أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم!

فإذا استطاع الإنسان أن يستخرج العبرة من قصص أسلافه ومسلكهم مع أنبياء الله، تلافى الوقوع فيما وقعوا فيه من أخطاء، واتبع المسلك القويم الذي دعت كل الأنبياء إليه! وزماننا هذا وإن خلا من الأنبياء، إلا أن كلمة الله لا تزال باقية حية، ذاكرة للأحسن من قصص الأنبياء، فكأنهم وأقوامهم موجودون بيننا، نرى عمل يد الله فيهم! ولا تزال يد الله تعمل في الكون كما كانت في الماضي، ولكن قليل من يراها! وليس القصص القرآني مُختلقاً من أجل التسلية أو العبرة، وإنما هو قص لما وقع في ما سلف من الأزمنة كما كان: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [سورة يوسف, ١١١]

وبهذا القص تصحيح لكثير من التصورات المنسوبة إلى كلمة الله –التي حُرفت– في الكتب الأخرى، والتي أهلها في شك منها من حيث ثبوت الكلمة أو وقوع الفعل: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة النمل, ٧٦]، فالقص القرآني يأتي كمرجح للنفي أو للإثبات!

والكتاب إذ يقص فإنه يراعي جانبا أصيلا في الإنسان وهو حبه للتراث! فالإنسان يستفيد من قصص الأقدمين ويضع لها من القداسة ما لا يضعه لأحداثه المُعاشة، فيتخذها عنصر تثبيت للنفس، إذ يُخبر بها أن ما يمر به ليس بدعا من الحدث وإنما هو مكرور، وكما حدث في الماضي يحدث له، وبهذا يطمئن فؤاده: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة هود, ١٢٠]

والتاريخ المشرف خير انطلاقة للإنسان، فإذا أدرك أنه من أمة ضاربة الجذور، أعدها الله عزوجل وصنعها على عينه، ورعاها بيده منذ مبتدأ تاريخ الإنسان، وتكفل بحفظها إلى قيام الساعة لغرض سامٍ، وشرّفها بالشهادة على الأمم في اليوم الآخر، فإنه يتخذ هذا الفخر الماجد والشرف التالد كنقطة انطلاق ليواصل مسيرة هذه الأمة وتفردها بين

الأمم وعلوها لتؤدي رسالتها، ليكون ممن ورثوا المجد كابرا عن كابر، بخلاف ذلك الذي لا يجد في أصله الحيواني الصدفوي أي دافع له، فهو حيوان وعليه أن يعيش كذلك، فيتعثر قبل أن يتحرك!

والكتاب وإن اكتفى ببعض القصص فإن ذلك راجع إلى عدم احتياج الإنسان إلى غيرها، فمهما اختلفت الأزمنة والأمكنة فسيظل الإنسان هو الإنسان، بدون أدنى اختلاف، وستبقى الأخطاء هي نفس الأخطاء: تكبر عن سماع كلمة الله، لأنها من وجهة نظره![195] غير مناسبة للعصر أو غير منطقية! المطالبة بآية حسية على صدق الرسالة، المطالبة برؤية الله تعالى أو الملائكة قبيلا! الرضا بما وجد الإنسان عليه أهله وعدم الرغبة في التفكر في الآخر ولو كان صحيحا! المحاجة بانقطاع يد الله عن العمل، فلم كان يهلك الأمم في الماضي فقط ولم يعد يفعل؟! الادعاء أن الله تعالى هو الذي شاء أن يفعلوا هذا كله! ويذكر الكتاب في سورة الزخرف نموذجا مثاليا لمسلك البشر العابدين لغير الله تجاه الرسالة والرسول، فيقول حاكيا قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٠ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ٢١ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾ [سورة الزخرف, ٢٠-٢٥] فهؤلاء القوم جمعوا تقريبا كل حجج المعاندين، فهم يلقون باللوم على الله، بلا أي مستند لهم في ذلك وإنما هو التخرص، ويتمسكون بميراث الأهل كائنا ما كان، ويرفضون أن يسمعوا كلام الله على لسان الرسول حتى ولو كان أهدى! فانتقم الله منهم!

[195] لم يصادر القرآن الحق أن يكون للعمي الصم وجهة نظر! ولكنها بداهة وجهة نظر حمقاء تضر ولا تنفع، وترى! الأمور على غير حقيقتها كلية، لذلك فلا اعتبار لها في اليوم الآخر!

ولا يزال الإنسان ذلك الطفل الأحمق، الذي يتوقع أنه إذا لم يستجب هو أو قومه لرسول الله فإن العذاب سينزل بهم في الثانية التالية، فإذا مر يوم أو أيام بدون نزول العذاب كان ذلك دليلا على كذب الرسول! وينسون أن الله تعالى أخبر أن العذاب لا ينزل هكذا اعتباطا، وإنما يجيء عندما يريد الله بأن يحين أجله وتُستجمع كل أشراطه وأسبابه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة العنكبوت ,٥٣]، فليس الله تعالى مثل البشر، يُستفز لقول فلان أو فعله، وإنما كل فعله بقدر!

ونود هنا التنبيه أن مسألة الهلاك والعذاب مسألة مستمرة طويلة المدى تنتهي بنزول العذاب وحلول الأجل، لا أنها تقع فجأة كما يظن عامة البشر، ونجد ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف ,٤] فالقرية أُهلكت وبعد ذلك مباشرة أتاها البأس كخطوة نهائية لإتمام الهلاك، وكذلك قوله: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ[196] أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأنبياء ,٦]، ومن البدهي أن القرى المبادة لا تؤمن، وإنما الحديث هنا عن تفشي عوامل الهلاك في المجتمع والتي تعمل ببطء إلى أن يجيء أمر الله فتؤخذ!

والكتاب إذ يقص فإنه لا يقص مثلما يقص البشر، فالغرض من القص هو أخذ العبرة من أحداث الأولين، لذلك كان القصص القرآني قصاً فريدا، يأخذ من القصة كلها مشهدا معينا مناسبا للسياق الذي يُذكر فيه الحديث، ويكتفي به ولا يورد غيره، وقد يضعه في وسط مجموعة مشاهد أخرى، تلعب دورا في توصيل العظة من أفعال السابقين، ونادرا ما جاء القصص القرآني في أسلوب القصة الروائية، لأن هذا غاية فرعية للقص، أما الهدف الرئيس فهو عرض الحقائق التاريخية كما وقعت!

[196] الحديث في هذه الآية عن مجيء الآيات الحسية، وأنها إيذان بنزول العذاب، لأن الناس يطلبونها ثم لا يؤمن أكثرهم بها، فيكون وجودها عنصر إهلاك القرية والذي سيحيق بهم لاحقا!

واختلف القص في الكتاب عن غيره أنه لم يطلق دعواه هكذا بلا بينة، وإنما دعى الناس للسير في الأرض ليتأكدوا من مصداقية ما ذكر: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٣٧]، وبذلك يكون التاريخ دليلا جديدا على صدق القرآن!

ولم يكتف الكتاب بقص الأحداث على هيئة سرد، وإنما طوّر العرض إلى أسلوب مختلف، حيث يأتي القص فيه على شكل "مَثل"، يحتاج الإنسان إلى التفكر فيه لاستخراج العبرة، وفي المثل يكون الحديث عن الماضي أو الحاضر أو المستقبل سيان، فما ذُكر فيه واقع وسيقع لا محالة، ومما ذكره القرآن كمختصر لتاريخ البشرية كلها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يونس, ٢٤] ففي هذه الآية عرض لمسير البشرية من أوله إلى آخره في صورة مثل: فالبشرية نشأت ضعيفة بسيطة بالماء الذي أُنزل من السماء –والذي هو مقابل للوحي–، ولولا هذا الماء ما كان نبات، ولولا الوحي لما كان إنسان ولظل حيوانا! وهكذا يستمر المجتمع الإنساني في النماء والتقدم العلمي، إلى أن يأتي الوقت الذي يظن فيه أهل الأرض أنهم قادرون على التحكم فيها، فهنا يأتي أمر الله تعالى لينهي الحياة الدنيا، ويبدأ اليوم الآخر!

ومما يذكره الله تعالى كمثال على انتصار الحق وبقاءه، وعلى زوال الباطل مهما على وطغى، قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الرّعد, ١٧]

فإذا تفكر الإنسان في الأمثال المضروبة له وعقلها عقلا نابعا عن العلم، وعمل بمقتضاها كان ممن انتفع بماضيه واتخذه درجا ومعراجا يرتقي عليه لمستقبله!

كون مكرور في الإنسان!

"لا جديد تحت الشمس"!

هذا ما يمكن أن يجزم به الإنسان المتبع للمنهج، فلقد عرض له المنهج الحياة كما هي، فما هي إلا مفردات محدودة تتكرر بشكل ممل أمام الإنسان، لذلك قد يتحصل عنده ملل من بعض مظاهر الحياة، فلا يتكالب عليها، وإنما يسعى لتملك ما يحتاجه فقط، لكي يسير واثق الخطى على طريقه الرسولي الملكي. أما المعرضون عن المنهج فلا يزالون ينظرون بانبهار إلى الدنيا، تبهرهم بكل تحوير وتغيير للمظهر الخارجي، على الرغم من اتحاد الجوهر! فيقبلون بهمة الحيوان على التنافس في تملّكها وتملك ما يمتلكون فعلا أو ما لايحتاجون إليه! إلا أنهم يظنون أنهم لا يمتلكونه ويحتاجونه، لأنهم أوهموا بذلك! وهكذا يظل المُعرض يدور في دوائر مفرغة طيلة عمره، إلى أن تأتيه المنية، فيتمنى أن يعود إلى الدنيا ليعمل صالحا، فلا يستطيع: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ ... ۝١٠٠﴾] سورة المؤمنون ,٩٩-١٠٠[

والمتأمل يعرف أن الإنسان يتنقل في حياته بين مراحل مختلفة، من طفولة وصِبى وغلمة وشباب وكهولة وشيوخة، وهذه المراحل هي التي يمكن اعتبارها تغيير في حياة الإنسان، أما طيلة المرحلة نفسها فحياة قائمة على التكرار، أكل وشرب ونوم وجنس وأمكنة يتنقل الإنسان بينها ووجوه يقابلها!

ولأن الإنسان يملّ وجُبل على حب النساء "الجديد المتأخر"، تجده يحاول أن يُغير من شكل حياته، فكيف يكون شكل التغيير العبقري؟ يضيف بعض التوابل إلى طعامه! أو يخلط بعض الأصناف ببعض، ينوع في أشكال الأقمصة والجلابيب التي يرتديها، يعود إلى صرعة قديمة من صرعات الثياب! باختصار لا يفعل شيئا أكثر من إضافة كثير من الزخرف إلى الشيء، أو اجراء بعض التعديلات عليه ليكون أكثر ليونة وسهولة، وعلى الرغم من ذلك لا يستطيع التحرر من الملل، لذلك قلنا إن الإنسان إذا حصل على إكسير الخلود فإنه .. سينتحر!

ولا يعني هذا أننا ندعو إلى عدم التغيير والاكتفاء بالأشكال الحالية، فالمنهج لا يخالف جبلة جُبل عليها الإنسان، والإنسان مجبول على حب التغيير والملل من القديم، وإنما نقصد بهذا أن يعي الإنسان أن كل ما يمر به فهو مكرور، ولا يحتاج إلى التحايل من أجل أن يصل إلى جديد، لا يختلف عما في يده إلا في جزيئات!

وعليه أن يشغل نفسه بالنافع من رقي العقل والروح، فهذا هو الجديد الحقيق، فدوما هناك لذة الاكتشاف والتي لا يعدلها لذة، وهناك لذة الأنس بالله والقرب به، والتي معها يشعر الإنسان بتفاهة ما عداها! وعليه أن يستثمر وقته في الدفاع عن المبادئ والمستضعفين والعمل على نشر العدل والسلام والأمن، فهذا سعي وصراع متجدد لا ملل فيه!

وللأسف نجد البشر ينسون كل هذا، ويتنافسون طيلة أعمارهم من أجل الوصول إلى تملك أكبر تنويعات ممكنة للشيء الواحد الذي يتملكون فعلا، فهذه المرأة أجمل من تلك أو تمتلك بعض الأعضاء أكبر من الأخرى! وهذه الفاكهة أجمل شكلا وتعبئة من الأخرى، وهذه السيارة ذات تصميم أفضل من الأخرى .. وهكذا سباق لا نهائي لا ينقطع عنه الإنسان، ظانا أن يتملك بذلك متع الدنيا!

ومشكلة الإنسان الواقع في هذا المأزق أنه يتعامل مع الأمور بمنظور الحيوان، ولا يصل بحال إلى درجة التجريد الناشئة عن كثرة القراءة والتفكر والنظر في الكون! فإذا

حدث وتحققت له هذه الدرجة استطاع أن يرى الكون على حقيقته ويرى الأدلة الدامغة على صدق ما جاء في الكتاب فيزداد إيمانا على إيمان واتباعا على اتباع!

والعجيب أن الحق واضح لكل ذي عينين! ولكن لمّا وصل الإنسان ببركات الحضارة! الغربية والرأسمالية إلى درجة متقدمة من العمى الكامل، ما عاد يستطيع أن يرى تكرار عرض كل صغيرة وكبيرة من حوادث الكون العظمى الماضية والحالية في حياته اليومية! نعم، فمسيرة البشرية كلها من أولها إلى آخرها تُكرر أمام الإنسان ولكن الإنسان لا يريد أن ينظر ويعرف، ويرضى بأن يكون ذلك الجاهل الحائر! وعملية الخلق والإحياء والإماتة تتكرر جزئيا أمام الإنسان ولكنه يعرض لكي ينكر وجود الخالق والبعث، ومن ثم لا يتحمل المسؤولية ويظل طليقا! وعملية الإهلاك والاستخلاف تحدث أمام عينه ولكنه يُستغفل أو يُستعبد، لكي يسير في الطريق الذي يُراد له أن يسير فيه!

وحتى لا يكون كلامنا مجرد كلام يُسرد بدون أدلة، نقدم للقارئ الأدلة البينات: قلنا في صفحات سابقة أن الإنسان خُلق في باطن الأرض في أرحام أرضية، وخرج منها محني الظهر لا يعقل، واستمر هكذا فترة إلى أن استقام ظهره وأصبح يمشي معتمدا على قدميه فقط، وبعض فترة أصبح عاقلا! ولم ولن يعجب هذا التصور بداهة كثيرا من المسلمين والمسيحيين الشرقين خاصة، على الرغم من أن هذا السيناريو تكرر ويتكرر أمام أعينهم منذ آلاف السنين، فنجد أن الإنسان ينشأ في رحم أمه = رحم الأرض،[197] ثم يخرج من رحم أمه لا يستطيع المشي وبعد فترة يحبو على يديه ورجليه = مرحلة إنثناء الظهر والتي اعتمد فيها الإنسان الأول على يديه بجوار رجليه، وفي هذه المرحلة لا يعقل الطفل الرضيع شيئا وهذا ما كان عليه الإنسان الأول، وكذلك لا يستطيع الطفل الكلام= ما كان عليه الإنسان الأول، وبعد فترة من تعليم الوالدين = تعليم الملائكة للجيل الأول من البشر، يستطيع الطفل التلفظ بألفاظ بسيطة وتتكون لديه لغته الخاصة وهذا ما كان عليه الجيل الأول من البشر، حيث كانت لغتهم مكونة

[197] لا تنطبق الداروينية بشكل كبير مع خلق الإنسان المكرور، كما أنها لا تقدم تفسيرات مقبولة لنقاط عدة في مسألة خلق ورقي الإنسان، أما ما نقول به فيتطابق تمام التطابق مع واقع الإنسان الحالي والذي هو انعكاس وتكرار لما كان في الماضي!

من مفردات قليلة العدد تناسب احتياجاتهم وقدراتهم العقلية، ومع احتكاك الطفل بالمجتمع تزداد ثروته اللغوية وقدرته العقلية وتتسع وتتطور ويدخلها التجريد والمعنويات، وهذا ما حدث للغات الموجودة على البسيطة وللقدرة العقلية التجريدية للإنسان!

وينمو الطفل وينعزل عن والديه ويبدأ في التمرد على وصايتهما عليه، كما تمرد الإنسان على الوصاية الإلهية عليه، ثم يقتنع في آخر المطاف أن نظرة الوالدين كانت حقا أحكم من نظرته، ويكابر الإنسان إلى الآن في التسليم بحكمة الإله!!! ويتنقل الإنسان بين مراحل العمر المختلفة من ضعف إلى قوة ثم ينتكس إلى ضعف مرة أخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الروم, ٥٤] وهذا لحكمة على الإنسان أن يتفكر فيها.

وبنفس ما يمر به الفرد تمر به المجتمعات كاملة، فتنشأ وتمر بمراحل النمو والقوة ثم الضعف، وكما يأتي بعد الشيبة الموت، يأتي للمجتمع الانهيار بعد أن تتخلله عناصر الضعف والفساد. وكما يموت الإنسان ويولد غيره الكثير من الأفراد، فكذلك تموت أمم وحضارات ويولد غيرها وتستمر الحياة، ولا تتوقف عند إنسان بعينه أو حضارة بعينها، وينساها اللاحقون ويتذكرون أنفسهم فقط. فانظر عزيزي القارئ كيف أن حياة الإنسان الواحد نموذج مصغر لتاريخ البشرية كلها ولكن عامة البشر لا يرون ذلك، ويأخذون كل حدث على مفرده .. ويتعجبون .. وينبهرون .. ويتحيرون! وكما استطعنا أن نرى مسيرة البشرية كلها في الإنسان، نستطيع أن نرى مسيرة الكون كله في دورة حياة عناصره، وبها نستطيع الوصول إلى مبدأ خلق الكون!

فإذا تركنا مسألة تكرار مسيرة البشرية في حياة الفرد الواحد وانتقلنا إلى مسألة تكرار عملية الإماتة والإحياء جزئيا أمام الإنسان، نجد أنها تحدث وتقع آلاف المرات أمام عينه، ولكنه على الرغم من ذلك لا يستخرج منها الدليل على حتمية وقوع عملية إماتة

كبرى لكل هذا الكون بما فيه، ثم حدوث عملية إحياء كبرى له ولمن فيه. ولقد قدّم المنهج آيات كثيرة تناقش هذه المسألة وفصل فيها أيما تفصيل، علّ الإنسان ينتبه! ومما ذُكر في هذا الشأن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [سورة الأعراف, ٥٧] وقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [سورة فصّلت, ٣٩] وقوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَىَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَىِّ وَيُحۡىِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝١٩﴾ [سورة الروم, ١٩]

فالإنسان يرى إحياء الأرض الموات، بعد أن انقطعت عنها كل مظاهر الحياة، فعندما ينزل الماء تهتز وتربو وتدب الحياة بظهور النبات، وسرعان ما تظهر باقي الظواهر الحياتية في الانتشار! وكذلك يرى الإنسان تقلب الطبيعة من حياة إلى موت ثم تدب فيها الحياة مرة أخرى، فما وجه الفرق بين الإنسان والكون وبين هذه الأجزاء، إن ما يصدق على البعض المماثل يصدق على الكل!

أما عملية الإهلاك والاستخلاف فلا يزال الإنسان تجاهها ذلك المغفل الأحمق، الذي ينتظر أن يرى الله أو الملائكة وهم يهلكون الأقوام المفسدين! ويحتج على عدم وجود الله بالخرافة الموجودة في الكتب السماوية، فقد كان يهلك الأقوام المفسدين ويستأصلهم من على وجه الأرض، أما الآن فلم يعد يفعل، فهذا دليل على عدم وجوده!

وأعجب ثم أعجب، وأتساءل: هل توقفت عملية الإهلاك والاستخلاف؟ العجيب أنها زادت كمّاً وتسارعت زمنا، ولكن الإنسان الأعمى يريد أن يرى الله والملائكة قبيلا! إن إهلاك القرى قانون مسطور في الكتاب عند الله عزوجل: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ

مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الإسراء ,٥٨]

وأسباب الإهلاك معروفة واضحة، فالأقوام هم أسباب الهلاك وهم من يهلكون أنفسهم بأنفسهم، لا أن الله يفعل ذلك بهم ظلما: ﴿... وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الروم ,٩]

ومراحل الإهلاك واحدة: تصل كلمة الله إلى الأمة، سواء بالرسول أو بغيره، فتعرض وتتولى وتتكبر عن سماع كلمة الله لأسباب قديمة، وترضى بالاعتماد على عقولها، وما قاله الأقدمون تبريرا لرفض كلمة الله والقضية الإلهية والرسولية يقوله الجدد ولا فارق!

ولا يزالون يطالبون بنفس ما طالب به أسلافهم من الآيات! ويظنون أن لهم اعتراضات جديدة وما من اعتراض جديد. وبداهة لا يستجيب الله لتفاهات البشر وحماقاتهم، فيظنون أن هذا دليل على صحة مذهبهم، فيتجبرون فسادا في الأرض وطغيانا، فيفتح الله عليهم ويزيدهم فيتمادون في الإفساد، فيحق الإهلاك فيأتي العذاب من الله.[198]

العجيب أن أسلوب الإهلاك لا يزال كما هو: بالطبيعة! فتهلك الأقوام بالرياح أو بالماء أو بالزلازل أو بالصواعق! مثلما هلك قوم نوح وفرعون وقوم ثمود وعاد، ولست أدري ما الفارق بين الإهلاكين؟ لا فارق، ولكن الإنسان المعاصر ينسب الإهلاك الحالي إلى الطبيعة وينكر وقوع الإهلاك الأول!

ولكن لا بد من الإقرار بوجود الفارق! فالإنسان الأول كان يرى ولكنه يكابر، أما إنساننا المتطور المتحضر! فما عاد يرى أساسا فلقد عمي تماما، فالإنسان الأول عندما كان يرى العذاب كان يرجع ويتوب ويندم على فعله: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ

(198) تبعا لسير سنة الله في الإهلاك للمفسدين المتجبرين والتي تسارعت عجلتها لتسارع عجلة تطور الإنسان، فإنا نجزم بقرب هلاك الطاغوت الأكبر المسمى الولايات المتحدة الأمريكية، وإن غدا لناظره قريب!

ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾] سورة غافر, ٨٤-٨٥]،
أما الإنسان المعاصر فلا يزال يحك رأسه في حيرة!!

لذلك أمر القرآن بالتدبر والتفكر في أحوال وأفعال السابقين، حتى لا نخطأ مثلهم ونقع فيما وقعوا فيه، وعندما نفعل نكون بذلك قد تقدمنا خطوات إلى الأمام، ولكن الإنسان يهمل ماضيه ويبدأ المعادلة من جديد، مكررا لها بكل عناد!

وكما رأينا فإن حوادث الكون كلها تتكرر في حياة الإنسان، تكرارا واضحا لا لبس فيه، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد! لذلك فعندما يصرخ أصحاب النار في النار، طالبين العودة إلى الدنيا للعمل الصالح، يأتيهم الرد بالرفض التام، فلقد أُعطوا الفرص الكاملة للإصلاح وللعمل ولكنهم لم يفعلوا، لذلك فهم يستحقون ما هم فيه.

﴿... أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾] سورة فاطر, ٣٧]

نظرة بعين الرب!

ما المشكلة في إقامة علاقة جنسية خارج الزواج؟

فأنا أحب هذه المرأة، ثم إن هذه علاقة بيولوجية بحتة لا دخل للدين فيها! وما الذي سيحدث إذا عاقرت الخمر أو المخدرات فأنا لا أوذي أحدا بفعلي هذا؟ وما الضرر في ممارسة الحب! مع مثيلي في الجنس، طالما أننا لا نؤذي أحدا أو نجبره على ذلك وخاصة إذا كنا نتخذ الإجراءات الطبية الواقية؟ وما الضرر في أن أنفق أموالي على ما أشاء من الملاهي، أليس هذا حق طبيعي! لي؟

كثيرة هي أشباه هذه الأسئلة والتي يطرحها كثيرٌ ببراءة وسذاجة، ولا يرون فيها أي حرج على الإطلاق، فما العيب أو الخلل في كذا أو كذا أو ... الخ القائمة التي لا تنتهي من الرغبات أو الشطحات التي تجول بذهن الإنسان؟ نقول: تبعا للنظرة التي يتعامل بها البشر في حياتهم، والتي هي النظرة التجزيئية القائمة على فصل الإنسان عن عالمه، فلا حرج على الإطلاق، ولا حرج في أي فعل يفعله الإنسان كائنا ما كان،[199] فإذا رأينا الإنسان كرسام فقط، أو لاعب كرة قدم أو طبيب أو مهندس، ومطلوب منه أن يبدع في مجاله فقط، وليفعل بعد ذلك في حياته ما يشاء، فإن هذه النظرة ذات عواقب كارثية أدت إلى جُل المصائب التي حاقت بالبشرية، فقد يرى الإنسان بريقا جذابا، فيراه حسنا، فإذا وضعنا باقي أجزاء الصورة بان لنا أن ما يلمع كان ناباً ساما كبيراً!

وعموم هذه النظرة التجزيئية راجع إلى التجزيئية التي أصابت المجتمع، فكله قائم عليه، فلم يعد هناك انشغال بالكليات، لا العقلية ولا العملية! ويذكر إريش فروم سببا هاما من أسباب هذه النظرة المبتسرة المدمرة، فيقول: "وعامل آخر في المجتمع المعاصر سبقت الإشارة إليه يؤدي إلى هدم العقل أود أن أعيد القول فيه في هذا المقام. ليس هناك في الوقت الحاضر فرد واحد يقوم بعملية واحدة كاملة، وإنما يقوم بجزء منها فقط. وما دام حجم الأشياء وتنظيم الجماعات أضخم من أن يدرك بكليته، فالشيء لا يمكن أن يُرى في مجموعه. ومن ثم فإن القوانين التي تتحكم في الظاهرة خفية لا تُرى. والذكاء يكفي لكي يتناول تناولا صحيحا جانبا من وحدة كبرى سواء كانت الآلة أو الدولة، ولكن العقل لا ينمو إلا إذا ارتبط بالكل، وعالج كليات يخضعها لملاحظته وإدارته. وكما أن آذاننا وأعيننا لا تؤدي وظائفها إلا في حدود كمية

[199] طالما التزمنا بهذه النظرة التجزيئية فيمكن لغيرى ويمكنني أنا شخصيا أن أقدم *تبريرات منطقية* عدة –وليس تبريرا واحدا– لكل فعل يقوم به الإنسان، حتى ولو أدى هذا الفعل إلى إيذاء الآخرين بل وإفنائهم!

معينة من الأطوال لموجية، فكذلك العقل مقيد بما يلاحظ ككل وفي حدود وظيفته من مجموعها[200]." اهـ

إلا أن المتبع للمنهج يتميز عن البشري المخالف أنه لم يقع ضحية النظرة التجزيئية، وإنما ينظر إلى نفسه وإلى كل ما يمر به نظرة شمولية عامة للفعل ولعاقبته، نظرة بعيدة المدى، تضم كل عناصر الصورة في إطار واحد، فيستطيع أن يصدر الحكم المناسب عليها ولها. وهذه النظرة ليست مأخوذة من أي مصدر بشري قاصر، وإنما هي نابعة من كلمة الإله –القرآن–، لذا فيمكننا أن نسميها: نظرة بعين الرب!

فالمنهج يُعلم المتبع ألا ينظر إلى يومه فقط عند اتخاذه قرار الفعل أو الترك، وإنما عليه أن ينظر إلى الآثار المترتبة عليه في الغد القريب والبعيد، هل سيكون فيه نفع أو ضر، وهل من الممكن أن يكون فيه نفعٌ له وضر لغيره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [سورة الحشر, ١٨]

ويُعلّم المنهج أن النوايا الحسنة لا تكفي عند اتخاذ القرار وإنما على المرء الاستعداد والتخطيط، فالمصائب والكوارث لا تنزل بالإنسان عبثا، وإنما تنزل بسبب ما اقترفت يداه، فهو الذي يجلب المصائب على نفسه، ثم يسخط بعد ذلك! ولا يُشترط أن يكون الفرد بعينه أو كل أفراد المجتمع هم من قاموا بالفعلة، وإنما يكفي أن يقوم بها بعضهم، ويسكت الآخرون عن ذلك، فينزل الوبال على الجميع: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [سورة الأنفال, ٢٥]، فالفتنة ستصيب الجميع، لا الظالمين فقط!

ولقد أكثر المنهج من التركيز على مسألة عاقبة الأفعال، وأن الإنسان هو السبب فيما يحيق به، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ

[200] إريش فروم، المجتمع السليم، تعريب: محمود محمود، ص. 128.

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾] سورة الروم, ٣٦[، ﴿... وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾] سورة الشورى, ٤٨[، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾] سورة الشورى, ٣٠[.

وعلّم المنهج المتبع أن له دور محدود في سير التاريخ وأن الثمار قد تُجنى بعد ذهابه، ولكن عليه أن يسعى لدوره ولا ينتظر النتائج فستأتي لاحقا: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾] سورة غافر, ٧٧[

فعلى الإنسان أن يروض نفسه على إسقاط هذه النظرة على كل ما يواجهه، حتى يكون طليقا في اتخاذ قراره من رأسه!

ونظرا لأن أصحاب المتاع البشري يسعون بالدرجة الأولى إلى تسويق متاعهم، ماديا كان أو فكريا، بأي وبكل شكل ممكن، فإن أفضل وأقصر طريق لغايتهم هو النظرة التجزيئية له، بأن ينزعوا كل فعل عن سياقه العام وظروفه ويجعلونه هدفا قائما بذاته، مضخما أمام البشري، فإذا نظر إلى المشهد لم ير إلا ما يريدونه أن يرى، فليس هناك في الصورة إلا بضاعتهم الرديئة التي غطت الصورة كلها، بعد أن أزاحوا باقي العناصر التي قد تؤثر في تقبل فكرتهم، فيرى الإنسان البضاعة حسنة مقبولة جيدة لا ضر فيها، فيقبل عليها ويظل هكذا أبدا في إقبال وعدم سكينة، حائرا باحثا عن مكمن الخلل في هذه التصورات الحسنة كلها!

والحل البسيط لهذه الأزمة هي تصغير الصورة قليلا ووضعها في ركن من أركان المشهد العام والاطلاع على باقي المتعلقات المرتبطة بها، وبهذا فقط يمكن للإنسان أن يحكم بيقين إذا ما كانت البضاعة جيدة أم رديئة! وحتى لا نطيل، نبدأ في نقاش بعض هذه الأسئلة من المنظور الشامل العام، كنموذج لكثير من الأسئلة والتصورات المشابهة، لنوضح كيف أن النظرة القاصرة أدت إلى إصدار أحكام غير مصيبة تماما:

ما المشكلة في إقامة علاقة جنسية خارج الزواج؟ هل هذه الورقة أو تلك العقد هو الذي سينشأ فارقا كبيرا؟

ليست الورقة أو العقد بداهة هو الفارق، وإنما الآثار اللاحقة المترتبة على إباحة ممارسة الجنس بهذا الشكل. ولنلق المنظور العام للمسألة: الإنسان كائن يتبع الفصيلة الحيوانية التي تتكاثر عن طريق وطء الذكر للأنثى، ولكن العملية الجنسية عند الإنسان تختلف عنده عن الحيوان، في كونها ممارسة غير مرتبطة بموسم تخصيب معين، وإنما يمارسها لذة في أي وقت اشتهي ذلك،[201] وكتعبير عن الحب. إذا فللجنس هدفان رئيسان عند الإنسان وهما تلقيح الأنثى لإنجاب الأطفال وكذلك التلذذ، ويدخل تحت الهدف الثاني جملة المشاعر المرتبطة بالممارسة الجنسية، من شعورٍ بالحب وبالسيطرة من الذكر على الأنثى وبشعور المرأة بتملك الرجل لها، وبشعور كلا الطرفين أن كلاهما مرغوب فيه .. إلخ المشاعر الإيجابية المرتبطة بالممارسة الجنسية!

ولكن الإنسان يختلف عن الحيوانات في كونه كائن اجتماعي مُتملِك، لا يحيى متنقلا، وإنما يبحث عن الاستقرار والعلاقات المتينة مع غيره من البشر، والتي توفر له عنصر الأمان! وهذه العلاقات الاجتماعية تتشكل بأشكال مختلفة تختلف من بيئة إلى أخرى، ولكن الوحدة المشتركة في المجتمعات البشرية كلها، والتي تختلف بها –جزئيا– عن الدواب، هي الأسرة، ففي هذه الوحدة يجد الإنسان الرعاية المطلوبة –حماية من الرجل للمرأة، ورعاية وحنان من المرأة للرجل– التي تساعده على الحياة المستقرة في المجتمع.

وفي ظل هذا الرباط الأسري يمارس الرجل أو المرأة الجنس، معلنين بذلك رغبتهما في الاتحاد وإنجاب أفراد جديدة للمجتمع، وتوفير الحب للطرف الآخر وتحمل مسؤوليته، وبهذا يصبح للجنس معنى كبير وهو أنني أريد أن أكرم الطرف الآخر بأن أعطيه نفسي وما يحتاجه مني، لا أني أريد استغلاله لإشباع رغباتي!

---

[201] يشترك الخنزير مع الإنسان في هذه النقطة، بخلاف باقي الحيوانات التي لا تمارس الجنس إلا في مواسم التزاوج، حيث تعلن الأنثى برائحة أو ما شابه احتياجها إلى الوطء، فيبدأ موسم التزاوج ثم ينتهي بعد انتهاء الغرض منه وهو التلقيح!

فإذا مورس الجنس خارج الزواج تهاوت هذه المنظومة العظمى لإعداد الأجيال الجديدة، فالإنسان بطبعه يميل إلى التفلت من المسؤولية، مع رغبته في التمتع بمزاياها، وهذا ما حدث ويحدث في هذه المسألة:

يقابل الرجل المرأة في العمل أو خلافه، فيحبها أو يشتهيها! فيبدأ في التقرب منها، –وقد يحدث العكس فتتقرب المرأة!– إلى أن يصل إلى مبتغاه منها، ويستمر في علاقته معها، طالما أن هذه العلاقة لا تكلفه شيئا أكثر من بعض هدايا،[202] فليست هناك أي إلزامات أسرية أو اجتماعية، وإذا جدّ ما يعكر الصفو من خلافات أو حمل غير مرغوب فيه، ينسحب الرجل من حياة المرأة بدون أي خسارة، ويبحث عن غيرها.

وكذلك تبحث المرأة عن الحب والجنس مع الرجل بدون زواج، لأنها لا تريد أن تتحمل مسؤولية أسرة وتبعية رعاية رجل وأطفال، وكذلك تحمل مضايقاته، فإذا تشاجرا تستطيع المرأة أن تنهي العلاقة، وتبدأ مع غيره وهكذا! وهكذا ينشأ مجتمع يقل فيه عدد المواليد من ناحية، –وتبدأ الدولة في حث المواطنين، غير الراغبين في تحمل المسؤولية، على الإنجاب، وتشجيع الهجرة إلى الدولة!–، ومن ناحية أخرى تنشأ نسبة كبيرة من المواليد –القليلة!– بدون أب، وينشأون في حجر الأم ورجالٍ كثر، سيحلون ضيوفا عليهم في بيوتهم، لا يزيد أحدهم عن بضعة أشهر أو بضعة ليال! أو ينشأون في رعاية الأم فقط إذا كانت قد أخذت درسا من العلاقة الماضية!

فإذا غضضنا الطرف عن هذه النقطة، نجد أن ممارسة الجنس خارج الزواج تؤدي إلى كثير من الأمراض المستفحلة، التي قد تؤدي إلى وفاة البشري بعد معاناة طويلة مع هذه الأمراض العصية، وتكاليف علاج باهظة!

وقائمة الأمراض الناتجة عن الجنس طويلة، منها الزهري والسيلان والإيدز والكلاميديا والتهاب الكبد الوبائي، وأخرى كثيرة! والزناة يتجاوزون هذه النقطة حاليا باستخدام

---

(202) نغض الطرف عن العلاقات العابرة، مثل العلاقات الطلابية، التي لا تزيد عن مجرد إعجاب الفتاة بالفتى فتسلمه نفسها، والذي يحدث لأكثر من زميل، حتى أن الفتاة قد تعجب بنصف زملائها في الصف! أو إعجاب النساء بنجم! من نجوم الفن أو الرياضة، فتذهب وتمارس الحب معه، من باب التفاخر على قريناتها ومن باب ذكرى وتجربة مختلفة في حياة المرأة!

الواقي الذكري ولا يرون حرجا في ذلك! وأنا أعجب من المرأة –غير العاهرة– التي تقبل هذا النوع من الممارسة! فهو يعني أن الرجل يقول للمرأة –وبالعكس–: أنا لا أثق فيك، فربما أنت حاملة للأمراض بسبب كثرة ممارسة الجنس مع رجال مختلفين، ولكن بما أني أشتهيك كجسد، فلنمارس الجنس بأي شكل يوفر الأمان البدني! وهذا يقلب العملية الجنسية إلى ممارسة حيوانية بحتة، لا رائحة للإنسانية فيها!

فإذا تُجووزت الأمراض الجسدية، فكيف تُتجاوز الأمراض النفسية التي قد تصيب المرأة أو الرجل عند هجر الطرف الآخر له، بدون أي مبررات أو أسباب كافية أو عند اضطرار المرأة للإجهاض، لأن الفحل لا يريد الولد؟ من فقدان للثقة والاكتئاب والانعزال ... إلخ الأمراض النفسية، التي لا واقي نفسي لها!

فإذا تركنا الأمراض المرتبطة بهذه المسألة، وجدنا أن ممارسة الجنس خارج الزواج أدت إلى ظهور غاية ثالثة للممارسة الجنسية وهي الربح، وهذا الأمر وإن كان موجودا منذ قديم الزمان، إلا أن إباحته وتقبل المجتمع له يؤدي إلى أن يصبح ذلك الأمر تجارة مدارة، لها عصابات كاملة تعمل على تنظيمها، وتوفير العناصر البشرية لها، هذا بخلاف صناعة الأدوات الجنسية!

وهكذا ظهرت تجارة الرقيق مرة أخرى –في أوروبا تحديدا–، وظهرت عصابات تختطف الفتيات وتحتجزهن في بيوت الدعارة، ويُعتدى عليهن مرات عدة حتى يألفن المسألة، ويعملن فيها، وظهرت قنوات مرئية كاملة متخصصة في بث وتوصيل هذه الوساخات إلى البيوت![203]

فإذا تركنا الربح المادي الوسخ، وجدنا أن ممارسة الجنس خارج الزواج تحت دعوى الحب قد أوهى قدسية! هذه العلاقة، فلم يعد هناك فارق بين ممارسة الجنس مع من

---

(203) تصور عدد العاملين في هذه الصناعة من العصابات، وليس من المختطَفات، فهؤلاء شباب كان يفترض فيهم تطوير المجتمع، فأصبح دورهم توسيخه وإشاعة الفساد فيه، ويُضيع عدد مقارب من المكافحين حياتهم في مقاومة هذه التوجهات! فكم يا تُرى عدد الضائعين بسبب هذه الصناعة؟!

أحب أو مع عاهرة ألتقطها من الطريق، وأدفع لها مقابل قضاء ليلة! وأتحدى أن يأتيني إنسان بفارق يجعل هذه الممارسة مقبولة وتلك مرفوضة منطقيا!

فإذا نحن تركنا وهن العلاقة وتشبهها بالدعارة، وجدنا أن انفتاح هذه المسألة أدت إلى ضياع كثير من البشر –الشباب خاصة– فيها، لانحصار تفكيرهم وسعيهم فيها ولها، ومن لم يُضّيع أو يفشل في حياته بسببها، فغالبا ما أتى الجنس بكثرة، وكثرة الإتيان تؤدي إلى الملل، فيضطر الإنسان إلى الابتكار في الممارسة من أجل القضاء على الملل، وفي النهاية قد يؤدي به هذا الملل إلى الانتقال إلى ممارسة الجنس مع مثيله في جنسه من أجل التغيير!

فانظر إلى الآثار الكارثية التي ترتبت على هذه المسألة، والتي لا يراها من ينظر إلى الأمر نظرة قاصرة على نفسه، كأنه هو الوحيد الذي أبيحت له هذه المسألة، لا المجتمع كله! وكيف أنها أدت إلى طامة أخرى وهي انتشار الشذوذ!

يدافع كثير من الغربيين عن الشواذ، على الرغم من كونهم غير شواذ، ويرفضون أن يوصموا بهذه التسمية! ويريدون أن يسمونهم ب المثليين، أما الشواذ فكلمة ذات مداليل سلبية سيئة تؤثر على نفسية المثله (وليس مثلي!) ونحن نرى أنهم شواذ ولا بد أن يسموا شواذا، فهم مخالفون للطبيعة ويمثلون قلة قليلة، فكيف لا يكونون شواذا؟!

والغربيون يرون أن هؤلاء المثليين أناس وُلدوا باختلالات معينة في أجسادهم، دفعتهم إلى الميل إلى أفراد نفس الجنس! لذا فلا مبرر لرفض هذا المسلك. ودفاع الغرب عن الشواذ نابع من إيمانهم بالحرية،[204] ومن النظرة التجزيئية، مثل نظرتهم للجنس خارج الزواج. ولننظر نظرة فاحصة لهذه المسألة لنر ما الأضرار المترتبة عليها: ذكرا وأنثى خلق الله الإنسان، وجعل لكل منهما طبيعة مخالفةً الآخر، ليؤدي الدور المنوط به في الحياة، ويفترض في الذكر والأنثى أن يتكاملا ويتقاربا، من باب أن الأقطاب المختلفة

---

[204] من الأدق تسميتها "خيار: عدم إيذاء الغير بشكل مباشر"، لأن هذا هو التوصيف الأمثل، فهي تؤذي الغير بطريقة غير مباشرة وبعيدة نسبياً.

تتجاذب، ومن باب أن كل منهما يوفر للآخر ما لا توفره له طبيعته! فالمرأة لين ونعومة وضعف والرجل خشونة وقوة، فيكملان بعضهما! وكل واحد منهما يفتخر بطبيعته ويتفنن في إبرازها، فالمرأة تتفنن في إبراز نعومتها وضعفها والرجل يتفنن في إظهار قوته وخشونته، ولا حرج في ذلك، فعليه جُبلا! فإذا ما حدث وعاشر الرجل الرجل انتكست طبيعة أحدهما وصار مثل الأنثى! والرجل خُلق ليرجل لا ليُستأنث! وإذا حدث وعاشرت المرأة المرأة فتترجل أحدهما![205]

والعجيب أن بعض الشواذ يرغبون في إقامة عقد زواج، ويمثل أحدهما الرجل والآخر المرأة، ولست أدري لم؟! إذا كانت كل أهداف الزواج غير متوفرة في هذه العلاقة! ورفضنا للشذوذ نابع من أن السماح بهذه المسألة مفسدة لطبيعة الجنسين وقضاء على الفوارق الطبيعية بينهما، وعلى أدوارهما في المجتمع! –ناهيك عن الأمراض المرتبطة بهما–، والسماح بهذا الشذوذ مؤذن بانتشاره، وفيه ما فيه من انعدام النسل.

ويرفض الغربيون مسألة انتشار الشذوذ وخطورته على المجتمع من حيث ضياع النسل، فيقولون أن الشذوذ لا ينتشر وإنما يولد به صاحبه، وهم قلة لذا فلا خطر ولا خوف. أما نحن فنجزم أن الشذوذ ينتشر مثله مثل أي سلوك خاطئ، مثل التدخين ومعاقرة الخمر، فهذان سلوكان لا مبرر لهما عقلا، وعلى الرغم من ذلك ينتشران انتشارا واسعا، خاصة مع وجود الدعاية التي تجمّلهما!

ودليلنا على ذلك قوم لوط، فلقد كانوا مجتمعا عاديا، إلى أن دبت فيهم هذه الآفة وانتشرت، ولم يكن لهم في ذلك سابق، وإنما فيهم بدأت، بدأت وانتشرت إلى أن عمت القوم كلهم، ولم يكتفوا بأنفسهم وإنما تعدوا على أضيافهم ففعلوا بهم الفاحشة، فأنزل الله عزوجل بهم العذاب!

---

[205] لا تسمح طبيعة الجهاز التناسلي للمرأة بالشذوذ، على العكس من الرجل، ولكنهن وللعجب يتجاوزن ذلك *بحيل اصطناعية*! ولست أدري ما مبرر الشذوذ في هذه الحالة؟!

فهذا نموذج أكثر من واضح على انتشار الشذوذ اجتماعيا بدون أي مرض، وأنه قد يصل إلى درجة عموم المجتمع كله إذا وجد البيئة المناسبة له، فليس الأمر مرضا بحال. وينظر المرء في حال قوم لوط فيجده نفس حال الشواذ بنفس الأقوال والأفعال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ [سورة العنكبوت, ٢٨-٢٩]، ويصل الحال بهم إلى الضيق من الطهر والارتياح إلى الفاحشة والدعوى إلى إخراج المتطهرين من الأرض: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [سورة النمل, ٥٦]

وانتشار الشذوذ في المجتمع والدفاع عنه علامة على بدء انهيار الأمم،[206] وذلك لضياع أخلاق الرجولة منها، وهي الضرورة الحتمية لبقاء الأمة!

أما مسألة أن الشواذ مولدون باختلال في الجينات، فهذا اعتراف بأن المسألة غير طبيعية وأن الطبيعي أن يولد الإنسان بشكل آخر، فماذا يُسمى هذا غير الشذوذ؟! ونحن نرفض الإقرار لهم بهذا الأمر، ونرى أن عدد من وُلدوا بهذا الاختلال قليل جدا جدا جدا!

أما الأكثرية الساحقة فاتجهت إلى هذا المجال لأسباب نفسية ولمشاكل اجتماعية، فمنهم من تعرض لتحرش في الصغر، ومنهم من لديه مشاكل نفسية، ومنهم من غُسلت دماغه ليقتنع بذلك، ومنهم من مل من الجنس مع الجنس الآخر فمارسه مع جنسه! ومنهم من تأخذ الأمور من باب التجربة، ومنهن معقدات من الرجل فيلجأن إلى الممارسة مع المرأة، ومنهن من تمارسه من باب التحدي، لأنها من أنصار "الأنثوية".

---

(206) يوصى القارئ بمراجعة كتاب "خواطر مسلم في المسألة الجنسية" للأستاذ محمد جلال كشك، فلقد فصل في هذه المسألة تفصيلا جيدا!

ونحن نجزم أن السبب الأكبر هو الملل من الممارسة مع الجنس الآخر، وميوعة تصور دور وطبيعة الرجل والمرأة! وما قيل في أضرار الجنس خارج الزواج يقال هنا، يضاف إلى ذلك التغيرات النفسية التي تحيق بالشاذ إثر شذوذه. هذا إذا غضضنا الطرف عن صناعة الشذوذ، التي أصبحت تعبث في أجساد البشر من أجل انتاج أنصاف ذكور وإناث!

وأخيرا فإن الشذوذ ظاهرة لا توجد إلا عند الإنسان والخنزير –وهما اللذان يمارسان الجنس لذة واشتهاءا– أفلا يدل هذا على أن مسألة اختلال الجينات مشكوك فيها؟ فلم لم يحدث هذا الاختلال إلا عند الإنسان؟ لم لم نره عند الحيوانات الأخرى؟ وإن حدث ووجد فهو يوجد بنسبة لا تذكر، وهي نفس النسبة الموجودة في بني البشر لا تلك النسبة المزعومة!

إذا فمسألة الشذوذ مسألة مصيرية للأمة بأكملها وليست مسألة هينة، ولكن الغربي لا يرى عيوبها وأثرها، لأنه ينهب ثروات غير –البشرية قبل المادية– ويواري به عورته الخلقية والاجتماعية والعلمية!

ونترك الشذوذ وننتقل إلى الخمور والمخدرات! وأعتقد أن الضر في هذين الصنفين أوضح من السابقَين، ففيهما ضياع للعقل وغياب لتحكم الإنسان في أفعاله، وفي هذه الحالة يضر الإنسان نفسه وغيره!

ولكن هناك من يجادل ويقول: ولم المنع ابتداءا؟ ما الضرر في قليل من الخمر أو المخدرات، وخاصة إذا كان الإنسان في بيته، أو في حفل يوزع فيه نصيب قليل لا يُسكر! فهذا لا ضرر فيه للنفس أو للغير؟ نقول: لا يوجد شيء أبيح قليله إلا وأدى ذلك القليل لا محالة إلى الكثير، والضرر من الكثير كارثي! وتبعا للنظرة الشمولية نقول: أثمن ما يمتلكه الإنسان هو عقله، والذي عليه أن ينميه ويحافظ عليه بكل ما يملك، والخمور تذهب العقل، فلم تُشرب أصلا؟ نعم، لا ضرر من هذا القليل، ولكن لا نفع كذلك! ولكن هل هناك من يلتزم بهذ القليل؟ مشاهدةً، لا يوجد إنسان يشرب

الخمر ولا يصل إلى مرحلة السكر، فإذا سكر صدر منه ما لا يحمد عقباه! وإذا كان لا يريد السكر فلم يشرب الخمر أصلا، فليشرب أي نوع من العصائر!

من يريد أن يمنع ضررا يوصد جميع أبوابه، لا أن يترك بعض أبوابه مفتوحا، خاصة إذا كان هذا المفتوح لا نفع منه يرتجى! والآفة في الخمر والمخدرات لا تنحصر في السكر، وإنما تتعداه إلى الإدمان، فإذا وقع البشري في فخه، فعل أي شيء من أجل الحصول على المخدر، فيسرق ويقتل ويغش، المهم أن يحصل على تلك اللحظات العقيمة التي يغيب فيها عقله ويشعر معها بلذة ساذجة!

وتعاني الأسرة والمجتمع من هذا الفرد المدمن الذي ما عاد له أي دور في الحياة سوى السكر والإفساد، فما عادت لديه أي قدرة على الانتاج! وتنفق الدولة الأموال الطائلة في تطبيب المدمنين ومداواتهم، وفي إقامة الكمائن لمراقبة شاربي الخمر حتى يُتأكد من تيقظهم! وهذا هو ثمن الحرية –التي لا تضر الغير بطريقة مباشرة!–، نعطيها للفرد ثم يدفع الفرد والمجتمع بأكمله ثمنها!

وحتى يعرف القارئ كم هو باهظ حجم هذه الخسارة، والذي قد لا يكون شاربا للخمر، والذي قد لا يرى في شربها الضر الجليل، نقدم له هذه الأرقام ليتصور بنفسه، ويعرف كم تنزف البشرية بسبب حرية إهلاك الذات: تقول دائرة معارف جامعة كاليفورنيا للصحة: "يعتبر الخمر حاليا القاتل الثاني –بعد التدخين– في الولايات المتحدة. فشرب المسكرات في أمريكا سبب موت أكثر من 100.000 شخص سنويا. والخمر وحده مسؤول عن أكثر من نصف الوفيات الناجمة عن حوادث الطرق في أمريكا (والبالغة 50.000 شخص سنويا) وليس هذا فحسب، بل إن الخمر مسؤول عن إصابة أكثر من نصف مليون شخص بحوادث السيارات في أمريكا في العام الواحد. وأما في المنزل فالمسكرات مسؤولة عن كثير من حرائق المنازل، وسقوط شاربي الخمر على الأرض أو غرقهم أثناء السباحة".

"ولا تسبب المسكرات المشاكل في البيت أو على الطرقات فحسب، بل إن خسائر أمريكا من نقص الإنتاج وفقدان العمل نتيجة شرب الخمر تزيد عن 71 بليون دولار سنويا، ناهيك عن الخسائر التي لا تقدر بثمن من مشاكل نفسية وعائلية واجتماعية." ويقول البروفيسور "شوكيت" –مدرس الأمراض النفسية في جامعة كاليفورنيا ومدير مركز الأبحاث المتعلقة بالإدمان على الكحول–: "إن 90% من البشر في الولايات المتحدة يشربون الخمر، وإن 40–50% من الرجال هناك يصابون بمشاكل عابرة ناجمة عن المسكرات. وإن 10% من الرجال و3–5% من النساء مصابون بالإدمان على الكحول". وحسب ما جاء في كتاب Cecil الطبي الشهير: "إن الخسائر الكلية الناجمة عن مشاكل المسكرات في أمريكا بلغت ما قيمته 136 بليون دولار في العام الواحد. ويقدر الخبراء أن ربع الحالات التي تدخل المستشفيات الأمريكية سببها أمراض ناجمة عن شرب المسكرات" اهـ

أعتقد أن هذه الأرقام ستغير منظور كُثُر بشأن قليل الخمر غير الضار!

لاحم!

قد يبدو العنوان غير واضح بالنسبة لكثير من القارئين، ولكنه جد مباشر ومختصر، فاللاحم هو من يأكل اللحم! ستبدو المسألة غريبة بعض الشيء، فما علاقة اللحم بإعداد الإنسان ليكون سوبرمان؟

إلا أننا نرى أن برنامج الإعداد يشترط في المتبع أن يكون آكلا للحم! ونزيد القارئ إيضاحا فنقول: قلنا من قبل عند حديثنا عن خطاب القرآن المجرد، أن الأنعام من أكبر النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وأن على الإنسان استخدامها والانتفاع بها كما أراد الله عزوجل! وليست النقطة الفاصلة هي فوائد أكل اللحم صحيا وأضرار الابتعاد عنه، ولكن الفيصل هو نظرة الإنسان إلى دوره ومكانه في الكون. فمتبع

المنهج يعلم أن الله تعالى سخر له كل ما في الكون: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾ [سورة الجاثية, ١٣]، فكل ما في السماوات والأرض –بنص الآية– مسخر للإنسان ولنفعه، ويدخل في قائمة هذا المسخر الأنعام بداهة، والتي يجب على الإنسان الانتفاع بها! وأفضل انتفاع بها هو الانتفاع بها كما بيّن الله تعالى لنا. فإذا نظرنا في الكتاب لنعرف لم خلق الله تعالى لنا الأنعام، وجدناه يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ۝٨٠﴾ [سورة غافر, ٧٩-٨٠]

إذا فلقد خلق الله سبحانه الأنعام لنركب منها ونأكل منها ولنا فيها منافع، فلم يخلقها لمجرد الركوب أو لنتركها سائمة! إن هناك الكثير والكثير من الحيوانات التي ترعى في الأدغال ولا يهتم بها الإنسان، وما اجتمع بنو الإنسان إلا على تربية هذه الأصناف من أجل أكلها، فكيف يُدعى إلى تركها هي الأخرى؟!

ولم يترك المنهج أي اعتراض على مسألة اللحوم هذه إلا وفنّده، فوضّح أن الأنعام تستعمل بخلاف ذلك في الزينة! فهي ليست فقط للأكل وللركوب!

وإذا قال بشري: إننا لا نحتاج الآن إلى استعمال الدواب في الركوب فلقد ظهرت المركبات الحديثة التي تغنينا عنها. نقول له: نعم فالله تعالى قال لنا: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [سورة النحل, ٨]، ففي هذه الآية إشارة إلى ظهور مستجدات لاحقة في مسألة الركوب والزينة، وهو ما حدث ويحدث فعلا. فلم يغفل الكتاب مسألة المرحلية في الاستعمال، ونجد هذا جليا في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ۝٨٠﴾ [سورة النحل, ٨٠]، فالله جعل لنا من جلود الأنعام بيوتا ومن أصوافها

وأوبارها وأشعارها أثاثا، ولكن هذا لن يكون إلى قيام الساعة، لذلك ختم الله تعالى الآية بقوله "إلى حين"، ولقد أتى هذا الحين فانقطع عامة الناس في استعمالها بهذا الشكل، وانتقل الاستعمال إلى اتجاه آخر.

أما أن ينقطع الناس عن تناول لحوم الأنعام فهذا ما لا دخل للتطور فيه وما لا يُقبل بحال، فمن أجل هذا الغرض خلقها الله تعالى وأنزلها للإنسان، وليس الإنسان بأرحم بالأنعام من خالقها ولا أعلم بمصلحته من خالقه.

والاعتراض الشهير للأخوة النباتيين هو أنهم يتحرجون من إزهاق روح، ويرونه قتلا! ولن ندخل معهم في جدال عقيم لنثبت لهم أن الأنعام ليس لها روح، ولكنا سنقول بكل بساطة: إن المتبع للمنهج يؤمن أن كل ما الكون من جماد ونبات وحيوان حي وله إرادة ويسبح الله ويعبده، فإذا كان الاعتراض على ذبح الحيوانات لأنها حية ذات روح! فهذا يعني ألا نأكل النبات أيضا فهو حي وله روح، ولا ننتفع بالجماد فهو حي هو الآخر، وهكذا يظل الإنسان في هذا الوجود عاجزا عن فعل أي شيء، لأن أي شيء سيقوم به هو تعد على أحياء أُخَر! ولا يقول بهذا عاقل، فالجماد والنبات مسخران للإنسان، وكذلك الأنعام مسخرة للإنسان، أوجدها الله تعالى للإنسان لمنافع معينة، فكيف لا نقبل هدية الله تعالى؟

إن عدم أكل اللحوم معصية يأثم الإنسان باقترافها،[207] ولست أدري كيف سنحج إذا نحن تركنا ذبح الأنعام؟ فعندما أمر الله تعالى الخليل بالأذان للحج، أبان له ولنا الحكمة من قدوم الناس إلى البيت الحرام فقال: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [سورة الحج ,٢٨] فالغرض الثاني للحج أن يذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فإذا كانوا رافضين، ويرون أكلها وذبحها قسوة، فكيف يذكرون اسمه عند ذبحها؟!

[207] ينحصر الإثم بداهة في الاعتراض على مبدأ أكل اللحوم وتركه كلية.

ولست أدري كيف غفل المسلمون عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الحج, ٣٦]، أو عن قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الحج, ٣٤]، فالبدن بنص الآية من شعائر الله ونحن مأمورون بأكلها، والله سخرها لنا لنشكره على لحمها، والمناسك التي جُعلت للأمم المختلفة على مر التاريخ كان الغرض منها أن يذكر الناس رب الأنعام عند ذبحها، لأنه سخرها لهم! ولكن لأن إنساننا المعاصر المتقدم أعمى من أي إنسان وُجد على سطح الأرض، فإن هذه الدعوى النباتية تجد أذنا عنده، وبدلا من أن يشكر الله أعرض عن نعمته تماما!

ونتساءل: ماذا يريد النباتيون؟ إذا كانوا يريدون الإحسان إلى الأنعام، فنحن مأمورون بذلك حتى إننا مأمورون بالإحسان حتى في الذبح، أما إذا كانوا يريدوننا أن نتركها تعيش هكذا حتى تموت من المرض، فهذا اختلال بيئي كبير! فمن المعلوم بداهة أن الأقل رقيا يُضحى به من أجل الأعلى، فلم لا يصدق هذا المبدأ على الحيوانات؟ لم هي استثناء من هذه القاعدة التي تصدق على كل المخلوقات؟!

إذا فأكل المتبع للحوم هو من باب شكر الله تعالى على نعمه عليه، وتابع للنظرة السليمة إلى مكانة كل كائن في الكون! يضاف إلى ذلك أن أكل اللحوم يكسب الإنسان بعض سمات القوة والشجاعة، والتي تحدث عن طريق المحافظة على الحيوان في الإنسان قليلا، والذي يجد لذة في أكل اللحوم، فالحفاظ على بذرة القوة عند الإنسان مطلوبة، أما إذا استمعنا إلى النباتيين فسنُخرج إنسانا خنعا يخلو من سمات الشجاعة والإقدام، يتحرج من ذبح دجاجة، في حين يُذبح ملايين البشر، ولست أدري ماذا سيفعل النباتيون إذا اضطُروا إلى خوض غمار أي معركة، هل سيقتلون البشر أم سيعطونهم ورودا؟!

ليس إمرأة!

مجددا نعود للحديث عن المرأة، ففي المرة الأولى استخدمنا اللسان العربي، لكي نستخرِج منه تصورا عاما عن المرأة وعن دورها في المجتمع. ولكن هذا العرض قد لا يعجب كثيرا من أصحاب الحركات النسوانية، والناظرين للمرأة بالمنظور الغربي المعاند[208]. لذا نعرض هنا مسألة كون المرأة لا تصلح سوبرمانا تاماً من منظور عام.

خلق الله عزوجل الكون وقضى عليه بالزوجية: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾] سورة الذاريات ,٤٩]"، فجمادات الكون ونباتاته وحيواناته كلها أزواج، ذكر وأنثى وموجِب وسالب .. وكذلك كان الإنسان ذكرا وأنثى. والذكر والأنثى مختلفان في الخلقة، وهذا الاختلاف لزاما لغاية، فإما أن يكون هذا التنوع عبثا، حاشا لله، وإما أن يكون له غاية، والغاية من بسط قانون الزوجية على الكون هو النقص والاحتياج، فكل زوجٍ يحتاج إلى زوجه الآخر حتى يكمله، –وانفرد الله عزوجل بالأحدية فليس له زوجٍ ولا ولدا!–، وجعل الله تعالت حكمته هذا التكامل هو سبيل السكينة واستمرار الحياة، فمنه تخرج أجيال جديدة تكمل المسيرة بعد هلاك الأصل، فكل الخلق محكوم بالهلاك.

نخرج من هذه النظرة العامة على الكون أن المرأة لا بد أن تكون مختلفة عن الرجل، وإلا لما أضافت إليه شيء، وأن دور الأزواج هو التكامل لا التساوي. لذا يمكننا القول أن الداعين لمساواة الرجل بالمرأة أو العكس واهمون، ومخالفون لنظام الكون كله، فللذكر دور غير ذي الأنثى، وللسالب دور غير الموجِب، ولا يمكن أن يقوم أحدهما بدور الآخر أو يستغني عن الآخر.

(208) نسى هؤلاء أن تأصيل الغرب لمسألة *الحرية* والمكانة تأصيل غير متوازن، أتى كردة فعل على الكبت والتضييق اللذين كانت تفرضهما الكنيسة في العصور الوسطى، فما كان من المتحررين إلا أن فتحوا الباب على مصراعيه ليفعلوا ما يشاءون.

وعلى الرغم من جلاء هذا الأمر فإن الغرب لا يزال يجادل فيه، ويعلق الدكتور محمد عمارة على هذا، فيقول: "الخلاف بيننا وبين الغرب والمتغربين هو حول "نموذج" هذا التحرير، فهم يريدون المرأة "ندا مساويا للرجل" .. ونحن –مع الإسلام– نريد لها "مساواة الشقين المتكاملين، لا الندين المتماثلين".. وذلك لتتحرر المرأة مع بقائها أنثى، ومع بقاء الرجل رجلا، (...) ونلح على أن هذا "التشابه ..والتمايز" بين النساء والرجال، هو الذي أشار إليه القرآن الكريم عندما قرن المساواة بالتمايز، فقالت آياته المحكمات: "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة".

"وليس الذكر كالأنثى" (...) ولقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يشهد شاهد من أهلها على صدق هذا المنهاج الإسلامي، فتنشر صحيفة الأهرام تقريرا علميا عن نتائج دراسة علمية استغرقت أبحاثها عشرين عاما، وقام بها فريق من علماء النفس في الولايات المتحدة الأمريكية، وإذا بها تكشف عن مصداقية حقائق هذا المنهاج القرآني –في تشابه الرجال والنساء في اثنين وثلاثين صفة ... وتميز المرأة عن الرجل في اثنين وثلاثين صفة ... وتميز الرجل عن المرأة–كذلك– في اثنين وثلاثين صفة.[209]**"اهـ**

فمسألة الندية ظاهرة البطلان، لمن يرى أو يسمع أو يعقل! والخلاف الأظهر هو في مسألة دور المرأة في الحياة والمجتمع. وندلي بسجْلنا في الأمر، فنقول: الناظر لدور الأنثى في الطبيعة، جمادا كانت أو حيوانا أو نباتا، يجد أنها تلعب دورا واحدا وهو الاستقبال والانفعال والتأثر، فالطرف الموجِب هو الذي يُنشط والذكر هو الذي يُلقح، فتستقبل الأنثى الفعل وتتجاوب معه منتجة نشأً جديدا، والمرأة لا تختلف عن باقي الإناث في الطبيعة، فهي تُضاجع[210] **وتحمل وتلد وترضع، أي أنها الأداة المسؤولة عن احتضان النتاج الناشئ، ورعاية هذا النشأ لمدة سنتين إثنتين على الأقل.**

---

[209] محمد عمارة، التحرير الإسلامي للمرأة، ص.97.

[210] من المضحكات المبكيات للحركات النسوانية أنهن يردن تحوير اللفظة الدالة على العملية الجنسية، فيقال: أن المرأة وطأت الرجل، كما يقال: وطء الرجل المرأة! ولست أدري هل سيغير ابتكار لفظ جديد شيئا في دور كل فرد في العملية!

وبداهة فإن الطرف الآخذ غير المعطي تكوينا، فالطرف الفاعل المؤثر لا بد أن يكون قويا صلبا حتى يؤثر، وحتما كون الطرف المستقبِل لينا هينا حتى يتأثر وينفعل ولا يتحطم! والاختلاف في الخلقة هذا لا بد أن يؤثر في الدور الذي يلعبه كلا الطرفين في المجتمع، فلا يمكن أن يتحمل الطرف الضعيف نفس المسؤولية التي يتحملها القوي، ولا يمكن أن يكون خُلق ليلعب نفس الدور، فمن المنطقي تقاسم الأدوار: طرف للرعاية والآخر للحماية والأمان.

قد يقول قائل: من غير المنطقي أن نسقط الأدوار الطبيعية للحيوانات والجمادات على المرأة إسقاطا كاملا، وذلك لأن الإنسان كائن اجتماعي متطور، يختلف عن مجتمعات الحيوانات، له نظام حياة متداخل معقد، لم يعد يقتصر بحال على الأكل والشرب والجنس. نقول: لا يختلف الأمر كثيرا بين دور الأنثى في الطبيعة ودورها في المجتمع الإنساني المعقد، بل إن تعقيدات هذا المجتمع أدعى للالتزام بدورها الأم. فإذا أخذنا مسألة رعاية الأولاد بين النساء والحيوانات وجه مقارنة، وجدنا أن المولود الحيواني لا يحتاج إلى طويل عناية وإعداد، بل إن بعض الحيوانات، مثل الغزال، يستطيع العدو بعد الولادة مباشرة! بخلاف المولود البشري الذي يولد غير مستطيع الحركة، وبعد فترة طويلة يستطيع الحبو وبعد ذلك يمشي مستندا، وحتى إذا وصل إلى المقدرة على المشي والعدو فإن هذا لا يعني بحال أنه لم يعد محتاجا إلى العناية والرعاية، فلا بد من تعليمه الكلام وكثير من المهارات الحياتية حتى يستطيع التواصل مع المجتمع، وهذا يحتاج فترة أطول بكثير. ثم يحتاج الطفل بعد ذلك إلى متابعة ورعاية وحنان وتصحيح للأخطاء حتى يبلغ، فإذا أنجبت المرأة طفلين أو ثلاثة فإن هذا يعني أنها ستحتاج إلى فترة شبابها بطولها لكي تعدهم للمجتمع.

وسواء أنجبت المرأة طفلا أو عشرة فإن دورها الرئيس الذي يجب أن تقوم به طيلة حياتها هو الرعاية، رعاية الرجل ورعاية النشأ. ودور الرجل بالمقابل هو الحماية، فيوفر للمرأة وللأولاد ما يحتاجونه، وأهم ما يحتاجونه هو الطعام والأمن، وهذا هو دور رب الأسرة. وهذه المعاني مكرورة متجددة، فالإنسان لن يكف أبدا عن تناول الطعام ولن

يكف عن العناية بمأمنه، فلا بد من الاهتمام بالمكان الذي يحميه ويأويه وبالثياب التي تقيه، ولن يكف عن الحركة من أجل الحصول على حاجاته، وهنا إما أن يخرج الإثنان ليقوما بنفس الأدوار ثم يعودا ليقوما بنفس الأدوار في المنزل، وإما أن يوزعا الأدوار، فيتولى أحدهما الرعاية ويتولى الآخر الحماية والتأمين. ولقد سارت البشرية منذ مبتدأها إلى زماننا هذا على هذا التقسيم، ولا يزال غالبية البشر عليه، فكثير من النساء العاملات لا يعملن إلا لضيق ذات اليد، ويؤمنّ أن دورهن في البيت، ولو توفرت لهن الإمكانية لالتزمن البيت.

وكإعتراض أولي على ما نقول، نسمع من يدعي أن المرأة تستطيع التوفيق بين العمل وواجبات البيت، فلا تعارض بينهما! وأنا أجزم وأقسم أنه لو وُجدت تلك المرأة – وخاصة مع طبيعة العمل في زماننا هذا– لاستحقت بجدارة أن تكون سوبرمان! إن البنية النفسية للمرأة أضعف[211] وأرق بكثير من الرجل غالبا، ونحن نجد المرأة مشدودة متوترة من العمل في المنزل، فما بالنا لو خرجت إلى العمل وعادت؟! إن القائلين بالتوفيق هؤلاء يوفرون مُربين لأطفالهم، فتخرج المرأة والرجل وتستأجر امرأة لترعى لها أطفالها، فخرجت امرأة وجلست مكانها امرأة أخرى!!

ولا يعني هذا أننا نقلل من الدور الذي تؤديه المرأة في البيت، فنحن نرى أن ما تقوم به في البيت كثير ثقيل وتحتاج إلى مساعدة الرجل فيه، فالعناية بالأطفال وتوجيههم أمر عسير، ويحتاج كثير جهد ويسبب كثيرا من الضغط النفسي[212] فإذا أضيف إليه الانشغال بحاجيات المنزل والعلاقات الاجتماعية المألوفة، فإن هذا يعني أن المرأة ستستهلك اليوم كله!

[211] ليس هذا كلاما مرسلا، فلقد بينت الأبحاث أن المرأة لديها فرصة مضاعفة للإصابة بالكآبة أكثر من الرجل، وهي تحزن ثمان مرات أكثر من الرجل.

[212] مما يأسف له المرء أن دور الأم انحصر عند عامة السيدات في *العلف* والكسوة! فهي *تعلف* أولادها جيدا وتهتم بمظهرهم الخارجي، وما عدا ذلك فأمر ثانوي، مع أن دورها الأساسي هو التربية والحنان والتوجيه!

ولا يعني هذا كذلك أننا نرفض عمل المرأة على طول الخط، وإنما نرى أن الأصل أن تكون في البيت، وإذا عملت يكون عملها استثنائيا لضرورة ملحة، ولقد أجاد الشيخ محمد الغزالي عندما ذكر الأحوال الأربعة، التي يمكن للمرأة فيها أن تعمل، فقال: "ولهذا قلنا: إن عمل المرأة لا يكون من الناحية الشرعية والاجتماعية أصليا بل يكون استثنائيا، وأعلنا رأينا: هو أن المرأة تعمل في أحوال أربع: الأولى: أن تكون المرأة ذات نبوغ خاص يندر في الرجال والنساء معا، والمصلحة الاجتماعية توجب في هذه الحالة أن تعمل ليعود ذلك النبوغ على المجتمع بنفع عام، ولا تخمده بإخمالها.(...) والثانية: أن تتولى المرأة عملا هو أليق بالنساء، كتربية الأطفال في سنيهم الأولى وتعليمهم، وذلك إلى سن التاسعة أو الحادية عشرة وهي السن التي قررتها الشريعة لحضانة الأطفال، فيكون الطفل في حضانة أمه داخل البيت، وفي عطف المرأة ورعايتها بالمدرسة. ومثل تعليم النساء تطبيب الأطفال، ولقد قرر الفقهاء أن بعض هذه الأعمال فرض كفاية كالقابلات، فإن عملهن من فروض الكفاية. ولقد قرر كمال الدين بن الهمام، من فقهاء الحنفية، أن الزوج ليس له منع امرأته من الخروج إذا كانت تحترف عملا هو من فروض الكفاية الخاصة بالمرأة، (...) الحال الثالثة: أن تعين زوجها في ذات عمله، وهذا كثير في الريف، (...) ولو كانت للمرأة صورة مثالية في مجتمعنا لكانت صورة تلك المرأة الكادحة العاملة العاطفة، لا هؤلاء النساء اللاتي يغشين الأندية والملاهي ودور الغناء ويلغطن في مجالسهن بالحلال والحرام!!. الحال الرابعة: أن تكون في حاجة إلى العمل لقوتها وقوت عيالها إذا فقدت العائل هي وهم، فكان لا بد أن تعمل لهذه الضرورة[213]" اهـ

ونختم فنقول: ساوى المنهج بين الذكر والأنثى في الحقوق: ﴿... وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٢٨] والدرجة التي للرجل على المرأة هي درجة القوامة، وهي درجة مسؤولية وليست شرفا.

[213] محمد الغزالي، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الامم المتحدة، ص.118.

وساوى بينهما في الجزاء: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ... ١٩٥﴾ [سورة آل عمران, ١٩٥]، ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠﴾ [سورة غافر, ٤٠]

وساوى بينهما في الإنسانية، فقال الرسول الأعظم: "إنما النساء شقائق الرجال"، رواه مسلم. فلم ينظر إليها تلك النظرة الدونية التي وجدت في الأديان الأخرى،(214) إلا أنه فرق بينهم في الخلقة والواجبات: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ ... ٣٦﴾ [سورة آل عمران, ٣٦]، ومسألة التفريق في الواجبات هذه لم يذكرها المنهج صراحة، فلم يقل صراحة أنه يجب على المرأة أن تظل في البيت أو من الأفضل ذلك، وإنما فُهم ذلك من خلال النصوص العامة للكتاب، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [سورة طه, ١١٧]، فلم يقل الله تعالى لآدم: فتشقيا، وإنما قال فتشقى، وذلك لأن الرجل هو الذي يتحمل العنت والمشقة ويسعى ويكدح، كما أنه –وهذا هو الأهم– مسؤول عنها، فيجب عليه نصحها وتوجيها، فإن لم تستجب حملت وزر نفسها!

وبعد أن أنهينا هذه المقدمة الضرورية عن طبيعة المرأة ودورها، نوضح علاما استندنا في قولنا أن المرأة لا تصلح أن تكون سوبرمان:

استندنا في منطلقنا وقولنا هذا إلى المرأة نفسها؛ فالمرأة لا ترى نفسها بالدرجة الأولى كإنسان، فكيف تصير سوبرمان!

(214) نرجو أن يتذكر القارئ كيف كانت نظرة الأديان الأخرى إلى المرأة، وخاصة المسيحية واليهودية، وكيف أن الغرب لم يزد عن الإسلام في حقوق المرأة إلا أنه أعطاها خيار الانحراف!

وحتى لا يُساء فهم قصدنا، نوضح ماذا نعنيه بذلك: نحن لا نعني بحال أن المرأة ترى نفسها قردا أو كرسيا مثلا، فهي تجزم أنها إنسان، ولكنها تعتبر نفسها "تحفة" جمالية، فالمرأة تعتبر نفسها شيئا ثمينا، على الرجل أن يشقى وينصَب من أجل الوصول إليه، ترى نفسها جمالا يستحق الشغف وأن يزداد جمالا، لذلك تتوقع أن يهديها الرجل الهدايا، لا لتميز في شخصيتها، بل لمجرد أنها أنثى! ترى نفسها هدية تقدمها للرجل يلتذ بها، على الرغم من أنها تلتذ هي الأخرى بنفس العملية، والرجل يقبلها كهدية ويعتبرها كذلك، ولا يمكن أن يحدث العكس![215]

ولكن مشكلة المرأة أنها مرتبطة بالرجل، فهي وإن كانت تحب أن يُطري النساء الأخريات عليها وعلى جمالها، إلا أن الأهم من ذلك هو اطراء الرجل عليها ونظره لها، وثناءه ومدحه وإظهار إعجابه وانبهاره، فإذا لم يفعل الرجل ذلك أُحبطت المرأة، لشعورها بأنها غير ذات جدوى في الحياة.

ونتوقف مع مسألة الاحباط هذه، لنوضح: لم تُحبط المرأة إذا لم ينتبه إليها، ويهتم بها، الرجل؟ إن إحباط المرأة لعدم اهتمام الرجل لها ليس أمرا راجعا لتفاهة المرأة أو لسطحيتها، وإنما هو أمر حتمي ملازم لطبيعتها، ويجب أن تشعر به، فإن لم يحدث فهي ليست بأنثى! إن المرأة كأي أنثى في بيئة حيوانية تقوم بدور رئيس وهو جذب الذكر، ولقد أمدها الله عزوجل بأدواتها في ذلك، ففي عالم الحيوان تطلق الأنثى رائحة ما في موسم التزواج، يعلم بها الذكر بدء الموسم واحتياجها إليه. وكذلك الحال مع الأنثى، فهي تعرف أن دورها هو جذب الذكر، ليس فقط للعملية الجنسية كما في الحيوان، وإنما للحب وللجنس وللأمان وللحماية .. إلخ الأدوار، وأداة المرأة في هذا هو أنوثتها، فإذا لم ينتبه إليها الذكر، فهذا يعني أنها أخفقت في دورها الرئيس في الحياة، ويصبح حالها مثل الرجل الذي يعاني من التعطل الوظيفي لأنه لا يعمل، أو يعمل في عمل لا يتناسب مع ميوله واهتماماته. وتتباهي المرأة كأي أنثى بعدد الذكور،

---

[215] تصور لو قال رجل لامرأة أنه سيقدم لها هدية، وأن هذه الهدية أنه سيقضي معها الليل كله، كيف سيكون رد فعل المرأة، حتى ولو كانت زوجته، واعكس الموقف تجد أنه جد مألوف، فالمرأة تقدم نفسها كمكافأة للرجل لمعرفتها الفطرية بطبيعة دورها.

التي تستطيع جذبه إليها، ويختلف الوضع مع المرأة أنه يكفيها نظرة أو كلمة، فلا تحتاج من كل ذكر إلى المعاشرة، ولكنها تحتاج ذلك من واحد فقط، فإذا حدث ووجدته فإنها لا تفرط فيه بحال، فتقدم نفسها له، كمنحة واجبة القبول والتملك... نعم، منحة تُمتلك، فالمرأة تجد قمة السرور والنجاح إذا ما شعرت أن رجلها يتملكها، وتجد تجسيد هذا الشعور عندما يحيطها الرجل بذراعيه ويضمها إليه. لذلك كان مع نيتشه الحق عندما قال أن المرأة لا تعرف إلا الحب: "لقد مرت أحقاب طويلة على المرأة كانت فيها مستبدة أو مستعبدَة فهي لم تزل غير أهل للصداقة، إن المرأة لا تعرف غير الحب. إن حب المرأة ينطوي على تعسف وعماية تجاه من لا تحب، وإذا ما اشتعل بالحب قلبها فإن أنواره معرضة أبدا لخطف البروق في الظلام. لم تبلغ المرأة بعد ما يؤهلها للوفاء كصديقة، فما هي إلا هرة، وقد تكون عصفورة، وإذا هي ارتقت أصبحت بقرة... ليست المرأة أهلا للصداقة، ولكن ليقل لي الرجال من هو أهل للصداقة بينهم[216]؟"اهـ

ومسألة أن المرأة لا تصلح أن تكون صديقة للرجل مسألة أتفق فيها مع نيتشه، لأنه إذا زادت العلاقة بينهما وتوطدت فإنه سرعان ما تحب المرأة الرجل، وترى أنه من الواجب عليها أن تقدم نفسها له يتملكها ويحرثها! إلا أننا نخالفه تماما في مسألة كونها هرة أو عصفورة أو بقرة، حتى ولو أراد التشبيه في النعومة أو الرقة والحنان، فالمرأة تؤدي دورها التي فُطرت عليه لا أكثر!

وبخلاف كونها أنثى أو تحفة فإن المرأة ترى نفسها منذ طفولتها –بدون أدنى توجيه– أماً راعية، فالطفلة الصغيرة تأخذ الدمية، –ولا تقرب الكرة مثلا– وتبدأ في رعايتها والاهتمام بها، ولا يفعل الطفل هذا أبدا! فهي تعرف أنها أم وتبحث عن الأمومة منذ صغرها، أمومة تقوم فيها بلعب دورها الرئيس وهو الرعاية، ومن أجل هذا فهي ترعى الرجل، فالرجل وسيلتها لتحقيق الأمومة، وأصاب نيتشه كبد الحقيقة، إذ قال: "كل ما

---

[216] فريدريش نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تعريب: فليكس فارس، ص.46.

في المرأة لغز، وليس لهذا اللغز إلا مفتاح واحد وهو كلمة (الحبل). ليس الرجل للمرأة إلا وسيلة، أما غايتها فهي الولد، ..."[217] اهـ

فالمرأة بحبلها تضرب عصافير كثْرة بحجر واحد، فهي تربط الذكر بها عن طريق الولد، وبرعايتها لولدها تشعر بأنها ترعى أجزاء منها تعدها للخلود، بخلاف زوجها الذي ليس منها، يضاف إلى ذلك أن المرأة مؤمنة بضعفها وبالزوج والولد تشعر بالأمن والأمان والحماية!

ونحن إذ نتكلم عن دور المرأة في جذب الذكر فإنا لا نعيب المرأة أو ننقص من دورها، فعلى هذه الهيئة ولهذا الدور خلقها الله، فعلينا احترامه، ولو لم تكن ثمت عناصر جذب للذكر لما استمر الجنس البشري، فنظرتنا إلى الجنس نظرة مقبولة، حاجة إنسانية طبيعية لا حرج فيها، ما دامت تؤدى في نطاقها المنتظم، نعمة من نعم الله علينا، نظرة نحترم فيها المرأة ونتفهم دورها الطبيعي، كوعاء للولد ومكمل للرجل، وليست أداة للخطيئة وللشر المطلق![218]

وكما رأيت عزيزي القارئ فإن سعي المرأة كله من أجل هذه الغايات بالدرجة الأولى، فإن أهملت جانبا مثل الأمومة –كما تفعل بعض الغربيات[219]– فإنها لا يمكن أن تهمل أنوثتها ولا يمكن إهمال كونها تحفة جاذبة للاهتمام.

---

(217) المرجع السابق، ص.53.

(218) يعلق الدكتور عبدالصبور مرزوق في كتابه: "رسائل إلى العقل الغربي وضميره ... الإسلام وحقوق المرأة" على مسألة نظر الأديان الأخرى إلى الجنس، فيقول: "النظر إلى الجنس على أنه شر مطلق يحول بين الإنسان وبين الإيمان وأن التخلص منه والبعد عنه فضيلة وطريق إلى الإيمان. وهذا موقف خاطئ لأنه يناقض الفطرة البشرية، ويناقض حكمة الله في خلق الإنسان لإعمار الكون والاستخلاف فى الأرض. 2– انسحب هذا الفكر وأدى إلى كراهية المرأة باعتبارها العنصر المحرك للجنس والمثير لشهواته. 3– أدت هذه النظرة إلى السقوط فى أفكار ورؤى غريبة حول المرأة بلغت لدى بعضهم إلى القول:

أ– المرأة ليست إنسانًا./ ب. التساؤل الغريب: هل المرأة لها روح؟/ ج– النظرة الدونية للمرأة./ د– بل بلغ الشطط ببعض أصحاب هذا الفكر الكنسي العجيب إلى القول بأنه على المرأة إذا أرادت الدخول فى مملكة الله أن تتحول إلى ذكر!!" اهـ

(219) أعجب كثيرا من انتكاسة الفطرة عند هؤلاء، فبعد أن كانت المرأة فيما مضى من الزمان تزني من أجل أن تحمل وتصير أما، فهي الآن في الغرب تفضل العربة والرحلات والحرية على تكاليف الأمومة! وأُسَرُّ كثيرا بالفطرة السليمة عند نساء ريفنا الطيبات.

وهذه نقطة نقص وضعف كبرى تمنع من أن تكون سوبرمان، فالمفترض في السوبرمان أن يجابه المجتمع كله ويسعى لتغييره، ولا يهمه رأي الآخرين فيه أو في أقواله، والرجل الراجل هو المعد لذلك، أما المرأة فتحتاج إلى إطراء الآخرين، فكيف يفترض فيها مواجهة الناس والسعي لتغييرهم؟! وتحمل هجرهم ونقدهم. فلأن المرأة، لكونها أنثى، محكومة بتوجهاتها الأنثوية، لا يمكن أن تصيرا سوبرمانا.

فإذا تركنا التوجهات الأنثوية –والتي يمكن أن تُلغى وتُعد المرأة إعدادا رجاليا يؤهلها لتكون سوبرمانا–، وجدنا أن البنية الأنثوية لا تصلح بحال لأن تكون سوبرمانا. فالبنية الذكرية هي المُعدة لذلك، فالذكر مخلوق للفعل والتأثير والأنثى للانفعال، لذلك لا بد أن تكون أدواتها موجهه لهذا الغرض، ولهذا وجدنا الذكر في الطبيعة كلها أجمل وأكمل وأقوى من الأنثى!

وكل إنسان يجزم أن الذكر في الحيوانات أجمل وأقوى من الأنثى، إلا أنه يخالف في مسألة جمال الذكر البشري. ونحن نجزم أنه كذلك في بني البشر! فالمرأة وإن كانت ألطف وأرق ملامحا من الرجل، إلا أن التناسق الجسماني للمرأة ليس مثل ذي الرجل، ناهيك عن الثديين، الذين أضاعا كل أمل للتناسق، ولولا الشهوة المسلطة على الرجال لما اشتهى رجل امرأة، ولما وُضعت مقاييس جمال، مبنية على عدم التناسق![220]

فالمرأة كجسمان أضعف بكثير من الرجل، وحتى لا يعارض أحد ويقول: لم نعد بحاجة إلى القوة العضلية الجسمانية، العبرة بالعقل وهما متساويان فيه! نقول: على الرغم من أن القوة ابتداءا هي عنصر الفصل، إلا أن مسألة تساوي الفريقين في القدرات العقلية هذه غير صحيحة على الإطلاق، فهناك اختلافات بينهما في نقاط عدة، تبعا لدور كلا منهما، فالمرأة على سبيل المثال أفضل من الرجل في الذاكرة القصيرة أي أنها تتذكر الأشياء التي حدثت قبل قليل بسرعة أكبر من الرجل، ولكن الرجل يتفوق عليها كثيراً في الذاكرة الطويلة.

---

[220] لا يعني هذا أننا نبرر أو ندعو إلى حب الرجال، فليس الحب مسببا بالتناسق أو بالجسد أصلا! وإنما مبني على الانجذاب إلى الطرف المكمل!

وبشكل عام فإن الرجل الأقوى جسمانيا أقوى عقليا، فلم يخلق الله تعالى الذكر ليقود المسيرة بجسد ثور وعقل طير! فإذا كان قد أعده لدور فقد أمده بما يؤهله للقيام به. والدليل على هذه المسألة جلي، فلا يمكن مقارنة إبداع الرجل في أي مجال كان – حتى في الطهي– بنتاج المرأة، فما تسابق الرجل والمرأة في عمل –غير الرعاية والحب– إلا وبذّها الرجل وتفوق عليها، والحالات القليلة لتفوق المرأة حالات شاذة تؤكد القاعدة.

ولأن كثيرٌ لا ينظرون بأنفسهم ولا يتفكرون ولا يقتنعون إلا بما تقدمه الأبحاث العلمية،[221] نقدم للقارئ الكريم ملخص دراسة علمية، –مؤيدة بالواقع والنظر المجرد– حول الاختلافات العقلية بين الرجال والنساء، للباحثة الأمريكية إليانور ماكوبي، كان قد ذكرها الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله– في كتابه: حقوق الإنسان. تقول هذه الدراسة أن الباحثة درست الإحصاءات التي تسجل الاختلافات العقلية بين الجنسين خلال الأربعين سنة المنصرمة، حيث التعليم بكل مراحله مفتوح للنساء، فكانت النتيجة أن الرجال أكثر انتاجا من النساء حتى في المجالات الأدبية، واتسعت الفجوة عندما انتقلت إلى ميدان الدراسات العلمية والبحوث، ومن بين أربعمائة حالة ممن حصلوا على درجة الدكتوراة من الجنسين، فإن نحو نصف النساء لم يسجلن بحوثا جديدة، ولم تكن عقبتهن الزواج أو ولادة الأطفال، لأن الإنتاج العلمي لمن تزوجن تساوى مع من بقين بغير زواج، وعندما انتقلت لمرحلة اجراء التجارب على الجنسين لتعرف علة التخلف، هل هي أصلية أم طارئة، ومن هذه الاختبارات أثبتت أن الفتيات يتفوقن على الأولاد في طلاقة اللسان والقدرة على التعبير بعد إتمام خمس أو ست سنوات من المرحلة الابتدائية.

---

[221] نحن نحترم الدراسات العلمية ومن يقوم بها عامة، ولكن لا بد أن يكون للمتلقي عقلية ناقدة في النظر للأمور، فهناك الكثير من الدراسات الموصوفة بالعلمية! وتخرج بآراء غير منطقية تماما، ويصدقها المتلقي المسكين، مثل تلك الدراسات التاريخية، التي قالت أن عدد اليهود الذين قُتلوا في المحرقة النازية كانوا ستة ملايين يهودي! ولست أدري كيف يمكن أن يحدث هذا عقلا! ولكن كُثر يتقبلون، لأنها مذكورة في دراسات علمية.

أما الأولاد فكانوا يتفوقون ويحصلون على الجوائز في العلوم الرياضية وعمليات التحليل في الجبر والهندسة وغيرها من العمليات التي تحتاج إلى تفكير منطقي كبير. وفي اختبارات الذكاء المؤهلة للجامعة كانت نسبة الذكاء في الذكور أعلى، وبعد أبحاث طويلة وتحليل ونظر توصلت إلى أن الفتيات يختلفن عن الأولاد في طريقة صقل تفكيرهن، ليصرن أكثر ميلا إلى النظرة العامة الشاملة والوقائية، وأقل ميلا إلى الناحية التحليلية، وقد يفيدهن هذا التفكير في حياتهن، إلا أنه لا يؤدي إلى مستوى ذكاء مرتفع وابتكاري، وهو الاتجاة الضروري للعلوم وبحوثها، ولهذا فإن قلة من النساء يحصلن على التفكير التحليلي. ولقد أجريت هذه الدراسات في بلد غربية حيث تحررت المرأة ولم تعد تعاني من المضايقات الاجتماعية، فما المبرر لذلك إلا أن تكوينها العقلي موجه لاتجاه معين، عليها أن تقوم به وهو الرعاية؟

إذا فالنظرة المجردة في الطبيعة والأبحاث العلمية تثبت أن الذكر أقوى جسمانا وأرقى عقلا من المرأة في مجالات كثيرة. ونقول للمعترضين على كون الرجل أرقى عقلا من المرأة، نجزم أن الإنسان كلما ازداد عقلا، وتوسع فكره ونظره للكون وللكليات، قلّت انفعالاته، وأصبح هادئا فاتر المشاعر، لا ينفعل إلا بقدر بسيط مع الوقائع، وذلك لوضعها في نصابها ولتوقع نزولها، ولمعرفته بكيفية الخروج منها، ولانشغاله بهذه المسائل العظيمة، وقد يهمل نفسه قليلا. ولنا أن نتصور أنثى، أما، فاترة المشاعر، مهملة في حق نفسها، كيف ستكون هي؟ إنها معادلة بسيطة: إما أن تزداد المرأة فكرا وعقلا، فتفتر مشاعرها وتجف ينابيع حنانها ويقسو قلبها وتسترجل، وهذا ما رأينا عيّنات منه مع خروج المرأة للعمل، وإما أن ترضى بعقلها كما هو، وتظل أما وأنثى، تؤدي دورها الأصل: أم!

ونعود فنقول إن هذه المقارنة مقارنة ظالمة متخلفة، فلم نقارن بين جنسين مختلفين، على كل واحد منهما أن يؤدي دورا؟ إلا أن هذا نابع من المنظور الغربي العقيم، الذي يصر على جعل المرأة ندا للرجل.

وفي نهاية المطاف نقول: إن المرأة كائن ضعيف لطيف، على هذه الهيئة خلقه الله، ولدور محدد أوجده، ولرسالة معينة أهّله، والله تعالى أعلم بخلقه من أنفسهم، لذلك فقد ترفق بالنساء ولم يحملهن عبء الإقدام، وإنما طلب منهن الإتيان بدورهن، وما عدا ذلك فطًلب منهن أن يكففن أيديهن عن المعاصي، فلم يطلب إليهن الجهاد في الحرب أو في المجتمع: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ [سورة الممتحنة, ١٢]

وعامة من خرجن من بيوتهن وعملن، فشلن وأخفقن في تحقيق الدورين، وخاصة الدور الأم. كما أنها سقطن في عدد من المنهيات، وأصبحن فريسة للذكور .. الذئاب، الذين أوهموهن أن ما يفعلنه حرية شخصية لهن، وما كان المنتفع –الخاسر– إلا الرجل، وما كان الخاسر على طول الخط إلا المرأة .. تلك الرقيقة.

الموسيقى!

ما هي الموسيقى[222]؟

من الصعب إعطاء جواب جامع مانع لهذا السؤال، فهل هي عالم الأصوات؟ هل هي فن تنسيق الأصوات، بحيث يشجي الأذن ويحرك المشاعر؟ هل هي غذاء الروح؟ هذه هي الإجابات المألوفة لهذا السؤال، إلا أن أفضل تعريف للموسيقى هو أنها

[222] أصل كلمة "موسيقى" يوناني، وهو كلمة "موسا"، وهو لقب بنات *الإله* زيوس التسع، *آلهات* الجمال والفن والادب والتاريخ. وكلمة "موسا" تعني الملهمة، ثم أضيف إليها لاحقا المقطع "إك" للدلالة على النسبة، ثم أضاف لها العرب الألف المقصورة عند النطق فصارت "موسيقى".

الموسيقى، تلك النغمات والألحان التي يطرب لها الإنسان ويشعر بها أنه يستمع إلى .. موسيقى!

والموسيقى كفعل إنساني هي سلوك تقليدي، إنطلق الإنسان فيه من الطبيعة السابقة له، كعادته مقلدا وموفقا، ومبتكرا بما آتاه الله من القدرة على التخليق. وتتميز الموسيقى عن غيرها من الفنون أنها نوع راق من التجريد، بل إن الكثيرين يرون أنها قمة التجريد في الفنون. لذلك اعتبرها كثير من المفكرين أنها مرآة الحضارة عند الشعوب، حتى أن حكيم الصين الأشهر كونفوشيوس قال: "إذا أردت أن تتعرف في بلد ما على إرادته ومبلغ حظه من الحضارة والمدنية، فاستمع إلى موسيقاه".

ونحن إذ نتعامل مع الموسيقى فلا يمكننا أن نصدر حكمنا تجاهها كلها حزمة واحدة، فلا يمكن أن نعامل الموسيقى كلها معاملة واحدة، وذلك لاختلاف أنواع الموسيقى في زماننا هذا! وظهور أنواع جديدة من الموسيقى، والتي أعتبرها إكمالا للانتكاسة، التي أصابت الإنسان في كل شئون الحياة، ولا بد أن ينال الموسيقى من هذه الانتكاسة جوانب وليس جانبا واحدا! ففي زماننا هذا ظهرت أنواع عجيبة من الموسيقى الصاخبة، أعجب من تسميتها موسيقى! وما هي إلا مجموعة من الاصطدامات والارتطامات، لا تنتج إلا صداع الرأس.

والعجب أن بعض البشر يتجاوبون مع هذه الأصوات، ويتراقصون حولها كالمخابيل، برقصات عنيفة مثل الأصوات التي يسمعونها! ولكن إذا كان الإنسان قد انتكس إلى الحيوانية وألغى عقله فلا عجب من فعل أي حماقة![223]

إن هذه النشازات تسبب صداع الرأس وضعف السمع والذاكرة وارتفاع ضغط الدم، وتزيد من الانفعالات العدوانية بدون سابق استفزاز أو تهديد! والعجيب أن بعض المغفلين —وأجزم أنهم مغفلون– يظنون أن الاستماع للموسيقى الصاخبة العنيفة تعدّ

---

[223] أعجب كثيرا من المخابيل الذين يبدأون في الصراخ عندما يظهر أمامهم مغن أو راقص أو ممثل! وأتساءل: ما العلاقة بين الإعجاب والصراخ؟! ثم أُقر أن المسألة أولا وأخيرا قائمة على اللامعقولية، لذا فلا بأس بقليل من التصرفات البلهاء، من صراخ وارتماء على الأرض! ... ولا يزال سرادق العزاء في العقل البشري منصوبا!

وسيلة إيجابية للتخلص من الانفعالات! ولست أدري كيف يصاب مئات الآلاف بانهيارات عصبية جراء الضجيج، ثم يتوقع هؤلاء المغفلون أن يتخلصوا من انفعالاتهم بضجيج نشاز؟!

ولأن هذا النشاز ما هو إلا ضجيج أخرق، وجدنا أن بعض الموسيقيين الغربيين أضاف إلى آلاته الموسيقية الصاخبة أصوات آلات المصانع الثقيلة وضجيج الطائرات العملاقة! فكلاهما ضجيج، إلا أن عدد البله المستعدين للرقص على أي وكل صوت كبير! لذلك لا عجب أن وجدنا تقريرا للاكاديمية الملكية البريطانية يقول أن عدد ضحايا الموسيقى الصاخبة بصفة خاصة وصل إلى 75 ألف حالة وفاة بين المراهقين والشباب المدمنين لهذا النوع من الموسيقى، والذين تتراوح اعمارهم بين 14 و24 عاما.

إن تجاوب الكائنات الحية كلها مع النغمات الموسيقية والأصوات الشدية أمر لا دخل للكائن فيه، فهي مجبولة على ذلك، فالإنسان صغيرا وكبيرا يتأثر بالنغمات والألحان، حتى أننا نرى الطفل الصغير يتجاوب مع الألحان ويتحرك كأنه يرقص بدون أن يعلمه أحد أنه ينبغي أن يرقص[224] عند سماع الموسيقى! وكذلك الأنعام تتجاوب معها، فالجمال مثلا تسرع عندما يغنى لها، والحِداء معروف في الأدب العربي، فكان هناك غالب الأحيان من يغني للجمال أثناء مسير القافلة! وتستجيب معها الأبقار بإدرار كميات أكبر من الألبان، وكذلك النبات بزيادة النمو.

ولا يقتصر الأمر على الإنسان والحيوان والنبات وإنما يتعداه إلى الجماد –الذي قلنا سابقا أنه حي!– فحتى الجبال تتجاوب معها: ﴿... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ

[224] من الظواهر الإنسانية التي لا تزال تثير حيرتي إلى يومنا هذا، ولا أجد لها تفسيرا منطقيا مسألة الرقص، فالحيوانات وإن كانت تقوم ببعض الحركات التي يمكننا أن نسميها رقصا، إلا إننا نرى أن هذه الحركات –وليست الرقصات– لغة للتواصل وللإشارة أو من أجل الإثارة! أما الإنسان فلا يفيد غيره برقصه ولا يوصل إليه أي رسالة بهذا الرقص، وإنما هو يرقص فقط ولا يكون ذلك إلا مع الموسيقى، وبدون الموسيقى تكون الحركات عبثا! أنا أفهم أن ترقص المرأة أمام الرجل من إجل إثارته، ويفهم الرجل من ذلك أنها تطلب إثارته بحركات جسدها! إلا أن السؤال نفسه يظل مطروحا: لماذا نرقص؟! لا أعتقد أن أحد يعرف! العجيب أن نيتشه قال على لسان زرادشته: "إن الإله الذي يمكنني أن أومن به إنما هو ذلك الإله الذي يمكنه أن يرقص"!

وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾] سورة الأنبياء ,٧٩[، فالجبال والطير كانت تتجاوب مع تسبيح سيدنا داود بديع الصوت صاحب المزامير!

إذا فالإنسان والكون كله مجبول على التأثر بالنغمات والذبذبات الصوتية المتناسقة (الموسيقى)، وذلك لانسجامها مع الذبذبات الداخلية للكائن الحي، ونجد أكبر انسجام للكائنات الحية هو مع نغمات كتب الله تعالى، مثل القرآن وسابقيه، لذلك وجدنا الجبال تسبح مع داود لعذوبة صوته بكلام الله!

ونعجب كثيرا ممن يحرمونها! فلم يأت المنهج ليلغي أو يمنع طبعا من طبائع الإنسان، وإنما عمل على تهذيبه وتوجيهه، لذلك فلا يمكن أن تكون الموسيقى حراما[225] بحال! وإنما الضار المهيج للشهوات هو المحرم! ومن لا يستمع إلى الموسيقى ويطرب لها هو جلف قاس، أشد غلظة من الجبال. إذا كان الإنسان مجبولا على التجاوب معها، فما هو دورها في حياة الإنسان؟

نعرض أولا رأي نيتشه في الموسيقى ودورها، ثم نعرض بعد ذلك منظورنا نحن لدور الموسيقى في حياة الإنسان: كان نيتشه يؤمن إيمانا عميقا بدور الموسيقى في ترقية الإنسان، وأنها من الممكن أن تلعب دورا رئيسا في إنشاء حضارة جديدة! فقال في خطاب أرسله إلى صديقه إرْفن روده، بعد أن شهد الحفلة الموسيقية الفجنرية الكبرى في مانهايم سنة 1871: "حينما أتخيل أن بضع مئات من الناس في الجيل المقبل يشعرون من الموسيقى بمثل ما أشعر به أنا منها، أنتظر حضارة جديدة كل الجدة." اهـ

وهذا هو المنتظر من إنسان شديد الحساسية والمعاناة مثل نيتشه، وجد في الموسيقى راحة نفسه ومبتغاه في التجريد! إنسان نشأ مع الموسيقى وعزفها[226] ولكن على أي

---

(225) يمكن للقارئ الكريم أن يتابع على موقعنا www.amrallah.com مناقشة لحكم الغناء والمعازف، وكيف أنه لم يرد فيهما أي نص صحيح بالتحريم!

(226) ما لا يعرفه كثير من القارئين العرب أن نيتشه كان يعزف ويؤلف بحماسة شديدة منذ صباه المبكر؛ فلقد ألف في الرابعة عشرة من عمره أعمالا موسيقية تعمّد فيها النشازات اللحنية، معبرا عن «أكثر الأشياء حلكة وراديكالية عرفتُها في الموسيقى الغُرابية السحنة»، على حد تعبيره! إلا أنه لم يفلح أن يكون ذلك الموسيقار، فاكتفى بإدمان السماع، حتى أنه قال: "ما كنت

أساس يمكن للموسيقى أن تنشأ حضارة جديدة؟ لا يعلق نيتشه آماله بداهة على أي موسيقى، وإنما على موسيقى ثائرة تبشر بمولد التراجيديا اليونانية من جديد، مولد ذلك الإنسان المنطلق في رحاب الأسطورة، الثائر مثلها المتبع للغرائز البريئة. فمن البداية هاجم نيتشه العقلانية التي أصّل لها سقراط، –والذي يعتبره نيتشه سببا آخر لانحطاط شعبه– والتي تعتبر أن الفضيلة في المعرفة. ثم انتقد كذلك عصره المتبع لهذا التوجه العقلاني، ورأى أن الإنسان المعاصر الذي يحيى بلا أسطورة إنسان تائه جائع يبحث عن الجذور! ومع إعادة بعث الأبطال القدامى ثمة أمل في انبعاث روحي وقومي عبر سحر الموسيقى المتقد.

فكما رأيت عزيزي القارئ فإن نيتشه يعتمد في اعتقاده بأهمية الموسيقى على تقديمه الغرائز على العقل، لأن العقل قد يقع في الأخطاء، أما الغرائز فهي صادقة وبريئة، فإذا استثيرت ستحرك الإنسان إلى الرقي!

وأعجب ثم أعجب من هذا التوجه، فكيف تكون الغرائز طريقا للرقي قبل العقل! إن للغرائز دور رئيس وهو المحافظة على الجنس والنوع، وهي تقوم به تلقائيا ولا تحتاج إلى أي استثارة، بل إن أي استثارة لها قاض على توازن الإنسان، فإذا زادت غريزة الخوف من الموت عند الإنسان لصار جبانا لا يتحرك، ولو زادت غريزة الجنس لصار البشري حيوانا ولا فارق. إن هذه الغرائز تمثل الحد الأدنى للكائن الحي، فكيف يُنطلق منها ويُهمل ما هو أرقى منها .. العقل؟!

إننا نرى أن الموسيقى الهادئة المنسجمة –وليست الثورية العنيفة– عنصر مطلوب للإنسان، إلا أنه لا يمكن أن يأتي في صدارة محركات الإنسان، وإنما هو عنصر ثانوي مساعد، فالموسيقى تساهم في تنمية الحس والمشاعر الإنسانية، وتعمل على إدخال البهجة على النفوس وفي تجميل العالم من حولنا، وعلى تهدئة الإنسان، لذا فهي أنسب وأليق للمرأة. إلا أن لها جوانبها السلبية، فالإكثار من الاستماع إلى الموسيقى

أستطيع أن أعمل أيام شبابي بدون موسيقى فاغنر. فمنذ ذلك اليوم وأنا أتطلع إلى فن يقدم لي سحرا خطيرا، ولانهائية حلوة مثل تلك التي قدمتها "تريستان"، ولكنني وجدت كل الفنون عبثا" اهـ

الهادئة يوقع الإنسان ضحية الكسل وتجعله مرتخيا، لأن الموسيقى تعمل على استرخاء الإنسان، ومع طول فترات الاستماع ينخفض ضغط الدم بشكل كبير، ويقل انفعاله!

والموسيقى لا يمكن أن تلعب عنصرا أصيلا في حياة الإنسان لأنها لا تقدم للإنسان أي جديد، فما هي إلا ترديدات مجسمة لانفعالات الإنسان، فهي تجسد الحزن أوالغضب أو الثورة أو البهجة أو ... إلخ، إلا أنها لا يمكن أن تقدم للإنسان أي معنى مجرد! فلا يمكن أن استمع إلى مقطوعة موسيقية وأقول أنها تشير إلى العدل أو الحق، أو إلى التفاوت الطبقي أو اضطهاد المرأة!

إن هذه المعاني المجردة هي مجالات سعي الإنسان الحق، والذي يحتاج إلى محفز يحركه فيها ويدفعه إليها، ولن تفعل الموسيقى هذا بحال، فلن تشجع الجبان أو تهدي الضال. وكان القرآن هو الجماع العبقري! ففي القرآن اجتمع تبيان الصراط وتحفيز الإنسان في نص عالي البلاغة معروض في قالب موسيقي بديع هادئ الإيقاع عالي التناسق الذبذبي، فاجتمعت فيه محفزات النفس ومثيرات العقل ومشجنات القلب، كل في مكانه ولدوره. وبهذا النص البديع يعمل الإنسان بجميع قواه العقلية والوجدانية بلا تعطيل أو تعارض!

الفصل الخامس: البديل المميت

بعد أن قدمنا للقارئ الكريم قبسات من المنهج، وضحنا له فيها الخطوط العامة للبرنامج وللمتبع، وكيف أنها جد حتمية لبناء الإنسان، وبدونها سيُهدم البنيان قبل أن يعلو، وهنا نقدم البديل الذي قُدم عوضا عن الدين، ليُعلم كما هو عظيم ذلك المنهج، فبضدها تتميز الأشياء، والضد يظهر حسنه الضد، فنقدم الأفيون .. ذلك البارود، والنتيجة اللازمة له وهي موت الإنسان!

الوهم .. أفيون الشعوب!

منذ ما يزيد على المائة وخمسين عاما أطلق كارل ماركس مقولته الشهيرة "الدين أفيون الشعوب!"، وعلى الرغم من أننا نتفق معه كثيرا في أن الدين في أوروبا –المسيحية/ اليهودية" هي أفيون ومسكنات خطرة، إلا أننا نرى أن الدين عامة ليس هو الأفيون، وإنما الأفيون الحقيقي هو منظومة الوهم[227] التي أُحلت محل الدين، والتي كان لزاما أن تصاحب مسخ الإلحاد والرأسمالية والشيوعية، وبدون هذه المنظومة ما كان للإلحاد ولا للرأسمالية ولا للشيوعية أن يظهروا وينتشروا هذا الانتشار الكبير بين بني آدم.

لولا الوهم المنظم المغلف لسقطت الرأسمالية بعد بدايتها بفترة قصيرة، ولولا منظومة الوهم لما استمرت الاشتراكية فترتها التي قضت، ولولا الوهم لتقلصت أذرعة الإلحاد كثيرا. ولأن المنظومة نُظمت بإتقان فلقد نجحت في غسل أدمغة الناس، فما عاد

---

(227) أرجو أن يلاحظ القارئ البناء الصوتي لكلمة "وهم"، والتي بدأت بالواو والهاء وهما حرفان هوائيان ضعيفان، يشيران إلى وهن الموصوف، أُتبعا بالميم والتي تدل على جمع متصل، وأرجو أن يلحظ كذلك التشابه في المبنى والمعنى بين: وهم، وهن، وهى، وهت "أنتن".

الناس يرون إلا ما تريد أن يرون، بالشكل الذي تريدهم أن يرونه عليه، حتى أصبح إنساننا أعمى مُسير بجدارة، ويجادل في عماه ويدعي البصر!

وحتى لا يكون في كلامنا إبهام، نوضح ما نقصده بمنظومة الوهم هذه: يمكننا القول أن العالم كان دينيا إلى ما قبل القرن العشرين، ولا يعني هذا أن البشر كانوا متدينين، وإنما أن الدين كان هو الحاكم والمسيطر والموجه لأفعال الناس وتصوراتهم. إلا أن الأديان لم تكن متساوية في سيطرتها وفي معقوليتها، فهناك أديان حُشيت بالخرافة ومنها من قلت فيه الخرافة، وكان من الطبيعي أن يحاول الإنسان التحرر من هذه الخرافات والبحث لنفسه عن طريق سليم، فكان أن تمرد الإنسان الغربي على الدين –المسيحي/اليهودي– وأعلن أنه سبب التخلف، وأعلن أن الدين لم يعد صالحا للعصر الحديث، وأن العصر عصر العلم، فحارب الدين والإله وهمّشه، وقدم منظومة جديدة لا مكان فيها للإله وإنما الإنسان هو الإله فيها، واختلفت النظرة إلى الإنسان الإله، فكان في الغرب الرأسمالي هو الفرد، وكان في الشرق الشيوعي هو الدولة والحزب.

ولكن هذه الآلهة الجديدة لم تقنع الإنسان ولم تحفزه للعمل، ولم تسد حاجات الإنسان إلى التخيل، فليس الإنسان هو ذلك الكائن المادي الجسد، وإنما هو كائن مكون من قلب وفؤاد وجسد، وكان الدين عامة فالحا بشدة في معالجة مسائل القلوب.

ولم تفلح التوجهات المادية في المنظومتين في إراحة الإنسان، على الرغم مما وفرا له من احتياجات مادية، ما كان يحلم بها أجداده. وهنا كان على المنظومتين البحث عن محفز للحركة والعمل وعن مُعالج لقلب الإنسان، وكان الحل الأمثل لكليهما هو منظومة الوهم والمتمثلة في الإعلام المُوجَه المُوجِه، منظومة تحاصر الإنسان في كل مكان، فلا يجد فرصة للتخلص منها، تسوقه حيث يريد أصحابها! منظومة لا تعطيه الفرصة للتفكر، بل وتأمره صراحة بعدم التفكر في نفسه أو فيما حوله، فلم يفكر،

فعليه أن يغمض عينيه ويسلم ناصيته لها وهي ستوجهه؟![228] **منظومة تدعي العلمية والبعد عن الخرافة والحيادية! على الرغم من فقدانها لهذه الإدعاءات جملة وأفرادا. ولأن هذه المنظومة كانت أمرا حتميا، رأينا تنازل الدولة الشيوعية في تعاملها مع الفنانين، فأعطتهم مزيات لم تُعط لغيرهم، ولو كان دور هؤلاء مجرد التسرية لأعطوهم مثلما يُعطى الآخرون.**

وككل جديد توجس الناس منها حذرا في مبتدأ الأمر، ثم أقبلوا عليها بكل جد وسلموا لها أنفسهم بدون أدنى مقاومة، لأنها نجحت في اللعب على الوتر الحساس وهو الكشف والخيال.

فالإنسان بطبعه كائن اجتماعي، يحب التواصل مع الآخرين بقدر الاستطاعة ويكره العزلة والوحدة، وهو فضولي يحب استكشاف الجديد دوما، لأسباب عدة ولقد مكنت المنظومة الإنسان من التواصل مع غيره من بني البشر في مختلف أرجاء المعمورة والمهجورة كذلك! ومكنته كذلك أن يرى العالم كله وهو في داره آمنا مطمئنا! فأعطته نظرة أكثر رحابة، وذلك لرفعها الحجب! حجب الحواجز وحجب المستقبل، فأعطته نظرة شمولية لا يمتلكها في الواقع –إلا إذا كان متبعا للمنهج–، إلا أنها سرعان ما أخذتها منه مرة أخرى، عندما لعبت على العنصر الآخر وهو الخيال، فالإنسان كذلك كائن حالم متخيل، لا يحصر نفسه في نطاق الواقع وإنما ينطلق دوما في رحاب الخيال، يتخيل مستقبله، يفكر في ماضيه، يتخيل أشياء يعلم يقينا أنها لن تحدث، مثل أن يمتلك القدرة على الطيران أو القوة الخارقة أو الثراء الفاحش، ثم ينام الإنسان وهو يمني نفسه بهذا أو ذاك، مصحوبا باللذة التي وجدها عندما تخيل نفسه قويا.

[228] عزيزي الحر: كل ما تبغيه لدينا، ستحضر لك المنظومة الخبراء، يقدمون لك التصور الأمثل في حياتك وأفعالك. لم تجهد نفسه وتحلم؟! كل ما تحلم به، ولا تحلم به، ركن رئيس في المنظومة، فهناك متخصصون في الأحلام والأوهام، سيصممونها لك ويعرضونها له على شاشات متحركة، وكل ما عليك فعله أن تدفع أقل القليل، لتحصل على .. الوهم!

وفي سالف الزمان كان الإنسان لا يتجاوز حلمه وخياله حدود رأسه، أما في هذه المنظومة فتجاوز الخيال والوهم حدود الرأس وأصبح مجسما أمام الإنسان، يراه بعينيه، ويلمسه بيديه أحيانا! وهكذا استطاع الإنسان أن يعيش كل معان الحياة وهو في داره! فأصبح يحزن بدون أن يخسر شيئا في حياته هو! ويفرح بدون أن يكسب شيئا، ويتوتر لما لن يحدث لغيره في الغد! وهكذا انقلبت مشاعر الإنسان كلها إلى انفعالات مع الوهم، انفعالات أصبح معها الإنسان ذلك الجبان، الذي يريد أن يرى الوحش أمامه ويصرخ ويصرخ، وهو يعلم أن لا وجود له وأنه لن يؤذيه، ثم يلتقط أنفاسه ويهدئ نبضات قلبه ثم يخلد إلى الفراش شاعرا بلذة الأمن بعد المغامرة! ذلك الخنع الذي يشاهد الأبطال يتصارعون ويتقاتلون ثم يخلد إلى فراشه ظانا أنه ذلك المغوار الذي أنقذ البشرية! ذلك العاجز الذي يشاهد الرياضيين ويحسب نفسه أفضلهم، ذلك الذي يشاهد أي شيء فيأخذ لذة صفوته بدون أن يتملكه أو يقدر عليه! ذلك الذي يحيى حيوات عدة وهو لا يزال شابا، ذلك الذي يرى المستقبل قبل أن يقع! واستمرأ الإنسان هذه اللذة، ورضي بها، فلم تظل لحظات معدودة في أوقات الصفاء، لم لا تكون طوع أمره، يصل إليها كلما أراد كيفما أراد؟!

وبعد أن كان الخيال تنفيسا للإنسان عن واقعه، يريح به نفسه، وكان خيالا واقعيا راقيا! حيث الفرد نفسه هو العنصر الرئيس فيه، فيتخيل الإنسان نفسه في مواطن قد يصل إليها أو يحلم بالوصول إليها من معان راقية سامية، أصبح الخيال وهميا، أصبح خيالا مريضا يحلم الإنسان فيه بالتصرف تبعا للنموذج الفوضوي الكارثي العنيف الذي يقدمه الإعلام! بل فقد الإنسان دوره في الخيال، فبات البشري لا يحلم بنفسه كثيرا، وإنما يحلم ويتخيل الأبطال –الوهميين الآخرين– الذين يخربون ولا يصلحون! وأدمن الإنسان الوهم، وغدى الوهم المرئي حاجةٌ أم من حاجيات الإنسان، يسعى ويشقى من أجل الحصول عليه، وأصبح الابتعاد عنه أمرا يشق، بل يستحيل، على الإنسان القيام به!

وهكذا تلاشى البرزخ بين الواقع والوهم، واختلط الإثنان ببعض حتى ماجا، ولم يعد الإنسان يميز كثيرا بين الإثنين؛ بين الواقع والوهم! وبدلا من أن يصبح الوهم مهربا للإنسان، أصبح هو الواقع الذي يعيشه الإنسان ويدمنه، وما أضحى يستطيع التخلى عنه! ذلك الواقع/الوهم الذي لا يجعله ينتبه إلى أنه تائه حائر، ينقصه الكثير من الحاجات الرئيسة، فالأهم إشباع الوحش .. أعني الوهم! ويعلق الدكتور إريش فروم على مسألة "تغوّل" الوهم هذه، فيقول: "وفي الحضارة التي نعيش فيها حيل وأساليب تخفي عن الناس ما بهم من نقص اجتماعي فلا يرونه ولا يحسونه. وأهم هذه الحيل السينما والراديو والتليفزيون والمباريات الرياضية العامة والصحف. إنها مخارج يهرب إليها المرء من واقعه، ولست أشك في أنك لو أغلقت دور السينما وأسكت صوت الراديو وطمست لوحة التليفزيون وحرمت إقامة المباريات الرياضية قرابة شهر من الزمان، لو فعلت ذلك لانهارت أعصاب الألوف من البشر ممن ألفوا هذه الحيل في هذا الوقت الوجيز، وأصيبت ألوف أخرى بالقلق والاضطراب الشديد الذي يدنيهم من حالة النورستانيا. (وهن الأعصاب –المؤلف–) إن هذه الحيل أشبه بالمخدرات، التي يخفى عمن يتناولها كثيرا من عيوبه، فإن هو كف عنها أدرك ما بنفسه من نقص، وظهرت عليه أعراض الشذوذ أو المرض.

ولقد أجرى إريش فروم التجربة الآتية مع عدد من طلاب الجامعة التي يعمل أستاذا فيها. طلب إلى كل طالب منهم أن يتصور أنه قد حكم عليه بالحبس منفردا في غرفته لمدة ثلاثة أيام، لا يستمع فيها إلى إذاعة أو يقرأ أدبا خفيفا، مع إمداده بالكتب الأدبية الدسمة والطعام الجيد وأسباب الراحة البدنية، فكيف يستجيب إلى هذا الموقف؟ وقد أجاب تسعون في المائة من الطلاب أنهم يحسون بالضجر الشديد والقلق المتزايد الذي يتغلبون عليه إما بالنوم العميق أو بالأعمال التافهة حتى تنتهي فترة الحبس الانفرادي. ولم تتخيل إلا قلة منهم الإحساس بالطمأنينة والمتعة التي تبعثها خلوتهم إلى نفوسهم. أي أن الإنسان في عصر الحضارة الحديثة لا يستطيع أن

يكتفي بذاته وأن يستغرق في تأملاته، بدون أن يخضع لمؤثر خارجي يلهيه عن نفسه ويصرفه عن تفكره."اهـ[229]

ولنا أن نتساءل: من يستطيع حقا الابتعاد عن الوحش ليومين أوثلاثة؟ لقد أصبح جزءا رئيسا في حياتنا: يعود البشري من العمل، وقبل أن يفعل أي شيء يدير المرئية أو الحاسوب! يأكل وهو يشاهد، ينام وهو يستمع. أصبح البشري يفعل كل شيء وهو يشاهد أو يستمع! فإذا انقطع التيار شعر الإنسان السلبي بالملل وأخذ يبحث عما يضيع به وقته ونفسه! حتى يعود التيار، ويعود التيار وتعود معه البهجة والسرور فسيعود البشري إلى دوره العظيم .. السلبي.. المشاهدة! مشاهدة أي شيء وكل شيء، ولأن هناك دوما الجديد والغريب فسيظل البشري دوما متسمرا ليشاهد الجديد، بدون أن يستفيد! ليثبت أنه لا يزال ذلك البدائي الذي تجذبه الغرائب ولا يسعى للانتفاع بها أو استكشافها، فالأهم عند البشري هو الاستثارة والنشوة البدائية!

ولم يلحظ ذلك المجذوب ما يُقدم له مع هذه الإثارة، فعلى الرغم من وضوح السم في الأسل،[230] إلا أن الإنسان استجاب للسم وبجدارة، ونجح الإعلام في تغيير الإنسان كلا وجزءا، وأصبح الحسن ما حسنّه الإعلام والقبيح ما قبحه الإعلام! فلم يعد هناك عقل ولا شرع يُحسن أو يقبح، وإنما هو ذلك الإله الجديد .. الوهم. وهكذا أصبح التدخين عادة الأبطال، ومسافحة النساء فعل المخضرمين، ومعاقرة الخمور فعل المحنكين، فهذه هي الحياة الحقة!

ولم يدرك الإنسان خطورة تجسد الوهم، فلقد قضى على الخيال، فقديما كان الإنسان يسمع القصة فيتخيل أحداثها ويتصورها، وعندما يقرأ الكتاب أو الرواية يتخيل أحداثها، أما مع المرئيات فلقد قُضي على التخيل، ولم يبق إلا الخيال المريض وتصور الشهوات الشاذة والأدوار المختلة، التي يقدمها الإعلام!

---

[229] إريش فروم، المجتمع السليم، تعريب: محمود محمود. ص.16،15.

[230] لا يستحق أن يوصف عامة ما يقدمه الإعلام ب "العسل"، فهو عديم الطعم والفائدة وأقصى ما يصل إليه هو "الأسل" وهو نبات تستخدم عيدانه في صنع السلال أو الحصر أو الحبال.

ونحن إذ ننقد منظومة الوهم العظمى الممثلة في الإعلام، فإننا لا نرمي نقد الإعلام ذاته، أو أننا ندعو إلى إلغائه! فالإعلام والفن الهادف لا حرج منهما بل هما مطلوبان وضرورة بقدر، وإنما نبغي التركيز على الخلل الذي أصاب هذه المنظومة، فانحرفت به عن مسارها المفترض، بأن أصبحت أكبر صارف للإنسان عن التعرف على نفسه، بأن أعطته جرعات عالية الكثافة من الوهم، وجعلت هذا الوهم حاجة رئيسة لا يُتنازل عنه، وبأن أوهمته أن الاستجابة لشهواته هو معنى الحياة وهدفها، فلم يقاوم أو يحرم نفسه؟! فليفعل ما يعنُّ له، وهناك دوما الحل، لئلا يضر البشري نفسه بشهواته، ولكي يستمر بلا أمراض (وليس في خير صحة وحال!) ... ولكن عليه أن يدفع مقابل الشهوة، ومقابل رفع أذاها! وهكذا جعلت المنظومة الهدف الأكبر للإنسان هو المادة .. المزخرفة، بجميع أشكالها، فلا بد أن يتحرك ليكتسب المزيد والمزيد من المادة، ثم تفتح له المصارف الهائلة التي تمتص ما اكتسب وأكثر، فكل يوم شكل جديد وتغيير للمظهر والمخبر، والاستعمال واحد، ولكن لا بد من إثارة شهوة الاستهلاك عند البشري، ف: أنت إنسان متطور بقدر ما تشتري وتستهلك! أما السلبية –في الاستهلاك فقط!– فهي من أكبر الكبائر!

فليكن شعارك: أنا استهلك إذن فأنا موجود!

فحياتك أيها البشري متوقفة على هذه الأغراض، ولسنا ندري كيف تعيش بدونها! فهي التي ستجعل حياتك أسهل وتوفر وقتك. وجلاء أن كذب هؤلاء مفضوح مكشوف، إلا أن سيول وفيضانات الإعلانات أكثر من كافية ليصدق المرء أن أصابعه أربعة! فالإعلانات تحاصره في كل مكان، في التلفاز، على الإنترنت، ملصقات في الشوارع، حوائط كاملة دعائية، لافتات إليكترونية مضيئة ومتحركة! وللإعلان خبرائه ومؤسساته العملاقة(231) التي تتفنن في محو عقل الزبائن من أجل شراء السلعة، لا أنهم يقنعونهم بها. فما أصدق المثل الذي يقول: تكرار الكلام أمام الأذن أقوى من السحر! وخاصة

(231) هناك مؤسسات اقتصادية إعلانية عملاقة مثل WPP بريطانيا، تضم 75 شركة مختلفة تحت قطاعها وعندها 1000 مكتب موزع على 100 دولة بالعالم، وحققت الشركة أرباح 3.5 بليون$ في عام 1999.

إذا وافق الأمر هوى الإنسان! ولأن الغرض هو تغييب العقل وإقناع الزبون بالسلعة، فليكن المحور الأم للإعلانات هو تغييب العقل! فليعمل الإعلان على إثارة الشهوة وجذب النظر إلى كل ما يلمع، وإقناعه أنه حتما ذهب! وأنه فرصة لا تعوض وعلى الإنسان اهتبالها وإلا فأنه سيخسر الكثير!

والذي أعجب له أن جل الإعلانات تصرح أن منتجها يسلب العقل ويخلبه! فهل مقياس جودة الشيء وتفرده أن يذهب العقل؟! والعجيب أن البشر لا يزالون يبحثون عما يذهب عقولهم! ويحنّون إلى الأيام الغابرة. فيا حسرة على البشري الذي يستثقل العقل ... حقا كم هو ظلوم جهول!

ويدخل البشري سباق الاستهلاك المحموم، لا يعرف لماذا يشتري، وما الذي سيستفيده بوقته الذي سيوفره عند شراء هذا الجديد! فهو إما سيقضيه في النوم أو في متابعة المزيد والمزيد من الوهم! ويعلق الدكتور إريش فروم على هذا الجنون الشرائي فيقول: "ومما يؤسف له أن فقدان الأمل والتوحش المتزايد ليسا بالشرين الوحيدين اللذين نزلا بالمدنية الغربية منذ سنة 1914. إن سبباً آخر يتعلق تماما بأعظم منجزاتها. فالثورة الصناعية زادت الإنتاج المادي بحيث أتيح لأكثرية سكان الغرب مستوى معاشي كان قد عده معظم الناس قبل مئة سنة أمرا بعيدا عن التصور. على أن إشباع حاجات واقعية مشروعة أدى إلى إشباع دافع قوي هو دافع "اشتهاء السلع" أو "النهم السلعي". وإن لدى الإنسان المعاصر رغبة قوية في امتلاك أشياء جديدة واستعمالها، وهي اشتهاء يسوغه بأنه تعبير عن رغبة في حياة أفضل، مثله في ذلك مثل بشر يعانون من اكتئاب وكثيرا ما تتملكهم الرغبة التي لا تقاوم في اقتناء أشياء، أو في حالات أخرى الرغبة في أن يأكلوا شيئا ما. ومع أن الأشياء التي يشتريها الإنسان المعاصر لا تغني حياته بصورة غير مباشرة فإنها –كما يُدعى– تخدمه لكي يوفر وقتا. على أنه لا يعرف في مثل هذه الأحوال ما ينبغي عليه أن يفعل بالزمن الذي يوفره، وينفق قسما كبيرا من دخله لكي يقتل الوقت الذي وفره بملء الاعتزاز! ونرى هذه الظاهرة في أوضح صورة في أغنى بلاد العالم، أي في الولايات المتحدة، على أننا نجد من دون

شك الاتجاه نفسه في كل البلدان الأخرى أيضا. ويعني الهدف اليوم وفي كل مكان إنتاجا أعلى واستهلاكا أعلى. وإن مستوى الاستهلاك مقياس النجاح. وينطبق هذا على الاتحاد السوفييتي كما ينطبق على الدول الرأسمالية.[232]" اهـ

وليت مسألة الاستهلاك اقتصرت على الأشياء، وإنما تعدى الأمر إلى الإنسان، فأصبح الإنسان من أكبر السلع المستهلَكة! والمرأة الحرة الطليقة هي الأكثر استهلاكا، فهي عنصر الإعلانات الأكثر جذبا، فبجسدها يُلغى عقل المشاهد ويُخاطب أجزاء أخرى! وهي عنصر عمل جيد، تجذب الزبائن بجسدها وبحركاتها بداهة! وهي وهي ... إلخ طرق استغلال المرأة المحررة! وليت الأمر اقتصر على الأعمال العادية المعتمدة على الإثارة البريئة المباحة المطلوبة!!! وإنما تعداه إلى صناعة الدعارة، وتغولت الدعارة وتشعبت أفرع تجارتها بين مرئية ومصورة وفي الطبيعة، مدعومة بالمدافعين عنها والمروجين لها إعلاميا، فمن حق الإنسان/الحيوان أن يمارس حاجته البيولوجية متى شاء كيفما يشاء! [233]

لذلك رأينا أن الأمم المتحدة قد قدرت في عام 1998 أن حوالي أربعة ملايين شخص يتحولون سنويا إلى موضوع متاجرة. وتؤكد الأمم المتحدة أن عدد النساء اللاتي يمثلن ضحايا النخاسة الجنسية، يتجاوز بكثير عدد النساء اللاتي يخضعن للاتجار لغايات استغلالهن في أعمال البيوت أو اليد العاملة الرخيصة. ولأن الإنسان عندهم ما هو إلا حيوان، وجدنا أن بعض الحكومات! تستغل الإنسان كسلعة تروج لها، ولهذا قامت الحكومة التايلاندية في سنة 1987 بالترويج للسياحة الجنسية باستعمال هذه الكلمات: «الفاكهة التايلاندية الوحيدة الأكثر لذة من فاكهة الدوريان [فاكهة محلية تايلاندية]، هي نساء التايلاند[234]».

---

(232) إريش فروم، ما وراء الأوهام، تعريب: صلاح حاتم، ص. 164.

(233) طالب *وزير العدل* الهولندي في عام 2000 بضرورة تخصيص حصة قانونية لـ «ممتهنات الجنس» الأجنبيات، ما دام أن سوق الدعارة «يتطلب» تنوعا في «الأجساد المعروضة للبيع»!

(234) قدرت المنظمة الدولية للعمل في عام 1998 أن الدعارة تمثل ما بين 2% و14% من الناتج الداخلي الخام لتايلاند وأندونيسيا وماليزيا والفيليبين. وتمثل الصناعة الجنسية 5% من الاقتصاد الهولندي.

ولأن الجنس عملية مكررة، يُصاب الإنسان معها ومنها بالملل، كان لزاما أن تُبتكر طرقا جديدة –شاذة بداهة– للمارسة، تُعرض على أنها الفن الحقيقي واللذة الغامرة، يُخرج فيها الحيوان البشري كل خيالاته المريضة في طرق، وأشكال، وأدوات وأعداد الممارسة الجنسية، ويجري الحيوان وراء الشكل الجديد ظانا أنه سيجد فيه لذة أفضل، وهكذا يستمر في الهرش بلا نهاية ولا يزول الجرب[235]!

وهكذا نجحت المنظومتان بجداره في إلهاء الإنسان عن التفكير في أهم سؤال، وهو الغاية من حياته والهدف منها، فلقد أصبح الهدف والغاية واضحين: فعلى الإنسان أن يعمل كالحمار ليكسب مالا أكثر، ثم يتفنن في إنفاق هذا المال على احتياجاته المادية، من مأكل ومشرب ووهم وحب، فحتى الحب أصبح ماديا حينما أصبح محصورا في الجنس، فأصبحنا نسمع من الغربيين مصطلح "ممارسة الحب"! وأعجب كيف حُصر هذا الشعور الجميل والمعنى الراقي في الجنس، والذي هو مجرد مظهر من مظاهره! ولكن التوجه العام لمنظومة الوهم هو: يمكنك أن تحصل على كل شيء، ولكن اطلب الآن!

ولما كان الحب لا يُطلب ولا يباع، كان الحل في أن يتحول الحب إلى جنس! وما أسهل الحصول على هذا النوع من الحب! وليت المنظومة اقتصرت على هذه الدرجة من الوهم، على الرغم من الخلل الشديد فيها، فلقد وفرت السرقات الغربية من الشرق مستوى مادي عالٍ لا يفلح معه الوهم العادي ووهم الحاجات، فكان لا بد من اختراع وهم جديد، يسعى الناس من أجل الوصول إليه، وكان هذا الوهم هو وهم "الماركة!". فليس الأهم الآن الحصول على الاحتياج بقدر ما هو مهم أن تحصل عليه

---

[235] من أجل الحصول على الجديد كان لزاما الحصول على عناصر بشرية جديدة من قارات مختلفة، *ذات ثقافات متخلفة ترفض التحضر الحيواني*، بأي شكل كان، وقد كان! *فلقد كان الإنسان الغربي المتحضر* يختطف الأفريقيين المتخلفين في القرون الوسطى من أجل أن يصيروا عبيدا له، وأصبح الغربي المعاصر يختطف النساء الأوروبيات والأسيويات أو يجبرهن لكي يعملن في هذه التجارة. وإنا نجزم أن أكثر من تعملن في هذه التجارة بدأن بنوعٍ من الإجبار، بدني أو مادي أو نفسي! فالمرأة بطبيعتها تبحث بالدرجة الأولى عن الحب، وقد يصل الأمر بالمرأة إلى أن تضحي بجسدها *في معادلة حمقاء* من أجل الوصول إلى لحظات من الحب، ومما يؤسف له أن الحب أصبح مرادفا للجنس في الغرب، مما سهل وقوع كثير من النساء في شراك شباك الدعارة، ففيها ستجد المرأة الحب!

من مصنع أو منتج معين، فهذا المنتِج هو الذي سيوفر لك المنتج في أجود حالة، فلم ترضى بدرجة أقل؟! لتحصل على الشيء في أفضل حالة ولتتميز عن غيرك، وبهذا تعيش صحيحا متمتعا بمالك متميزا عن غيرك! فلماذا تكون كالآخرين، أنت متميز وتستحق التميز؟

ولن يكلفك إلا القليل! ويصدق الأحمق أنه متميز! ويشقى الأحمق ويكدح من أن أجل أن يحصل على احتياجاته ب "ماركة" معينة، لكي يتميز، فإذا حصل عليها حصل له الإشباع والاقتناع! فقد أصبحت الماركة هي الغاية لا الحاجة! ولست أدري ما الذي جناه بتميزه في ماديات، أضاع فيها عمره؟! ويعلق الدكتور إريش فروم على هذا التنافس العقيم، فيقول: "كيف نستخدم الأشياء التي نحصل عليها؟ دعنا نبدأ بالطعام والشراب. إنا نأكل الخبز الذي لا طعم له ولا يغذي لمجرد أنه "أبيض" أو "طازج" أو من محل كذا المشهور، لكي نوهم أنفسنا بالثراء والامتياز عن كافة أفراد الشعب. إننا في الواقع نشبع بالوهم، وقد لا تكون لأبداننا صلة فسيولوجية حقيقية بالطعام الذي نتناوله. إننا نستبعد من عملية الاستهلاك لذاته، التي تهمنا قبل كل شيء، الاستمراء والتغذية الحقيقية لأبداننا. وكثيرا ما يهمنا في الشراب اسم المصنع الذي ينتجه (أي الماركة) أكثر مما يهمنا طعمه."اه[236]

فلا بد من هذا الوهم الجديد وإلا سيفيق كثير من البشر ويتساءلون، وهذا غير مطلوب فلا بد أن يساق البشر سوقا إلى ما يريده السائقون! وتنوعت أشكال الوهم وألوانه، فهناك وهم متوفر لكل الطبقات، فهناك التحف المليونية والتي يتملكها العلية العالة، وهناك دوما ما هو أقل، المناسب للمستوى الأقل، وهكذا يضيع الإنسان المال الذي اكتسبه بالسرقة وبامتصاص دماء الآخرين في لوحة يعلقها في منزله، ولا يفهم ما تعني أو ما يقوله راسمها! أو يضيعه في متابعة وهم لا يقدم أو يؤخر في حياة الإنسان وإنما يزيده مرضا.

[236] إريش فروم، المجتمع السليم، تعريب: محمود محمود. ص.98.

وكما دخل الوهم في كل تعاملات الإنسان كان لزاما أن يدخل الوهم في مجاله الرئيس وهو اللهو! فأُقطعت المساحات الشاسعة لإقامة مدن الملاهي، ولإقامة المراقص والمطاعم الفاخرة التي تمتص أموال الزوار بشكل لا يتناسب بحال مع ما تقدمه. وإني إذ أنظر في الألعاب التي تقدمها مدن الملاهي الكبرى،[237] أجدها كلها بدائية الأفكار والأهداف، مهولة الأحجام والتزيين، لإعطاء الإنسان .. الجبان الشعور بالإثارة .. الآمنة!

ونحن لن ندعو بحال إلى منطَقة اللهو، وإلا سندعو إلى إلغاءه، فلا منطقية فيه! وإنما ندعو إلى التأكد من أنه مجرد زخرف مكبر، وأن لذته لا تختلف عن أي لذة أخرى، بل إنه من الممكن الحصول على لذة أكبر من خلال أدوات لهو لا تكلف شيئا يُذكر، ومن خلال اللعب مع البشر لا مع الآلات الجامدة!

ولأن الهدف الجديد الذي وُضع أمام الإنسان ليسعى إليه هو المادة، تفنن البشر في امتصاص المال من غيرهم بأي وسيلة كانت، ومن ضمن هذه الوسائل التي تقضي على حوافز العمل عند الإنسان هي المسابقات! فيكفي الإنسان أن يجري عدة اتصالات ليكسب آلافا عدة أو منزل أو سيارة أو ... وهكذا سيصبح من المرفهين بدون تعب أو نصَب!

وعلى الرغم من أن البشر يدركون جيدا أن المقدم هو الرابح الأول من المسابقة، إلا أن كلٌ يمني نفسه أن يكون هو الرابح فرب خسارة صغيرة تجلب ربحا كبيرا. وبهذا العنصر البسيط الذي لا يبدو ضره واضحا لكثير من الناس تهاوى الترابط والتلازم بين العمل والجني، فلم أعمل حتى أجني؟ فهناك طرق أخرى أسهل، لماذا لا أشترك في أي برنامج تسابقي وقد أصبح من الفائزين؛ وتنفق المبالغ الطائلة في إعداد حلقات التسابق، ويبذل المشترك الجهد اليسير ويحصل مقابل ذلك على ما قد لا يحصل عليه من عمله طوال حياته!

[237] إذا كان تجديد مدينة ملاهٍ عالمية شهيرة قد تكلف 1.1 مليار دولار، فكم تكلف إنشاءها ابتداءا؟!

ولم يقتصر الأمر على هذا بل تعداه إلى الرياضة، فلم تعد الرياضة ذلك العنصر الذي تُستخرج به صفوة النتاج البشري، وإنما أصبحت هي الأخرى وسيلة للإلهاء والكسب، وظهرت الطوائف العريضة من البشر الذين يبذلون مجهودات افتراضية لا نفع منها! فالمفترض في الرياضة أن تكون ذلك الجهد الذي يبذل عرضا في حياة الإنسان، من أجل التسرية وتقويم البنيان، ولكن انقلب الحال، فأصبحت الرياضة عنصر إلهاء عظيم، فالرياضي يضيع عمره كله في ممارسة الرياضة وهذا شيء جيد لنفسه!

ولكن ماذا استفادت البشرية الكسيحة من هؤلاء الرياضيين؟ لحظات من التسلية وإضاعة الوقت، بدون نفع حقيقي، وأرى أن العامل والفلاح أكثر نفعا من أي رياضي! وخرج علينا ذلك الجيل من محترفي الرياضة توهما! فأصبحنا نرى المتعصبين لرياضة من الرياضات وللاعبيها، على الرغم من أنهم لم يمارسوها في يوم من الأيام، وأصبح فهم الرياضة ومتابعتها دليل ثقافة! وأنا لا أفهم الرياضة إلا جهدا بدنيا! أما الحديث والمشاهدة الطوال بدون ممارسة فعبث عقيم!

وحتى هذا العبث أصبح حكرا على من يدفع، فلكي تشاهد لا بد أن تدفع! ولكي تشاهد على الطبيعة! لا بد أن تدفع أكثر وأكثر! وهكذا ظهر جنون الرياضة عند جيل من الكساحى. ولم يقتصر الأمر على الرياضات النافعة التي تقوي البدن وإنما تعداه إلى الهمجية! وكما كان يفعل الرومانيون قديما عندما يخرجون العبيد لكي يتصارعون حتى يقتل بعضهم بعضا ومن يظل هو المنتصر، أصبحنا نرى نفس الأمر ولكن مع تعديل بسيط وهو أن القتال لا يستمر حتى الموت! فرأينا رياضة المصارعة!

ولست أدري أي نوع من الرياضة هذه؟ ما هي إلا نوع من القتال الدموي عند المتصارعين، وإشباع لشهوة الإنسان المعاصر البدائي لرؤية الدماء، فلم يعد الأمر يحتاج لأن تكون سيدا رومانيا لكي ترى العبيد يتقاتلون، فيمكن لكل إنسان أن يصبح سيدا مدنيا! ولكن اختلف الأمر هذا الزمان، فالمتقاتلون ليسوا عبيدا ولكنهم جد

أثرياء! ولزيادة المتعة نقلوا المصارعة إلى خارج الحلبة وتحول الأمر إلى مشاجرات لمجموعة من الثيران يدفع الإنسان لكي يشاهدها، ولست أدري أين قرون المدنية التي يتحدث عنها الغرب والتي تفصلنا عن الرومان والعبيد؟!

إني لأجزم أن مجموعة المشاهدين الذين يصرخون من فرط الإثارة، ما هم إلا جماعة من السفاحين المتعطشين للدماء، أو المختلين عقليا! أما أن يصرخ إنسان متوازن إعجابا بهذا التناطح، فهذا ما لا يُعقل! ثم كانت الطامة الكبرى بابتداع الرسوم المتحركة، والتي أتت على كل البدهيات والمسلمات عند كل البشر! ففي هذه الرسوم وبها استطاع الراسمون أن يصنعوا عوالم متكاملة من الوهم والخيال لا يحكمهم فيها حاكم من قانون طبيعي أو منطقي، وأخرج كل صاحب شطح وهوى شطحه وهواه في هذه الرسوم، فأُنسنت جميع الكائنات الحية وغير الحية! واختلط الحابل بالنابل في عقول الأطفال والشيوخ، وأصبح الجيد رديئا والعكس، وابتدع الراسم كائنات حية وآلية جديدة، ولم تختلف تصورات إنسان القرن العشرين والحادي والعشرين عند ابتكار الكائنات عن الرسوم المنقوشة على كهوف الإنسان الأول، مجرد خيالات سطحية عقيمة، تدل على فراغ ذهني عميق![238]

ولأنه بدهية بشرية أن توجه كل صغيرة وكبيرة إلى الربح مادي، كان لزاما ابتكار ألعاب الفيديو، حيث يتحكم الإنسان هو في التوجيه. وكما هو متوقع من بشر عاشوا في عوالم الوهم، أن يقبلوا على هذا الوهم الجديد الخالص الذي لا مكان للواقع فيه! وانتشرت ألعاب الفيديو بطريقة مهولة، تجعل المرء يظن أن من أهم أهداف وجود الإنسان على سطح الأرض هو ممارسة هذه الألعاب! وأضاع كثير من الشباب أعمارهم أرباعها أو أثلاثها في هذه الألعاب ولم يجنوا إلا تخلفاً عقليا وتوترا عصبيا وعزلة عن البشر، وأصبحوا يمثلون صفرا كبيرا في معادلة البشرية!

[238] الحق يقال أني أضحك كثيرا عندما أتابع أفلام الرعب والفزع الكارتونية أو غير الكارتونية، من تفاهة المحتوى وضحالة التصورات، وأعد هذه الأفلام هي الأفلام الهزلية الحقة وليست تلك الأفلام المبتذلة الأخرى "الكوميدية"!

ولأن المنظومة استهلكت، لتنافس أفرادها وتفننهم، كل أشكال التغيير، فلقد نوعت وزينت وزخرفت المضمون الواحد، فاستشعرت هروب الأتباع، فكان لا بد من أن ابتداع الجديد، وكان عنصر الإثارة الجديد هو الإنسان في الواقع.

فبعد أن كانت المنظومة تقدم نفسها على أنها عالم افتراضي يُعد ويُؤدى في أماكن مخصوصة، نزل الوهم إلى الإنسان، وأصبحنا نرى في المرئيات الغربية —وانتقلت العدوى إلى الشرقية على استحياء–، برامج وحلقات يمتزج فيها الإثنان. فإما أن ينشأوا مكانا يعيش فيه أفراد عاديون ويتصرفون بطبيعية، وتراقب الكاميرات المتنوعة كل كبيرة وصغيرة لهم، وينجذب المشاهد إلى هذه الإثارة الجديدة والتي أبطالها أفراد مثله غير ممثلين! وإما أن تنتقل الكاميرات إلى الأفراد العامة في بيوتهم، ويصورنهم في مواقف مختلفة وتجمع وتُعرض للمشاهد، وكان من البدهي أن يختلق البرنامج بعض المواقف التي تجذب المشاهد وإلا سيصيبه الملل من أول يوم، فالحياة ملل في تكرار!

واجتذب الوهم الواقعي الإنسان لفترة، ولكن سرعان ما سيمله ويعافه، وستبحث المنظومة عن وهم جديد ربما يصل إلى مرحلة القتل، فإذا كانوا يفتعلون المشاكل في حياة الفرد الضحية الذي يصورونه، لتكون إثارة ومتعة وتشويق، فلم لا تزداد؟! فإذا كان هذا يحدث على أرض الواقع، ويُستغل الإعلام في ذل، فلم لا يحدث في الوهم؟!

فمن المعلوم أن الإعلام هو العنصر الأكثر تأثيرا في تهييج الشعوب وتهيئتهم لقبول أسباب الدخول في حروب، ضد أعداء وهميين! وهكذا يذهب إليهم الإنسان المتحضر ظانا أنه سيؤدبهم ويطوّرهم، فيجد نفسه يقتلهم ويبيدهم بدون أن يدري! ويستمر الإعلام في دوره في التبرير لهذه الإبادات ويتقبل البشري المغيب التبريرات، ويستمر في الافتخار بتاريخه المليء بسفك الدماء وبالحضارة! وإني لأعجب من ذلك

البشري الغربي الذي تقبل إبادة الهنود واليابانيين وشعوب كثيرة غيرها ولا يرى ذلك عارا في تاريخ الشعوب والحضارة لا يُمحى أبدا![239]

ولا بأس من أن تُباد أجناس كاملة، فالأهم هو أن تستمر مصانع الأسلحة الكبرى في العمل! ويغنم أرباب المال والاقتصاد الأموال الطائلة التي يُسخرونها لمزيد من استعباد البشر وتغييبهم، فهذا أسهل وأقصر طرق الربح! ويُبرر ذلك للمواطن أنه من باب الدفاع عن الأمة وردع الأعداء –وهما مباحان لكل البشر إلا للمسلمين!– ويصدق الإنسان المغيب الموهوم، الذي اعتاد أن يرى الدماء والقتل يوميا على شاشات الوهم، فما عاد الفارق عنده كبيرا، بين أن يسقط الإنسان صريعا في فيلم أو في أرض الواقع!

وعلى الرغم من هول هذه المنظومة إلا أنها لم تنجح في استيعاب البشر وتوجيههم بالضبط كما تريد! فلأن المنظومة لا تُحرك الإنسان في المسار المفترض له، لم يجد الإنسان السعادة في كل الوهم والثراء الذي يحيا فيه، وأصبح يشعر بعدم الانسجام بينه وبين عالمه، ويجزم بوجود خلل ما!

ولكنه لا يستطيع تحديد موطنه، على الرغم من وضوحه؛ وهو أنه أصبح واهما كبيرا سلبيا مسوقا حيث يريد الآخرون، وبدلا من أن يسعى لاكتشاف الخلل والقضاء عليه، آثر الهروب والخوض في مزيد من الوهم، وهذا هو المنتظر ممن تربى ونشأ في مملكة الوهم، فكان الهروب والانسحاب، والدخول في عوالم الوهم الصريحة: المخدرات.

وهكذا أصبحت الحياة العادية والعمل عبئا ثقيلا بالنسبة لكثير من البشر، يحسبون الثواني لانقضاءه، وينتظرون بتلهف تلك اللحظات التي سيحيونها في بحار الوهم والشهوات. وهكذا أصبح جل هدف وحركة الإنسان المعاصر المتخلف! هو الوهم والشهوات وتوارت من أفقه كثير من المعاني مثل: الآخر والعدل والحب والمسؤولية، فهذه لمن يعيش حيا صاحيا! لا لمن عاش في الوحل وغرق في الوهم. وهكذا ضاع

[239] يحق للمسلم أن يفخر بأن الجيوش الإسلامية والدول الإسلامية هي الدول الإنسانية المتحضرة الوحيدة التي وجدت في تاريخ البشرية! فلم يقدم جيش إسلامي على ارتكاب مذابح ضد المقاتلين أو المدنيين، ولم تقدم دولة إسلامية على إبادة أناس آخرين لاختلافهم في الجنس! وذلك لاستحالة وجود اختلافات عرقية بين المسلم وإخوانه من البشر!

الإنسان في بحار الوهم، عاش من أجله ومات عليه، وسيصحو على الحقيقة المطلقة حيث لا وهم! وسيندم ولكن لا ندم لمن اختار أن يحيى ميتا!

وحتى يعرف القارئ مقدار الوحل الذي يحيى فيه الإنسان والوهم الذي أحاط بالرؤوس، نقدم له بعض الأرقام ليؤمن يقينا أن الإنسان قد مات! نشر "مكتب مكافحة الجريمة والمخدرات" التابع لمنظمة الأمم المتحدة، أن حجم تجارة المخدرات بلغ عام 2006: 322 مليار دولار سنويّاً، وهو مايعادل الناتج المحلي ل 90% من دول العالم.

ولنا أن نتساءل: كم من البشر يعملون في هذه الصناعة والتجارة، التي تنتج كل هذا الانتاج؟! وكم ينفق لمحاربتها وفي علاج المبتلين بها؟! هذا إذا غضضنا الطرف عن أعداد المتعاطين لها، الذين فقدتهم البشرية كأفراد نافعين وعاملين، فإذا قدمنا للقارئ أرقاما قديمة للمتعاطين، تاركين له حرية التخيل كم يبلغ عددهم الآن، فسيجد أن الأمر كارثي: (والأرقام المذكورة هي من إحصاء عام 1999) هناك 13 مليون مدمن كوكايين في العالم. 40 مليون مدمن مخدرات في أوروبا. 140 مليون بشري يستهلكون حبوب الهلوسة في العالم. 10 ملايين روسي مدمن للمخدرات والعقاقير المخدرة. ثلث الشعب الهولندي مدمن للمخدرات.

ولنا أن نتساءل عن الأسباب التي دعت هذه الأعداد الهائلة –التي تضاعفت في أيامنا هذه لزاما– إلى اللجوء إلى المخدرات؟

فإذا تركنا المخدرات واتجهنا إلى شبيه لها وهو التدخين وجدنا أرقاما هائلة، ففي أول إحصائية عن التدخين في الولايات المتحدة الأمريكية[240]، والتي ظهرت في عام

---

(240) توجد في مصر نسبة استهلاك للتبغ جد عالية، حيث ارتفعت من 12 مليار سيجارة في السبعينيات إلى 52 مليارا عام 1997، ووصلت حاليا إلى 85 مليار سيجارة سنويا تؤدي إلى فاقد اقتصادي قدره 33 مليار جنيه سنويا. وفي دراسة أعدها الجهاز المركزي للمحاسبات بينت أن احتراق 39 مليون سيجارة يوميا يعادل 14 مليار جنيه سنويا وفاقد لعدد 88 مليون يوم عمل يعادل 8 مليارات جنيه. أما على مستوى الأسرة فهي تنفق 13% من ميزانيتها على أضرار التدخين، بخلاف ما تنفقه على التدخين نفسه والذي قد يصل إلى خُمس الميزانية. وارتفعت النسبة المئوية لوفيات السرطان الناجم عن التبغ بين الرجال من

1880 وكان تعداد السكان خمسين مليونا فقط، تبين أنهم يدخنون 1.3 بليون سيجارة سنويا، وحينما ارتفع عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية إلى 204 مليون ارتفع عدد السجائر المدخنة إلى 536 بليون سيجارة سنويا. فإذا انتقلنا إلى عصرنا هذا وجدنا أن عدد المدخنين في العالم يصل إلى 1.3 مليار شخص، وهذا يعني أن خُمس العالم تقريبا من المدخنين! فإذا نحن استبعدنا الأطفال الذين يقل سنهم عن عشر سنوات، واستبعدنا النساء، لأن أكثرهن غير مدخنات، فهذا يعني تقريبا أن ثلث العالم يدخن![241]

فإذا نحن تركنا المخدرات والتدخين وانتقلنا إلى عنصر الوهم الصريح وهو ألعاب الفيديو أو الحاسوب، فإننا سنجد أنه صناعة ضخمة منظمة يبلغ حجم أعمالها حوالي 40 مليار دولا سنويا. إلا أن الإشكال الأكبر لا يكمن في حجم الصناعة وإنما في علاقة البشر بالمنتج! فلا وصف لعلاقة البشر بهذه الألعاب إلا بأنه كارثي! فلاعبوها لا يمكن وصفهم إلا بأنهم مدمنون بامتياز! فبما يمكن وصف فعل هواة ألعاب الكمبيوتر في أمريكا الشمالية من أجل شراء الإصدار الجديد من لعبة بلاي سيتيشن 3 اليابانية. فقد اصطف المشترون، وفيهم مرضى في طوابير لساعات وأحيانا لبضعة أيام للحصول على لعبتهم التي ينتظرونها بفارغ الصبر! وبلغ عدد الوحدات التي تم بيعها في اليابان أكثر من 100 ألف وحدة، واضطر بعض الراغبين في شراء اللعبة إلى استئجار أشخاص من المشردين للوقوف في الطابور الطويل. وبما يمكننا تفسير أن

8.9% عام 1974 إلي 14.85% عام 1987 ويتسبب التدخين في 90% من حالات سرطان الرئة في مصر. وتصل التكلفة السنوية المباشرة في مصر لمعالجة الأمراض الناجمة عن استخدام التبغ تصل إلى 545 مليون دولار.

ولست أدري ما الذي يمنع بعد كل هذا العناء من تجريم الدخان؟ إن ما تأخذه الدولة على هيئة ضرائب من شركات التدخين تدفع أضاعفا مضاعفة له في تطبيب المرضى، ومعالجة لتلوث البيئة، بخلاف إهدار ساعات العمل.

[241] قد يعجب بعض القارئين من ذكر التدخين في عنصر الوهم، إلا أن هذا أمر جد منطقي، فليس التدخين من حاجات الإنسان أو شهواته، أو هو من المبتكرات اللذيذة أو النافعة أو المقوية، وإنما كله أضرار وخسارة، لذا فكان من المنطقي ألا يوجد عليه إلا إقبال ضعيف، وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد إقبالا متزايدا على التدخين، وذلك راجع إلى الإعلام الذي يُظهر الأبطال مدخنين، وكأن التبغ من لوازم البطولة والرجولة، فأقبل البشر على التدخين مقرين بضرره وبانعدام نفعه إلا أنهم يستمرون ويستمرون حتى يقتلون أنفسهم، وبهذا يوصلهم الدخان إلى الجحيم! وأعتقد أن النار هي المستقر المنطقي المقبول لمن عشق الدخان!

حوالي 145 مليون شخص في أميركا، أي قرابة 50%، يلعبون ألعاب الفيديو على الأجهزة المحمولة أو على جهاز الحاسوب!

ولن نتحدث هنا عن العنف الناتج عن هذه الألعاب، أو عن العزلة الاجتماعية الناجمة عنها أو عن فقدان التواصل الأسري أو عن الأمراض النفسية والبدنية، وإنما سنطرح سؤالين إثنين: كم يضيع الإنسان المدمن لهذه الألعاب من عمره، وماذا استفاد؟ ماذا ينتظر المجتمع من أمثال هؤلاء المدمنين؟ هل سيخرج من بينهم من يغير وجه العالم؟

إن من عاش في الوهم سيظل طيلة عمره مكبلا به ولن يفلح أبدا في مجابهة الواقع .. الأليم!

ولنترك عنصر الوهم الصريح وننتقل إلى عنصر الوهم الأعظم: التلفاز، ذلك السيد الجديد الذي أصبح عامة الناس له عبيدا لا مجرد مدمنين، يظلون أمامه الساعات الطوال لا يفيدون ولا يستفيدون! ولنر كم نضيع من أعمارنا أمام هذا الجهاز المقيت: ذكرت دراسة حديثة أن البيت الأمريكي المتوسط يحوي تلفزيونات أكثر من أفراد العائلة، وتشاهد العائلة الأمريكية المتوسطة التلفاز لأكثر من ثلث اليوم. ويبلغ إجمالي متوسط المشاهدة حوالي أربع ساعات و35 دقيقة يومياً. وهذا يعني أن الإنسان يضيع ما بين سدس وثلث عمره في مشاهدة التلفاز! وثلث آخر أو أكثر في النوم![242]

فإذا نحن نظرنا في هذه الإحصائيات الإجمالية حول التلفاز، وجدنا التالي: هناك قرابة 250 بليون ساعة مشاهدة في السنة، ولك أن تتخيل كم سيبلغ النفع لو عمل المشاهدون أو قرأوا أو مارسوا الرياضة نصف عدد هذه الساعات! عدد الدقائق التي يقضيها الآباء أسبوعيا في مناقشة ذات معنى مع أطفالهم هي ثلاث دقائق. ويظلون باقي الوقت نائمين أو أمام المرئيات متسمرين! ولا يجد الأطفال من يحدثونه إلا ألعابهم، لذلك تبلغ عدد الدقائق التي يقضيها الأطفال أسبوعيا في محادثة ألعابهم من

[242] نحن إذ نقدم للقارئ العربي إحصائيات أمريكية، فإن هذا راجع إلى تقارب العدد بين الوطن العربي والشعب الأمريكي، وكذلك العادات الاستهلاكية المتقاربة، إلا أننا نفوقهم بالتأكيد في الاستهلاك! كما أن الولايات المتحدة هي المصدر الأم لصناعة الوهم الذي يُصدر إلى العالم كله.

الحيوانات المحشوة حوالي 186 دقيقة. لذلك ليس من العجيب أن يفضل 54% من الأطفال بين الرابعة والسادسة مشاهدة التلفاز على الجلوس مع الآباء. تبلغ نسبة الآباء والأمهات القادرين على تقييد مشاهدة أطفالهم للتلفزيون هي 43%. أما الباقون فيتركون الحبل على الغارب للأولاد يشاهدون ما يحلو لهم! تبلغ عدد مشاهد القتل التي يشاهدها الأطفال في التلفزيون عند انتهائه من المدرسة الابتدائية حوالي 8000 مشهد قتل. يبلغ عدد الإعلانات التي يشاهدها الإنسان عند بلوغه 65 عاماً حوالي مليونا إعلان.

وهذه الأرقام تحتم دق ناقوس التنبيه، إنها نذير شؤم وتفتيت الأسرة وضياع النشأ، فكم يقضي الزوجان من الوقت بدون تلفاز في حوارات أو نقاشات؟ وماذا ننتظرمن هذا الجيل الذي نشأ متابعا لقنوات الرسوم المتحركة وغيرها، والتي تحتوي كافة أنواع العنف من قتل وخطف ووحوش وآليين وخلافه؟! هذا الجيل الذي يُحدث ألعابه ولا يجد والديه ليحدثهما. إني لنذير بين يدي كارثة بدأت بوادرها في الظهور، إذا لم يترك الآباء التلفاز ويلتفتوا إلى أبناءهم فيجلسون معهم الأوقات الطوال يلاعبونهم ويحدثونهم ويربونهم!

فإذا أعرضنا عن التلفاز وانتقلنا إلى قرينته وهي السينما فسنجد أن الوضع لا يقل سوءا، ونحن إذ نتكلم عن السينما فإننا سننظر إليها من منظور مختلف وهو منظور التكاليف المادية وليس عدد الساعات.

وإذا نحن تحدثنا عن السينما فلزاما أن يتركز حديثنا في الولايات المتحدة معقل السينما والوهم في العالم، لنبين كيف أن السينما ما هي إلا صناعة خاضعة لمبدأ العرض والطلب لا أكثر ولا أقل، وأن الحديث عن الرسالة هو نوع من تسكين الضمير! أو فعل لجزء ضئيل لا يكاد يبان أثره في معمعة الإفساد العظمى: في عام 1909 كان عدد صالات العرض في العالم كله يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف صالة، وكان عدد الصالات في الولايات المتحدة عشر صالات فقط، إلا أن هذا العدد ارتفع

في غضون ثلاثة أعوام فقط إلى عشرة آلاف صالة! مما أدى إلى طرح مليار ونصف دولار –تصور قيمتها في ذلك الوقت– للاستثمار في مجال السينما، ودخلت العديد من الشركات الكبرى في الصناعة مثل كبرى شركات السجائر! وغيرها، وهكذا أصبحت السينما من كبرى الصناعات الأمريكية، ومن المعروف بداهة أن مؤشر نجاح الصناعة في الحضارات المادية هو المكسب المادي، وهذا ما تحققه السينما الأمريكية بغض النظر عن البله أو التوتر أو حدة الأعصاب الذي تسببه للمشاهد، فالمنتج لا يهمه كمّ الأضرار الذي سيصيب المشاهد جراء مشاهد العنف أو الجنس الذي يحتويه الفيلم، فالأهم بالدرجة الأولى هو كم سيجني الفيلم من الأرباح.

ولأن المنتجين ما هم إلا تجار فإنهم يعرفون أنه كلما زادت تكلفة إنتاج الفيلم، بأن يُهتم بالمؤثرات الصوتية والبصرية، مع الوصول إلى أكبر درجة من الفانتازية، فسيحقق الفيلم أرباحا أكبر بكثير، لذا لا حرج من إنفاق مئات الملايين ما دامت ستعود مليارات! فلهذا شاهدنا ارتفاعا هائلا في تكاليف إنتاج الفيلم الواحد، فبينما كان متوسط تكلفة إنتاج الفيلم في هوليوود في عام 1995 حوالي 36 مليون دولار وفقاً لـ "موشون بكشراسويشن أوف أمريكا"، بلغ بحلول عام 2005 متوسط تكلفة إنتاج الفيلم 60 مليون دولار. وهذا يعني أن تكلفة دقيقة المشاهدة الواحدة تبلغ حوالي نصف مليون دولار! ولا بد أن يتذكر القارئ أن هذا هو المتوسط فهناك الكثير من الأفلام التي تتعدى ذلك بعشرة أضعاف! وهذا يعني أن تكلفة الدقيقة الواحدة قد تبلغ خمسة ملايين دولار!

وتنتج السينما الأميريكية حوالي 400 فيلما روائيا سنويا ، يُقدر النقاد الجادون منها حوالي 15%، أما 85% الباقية فهي أفلام ساقطة لا وزن لها! ولنا أن نتساءل: كم تكلفت وبأي قدر نفعت؟

فإذا نحن أخذنا فيلمي "Water world" و"Titanic" كمثال، والذين أنتجا في القرن الماضي، فإنا نجد أن تكلفتهما مجتمعين قاربتا المليار والمائة مليون دولار!

وأتساءل: ماذا استفاد العالم مقابل هذه المبالغ الطائلة التي أنفقت من أجل إخراج هذين الفيلمين؟! من أجل أربع أو خمس ساعات من الوهم ينفق البشر ما يزيد عن المليار دولار، وينفق أضاعفهما من أجل مشاهدة هذه الساعات من الوهم!

وإني لأتساءل: كم عدد البشر الذين كان يمكن إطعامهم أو كسوتهم أو تحرير رأسهم من الجهل بهذا المبلغ، أو بتلك المبالغ الطائلة التي أنفقت من أجل إخراج أفلام من عينة حرب النجوم وملك الخواتم، وقراصنة الكاريبي وهاري بوتر وسوبرمان وإخوانه من الخارقين الوهميين، على رأس القائمة؟!

يحق لي أن أصرخ: ماذا استفادت البشرية من هذا الوهم الباهظ التكلفة؟! وتأتي الإجابة المرة: لحظات إثارة تتكلف مليارات، وكان من الممكن الحصول على مثلها أو أفضل منها بقراءة كتاب أو رواية يحتوي نفس المضمون، يثير الخيال ولا يكلف هذه التكلفة العجيبة!

ونترك السينما المباحة بما لها وعليها وننتقل إلى أهم وأخطر وأكبر وأقذر فرع في منظومة الوهم وهو صناعة الجنس، ليشاهد القارئ بنفسه كيف أن أباطرة الوهم قد نجحوا بامتياز في إغراق البشر في بحار الأوهام والخيالات الجنسية المريضة، حتى أن عامة حديث البشر في كل العالم أصبح منصبا على الجنس، –أكثر مما كان في الماضي!– وظهرت العديد من الممارسات الجنسية الشاذة، التي ما كان لنا أن نسمع عنها، لولا ذلك السعار الذي أصاب البشر جراء خوضهم في بحار الوهم الجنسي، ونبدأ في عرض الأرقام الهائلة:

تأتي صناعة الجنس العالمية في مرتبة متقدمة في عالم الجريمة،[243] بعد المخدرات والقمار –والذين هما من أهم عناصر الوهم كذلك–، وتحتل صناعة الجنس على شبكة الانترنت مرتبة متقدمة ضمن صناعة الجنس العالميّة التي يقترب حجمها من

[243] يُقدر الناتج الإجرامي العالمي الخام بحوالي **1200** مليار دولار في العام، ويمثل **15%** من حجم التجارة العالمية. وتؤكد كل الدراسات أن الجريمة المنظمة بدأت تلعب دورا رئيسيا في الاقتصاد العالمي *منذ أن تم تحرير الأسواق وأسملتها*.

100 بليون دولار، (وصل حجم تجارة الجنس على الإنترنت فقط خلال عام 2006 حوالي 70مليار دولار!) ويكفي أن نعلم أنه يوجد في كل ثانية حوالي ثلاثون ألف مستخدم للإنترنت، يتصفحون المواقع الإباحيّة، التي تشكل ما نسبته 12% من مجموع مواقع الانترنت. وتبلغ عدد مرات البحث عن المواقع الإباحية بمحركات البحث 68 مليون طلب يوميا!

وتزيد نسبة المتصفحين للمواقع الإباحية عن نسبة المواقع نفسها، فتبلغ نسبة زوار المواقع الإباحية من مستخدمي الانترنت 42.7% من إجمالي زوار الشبكة. كما تبلغ نسبة تحميل المواد الإباحية عبر الانترنت 35% من إجمالي المواد المحملة. لذا فليس من العجب أن يبلغ إجمالي عدد الزوار الشهري للمواقع الإباحية على الشبكة أكثر من 72 مليون زائر (من بينهم حوالي 9.4 مليون امرأة!)، وأن تبلغ نسبة المتحدثين في المواضيع الجنسية 89% من زوار غرف الدردشة.

يبلغ عدد المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت 4.2 ملايين موقعا، من بينها ما يزيد عن 100000 موقع تحتوي على مواد إباحية لأطفال. وتأتي الولايات المتحدة في مقدمة قائمة أكثر البلدان امتلاكا لصفحات جنسية[244] بنصيب يتعدى 244.5 مليون صفحة –من حوالي 420 مليون صفحة والتي هي مجمل عدد الصفحات الإباحية في العالم كله!– تليها ألمانيا بنصيب يبلغ أكثر من 10 ملايين صفحة ثم المملكة المتحدة بنصيب 8.5 ملايين صفحة ثم أستراليا واليابان وهولندا ثم روسيا وبولندا وإسبانيا. ويبلغ عدد الرسائل الالكترونية الإباحية 2.5 مليار رسالة يوميا. وتنتج الولايات المتحدة شريط فيديو إباحي كل 39 دقيقة. ويُنفق في الثانية الواحدة ما يزيد عن ثلاثة آلاف دولار على المواقع والأفلام الإباحية!

---

[244] تتصدر الولايات المتحدة صناعة الجنس عالميا انتاجا واستهلاكا، ففيها –كما ذكرت وزارة العدل الأمريكية– أكثر من 900 دار سينما متخصصة في الأفلام الإباحية، وأكثر من 15000 مكتبة ومحل فيديو تتاجر بأفلام ومجلات إباحية، وهي تصدر سنويا 150 مجلة من هذا النوع أو 8000 عددا سنويا، وتجارة تأجير الأفلام الإباحية قد زادت من 75 مليون سنة 1985 إلى 665 مليون سنة 1996. كما أنها أكثر دول العالم تصفحا للمواقع الإباحية بفارق كبير عما يليها، حيث تبلغ نسبة زيارة المواقع الإباحية حوالي 25% من نسبة التصفح، تليها إيران بنسبة تصل إلى 7% ثم الإمارات العربية ثم مصر.

فإذا انتقلنا إلى الضحايا البشريين الذين يظهرون في هذه الأفلام، نعرف كم من البشر ضُيّعوا من أجل صناعة هذا الوهم الوسخ، الذي يعرضونه كنموذج قياسي لطرق التلذذ!

قدرت منظمة العمل الدولية «I.L.O» في تقرير لها أن حوالي 27 مليون شخص في العالم يعيشون من تجارة البشر، وأن حوالي80% منهم من النساء، والأطفال. وتؤكد المنظمة أن 98% من ضحايا الاستغلال التجاري الإجباري للجنس هم من النساء والفتيات، ويتعرض حوالي ثلاثة ملايين شخص سنوياً للاتجار، من بينهم 1.2 مليون طفل، ويُنقل ما بين 45 ألف و50 ألف من الضحايا إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنويا للعمل في الدعارة[245]، وتشير إحصائية أمريكية إلى أن حجم تجارة الرقيق في الولايات المتحدة فقط بلغ 7 مليارات دولار سنوياً. كما يتوجه كل عام زهاء 50000 امرأة من الدومينيك للعمل في الدعارة في الخارج، لا سيما في هولندا، حيث يشكلن 70% من عاهرات الواجهة الزجاجية الأربع مائة في أمستردام. ولا تدخل هذه الأعداد هذه التجارة طواعية وإنما تتعرض لإجبار وإكراه منظم حتى تستمر فيها، وتشير الإحصائيات إلى تعرض ما بين 75% إلى80% من العاهرات لاستغلال جنسي في مرحلة الطفولة، ويخضع أكثر من 90% منهن لتحكم الوسطاء، فهن لا يعملن حبا في الدعارة وإنما تبعا لقوادين يسيطرون عليهن! ويعملون على جني أكبر قدر ممكن من الأرباح عن طريق توسعة التجارة وتنظيمها، ونلقي نظرة أقرب على هذه التجارة المنظمة: يُقدر عدد العاهرات في تايلاند بـ 2 مليون، و500000 في إندونيسيا، وزهاء 8 ملايين في الهند، وما بين 1 إلى 2 مليون عاهرة في كوريا، ومليون في الولايات المتحدة الأمريكية، و200000 في بولونيا، ويرجح أن عدد العاهرات في ألمانيا يصل إلى 200000، واللواتي تبعن الخدمات الجنسية إلى 1.2 مليون زبون يوميا[246].

[245] صُدعت رؤوسنا بالحديث عن الحريات وكرامة الإنسان وجنة الله على الأرض في الغرب، ولكن الواقع أن الغربي المادي لا يزال يحمل في طيات نفسه ذلك النخاس القديم!

[246] لك أن تتصور المستوى الأخلاقي والحالة الاجتماعية والنفسية للمترددين بانتظام على هذا النوع من الوهم! ونذكر بأن نيتشه كان واحدا منهم!

تقدر منظمة اليونسيف عدد الأطفال الذين يُدخلون لصناعة التجارة الجنسية كل سنة بمليون طفل. وتستغل صناعة دعارة الأطفال ما بين 100000 و300000 طفل في الولايات المتحدة الأمريكية، وتتحدث التقديرات في البرازيل عن استغلال ما بين 500000 و2 مليون طفل في السياحة الجنسية! وترى بعض الدراسات أن طفلا داعرا يبيع خدماته الجنسية لـ 2000 شخص كل سنة.

ولا يقتصر الأمر على مجرد الإجبار، وإنما يصل إلى مرحلة البيع والشراء الصريحين، والتعامل مع الإنسان! كأنه بضاعة متملكة ولا فارق، ضاربين بكل حقوق الإنسان عرض الحائط[247].

ولأن الإنسان بطبعه يرفض الاستعباد فإن التحول للعمل في هذه القذارات، والرضى بالهوان يقوم بالدرجة الأولى على العنف، وذلك لأن العنف عامل حاسم في إنتاج "البضائع الجنسية"، وبدونه ما كنا سنرى هذه الأعداد الرهيبة! وليس هذا العنف أمرا فرديا وإنما عمل منظم يستغرق وقتا طويلا، حتى يتم ترويض البضاعة للقبول بالعمل وألفته! فعلى سبيل المثال يوجد في البلقان معسكرات إذلال حقيقية، تتعرض فيها النساء للاغتصاب والترويض. وفي البرازيل يتم الاحتفاظ بالفتيات معتقلات في ما يشبه السجن، وذلك في أماكن بعيدة يصعب الوصول إليها. والواقع أن مقصورات الدعارة في هولندا وبلجيكا، أو غرف اللذة الجنسية في ألمانيا تشبه بدورها الأقفاص.[248]

---

[247] نعرف القارئ ببعض الحقائق حول هذا الاستعباد في زمان الحريات –المستعبِدة!–:

يجري كل عام في تايلاند شراء زهاء ربع مليون امرأة وطفل من بلدان جنوب شرق آسيا "بيرمانيا، وإقليم يونان في الصين الشعبية، ولاوس، وكامبوديا" وذلك بسعر يتراوح بين 6000 و10000 دولار أمريكي. أما في كندا فإن الوسطاء يدفعون 8000 دولار لقاء فتاة من الفليبين أو تايلاند أو ماليزيا أو تايوان، قصد إعادة بيعها لوسيط ب 15000 دولار.

أما في أوروبا الغربية فيتراوح ثمن العاهرات المنحدرات من بلدان أوروبا الاشتراكية سابقا بين مبلغ 25000 و30000 دولار أمريكي.

[248] تبلغ المهزلة مداها عندما تُجبر المومس على دفع إيجار باهظ للغرفة التي تقيم فيها في بيت الدعارة –حتى يغطي الضرائب– من النسبة التي تأخذها من عملها، ولأن المومس لا تكاد تخرج من الوكر فإنها تنفق جل ما تكسبه في بيت الدعارة! وبهذا لا تخرج الضحية حتى بمكسب مادي مقبول!

ولا تعليق سوى: لقد رمى ماركس ومن شاكله من العلمانيين الدين بأنه أفيون الشعوب، وحاربوا الأفيون وأزاحوه، فماذا قدموا عوضا عنه؟ قدموا عالما متكاملا من الوهم والوسخ والتوحش! وهكذا أخرجوا لنا بشرا متوحشا ذا خيال مريض، نكّسوا الإنسان أيما انتكاسة، وعلى الرغم من ذلك لا يزالون يتبجحون بأن الدين أفيون، ونسوا أن منظومتهم بأكملها بارود! لذا فإنا نختم مقالنا هذا بكلمة مضادة وهي: "الوهم بارود الشعوب!" بارود نسف ما تبقى من إنسانية .. ذلك البشري، فقتله باقتدار!

مات الإنسان!

وبعد هذه الرحلة الطويلة مع الإنسان، أعتقد أن القارئ سيخرج بنفس النتيجة التي خرجنا بها وهي أن الإنسان قد مات! نعم مات الإنسان ولم يبق إلا ذلك الحيوان الميكني المصاب بحمى الاستهلاك! ولا يغير من كونه حيوانا أنه كثير الزخرف والزينة! فلن تغطي البهرجة الشديدة والأضواء الملونة حقيقته! ما هو إلا حيوان مفترس شديد التوحش! رفض وجود الإله وأراد أن يحمل مسؤولية نفسه .. بنفسه.

وهكذا يعيد التاريخ نفسه .. فقديما حمل الإنسان الأمانة مقرا بالإله، إلا أنه لم يؤدها حقها، وحديثا حمل الإنسان الأعمى المسؤولية منفردا بذاته، فضلّ وأضل وأفسد أيما إفساد ومات وأمات الإنسان عند غيره. وإذا مات الإنسان فلا بد أن يحيى الحيوان .. وهذا ما كان! ولا أعتقد أن هذا المسخ الذي أنتجته الحضارة الغربية المهمشة للإله يستحق أن يُسمى إنسان بحال.

لقد انتكس الإنسان انتكاسة كبرى لا يغفرها ولا يمحوها التقدم العلمي المصاحب للتخلف الأخلاقي الحضاري، فيا حسرة على البشر الذين ولدوا وماتوا ولم يعرفوا لم! ولم يجدوا أنفسهم، ومن لم يجد نفسه فلن يؤدي رسالته، وإنما سيفسد، ويعلق الدكتور إريش فروم على هذه النقطة، فيقول: "لم يقترب الإنسان في يوم ما من تحقيق

أعز أمانيه مثلما اقترب اليوم. فكشوفنا العلمية وانجازاتنا التقنية تمكننا من أن نرى رأي العين اليوم الذي تمتد فيه المائدة لكل من يشتهون الطعام ... اليوم الذي يؤلف فيه الجنس البشري مجتمعا موحدا، فلا يعود يعيش في كيانات منفصلة. وقد اقتضى الأمر آلاف السنين حتى تفتحت –على هذا النحو– ملكات الإنسان الذهنية، وقدرته النامية على تنظيم المجتمع، وتركيز طاقاته تركيزا هادفا. وهكذا خلق الإنسان عالما جديدا له قوانينه الخاصة ومصيره. فإذا نظر إلى ما أبدعه حق له أن يقول إن هذا الذي أبدعه شيء حسن. ولكن ما الذي يستطيع أن يقول إذا نظر إلى نفسه؟ هل اقترب من تحقيق حلم آخر للبشر هو كمال "الإنسان"؟ الإنسان الذي يحب جاره، ويحكم بالعدل، وينطق بالصدق، محققا ماهيته، أي أن يكون صورة للإله؟[249]" اهـ

وهكذا تقدم الإنسان حقا في المجال العلمي، إلا أنه تخلف وبامتياز في الإنسانيات، فلم يكتف بالدرجة التي كان عليها الإنسان القديم، –والذي يراه الإنسان المعاصر متخلفا!– الذي كان يسلم بالبدهيات، وإنما انتكس إنسان الوهم دركات أكبر في جُب التخلف! فلم يعد يميز بين المعقول واللامعقول، وبين النور والظلام. وهكذا انتكست البشرية جمعاء، أصحاب النور وأرباب الظلام! فأصحاب النور فيه نائمون، فلم ينفعهم نورهم! وأصحاب الظلام مستيقظون يتحركون، فلن تنفعهم حركتهم في الظلام! وهكذا أصبحت البشرية قطيع من العميان والنوام، وكلاهما لا يهديان إلى سواء الصراط.

وهكذا لم يبق في البشرية إلا قلة قليلة ممن يستحقون أن يُسمى الواحد منهم "إنسان"، أناس استمعوا إلى كلمة الله، أناس رأوا النور وعرفوا أنه نور فاتبعوه ... فأُحيوا وخرجوا من الظلمات، وتحركوا في النور: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾] سورة الأنعام, ١٢٢[

[249] إريش فروم، الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، ص.6.

أناس عرفوا أن الحياة ما هي إلا صورة باهتة للحقيقة، وأن الإنسان إذا استطاع تحقيق أفضل صورة للصورة، فإن هذا يعني ضمان التحصل على الأصل الحقيق، فكانت رحلتهم إلى الله، رحلة ترق وتزكية لإنسانهم استرشادا بالنور الإلهي، فعاشوا في النور، منتظرين اليوم الذي يرى فيه غيرهم نورهم: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحـديد, ١٢]

إلا أن هؤلاء وبكل حسرة ندرة في البشر، أما عامتهم فرفضوا أن يسمعوا كلمة الله، وتمردوا على وصاية الرب عليهم، وظنوا واهمين أنهم سيكونون أفضل مربين لأنفسهم، ولا يحتاجون إلها! وسمع آخرون كلمة الرب، إلا أنهم أعرضوا ولم يتبعوها، وظنوا أن كلمتهم نافعة كما نفعت كلمة الرب! فاتبعوا هواهم، فما كانت النتيجة؟

انتكس الفريقان وصاروا كالأنعام بل هم أضل، فلم تخالف الأنعام الفطرة التي فُطرت عليها، وهم أضاعوا الهبة التي وهبها الله عزوجل لهم .. لذلك استحق كلاهما النار وبجدارة، كما استحق أولئك النور!

وأعجب كثيرا من الملاحدة أو غيرهم الذين يعترضون أن يُدخلوا النار في الآخرة، لأنهم لم يأتوا بما يستحق ذلك، فلم هذا العذاب الكبير لأفعال صغيرة؟! والإجابة المنيرة هي: الدار الآخرة هي الظهور الحقيق لما في الدنيا، وليست مجرد عقاب أو ثواب على الأفعال، فالمعرض عن المنهج انتكس إلى الحيوانية ومات بانتكاسته، فإذا قامت الآخرة تكون الانتكاسة الكبرى بالدخول إلى النار، انتكاسة عادلة رحيمة، فالإنسان صيّر نفسه بهذا نتاجا فاسدا، ولا يستحق الإنتاج الفاسد، المفسد لغيره وللأرض، إلا الإعدام!

وكذلك يزداد الذين اهتدوا هداية ورقيا، فكما دخلوا وعرفوا جنة الدنيا، يدخلونها في الآخرة، وكما عملوا على ترقية أنفسهم في الدنيا، بالقضاء على السمات الحيوانية المغروسة فيهم، يُكمَل رقيهم في الآخرة بنزع هذه الجوانب كلية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى

صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ ... ﴿٤٣﴾] سورة الأعراف, ٤٣]

وإنا نرجو بهذا الكتاب أن ينتبه الإنسان إلى خطيئته الكبرى بالإعراض عن كلمة الله والانخداع بالوهم وبالعلم الظاهري، حتى لا يحيق به ما حاق بأسلافه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾] سورة غافر, ٨٣]

نرجو أن يحاول الإنسان جاهدا أن يفتح عينيه ليبصر ما حوله، ولو فعل لأفاق بإذن الله، فليس في الطرق أو السبل تشابه أو تقارب، فشتان ما بين طريق الرحمن وطريق الشيطان والإنسان، فما من نقطة التقاء!

والعجيب أن الإنسان يعرف سبيل الفلاح خير المعرفة، فما أفلح إنسان في حياته إلا بالتزامه هذا السبيل جزئيا، وأتحدى أن يثبت إنسان أن الفلاح في غير ما قلنا! فما بالنا لو التزمه الإنسان جملة، بالتأكيد سيخرج لنا .. سوبرمان!

وعلى الرغم من ذلك فلقد نجح أصحاب السُبُل الأخرى أن يقنعوا الإنسان بالبعد عنه والتزام سبلهم، متبعين في ذلك خطوة الشيطان الأزلية .. التدرج! فأبعدوهم عن السبيل خطوات، ثم مسافات ثم فترات، حتى أصبحت السبل الأخرى هي الأصل، وظن الإنسان أن العودة للحظات إلى سبيل الرحمن كاف للفلاح، مع اتباع وحي الهوى و... الشيطان! إلا أننا نعلنها صريحة:

السبيل واحد، ومن سار عليه وصل، ومن تركه مات وضل!

الباب الثالث

المعالجة التاريخية

تنمية بشرية كسيحة!

أدرك كثير من المفكرين والأطباء النفسيين أن الإنسان المعاصر يعاني من أزمة كبيرة، أزمة اغتراب وحيرة وفقدان حافز، أزمة فقد معها الإنسان كثيرا من مقوماته كإنسان، فأصبح عاجزا في عديد من المجالات الإنسانية، فرأينا من لا يُحسن الحديث! ومن لا يعرف كيف يتعامل مع الآخرين، ومن يخاف الآخرين! وكثير من المبكيات المضحكات.

ودق المفكرون من أجل ذلك الكثير من نواقيس الخطر، فالفرد هو العنصر المحرك لكل النتاج الحضري العلمي الفكري للإنسان! فإذا كان هذا الإنسان لا يستخدم إلا الجزء الضئيل من طاقاته أو حتى لا يعرفها، فإن هذا يعني أن البشرية ستفقد إمكانيات كبرى للتقدم، كما أن الإنسان نفسه سيعاني أشد المعاناة في حياته هذه، فإذا أُريد تنمية وتطوير المجتمعات فإن ذلك يكون أول ما يكون بتطوير الإنسان قبل الآلة.

لذا حاول هؤلاء الأطباء أن يخرجوا الإنسان من هذه الحيرة، وأن يساعدوه على استخدام أكبر قدر من طاقاته، وتطور الأمر إلى أن وصل إلى نشأة علم كامل يُسمى التنمية البشرية، وأصبح هذا العلم من ضروريات الباحث عن النجاح في زماننا هذا.

وانتشر أمر التنمية البشرية وعم، فكثيرا ما أصبحنا نقابل الإعلانات والدعايات لدورات التنمية البشرية والبرمجة اللغوية العصبية،[250] التي تدعي أنهما سيصلحان حال الإنسان ويغيران مستقبله، ويفجران طاقاته، باختصار سيخرجان الجني من القمقم! فأقبل البشر عليها إقبالا كبيرا، وعلى الرغم من ذلك لم نر التغير الكبير لحالهم.

[250] أطلق عليه العرب اسم البرمجة اللغوية العصبية وبناء على الاسم فإن الذي يؤديه العلم ويسعى إليه هو إعادة برمجة الإنسان من خلال اللغة للآخر أو من خلال الأعصاب للذات، فالجهاز العصبي هو الذي يتحكم في كافة تفاعلات الفرد السلوكية والفكرية وهو بذلك يشبه الإنسان بجهاز الحاسب الآلي، بمعنى أنه بالمقدور أن تتم برمجة الحاسب الآلي على أية برامج أو أشياء نريدها، وهو مايمكن كذلك مع الإنسان.

والحق يقال أني أعرضت لفترة عن هذا العلم الجديد، ثم أقبلت عليه لاكتشف ماذا يقدم، فلربما يكون فيه خير فاغتنمه، فأخذت اتتبع ما قيل وكتب في دورات التنمية البشرية هذه، فاكتشفت أني –كمتبع للمنهج مطبقه–، وأي متأدب صوفي، سابقان لكل ما يقدمونه بمسافات شاسعة في جميع مجالات تنميتهم،[251] بغض النظر عن المجالات التي لم يعرضوا لها، فلا يزال هؤلاء يحْبون في أول الطريق، وبمنهجهم هذا لن يفلحوا أبدا في تقديم إنسان أعلى!

من الممكن فعلا أن يقدموا إنسانا ناجحا في مجال ما، أو يساعدوه في تغيير بعض الجوانب السلبية في حياته وتطوير آداءه في جوانب أخرى، ولكن أن ينتجوا إنسانا كاملا، فهذا ما لن يكون.

ونحن إذ نجزم بإخفاق التنمية البشرية في إخراج إنسان أعلى، فإن هذا الجزم راجع إلى أسباب عدة، منها: أدوات التنمية، والغاية منها ومعالجتها للمشكلات والأزمات، والنظرة التجزيئية التي وقعت فيها التنمية! فما التنمية البشرية إلا استثارة للإنسان، فهي لا تقدم له تصورا شاملا عن الكون وعن موقعه فيه وعن طريقة تعامله مع كلياته، وإنما تقدم حلولا لبعض المشكلات أو الأزمات، التي قد تصيب الإنسان، والغرض الرئيس منها في نهاية المطاف تنمية قدرات الإنسان لينتج أفضل في المجتمع، أي أن الغاية الرئيس منها أيضا مادية فرعية، وليست إنسانية كلية.

وطالما ظل الإنسان على قناعاته القاتلة فلن يختلف الأمر كثيرا. فأهم عنصر هو إصلاح المنطلق حتى يستقيم السير، وما دام المنطلق غير قويم فيظل الطريق معوجا. يضاف إلى ذلك خلوها من عنصر الإلزام، فما هي إلا نصائح قد تُقبل أو ترفض، أضف إلى ذلك احتمال انسلاخ الإنسان منها بتبريره أنها خاطئة، فما هي إلا أقوال بشر تخطئ وتصيب، فليس لها القداسة.

---

[251] الحق يقال أن المجال الوحيد الجديد الذي وجدته لدى علم التنمية البشرية هو القراءة السريعة، والتي تمكن الإنسان من قراءة الكتب بطريقة سريعة جدا، إلا أنه لم يفدني، لأن لي طريقتي الخاصة في قراءة الكتب والتي أتمكن بها من القراءة السريعة جدا!

فإذا أضفنا إلى ذلك أنها مجرد دورات في فترات من حياة الإنسان، فلن تلازمه طيلة حياته، فإن المنتظر أن يسلك الإنسان معها مسلكه الطبيعي، بأن يبدأ متحمسا ثم يعمه الكسل والتباطؤ حتى يعود إلى ما كان، بخلاف المنهج المصاحب للإجيال وليس للأفراد فقط! المنهج الذي حمّل الإنسان مسؤولية البشرية كلها، يتحرك من أجلها، فيشعر بعظم الدور الذي يؤديه، لا ذلك الإنسان الذي يأخذ دورة من أجل أن يتقن الكلام أو التخاطب، أو التصرف مع الآخرين.

ولأن التنمية البشرية نتاج بشري! كان لا بد أن تنحصر في بعض جوانب الإنسان ولا تحيط به، ولذا من البدهي أن يكون نتاجها جزئيا غير عام، بخلاف ذلك المنهج الشامل، الذي لا يزال الإنسان قبالته ذلك الطفل المتلقي الملقن!

التدليل التاريخي!

بعد أن أصلنا لفكرة السوبرمان، وأثبتنا صلاحية المنهج لإخراج السوبرمان في كل زمان ومكان، وعرضنا للخطوط العريضة لإخراجه، نصل إلى نقطة محورية في هذا التأصيل، وهي التدليل التاريخي على وجود السوبرمان. فلقد أطلقنا دعوى عريضة في ثنايا هذا الكتاب، تتحدث عن منهج وطريقة لإخراج إنسان أعلى، مستندين في ذلك إلى القرآن العظيم وليس إلى أقوالنا الشخصية.

وبما أن المنهج قديم فلا بد أن يكون قد أخرج سوبرمانات عدة، وجدت في التاريخ وعاشت وأنتجت وأثمرت. فإن لم يكن ثمت وجود لسوبرمانات عدة على مر التاريخ الإسلامي،[252] فإن هذا يعني توجيه ضربة قاضية لما نقول، لأن هذا يعني أننا نلوي

[252] التوصيف ب "التاريخ الإسلامي" توصيف غير دقيق، لأن التاريخ الذي نتحدث عنه هو تاريخ المسلمين وليس تاريخ الإسلام، فالإسلام ما هو إلا وحي الله ومنهجه الذي أنزله إلى البشر، وهذا قد انتهى تماما بوفاة الرسول الأكرم محمد بن عبدالله، لذا فإن التاريخ الإسلامي قد انتهى مع الرسول وبدأ تاريخ المسلمين. ولكن لما كان من المستصعب قول "التاريخ المسلميني" استخدمنا الاستعمال المألوف.

أعناق النصوص لنستخرج ما نقول، أو أننا نُحمّل النص ما لا يحمل أو يحتوي، وإلا فكيف أتينا بما لم تأت به كل الأوائل؟!

ولا إشكال في هذه المسألة كلية، فهناك العديد والعديد من النماذج السوبرمانية في تاريخنا الإسلامي، وعلى جميع المستويات، فكان هناك السوبرمان الفرد الذي صنع أمة، وهناك سوبرمانات فردية أثرت أشد التأثير، كما ظهر أيضا مجتمع السوبرمانات. نعم، كل هؤلاء ظهروا في تاريخنا ولكنا غفلنا أو غُفلنا عنهم، وسنعرض لهؤلاء في هذا الباب لنقدم التدليل التاريخي على صلاحية المنهج، وكيف أننا لم نأت ببدع من القول وإنما هو قديم واقع، وكل ما قمنا به هو عملية تحديد لعناصر وتجميعها، باختصار قمنا بعملية استنطاق للمنهج، وبذلك أتينا بما أتينا به، كما استُخرج علم العروض من أشعار السابقين، ولم يتكلم من السابقين عنه أحد ولكنه كان موجودا ومنثورا في أشعارهم، فاستُخلصت الأصول من الأقوال، ليس أكثر.

كما سنعرض لعملية التشويه التاريخية التي حصلت للسوبرمان في الفكر الإسلامي الأول، وكيف أنها محت التصور الرئيس والعنصر الركين في بناء الإنسان عند المسلمين وأوقعتهم في الخرافة، كما وقع الغربيون في حبائل الوهم، ولم يفلح كلاهما حتى الآن في التحرر من براثنهما.

وقبل أن نبدأ في عرض التدليل التاريخي على وجود السوبرمان، نتوقف مع السؤال الذي قد يخطر ببال بعض القارئين؛ وهو: كيف تستدل على وجود السوبرمان بأفراد من التاريخ الإسلامي، وهم لم يقرأوا كتابك، بمعنى أنهم لم يتوصلوا إلى كل ما قلت به، أضف إلى ذلك أنهم قد يخالفونك في بعض ما قلته، فكيف تستدل بهم على أقوالك؟ نقول: ليس في الاستدلال بهم أي تعارض أو عدم منطقية، فكما قلنا سابقا فإن ما ذكرناه هنا هو الخطوط العريضة للمنهج لا أنه المنهج كله، يضاف إلى ذلك أننا قد نفصل في نقطة ونعرضها بطريقة علمية تتناسب مع معارفنا المعاصرة، أما هم فكانوا يؤمنون بأصل الفكرة كما هي، بدون الخوض في التفاصيل العلمية.

وتبقى منطقة المشترك أكبر من حيز الاختلاف، فالنقطة الرئيس التي تحقق لنا الاستدلال بهم كنماذج سوبرمانية، بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف، هي تفاعلهم الفردي الشخصي مع المنهج، واتخاذه كمنطلق أول في حياتهم، وبذلك كانوا نتاجا قرآنيا سليما، ولهذا يحق لنا الاستدلال بهم كنماذج تاريخية على وجود السوبرمان في سابق الزمان، وعلى صلاحية المنهج لإخراج سوبرمانات أخرى في مستقبله.

السوبرمان الأعظم (ﷺ)

"محمد بن عبدالله، الرحمة المهداة"

أفضل وأكرم وأكمل وأعظم وأنسب إنسان نستدل به هو نبينا العزيز، الرسول الكريم محمد بن عبدالله، ذلك الإنسان الذي غيّر وجه العالم، ونشر الرحمة وبسطها، ويكفيه أنه ذلك الإنسان الذي قدم المنهج للبشر، والذي به يصيرون أناسا .. على مراد الرب.

ويحتار المرء وهو يخط الكلمات عن هذا الإنسان العظيم، وتنتابه قشعريرة تجعل من العسير عليه أن يحدد من أن يبدأ، وكيف يوضح للقارئ في صفحات قليلة، لم أن محمد بن عبدالله هو ذلك الإنسان الأعلى، ذلك الأنموذج العظيم الذي ما ظهر مثله على وجه الأرض. ولكنا نستعين بالله ونبدأ مقشعري البدن في الكتابة عن الأسوة الحسنة، الحِب العظيم محمد بن عبدالله.

محمد بن عبدالله، ذلك الإنسان العظيم الذي حقق سمات الرجولة والكمال البشري قبل البعثة، ثم ازداد رقيا وعلوا بالوحي الذي أتاه من الله عزوجل. ولكي يعرف القارئ الكريم لم سمينا الرسول الحبيب بالسوبرمان الأعظم، نتوقف مع قبسات سريعة من حياة النبي الأعظم، لنشاهد بعيوننا كيف كان قبل البعثة، وكيف صار بعدها، وكيف أثّر في العالم كله.

يكفينا في التدليل على رقي النبي الكريم وتفرده عن غيره أن الله عزوجل اختاره لحمل الرسالة وتبليغها، وهذا بمفرده أكثر من كاف لتصور الكمال الخلقي والنفسي لهذا الإنسان، إلا أننا سنقدم للقارئ بعض الجذوات من حياة هذا الإنسان الأعلى!

ولد محمد بن عبدالله في مجتمع .. وثني، لا يختلف كثيرا عن عامة مجتمعات عصرنا هذا، مجتمع تسيطر عليه أخلاق الحرورية ومبادئ العصبية، حيث الانتصار في المقام الأول للعادات والتقاليد وللآباء والأجداد، مجتمع كأي مجتمع بشري فيه جوانب من الصواب وكثير من جوانب الخطأ. وفي ذلك المجتمع وفي تلك الحالة برز أول اختلاف للرسول الكريم، وهو نقده للمجتمع كله. فلم يُجار الرسول عادات القوم وأفعالهم، فلقد رأى فيها ضلالا مبينا وإهانة وامتهانا للإنسان، فاعتزلهم وما يعبدون من دون الله.

ولأنه إنسان ممتلئ بأخلاق الرجولة، لم يكن ذلك الذي يعتزل قومه ويذهب إلى الجبال فيقيم هناك، وإنما كان يتعامل معهم بما يملي عليه ضميره وبما تريه نفسه الأبيّة أنه خير وصواب، منعزلا عن غيهم وضلالهم، فأبت نفسه عليه أن يقول الكذب، أو أن يغش الأمانة أو أن يأتي بأي خلق يتناقض مع سمات الرجال.

ولذلك اشتهر الرسول الأعظم قبل البعثة بالصادق الأمين. ولكمال رجولته وعقله أبت عليه نفسه الانغماس في الشهوات أو الإتيان بما يخل بالكرامة، فلم يشرب الخمر ولم يصاحب النساء ولم يسجد لصنم، لأنه رأى فيها حجارة لا تضر ولا تنفع!

رجل تفجرت منه سمات الرجولة، لذلك استحق هذا الرجل أن يُخطب ويُزوج، فمثل هذا الإنسان الرجل غنيمة فريدة، وفالح من يغتنمها، واغتنمتها السيدة خديجة رضي الله عنها، وتزوجت .. الرجل.

ويحق لنا أن ننحي إعجابا لهذا الذي استطاع أن يرى الخلل في قومه ويتجنبه، الذي كان يستطيع أن يأتي كل ما يأتيه قومه ولا حرج عليه في ذلك، أليست هذه "أخلاق وقيم" المجتمع، -كما نسمع في المجتمعات الغربية!- التي يقتفيها القوم، فما

الحرج في اتباعها؟ الحرج هو في النفس الأبية الزكية التي لا تخدع نفسها، فترى الخطأ وتتجنبه.

رأى محمد القوم على ضلال، ضلال يبدأ من رأس الأمر: المعبودات. فما هذه المعبودات بالتي تنفع أو تضر، ولا هي بالتي تخلق أو توجد، فأخذ يبحث عمن خلق وأبدع ونظم وصرّف. ويصل الضلال مع الرأس إلى الذيل، ضلال عام طاغ، ولكن لم يكن محمد بن عبدالله ذلك الذي يتسرع في إصدار الأحكام أو الحلول!

وإنما اتخذ الخطوة الأولى المطلوبة للإصلاح، وهي أن يأخذ لنفسه فترة يختلي فيها بنفسه، يتفكر في المسائل الخالدة التي يُفترض أن تشغل بال كل إنسان. وبدأت خلوات النبي الأكرم في غار حراء، يتفكر في الكون وفي نفسه وفي قومه وفي أحوالهم، كيف صاروا إلى ما هم عليه، كيف يستمرون على ضلالهم على الرغم من جلاء الضلال، كيف وأين هو الطريق القويم؟

وعلى هذا الحال أتى الرسول الأكرم الغوث من السماء .. أتاه جبريل بكلمة الهداية الأولى: اقرأ .. أتاه براحة باله وبال العالمين .. أتاه بكلمة الله للبشر أجمعين، أتاه بالهداية .. بالمنهج.

وهنا نتوقف لنسأل: كم من البشر هم الذين فعلوا كما فعل محمد؟ من نظر في نفسه وفي قومه وفي عالمه، وعرَف أنهم على خطأ، ثم بحث عن الصواب؟ من سأل: إلى أين المسير؟ من ألزم نفسه بأخلاق الرجولة بدون أن يلزمه أحد؟ هناك من تفكر كما تفكر محمد بن عبدالله، إلا أن الفعل تاج فريد على رأس الرسول، فهو الوحيد الذي بذر وغرس وجنى وجنى من بعده، لذا ما في البرية قط مثل محمد!

وأتى الوحي محمد بن عبدالله، وبه انتقل من حال إلى حال جديدة، حال رُفعت فيها الحيرة، ووضح الطريق واستبان النهج بنور الله عزوجل، فسار مبلغا كلمة ربه، مجاهدا في الله حق جهاده، ملتزما في كل أفعاله بأخلاق الرجولة والكمال التي كان عليها قبل

البعثة، لذلك استحق هذا الإنسان أن يشهد له الرب الأعلى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾] سورة القلم ,٤[شهادة هي الوسام الأكبر الذي يناله أي إنسان، ولكن لا يناله إلا الإنسان الذي وصل إلى درجة النموذجية، الذي إذا اقتدى به أي إنسان وصل إلى درجة الإنسانية العليا، لذلك قال في حقه من بيده الملك: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾] سورة الأحزاب ,٢١[

ويصل الأمر إلى أن الله عزوجل يمنُّ على الناس أنه بعث لهم ذلك العظيم؛ محمدا!: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾] سورة آل عمران ,١٦٤[

ونزل الكتاب على قلب الإنسان محمد، فامتزج به كل الامتزاج، حتى صار الرسول الأعظم قرآنا يمشي على الأرض. وعندما امتزج القرآن بقلبه ازداد الرسول علوا ورفعة، وأحس بالمسؤولية العظيمة الملقاة على عاتقه، مهمة هداية البشرية وإنقاذهم. وهكذا أصبح النبي الكريم يشعر تجاه البشر شعور الوالد لأبنائه، الذي يريد أن ينشأوا أمام عينيه على خير حال، حتى إنه يتمنى لهم أن يصيروا أفضل منه، فلا يبخل عنهم بشيء.

ويُعرف الله تعالى البشر بحال هذا الإنسان نحوهم، حتى يحبوه كما ينبغي له أن يُحب، ويقتدوا به حق الاقتداء، فيقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾] سورة التوبة ,١٢٨[فالنبي يعز عليه عنتنا وتضيعنا أنفسنا بأنفسنا، ويحرص علينا وعلى هدايتنا. وهذه هي سمات الوالد الحقيق، لذلك استحق النبي الأعظم أن يكون أبو المؤمنين! وهكذا تفرد الرسول وصار قدوة على الرغم من كونه بشرا مثلنا، إلا أنه لتمثله الكتاب صار بشرا لا

كالبشر، بشر امتزجت به نفحة إلهية –المنهج–، فاستحق بذلك أن يكون النموذج لكل إنسان، والذي كلما تشبه بمحمد اقترب درجات في الكمال والرقي.

ويذكر الأستاذ العقاد في كتابه "الإسلام دعوة عالمية" وجهة نظر رائعة للكاتب فريتجوف شيون Frithjof Schuon، حول تصور النبي الأعظم وكيف يخطأ الغرب في تصورهم للنبي، فيقول: "مصدر الخطأ في هذا الفهم تصورهم للرسول الديني على صورة واحدة هي صورة بوذا والسيد المسيح، وهي صورة تحيط بها هالة من غير هذا العالم الإنساني، لما فيها من محو الذات ومحو العلاقات الدنيوية. لكن "محمد" لم تكن تحتويه هذه الهالة من غير العالم الإنساني، لأنه رسول شريعة وصاحب جهاد في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى، ومثاله من صور الرسالة الدينية، إنما هي صورة إبراهيم وموسى عليهما السلام، مع تفاوت الأفق والمجال.

وللمؤلف تفسير "فلسفي" لعظمة النبي كما توحي بها العقيدة الإسلامية. فهو صلوات الله عليه مثال "الإنسان الكامل" الذي لا مرتقى بعده لدرجات الكمال في بني الإنسان، إلا أنه ليس بمثال الإنسان الكامل وحسب على هذا الاعتبار، بل هو كذلك مثال الإنسان القديم أو الإنسان الخالد على صورة الله."[253] اهـ

وتحرك الرسول الأعظم بكل حماسة لنشر الدين ولهداية البشر، إلا أنه لم يكن على من يدعوهم بمسيطر، فدخل في الدين من دخل وأعرض من أعرض، ويتحسر النبي الأعظم على من لا يدخلون في الدين، فيبكي على جنازة يهودي تمر أمامه، لأنها نفس تفلتت منه إلى النار.

ويود لو دخل الناس كلهم في الدين، ويتملكه الأسى، لإعراض الناس عن الدين القويم، فيخاطبه الله عزوجل مهونا عليه، قائلا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [سورة الكهف ,٦] فأين الآن ذلك الذي يكاد يهلك نفسه حزنا على حال الناس؟ من ذلك الذي تملك حب الناس قلبه؟ حتى

[253] عباس العقاد، الإسلام دعوة عالمية، ص. 120.

قدمهم على نفسه؟ لا بد أن يكون ذلك حقا هو الإنسان الأعلى، ذلك الرؤوف الرحيم.

أين هو ذلك الرجل الذي يحب النساء؟! تأتي الإجابة بكل فخر: إنه المصطفى، الذي قال: "حُبب إليّ من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة." ذلك الرجل الذي لا يتحرج من ذكر النساء مع الصلاة، ففي ذكرهما معا ملمح بديع على كمال الرجولة، ففي الصلاة استمداد للعون والقدرة من صاحب القدرة وإظهار للجوء إلى من له الحول والطول، وحب النساء وعونهن دليل الرجولة، وباجتماع التقرب من الرب والطلب منه، مع الإحسان إلى النساء تظهر أقصى درجات الرجولة شرقا وغربا. والعجب أن بعض المتبعين يتحرجون من مسألة حب الرسول للنساء، إلا أني أراها من تمام رجولة أي رجل، لذا فإني أفتخر أني أحب النساء.

ولا يعني هذا أني أشتهيهن، وإنما أحبهن كما كان الرجل محمد يحبهن، يحب ذلك الجنس الضعيف الرقيق، الطاهر القلب الذي يحتاج إلى العطف والحنان، ذلك الجنس الذي يحتاج إلى الرجل ليواجه به عراك الحياة، ذلك الجنس البريء الذي يخدعه معسول كلمات الرجال، يحب ذلك الجنس الذي يشبه الأطفال، لذا فهو مستحق للحب. والبشر أجمعون يحبون الأطفال لشعورهم ببراءتهم، وأنهم يحتاجون لمن يأخذ بأيديهم، وكذلك أحب النبي لكمال رجولته النساء –وأنا تبعا له– لأنه رأى فيهن ما يستوجب الحب، أحبهن لأنه رأى فيهن احتياجا يزيد عن حاجة الرجال إليه، وذلك لهضم الرجال حقوق النساء ولإساءة المعاملة، فأحب الرجل الكامل الضعاف الرقيقات، وأحب لهن أن يأخذن حقوقهن وأن يعاملن كما أمر الله عزوجل، حتى يَحيى الإنسان فيهن ويزدهر، ذلك الإنسان الذي كسره الرجل ولا يزال يكسره في مجتمعاتنا المتحضرة! لذلك نجد أن النبي الأكرم يذكر بحقوقهن في خطبة الوداع، بل وحتى في خطبته الأخيرة والتي ألقاها بعدما اشتد به المرض، فيذكر الناس بالصلاة: "أيها الناس ، الله الله في الصلاة ، الله الله في الصلاة"

وبعد أن يذكرهم بالصلاة يعظهم في النساء، فيقول: "أيها الناس، اتقوا الله في النساء، اتقوا الله في النساء، أوصيكم بالنساء خيرا" هذا هو الحب الطاهر، الذي يريد الخير للنساء، لا أولئك الذين يريدهن غنيمة لكل ذئب، كلأ مباحا مستباحا لكل راع.

ونكتفي بهذه النقاط البسيطة في نفسية وأخلاق الرسول الأعظم، والتي توضح علو ورجولة أخلاقه قبل البعثة، ورقي قلبه وعظمة نفسه بعدها.

وبهذا القلب الكبير الحنون حمل الرسول الأعظم السلاح مضطرا، حمل السلاح وقاتل وجاهد ليدافع عن دين الله عزوجل ويدافع عن المستضعفين، فكان له النصر المبين في معاركه، وكان كيد الأعداء هو السبب الرئيس في بسط محمد لسلطانه عليهم، فيتحركون ليكيدوه فينقلب الكيد عليهم ويهزمون ويسلمون! قاتل بأخلاق الكبار العظام، فكان كبيرا علياً في قتاله، لم يكن ذلك السفاح الذي يحرص على القضاء على أعدائه، وإنما كان يسعى لإنهاء الحرب بأقل خسائر بشرية من الطرفين. قاتل وأرسل رجاله يقاتلون، فكان مجموع من قُتل على أياد المسلمين تحت قيادته في فترة تصل إلى العشرة أعوام ما يزيد قليلا عن الثلاثمائة رجل. معارك عدة شرقا وغربا دُفع إليها الإنسان مكرها، ولكنها أقدم عليها إقدام الأبطال، وبقوة إيمانه وإيمان من رباهم على يده، وصنعهم على عينه، كان لهم النصر المبين على أعدائهم، وبقوة إيمان أصحابه انتصروا، بعددهم القليل وعدتهم الضيئلة، بعد رسولهم على القوى العظمى في العالم، وفتحوا الباب أمام الناس ليفكروا ويقرروا بأنفسهم لأنفسهم!

بهذا النموذج الأخلاقي الراقي المدعوم بالقرآن صار محمد السوبرمان الأعظم، ذلك السوبرمان الذي غير وجه التاريخ وحال البشر كلهم، وما من إنسان على وجه البسيطة إلا وهو مدين لمحمد بعد الرب سبحانه! ذلك الإنسان الذي تلقى المنهج وطبقه، وغرسه في قلوب أتباعه فطبقوه من بعده، واستمر عطاء المنهج إلى زماننا هذا، وسيستمر إلى قيام الساعة.

منهج يجد فيه الإنسان دوما كل جديد. لذا لم يكن من العجب أن يختار عديد من المفكرين والكاتبين الغربيين محمدا بن عبدالله على رأس أعظم الشخصيات في تاريخ البشرية، وإنما العجب هو فيمن قدم بعض الشخصيات عليه! ولنا أن نتساءل: أين هو ذلك الإنسان، الذي جمع سمات الكمال مع التأثير في البشرية؟ قد يكون هناك من أثر في البشرية، ولم يصل تأثيره بداهة إلى معشار ما أثره الرسول، إلا أنه لا يداني بحال النبي في الكمال الإنساني، فدون ذلك خرط القتاد. فلا يستطيع الإنسان المحايد تجاه هذه الشخصية الفذة إلا أن يقر لها بالتفرد والريادة، وهذا ما فعله العالم الأمريكي مايكل هارت، حيث قال: "لقد اخترت محمداً في أول هذه القائمة، ولابد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ومعهم الحق في ذلك. ولكن محمدا عليه السلام هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحا مطلقا علي المستوي الديني والدنيوي. (...) وأكثر هؤلاء الذين اخترتهم قد ولدوا ونشأوا في مراكز حضارية ومن شعوب متحضرة سياسيا وفكريا، إلا محمداً، فهو قد ولد سنة 570 ميلادية في مدينة مكة جنوب شبه الجزيرة العربية في منطقة متخلفة من العالم القديم، بعيدة عن مراكز التجارة والحضارة والثقافة والفن. (...) وربما بدا شيئا غريبا .. أن يكون الرسول في رأس هذه القائمة، رغم أن عدد المسيحين ضعف عدد المسلمين، وربما بدا غريبا أن يكون الرسول عليه السلام هو رقم واحد في هذه القائمة، بينما عيسي عليه السلام هو رقم 3 وموسي عليه السلام رقم 16. ولكن لذلك أسباب: من بينها أن الرسول محمد كان دوره أخطر وأعظم في نشر الإسلام وتدعيمه وإرساء قواعد شريعته، أكثر مما كان لعيسي عليه السلام في الديانة المسيحية. وعلي الرغم من أن عيسي عليه السلام هو المسؤول عن مبادىء الأخلاق في المسيحية، فإن القديس بولس هو الذي أرسي أصول الشريعة المسيحية، وهو أيضا المسؤول عن كتابة الكثير مما جاء في كتب (العهد الجديد). أما الرسول فهو المسؤول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعي والأخلاقي وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية والدنيوية. (...) وكان الرسول عليه السلام علي خلاف عيسي عليه السلام رجلا دنيويا فكان زوجا وأبا، وكان يعمل في التجارة ويرعى الغنم. وكان يحارب

ويصاب في الحروب ويمرض .. ثم مات ... ولما كان الرسول قوة جبارة يمكن أن يقال أيضا أنه أعظم زعيم سياسي عرفه التاريخ. وإذا استعرضنا التاريخ فإننا نجد إحداثا كثيرة تقع دون أبطالها المعروفين .. مثلا: كان من الممكن أن تستقل مستعمرات أمريكا الجنوبية عن أسبانيا دون أن يتزعم حركاتها الاستقلالية رجل مثل سيمون بوليفار .. وهذا ممكن جدا، علي أن يجيء بعد ذلك أي إنسان ويقوم بنفس العمل. ولكن من المستحيل أن يقال ذلك عن البدو .. وعن العرب عموما وعن إمبراطوريتهم الواسعة، دون أن يكون هناك محمد .. فلم يعرف العالم كله رجلا بهذه العظمة قبل ذلك. وما كان من الممكن أن تتحقق كل هذه الانتصارات الباهرة بغير زعامته وهدايته وايمان الجميع به[254]." اهـ

وأحتار كثيرا إذا أردت الحديث عن إنجازات الرسول الأكرم، فكثيرةٌ تلك التي أنجزها في حياته، ورأها رؤي العين، وأكثر بكثير هو ما بذر بذرته ووضع حجر أساسه، ثم أتى الاتباع بعده، مهتدين بهديه متبعين لمنهجه، فجنوا الثمار، ثمار المنهج الذي أثبت صحته إثباتا مطلقا،[255] ثم لا يسعني إلا القول:

أعظم إنجازات محمد هو رحمته للإنسان، بتحريره وتأهليله ليصير إنسانا أعلى.

فلقد حرر محمدٌ، رحمة الله للعالمين، البشرية من عبودية الإنسان، وعرّف أتباعه أن هذا هو دورهم في الحياة، وغرس هذا الهدف في قلوبهم، حتى سمعنا الكلمة الخالدة التي قالها ربعي بن عامر أمام رستم قائد الفرس، عندما سأله: "ما الذي جاء بكم؟" فقال: "إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق

---

[254] مايكل هارت، المائة: تقويم لأعظم الناس أثرا في التاريخ، ترجمة: أنيس منصور، والذي ترجمه تحت اسم: الخالدون مائة أعظمهم الرسول محمد. ص: 13–18.

[255] الدليل على صحة المنهج جلية لكل ذي عينين، إلا أن العمي لا يزالون يجادلون! فعندما طُبق المنهج كما أراد الله، أو حتى قريبا مما أراد، تغير وجه البشرية في سرعة مذهلة، يحاول الماديون أن يوجدوا تفسيرا ماديا لها ولهذا الانقلاب العجيب الذي نزل بالبشرية، فلا يجدون! ونسأل: ما هو المنهج البشرية الذي طُبق كما ابتدعه أصحابه فأثمر؟ لم تثمر المناهج البشرية عامة إلا بعدما حورها الأتباع وغيروا فيها، لتصير ملائمة لهم، فأضافوا وحذفوا ونقحوا، ووصل التغيير أحيانا إلى القضاء على خطوط رئيسة في أصل النظرية، أما المنهج فتألقه وإثماره في عمله كما هو، وكما هو غير وجه العالم مرة، ومن ثم يستطيع أن يغيره مرات عدة، إذا طُبق كما هو.

الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ..."

لقد حرر محمد الإنسان من الخرافة والوهم، وعلّم الإنسان كيف يستخدم عقله وكيف يقرأ الكون المحيط به ويسخره لمصلحته، فأخرج ذلك الإنسان ذا العقل العلمي المفكر المستنبط، ذلك الإنسان العابد لربه والعارف له ولمكانه في هذا العالم، ذلك الإنسان الرحيم الذي يتحرك لتحرير البشرية.

ومن هؤلاء الأناسي نشأت الحضارة الإسلامية، التي أخرجت البشرية من ظلمات الجهل والتخلف إلى نور العلم والإيمان، تلك الحضارة التي جعلت للتاريخ الإنساني معنى ومغزى، تلك الحضارة التي تمحورت حول كتاب ربها، فصار هدفها وغايتها في الحياة، تلك الحضارة التي كادت تندثر، لما أهملت المنهج، تلك الحضارة التي تمرض ولا تموت، الحضارة التي جعلت البشر ناساَ .. إنها الحضارة الإسلامية!

تحريف السوبرمان!

صفوة من البشر اختار الرحمنُ لحمل منهجه، وأمرهم بتبليغه الناس وتربيتهم عليه، وقدّم هؤلاء البشر بالمناهج التي قدَموا بها على أنها الأسوة التي ينبغي أن يتأسى بها البشر، للوصول إلى أفضل رقي ممكن لهم في الحياة. وبشّرت هذه الصفوة قاطبة بقدوم إنسان أعظم، وبمنهج يأتي به، يمثلان معا ذروة الرقي، فالإنسان أعظم الأناسي، والمنهج آخر المناهج وأكثرها تفصيلا.

وأتى السوبرمان الأعظم (ﷺ) حاملا مشعل الهداية للناس أجمعين، فقدّم المنهج والنموذج، وزرع الإنسان في نفوس أصحابه، وأعدهم لحمل المنهج من بعده. إلا أن هذا لم يكن بين ليلة وضحاها كما يتغنى بذلك بعضُ المسلمين! وإنما احتاج جهادا طويلا، استغرق ما يزيد عن العشرين عاما، حتى بدأت البذرة تؤتي ثمارها، واستغرق

الأمر سنوات أطول حتى غرس الصحابة وتابعوهم المنهج في نفوس البشر. وكان من البدهي أن يكون المتبعون قد أدركوا رسالتهم في الحياة، وهي أن يحملوا المنهج ويجاهدوا في تبليغه البشر، مقتدين برسولهم الخاتم، إلا أن التحريف دخل هذه البدهية بنصوص أُلحقت بالدين الحنيف!

فلم يعد السوبرمان الأعظم هو ذلك الأسوة المنتظر، ولم يعد المنهج الكلمة الأخيرة، وإنما أصبح هناك ثلاثي أعظم من السوبرمان، يأتون في آخر الزمان، ليثبتون جميعاً أن المنهج غير صالح لكل الأزمان، وليعيدوا غرس الخرافة في عقول البشر!

أعتقد أن القارئ الفطن قد أدرك أننا نتحدث عن خرافة المهدي السني أوالشيعي، وعن أسطورة الدجال ونزول المسيح عند أهل السنة. تلك الخرافة التي أحيطت بهالات من القداسة والتي تجعل الاقتراب منها تجاوزا لكل الخطوط، حمراءً كانت أو سمراء. ولقد فندنا هذه الخرافة في كتابنا: عقائد الإسلاميين، وبيّنا كيف أن المسيح لن يعود بحال، وأن عودته منافية لأصول الدين ومعارضة لآي القرآن!

إلا أننا نود مناقشة هذه المسألة من زاوية أخرى وهي تصور الإنسان الأعلى في دين الله، والتي قضى عليها القول بهذا الثلاثي الخرافي! فكما رأينا من سيرة النبي الأكرم أنه كان بشرا كباقي البشر، إلا أنه كان حاملا للمنهج، بل إنه صار –لشدة امتثاله له– المنهج، وبذلك نجح في تغيير الإنسان.

والمفترض فيمن يريد الوصول إلى قرب درجته –لن يصل أحدٌ بداهة إلى درجة الرسول– أن يقتفي أثره ويسير على خطاه، إلا أن تصور سوبرمان الخرافة أتى فقضى على هذه البدهية. وهكذا قدم لنا التراث الإسلامي تصورا خرافيا بامتياز، مشابها بل مجاوزا للتصورات الخرافية الوهمية التي تقدمها هوليوود. فرأينا في هذه الخرافة أن هناك من يُسمى المهدي، –ولا مهدي بعد الرسول الأعظم– سيأتي فيصلح حال العالم الإسلامي بين ليلة وضحاها!

ولتذهب سنن الله في خلقه إلى ...، فليس لها وجود مع السيد المهدي! وليصبح السيد المهدي أفضل من الرسول الأعظم وأكرم على الله بمراحل، فلقد قاسى الرسول الأعظم السنين الطوال، وعانى لكي يغير الناس، ثم يأتي هذا المهدي فيغير الله له الناس بين ليلة وضحاها، وهكذا لتذهب سنة رسول الله إلى حيث ذهبت سنن الله في خلقه إلى ...! فليس لهما مع السيد المهدي أي دور!

وبدلا من أن يتبع المسلمون هدي الرسول الأعظم، ويحملوا المنهج، ويجاهدوا ويصبروا ويصابروا من أجله، جلسوا ينتظرون المهدي، فلم الحركة أو السعي، طالما أن الله قضى على البشرية أن تتخلف،[256] حتى يأتي المهدي، فيحارب بالسيف فيصلح حالها!

إن فكرة المهدي هذه فكرة يهودية تسللت إلى التراث الإسلامي، وكان لزاما لها أن تُصبغ بالصبغة الإسلامية. فقديما كان اليهود ينتظرون الإنسان الأعظم "محمد"، إلا أنهم حرفوا نعوته، فجعلوه مقاتلا سفاحا يقتّل أعداء اليهود، وهكذا أصبحت صورة الإنسان الأعظم، ذلك الذي يأتي فيقاتل ويحرر اليهود.

وجاء الرسول وقاتل، إلا أنه لم يقاتل سفكا للدماء أو لتحرير اليهود، وإنما دفاعا عن المنهج والأتباع ونصرة للمستضعفين. فأراد اليهود أن ينزعوا نعت "الإنسان الأعظم" عن الرسول، وينزعوا التصور العقلي السليم للإنسان الأعظم، فقدموا تصورهم عن المسيح المقاتل في صبغة المهدي الإسلامي، ذلك الذي لن يأتي من نسل الرسول!

ولم يقتصر الأمر على السيد المهدي وإنما تعداه إلى المسيح الدجال، ذلك السوبرمان الخرافي الموجود في أربعة أماكن في آن واحد! ذلك الحي الذي لا يموت،

---

[256] يرد المؤيدين لخرافة المهدي ونزول المسيح والدجال، على من يطعن في هذه الروايات استنادا إلى أن الروايات تتحدث عن قتال بالسيوف، والأسلحة في زماننا هذا قد وصلت إلى ما وصلت إليه، فيقولون: لا يوجد ما يمنع أن تصيب البشرية قاطبة كارثة، فتلغي جميع مظاهر الحضارة، فيعود الناس إلى القتال بالسيوف! وهذا تصور عقيم، فحتى على فرض حدوث ذلك فسيظل الإنسان هو الإنسان، بنفس الفكر، ولن يحتاج الأمر إلى أكثر من سنين قلائل حتى يعيد البشر بناء حضارتهم كما كانت، اللهم إلا إذا كانت الكارثة قد أثرت على عقول البشر كذلك، كما نقرأ في بعض روايات الخيال العلمي، وفي هذه الحالة سيُرفع التكليف عن البشر!

إلا في آخر الزمان، تماما مثل مهدي الشيعة! ذلك الذي سيخرج في آخر الزمان فيعيث في الأرض فسادا، بقدرات لم يُعطها الإنسان الأعظم، ليفتن الناس ويبلوهم في دينهم![257]

وتقول الخرافة أن الدجال يخرج فيفسد، فيرسل الله عزوجل له سيدنا عيسى فيقتله! ولنا أن نتساءل: ما دور أو ذنب الإنسان العادي في هذه الملحمة الخرافية؟ أتى له خارق فأفسد، فأُنزل له خارق من السماء فقتله! فليرضى الإنسان من ذلك بدور المشاهد!

وهكذا أضاعت هذه الخرافة تصور الإنسان الأعظم: فبدلا من أن يكون الإنسان الأعظم هو ذلك الذي يُقدم منهج هداية للبشر، أصبح ذلك الذي يأتي فيقاتل ويَقتل! وبدلا من أن يكون الإنسان الأعظم ذلك الذي يتبع سنن الله في كونه، فيغرس بذرة التغيير ويرعاها وينتظر حتى تؤتي ثمارها، ويقدم لذلك عمره وأعمار من بعده، أصبح ذلك الذي يأتي، فيتغير البشر بين ليلة وضحاها لمجرد مجيئه! وبدلا من أن يكون الإنسان الأعظم ذلك الذي يقتل الحيوان الموجود داخل كل إنسان، ويُحيي الإنسان بداخله، وبذلك يَحيى الإنسان ويرتقي، أصبح ذلك الذي يأتي فيقتل كائنا مسخا، أخرجه الله ليعيث فسادا في الأرض، ويلعب دورا أخرقا، لإجبار الناس على الكفر!

إن ما يقوم بهذا الدور هو الحيوان الموجود داخلنا كلنا، والذي أتت كل السوبرمانات، وآخرهم الأعظم، للقضاء عليه، وقدموا لنا المنهج الذي يمكننا من ذلك! إلا أن الخرافة حرّفت نعوت السوبرمان ودوره، وألبستها لآخرين، يعيشون في عوالم الوهم!

---

[257] هذه النقطة وحدها كافية لهدم خرافة الدجال، فيكفي الناس أن يقولوا له عندما يظهر: آمنا بك وأنت الإله وأنت وأنت. ويحصلوا منه على الطعام والشراب وكل ما يحتاجون، وعندما يُقتل يعودون إلى عبادة الله، ولا حرج عليهم، لأنهم دخلوا في باب: "إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان"، وهذا هو التصرف الطبيعي ضد من يريد أن يجبر الإنسان على اعتقاد معين، ولست أدري هل سيصل البله بالناس في آخر الزمان إلى درجة أنهم إما أن يؤمنوا بالرب الأعور! أو لا يرضون به ولا تقوم الأكثرية بالتقية: إظهار خلاف ما تبطن!

وهكذا حُرِّف السوبرمان![258] فلم يعد هو ذلك الذي يبني ويغرس، وإنما أصبح آخرين ... يفسدون ويقتلون. وليست هذه من أدوار السوبرمان في شيء!

سوبرمانات!

بعد أن قدمنا للقارئ قبسة عن السوبرمان الأعظم (ﷺ)، حامل المنهج ومبلغه، نقدم له بعض النماذج من السوبرمانات التي أخرجها هذا المنهج العظيم، الذين نشأوا وتربوا عليه وتفاعلوا معه.

والناظر في تاريخنا الإسلامي يجد أن فيه عددا كبيرا جدا من السوبرمانات، التي غيرت وجه العالم والتاريخ، وأخرجت الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، مهتدين بسيدهم الأعظم محمد بن عبدالله. وهذه السوبرمانات غير مجهولة، وإنما يعرفها القاصي والداني في العالم الإسلامي والعربي والغربي.

إن السوبرمانات التي نتحدث عنها هم العلماء المسلمون، في عصر الفتوة الإسلامية. ولله الحمد فهم كثرة وافرة، تجعل المرأ يزداد إعجابا بمحمد، الذي أخرج للبشرية هذا العدد من الإنسان الأعلى، وتجعل المرء يتوقف حائرا، أياً منهم يختار وأيا يترك، إلا أننا سنذكر للقارئ سريعا بعضا منهم على سبيل المثال لا الحصر: ابن باجه، ابن البطريق، ابن سينا، الشريف الإدريسي، ابن البيطار، الحسن ابن الهيثم، ابن رشد، أبو الريحان البيروني، الخوارزمي، أبو جعفر الطوسي، المجريطي، ابن فارس، الجاحظ، ابن خلدون، ابن النفيس، جابر بن حيان، أبو بكر الرازي. الكندي، إلخ القائمة الطويلة التي تحتاج إلى سجلاتٍ لإحصائها!

---

(258) اكتفينا في حديثنا عن تحريف السوبرمان بالحديث عن التحريف الذي وقع في الدين الإسلامي، وإلا فإن هناك تحريفات أخطر وقعت في الأديان الأخرى، مثل جعل السوبرمان إلها! كما حدث في المسيحية.

والقارئ الكريم في العالم كله يوافقنا في أن لهؤلاء العلماء وأمثالهم الفضل الكبير، إلا أننا نوضح لم قلنا أن عامة[259] علماء المسلمين يستحقون أن يكونوا سوبرمانات: الناظر في حال هؤلاء العلماء يجد أنهم يختلفون عن العلماء في أي عصر وفي أي مكان آخر، وسبب ذلك الاختلاف راجع إلى الإعداد الديني العلمي الأولي لكل منهم. فلقد كان المألوف في هذا الزمان أن يبدأ المتعلم بتعلم الدين من قرآن وحديث وعلوم دينية مختلفة، ثم يبدأ بعد ذلك بدراسة العلوم الطبيعية والفكرية الأخرى، –مثل الدراسة حاليا في الأزهر[260]– مدفوعا بما وجده من حثٍ على العلم ومن فضل للعلماء في هذا الدين. وبهذا حدث الامتزاج بين العلم والدين في عقول وقلوب هؤلاء، فأُخرج لنا هؤلاء العلماء الموسوعيين الشرفاء.

فرأينا الواحد منهم يبرز في عديد من العلوم في آن واحد، بلا تعارض أو تضداد، وهذه الظاهرة مما تفردت بها الحضارة الإسلامية، وهي كون علمائها علماء بالدين وبالعلوم الطبيعية في آن واحد، على عكس باقي الحضارات! التي وجدنا فيها قطيعة تامة بين العلماء الطبيعين ورجال الدين، الذين قد وصل الحال بهم إلى اضطهاد العلماء ومطاردتهم.

[259] عامة العلماء الذين نتحدث عنهم هم من أخذوا بمبدأ *الشك* القرآني في البحث، ومن الشك وصلوا إلى اليقين، هم الذين أسقطوا القرآن على الواقع –عملية التأويل–، هم الذين اتبعوا الأمر القرآني بالنظر في الكون. ومما يؤسف له أننا وجدنا بجوار هؤلاء ذلك التيار الأثري، الذي اعتمد أول ما اعتمد على الحفظ والتلقين والتسليم بدون تفكير، وفصل النص الديني عن الواقع –خاصة السنة–، لذا لم يخرج لنا هذا التيار علماء طبيعين وإنما أخرج مجموعة من الحفاظ أو *الفقهاء*! لأنه عمل على تضييق نطاق عمل العقل، وحصره في زوايا ضيقة لا يتعداها! والناظر يجد أن عامة علماء المسلمين البارزين كانوا بعيدين كل البعد عن التيار الأثري، بل إن ذلك التيار كان غالبا ما يرميهم بالضلال، لرفضهم –عن نظر واجتهاد– قبول الفرعيات التي قال بها الأثريون، فإذا نحن أخذنا تخصصنا كمثال، فإنا نجد أن عامة علماء *اللغة* البارزين الذين أظهروا البناء العظيم للغة كانوا معتزلة.

[260] تعد الدراسة في الأزهر الشريف مصحوبة بالتربية السليمة، من الخطوات الرئيسة في إنتاج إنسان أعلى في زماننا هذا، حيث يجتمع في الأزهر دراسة الدين والعلوم الطبيعية، يضاف إلى ذلك أن الطالب يتلقى عددا كبيرا من العلوم تساهم في توسيع أفقه ومداركه، كما تساعده على فهم الواقع والحياة، على عكس من درس خارج الأزهر، فلم يتلق إلا عددا من المواد الدراسية، يُعد على أصابع اليد، –والعجيب أنهم يشتكون من كثرتها وثقلها!– مواد نظرية لا مقابل لها في الواقع غالبا، لا تفيد المتعلم في حياته، ينساها بمجرد إتمامها، فأُخرج لنا أجيال كاملة من غير العارفين بالدين أو الواقع! لذا يحق لي أن أفتخر بكوني أزهري، كما يحق لي أن أقول: إن من لم يدرس في الأزهر .. لم يتعلم!

لذا وجدنا الواحد منهم يكتب في الدين وفي الفلسفة وفي الطب وفي الفلك وفي الشعر وفي الموسيقى، وفي فنون مختلفة الأطياف. والسبب في ظهور هؤلاء العلماء الموسوعيين راجع في المقام الأول إلى النظرة الشمولية التي وجدوها في المنهج، لا أن طبيعة العلوم في ذلك الوقت كانت تُيسر لهم ذلك، فقد كان من الممكن أن يتبحر الواحد منهم في علم من العلوم، ويظل فيه طيلة عمره بدون أن يصل إلى شواطئه، إلا أن المنهج هو من أثر فيهم هذا التأثير.

فكما قلنا من قبل فإن المنهج ينظر إلى الإنسان على أنه وحدة واحدة متكاملة، جسد وعقل وروح، وهو في عين الوقت فرد في مجتمع، وليس في جزيرة منعزلة، عليه أن يتعامل معهم بالطريقة المثلى.

وهذا ما كان من هؤلاء العلماء، أنهم خاضوا في شتى بحار العلوم، دينية كانت أو طبيعية، وبرزوا فيها، وبجانب ذلك كان نموذجا وقدوة في المجال الأخلاقي، فلم نسمع لهم عن كبوات أو انحرافات أخلاقية، وإنما كانوا النموذج المثالي في النزاهة والعفة والشرف، وهذا بفضل التربية الدينية الأولى التي تلقوها، والتي امتزجت بالعلم الطبيعي، فرَقت نفوسهم وعلت على هذه التفاهات والصراعات الدنيوية الحقيرة. على عكس كبار علماء الغرب، الذين وجدنا فيهم عددا لا بأس به يتأرجح بين الدعر والجنون، فلم يفلح العلم لوحده في أنسنتهم! ف: نيوتن ذلك الذي صنفه بعضهم سابقا المسيح في التأثير على البشرية! كان مستغلا لمنصبه، مدبرا لعديد من المكائد لأعدائه، وجاليلي كان داعرا وله أولاد من الحرام أهملهم وتركهم!

فإذا انتقلنا إلى الفلاسفة الغربيين فحدث ولا حرج! فستجد بينهم من جُن في آخر حياته، ومنهم من كان يتردد على بيوت الدعارة –نيتشه نموذجا!– وكثير منهم كان ينادي بالأفكار ويتصرف على خلافها في أرض الواقع، لا أنه فقط يكتفي بعدم تنفيذها، ناهيك عن السرقات العلمية، وعن التزوير من أجل إثبات نظريات علمية وهمية –وما تزويرات الملاحدة من أجل إثبات نظرية التطور ببعيدة–، ناهيك عن

التنكر لدور علماء المسلمين، واعتبارهم مجرد قنطرة نقلت الفكر اليوناني القديم –الأسطوري الخرافي!– إلى أوروبا حديثا، ناهيك عن استخدام الإنسان كحيوان تجارب،[261] ... إلخ!

فيمكننا أن نصف هؤلاء الغربيين أنهم علماء في مجالاتهم، ولكن لا يمكننا أن ننعتهم بأنهم سوبرمانات، لأنهم كانوا منحدرين وبجدارة في المجال الإنساني، لعدم لعب الدين دورا في حياتهم، ومن أمثال هؤلاء رأينا الوجه القبيح للعلم، ذلك الوجه المدمر، الذي قد يقضي على مجتمعات كاملة،[262] ذلك العلم الذي لا أخلاق فيه! وعلى النقيض من ذلك كلية كان علمائنا، الذين أدبهم الدين ورقاهم العلم، فكانوا صورة صغرى للسوبرمان الأعظم، واستحقوا أن يكونوا خلفا له وأن ينالوا ميراثه، والذي قال فيه: "وإن العلماء ورثة الأنبياء. وإن الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما وَرَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر."

هذه هي صورة الإنسان الأعلى الذي يسعى المنهج لإخراجه، إنسان يُؤدب بالدين في أول حياته، إنسان يستمر في طلب العلم طيلة حياته، إنسان يعرف أن العلم أمانة فيؤديها كما ينبغي، إنسان يرقيه العلم والإيمان، فيشعر بعلوه على من حوله فيتحرك –كما تحرك السوبرمان الأعظم القدوة– من أجل ترقيتهم إلى ما وصل إليه، إنسان يعرف أن مسيرة البشرية في تقدم، فيجتهد أن يكون سببا في ذلك، فإن لم يكن على يده فإنه يترك غيره يفعله، إنسان لا ينسيه علمه أنه إنسان، يحيى في مجتمع له عليه حقوق كثر، فلا ينسى أدواره الإنسانية فيه.

[261] الإنسان الأفريقي بداهة أو الأسيوي، لا الأوروبي العظيم!

[262] هاجس القضاء على البشرية كلها –الذي يكرره الغرب كثيرا في أفلامه!– بسبب حرب تندلع أو بسبب تجربة علمية مختلة أو لأي سبب آخر– لا يخطر ببال المسلم بحال، فهو يعلم أن العالم سينتهي عند قيام الساعة، والتي ستأتي بغتة في ظل حياة عادية متقدمة علميا. لذا فإن أقصى خطر ممكن هو إبادة مجتمعات كاملة فقط، مثلما فعل مجرمو الحرب الأمريكيون في اليابان، والذين حاكموا القادة الألمان على أنهم مجرمو حرب!

مجتمع السوبرمانات

قد يرى القارئ أن الاستدلال بالعلماء على السوبرمانات لا يقدم التدليل الكافي على صلاحية المنهج لإخراج سوبرمان، فمن الممكن القول أن هذه الأعداد الكبيرة، هي حالات شاذة، لأنها لا تمثل على الرغم من كثرتها إلا نسبة لا تكاد تُذكر في تاريخ البشر، كما يمكن القول أن هذا راجع إلى علو الهمة عند هؤلاء الأفراد أو إلى أي أسباب أخرى! ويطلب أدلة أقوى على صلاحية المنهج.

ولن نبخل على القارئ وسنقدم له الدليل القاطع على صلاحية المنهج، دليلا لا جدال فيه، لأنه لا يمكن فصله عن المنهج بحال. الدليل الذي سنقدمه للقارئ الكريم هو مجتمع كامل، خرج من عباءة المنهج متفاعلا معه، مجتمع لم تر البشرية مثله، مجتمع يمكن وصفه بالنموذجي، مجتمع حلم به الفلاسفة كثيرا، وماتوا دون أن يروه، مجتمع اجتمعت فيه سمات المدينة الفاضلة، بدون أن يكون أهله من المنعمين المخنثين، وإنما كانوا أشداء البأس رقاق القلوب!

قد ينصرف ذهن القارئ المسلم إلى أننا نتحدث عن مجتمع الصحابة الكرام، أولئك النفر الذين تربوا على يد السوبرمان الأعظم، والذين سُقوا مبادئه، وتأثروا أيما تأثر بالرجل الإنسان .. محمد بن عبدالله!

إلا أننا سنخيب ظن القارئ ولن نعرض بتاتا للصحابة لأسباب عدة، منها: أنهم جيل عاش مع السوبرمان الأعظم ورأه، بخلاف الأجيال الأخرى التي استقت مبادئها من المنهج بدون معايشة محمد، يضاف إلى ذلك أنهم لم ينشأوا في ظلال المنهج، وإنما نشأوا في بيئة جاهلية ثم تحولوا إلى الإسلام، ومن المنتظر من المتحول من منهج إلى منهج أن يكون صلبا حازما جادا في تطبيقه، بخلاف من ينشأ فيه فيعرض له عوارض التكاسل والميوعة، يضاف إلى ذلك أن هذا المجتمع –لظروفه– لم يخل من النفاق، فوجد فيه المنافقون الذين لم يتأثروا بالمنهج فاستمر في المجتمع الكذب والخيانة ... وبعض المثالب الأخرى، إلا أن الأعم الغالب كان لجانب الصلاح، وحتى لا يقال أننا

نتعصب لأفراد معينين، ولأسباب عدة لن نذكر مجتمع الصحابة، وإنما سنذكر مجتمعا آخر، مثّل صورة صغرى لمجتمع السوبرمانات! إلا أن هذا المجتمع أُبيد، فلم يبق له باقية. هذا المجتمع الذي نتحدث عنه ونقدمه كنموذج لمجتمع السوبرمانات هو: الخوارج!

قد يعجب بعض القارئين من هذا الاختيار، وقد يضيق آخرون كُثر، لذلك سنوضح لم اخترنا الخوارج، كنموذج لمجتمع السوبرمانات، وكيف أنهم هم المجتمع الوحيد الذي حاز كل خصال الإنسانية الراقية، وكانوا أقرب ما يكون إلى تحقيق الحلم بوجود المدينة الفاضلة، حلم الفلاسفة!

الخوارج اسم ارتبط في أذهان كثير من القارئين بالعنف وبالدموية وبالتمرد، فإذا أُطلق الاسم تصور القارئ مجموعة من الشعث الغبر غلاظ القلوب، يحملون سيوفهم ويقطعون الطريق، ويغيرون على كل رائح وغاد، فيقتلون هذا ويأسرون ذاك! وهذا التصور تصور غير دقيق تماما، فالخوارج وإن صدر عنهم بعض التجاوزات، فإن مثلها أو أضعافها صدر عن مخالفيهم.

وقبل أن نبدأ حديثنا عن الخوارج لا بد أن نُذكر بنقطة رئيس، وهي أن الخوارج لم يكتبوا تاريخهم، وإنما وصل إلينا عن طريق مخالفيهم من سنة وشيعة، لذا فيحق لنا أن نجزم بصدق كل منقبة لهم، فلن يختلق العدو المناقب لعدوه، ويحق لنا كذلك أن نتعامل مع الروايات الطاعنة فيهم من باب الفهم في السياق، لا أن ننزعها من الجو العام الذي وجدت فيه، ثم نصم بها الخوارج، متعجبين من أفعالهم:

على الرغم من الموقف المتشدد تجاه الخوارج ورميهم بالضلال، وأنهم كلاب أهل النار، إلا أن الجميع يقر للخوارج بنعوت ما وجدت في غيرهم وتميزوا بها، إلا أنهم أخطأوا المسلك، لذلك سمعنا الكلمة الشهيرة للإمام علي رضي الله عنه: "لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه". فما هذه النعوت والسمات التي تميز بها الخوارج؟

الناظر في حال الخوارج يجد أنهم تفردوا بعموم أخلاق الرجولة فيهم، فلم تكن هذه الأخلاق حالات فردية أو ممثلة بنسبة في المجتمع، وإنما كانت هي القاعدة العامة، ولم نسمع عن حالات استثنائية![263] وهذا هو أول موطن للتصنيف كمجتمع للسوبرمانات، وهو التمسك الجماعي بالمنهج الذي تقوم عليه الأمة، وهو ما لم نجده في أي مجتمع آخر. ونعرض للقارئ طرفا من أخلاق الخوارج، التي اجتمعت في الواحد منهم، كما كانت في الجماعة، لذا فعندما نتحدث عن أي نعت للخوارج، فعلى القارئ أن يستحضر في نفسه أن هذا النعت أو الخلق هو خلق الجماعة كلها، لا أفراد منهم كما هو واقع باقي مجتمعات البشر!

من أبرز ما تميز به الخوارج هو كثرة العبادة والزهد والورع، فلقد اشتهروا ب "القُراء"، وذلك لكثرة قراءتهم للقرآن والإقبال على تدبره. وهذه هي الخطوة الأولى في بناء الإنسان السوبرمان، التفاعل الفردي مع القرآن بجانب التلقين، ويختلف زهد الخوارج عن زهد الصوفية، فلم يكونوا أولئك النفر المعتزل الناس، المقبل على الذكر، وإنما كانوا أكثر من تفاعلَ مع أوامر الشرع في المجتمع، وطبق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التاريخ الإنساني.

ومن أبرز ما تميز به الخوارج كذلك هو الصدق، فلم يكن الخوارج يكذبون أبدا، وبهذا شاهدت البشرية ولأول مرة مجتمعاً لا كذب فيه![264] وقبل أن يحققوا الصدق مع الغير في القول حققوه مع النفس في الفعل، فلم يكن أحدهم يقول ما لا يفعل، فلا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وإنما كانوا سراعا إلى التطبيق! يطبقون مبادئهم حتى لو اضطرهم ذلك إلى التضحية بأنفسهم وإلى أن يبادوا، فالمبادئ حقة ولا تنازل

[263] هذا الالتزام العجيب الذي رأيناه للخوارج راجع إلى تفسيرهم للإيمان، فهو عند عامة المسلمين الاعتقاد القلبي، والذي يُصاحب بالعمل الصالح، أما الخوارج فرأوا أن العمل من الإيمان، فمن لا يعمل وفق اعتقاده، فهو يخالفه، وبالتالي فهو كمن لا اعتقاد له. لذا رأينا أن الخوارج يقولون أن المعاصي كلها كبائر تخرج صاحبها من الإيمان وتدخله في الكفر! لذلك لم يقصر الخوارج أو يتهاونوا!

[264] لذلك كانت الخوارج هي الفرقة الوحيدة التي لم تضع أحاديث على الرسول الكريم، على عكس باقي الفرق التي وضعت من الأحاديث ما لا يحصى على الرسول الكريم تأييدا لمواقفها أو تنديدا بأعدائها!

عنها، حتى أنهم سموا أنفسهم "الشراة"، إشارة إلى قوله تعالى: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة". ولتطرفهم في التطبيق جعل أحد المستشرقين مبدأ الخوارج في الحركة هو: "لتكن عدالة ولو فنيت الدنيا بأسرها!"، فالأهم هو المبادئ.

ولا أعتقد أن مجتمعا تحرك لتطبيق مبادئه بمثل ما تحرك الخوارج، فالمنهج قبل الانتماء الطائفي أو العرقي، وعلى الرغم من أن العصبية القبلية كانت لا تزال مسيطرة على كثير من العرب بعد دخولهم الإسلام، إلا أن الخوارج نجحوا بجدارة في إماتة هذه النعرة القومية، والتي لم تنجح أي أمة في التاريخ حتى يومنا هذا في إماتتها، فلم نر في الغرب، الذي يتشدق بالمبادئ، من طبقها على حساب نفسه وقومه، إلا حالات شاذة، أما مع هؤلاء فكانت الأصل!

ولكي يكون الإنسان صادقا في أقواله وأفعاله، لا بد أن يتوفر لديه خلق الشجاعة، وهذا ما ذاع به صيت الخوارج، فلقد كانوا شجعانا في كل المواقف الحياتية[265] وفي القتال، لا يلومهم في الحق لومة لائم، ونذكر للقارئ نموذجا واحدا خالدا لهذه الشجاعة العجيبة في القتال: أرسل ابن زياد، أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين من الرجال، لقتال أبي بلال مرداس بن حدير، الذي أعلن أنه لن يخرج على الناس بالسلاح، فلما بدأوهم بالقتال شد الخوارج على أسلم وأصحابة شدة رجل واحد فهزموهم!

تصور عزيزي القارئ أربعين يكرون على ألفين فيفرون منهم! ويعيد ابن زياد الكرة، فيرسل لهم بعد سنتين جيشا من أربعة آلاف مقاتل تحت قيادة عباد بن علقمة، فيلتقيان يوم الجمعة قبل الصلاة، فيتهادن الفريقان إلى ما بعد الصلاة، فينهي عباد

[265] يُنسب إلى الخوارج اغتيال الإمام علي رضي الله عنه، بواسطة عبد الرحمن بن ملجم، إلا أن هذه الطريقة لا تتفق مع طريقة الخوارج في المواجهة، ولم نرها تكررت في أي موقف آخر، فهذا دافع كبير للشك في هذه الروايات. يضاف إلى ذلك أن هناك من يرى أن من خطط لاغتيال الإمام علي هو الأشعث بن قيس الكِندي، أحد قواد جيشه. ومن أراد الاستزادة حول هذه النقطة، يمكنه الرجوع إلى كتابنا "عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام".

الصلاة مسرعا ويكر بجيشه على مرداس وأصحابه، فيقتلهم بين راكع وساجد! ولك أن تتصور عزيزي القارئ ما الذي دفع قائد جيش الأربعة آلاف إلى هذا الغدر بالأربعين رجلا، كان من الأولى بالآخرين أن يفعلوا!

ولنا أن نسأل: أين ذلك الجيش الذي صمد لمائة ضعف في التاريخ كله؟!

أما شجاعتهم في مواقفهم فكثيرة، فلم ينافقوا أميرا أو قائدا، وإنما كان الحق يجري على ألسنتهم بلا توقف ولا انقطاع. ولأن الخوارج ممن تربوا على القرآن ونشأوا معه، اكتسبوا فصاحة وبلاغة وبيانا في القول، وقدرة على الإقناع وحجة عند الجدال، لذلك كان الأعداء يخشون أن يسمع أتباعهم كلام الخوارج، لما فيه من نفاذ إلى القلوب، لحلاوة منطقهم ولاستشهادهم الدائم بآي الله على آرائهم وأفعالهم!

ويمكن نعت الخوارج بأنهم المربون الأُول في العالم، فلقد نجحوا ولفترات طويلة في نقل مبادئهم وأخلاقهم إلى أولادهم، فكان ينشأ الفتى فيهم، على ما كان عوده أبوه! فلم نر اختلافا بين الأجيال اللاحقة والسابقة، وإنما رأينا تمسكا وإصرارا والتزاما عجيبا بالمبادئ، وذلك للغرس الذي غُرس بنجاح باهر في بدء التكوين، [266] فكان أصلب من الحجر.

وبخلاف نجاحهم في نقل مبادئهم إلى أولادهم كما هي، كانت لهم طرقهم التربوية في اكساب الرجولة، والتي ربوا عليها نشأهم، وبذلك وفروا عليهم الكثير من الجهد في اكتساب هذه الأخلاق والملَكات، ووجهوهم إلى التطبيق مباشرة. ونذكر للقارئ نموذجا على التربية الرجولية العقلية المنطقية، التي ربى الخوارج عليها أولادهم: "جيء برجل منهم إلى عبدالملك بن مروان، لتُضرب عنقه، فدخل على عبدالملك ابن له صغير يبكي، لأن المعلم ضربه، فيهمُّ عبد الملك بالمعلم، فيقول له الخارجي: دعوه

---

[266] لم تنقل لنا روايات *الخصوم* طرق التربية عند الخوارج، والتي نجحوا بها في المحافظة على المنهج والمبادئ، إلا أن أثرها بدى جليا في أجيال الخوارج المتتالية. إلا أنه يمكن للقارئ الكريم أن يرى نموذجا رائعا ابتدعته فرقة الإباضية –القريبة من الخوارج– وهو "نظام العزابة"، والتي نجحت به في المحافظة على أحكام الشريعة، وإعمالها بفعالية في المجتمع. ونترك للقارئ مسألة البحث عن "نظام العزابة" بنفسه، ليعرف كيف كان، وإلى أي حد كان فعالا!

يبكِ فإنه أفتح لجرمه، وأصح لبصره، وأذهب لصوته، وأدعى لعبرته إذا دعيت يوم القيامة".

عجيب هو فقه هذا الرجل لأصول التربية، ومناهجها القويمة، التي تخرج الرجال لا المخنثين، ويزداد الإعجاب إذا عرفنا أن هذا الرجل يقدم هذا النصح قبل أن تُضرب عنقه!

وأعتقد أن فيما ذكرنا كفاية ليعرف القارئ أي منزلة وصل هؤلاء الخوارج في تربية وترقية أنفسهم، ويجزم أنهم يستحقون الوصف بمجتمع السوبرمانات. ويا حسرة على نيتشه الذي مات وما قرأ عن الخوارج، ولو عرَف طرفا من أخبارهم لما تردد في تقديمهم للعالم كنماذج للسوبرمانات!

ولا يقتصر تفرد الخوارج على الأخلاق الرجولية الفردية/المجتمعية، وإنما يتجاوزه إلى البناء المجتمعي كله، فلقد قدم الخوارج نماذج لم يصل الغرب إليها إلا في زماننا هذا، ولا تزال مجتمعاتنا بعيدة عنها كل البعد! ونذكر للقارئ طرفا للعبقرية الخارجية – المأخوذة بداهة من القرآن– في البناء المجتعمي:

الخوارج وبلا فخر هم أول من طبق مبدأ الشورى بعد الرسول والصحابة، تطبيقا كاملا، فكانوا يختارون لخلافتهم من تبرز فيه سمات القيادة، من تقوى وشجاعة وحكمة، بغض النظر عن قبيلته أو جنسه، ولا مانع من تولية القيادة إلى مجلس للحكم وليس لحاكم واحد، فإذا لم يسر الحاكم أو المجلس فيهم بالسيرة الحسنة أو يؤد المنتظر منه خلعوه ونصبوا غيره.

ويجمل الأستاذ أحمد سليمان معروف النظرية السياسية للخوارج، فيقول: "ويمكن الإشارة إلى أهم مبادئهم الديمقراطية فيما يأتي:

1– الإمامة ليست حقا مفروضا، ويمكن تحميل مهمات الإمام إلى عدد الأكفاء، (...)

2- إذا كان لا بد من إمام أو خليفة، فشرط اختياره هو: الكفاءة الإسلامية بأشمل معاني هذه الكلمة، (...)

3- أما طريق الاختيار، فالشورى الإسلامية.

4- رفض (الأئمة من قريش) أو كل ما في معناه من دعوات أرستقراطية أو عصبية، وكل ما ينافي روح الإسلام وعدالته، وجواز أن يكون الخليفة عربيا أو غير عربي، أو عبدا أسود أو امرأة، إذا اجتمعت فيه شروط الإمامة.

5- اعتبار الوراثة في الحكم أو الوصية أو الأسر الحاكمة، دعوات مشبوهة ودخيلة على الإسلام.

6- يمكن عزل الإمام أو قتله، إذا تخلى عن الأمانة، أو فرّط بحقوق المسلمين، أو أخلّ بأيٍّ من واجباته[267]."اهـ

وأجزم أن القارئ لاحظ الرقي السياسي عند الخوارج، فلم يدخلوا في تلك الصراعات العجيبة حول الإمامة، وهل هي ركن من الدين، كما قالت الشيعة، ولم يقبلوا بحصرها في قبيلة، كما قبل من استند إلى رواية "الأئمة في قريش"، والتي لا تصح بحال،[268] ورأوا أن الغاية من الإمامة هو إدارة أمور الرعية، فلا مانع من أن تكون الإدارة عبر مجلس للشورى. وسواء كان الحاكم مجلسا أو فردا -رجلا كان أو امرأة، عربي أو غير عربي- فإنه قابل للعزل، لا أن يظل طيلة حياته. وطبق الخوارج هذه المبادئ بلا تعصب، فمن كان يُعزل كان ينضم للعمل تحت لواء القائد الجديد! فأين نحن من هذه المبادئ الإسلامية الراقية؟!

---

(267) أحمد سليمان معروف، قراءة جديدة في مواقف الخوارج وفكرهم وأدبهم، ص.126،125.

(268) أكبر دليل على اختلاق هذه الرواية هو أنه لم يستدل أحد من المهاجرين بها في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول، عند الجدال بين المهاجرين والأنصار حول الأحقية بالخلافة. ولقد قام العلامة محمد عمراني باستقصاءٍ لطرق هذه الرواية، وأثبت عدم صحتها، ويمكن متابعة ذلك في كتابه: أحاديث في السياسة لا تصح: الأئمة من قريش، على موقعه: الحوار المحضر www.alhiwar.org

وكما رأيت عزيزي القارئ فلقد حقق الخوارج تفردا في السمات الرجولية، ورقيا عجيبا في البناء المجتمعي لا يزال يحلم به كل البشر. وكان من الطبيعي أن يجلب عليهم هذا التفرد وآرائهم الجريئة معاداة باقي الطوائف والفرق الإسلامية التي لا تقول بما يقولون به. ولأنهم شكلوا خطرا عظيما ومصدر قلق دائم للسلاطين، عملوا على تشويه سيرتهم من ناحية، ومن ناحية أخرى عملوا على إبادتهم، حتى لا يبقى ذلك النموذج الناصع، الذي يظهر ضعف وهوان النماذج الأخرى، الموجودة على الساحة الإسلامية!

ويجمل الأستاذ أحمد سليمان أسباب المعاداة هذه، فيقول:

1- الخروج على الإمام الجائر، وهو أحد الأسس التي قام عليها المذهب الخارجي وهو حق مفروض وواجب مطلوب الأداء، (...)

2- إن الفكر الثوري الانقلابي الذي حمله الخوارج، وحاولوا تحقيقه وتطبيقه كان ناقوس الخطر الأكبر الذي ما فتئ رنينه يقلق الخلفاء ويقض مضاجعهم.

3- نظرية الخوارج الجمهورية في الحكم، واستماتتهم من أجل تحقيقها في الواقع العربي والإسلامي، كانت بمثابة الإنذار المرعب والدائم لأنظمة الحكم الملكية الوراثية، التي عرفها العالم الإسلامي طيلة قرون كثيرة، هذه النظرية التي تهدد الأساس الذي تقوم عليه أنظمة الحكم وتنذره بالانهيار، وتطارده بشبح الشورى.

4- إن صراحة الخوارج وجرأتهم في قول الحق، كانت تسبب إحراجات وإرباكات للخلفاء والأمراء الذين عاصروهم، (...).[269] "اهـ

وهكذا حورب الخوارج حتى أبيدوا، وكان يمكنهم أن يساوموا على مواقفهم، إلا أنهم لم يعرفوا ما يسمى بالحلول الوسط، فكأنهم تمثلوا قول أبي فراس الحمداني، قبل أن يقله:

نحن قوم لا توسط بيننا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر

[269] المرجع السابق، 160، 161.

فاستمروا على مبادئهم حتى ذهبوا! ولكن هذه هي الضريبة، ضريبة أن تكون سوبرمان.[270]

وفي نهاية المطاف تبقى كلمة: لا يعني ذكرنا للخوارج كنماذج للسوبرمانات أننا نقبل كل الفكر الخارجي ونواقفهم عليهم، فهناك بعض النقاط التي نخالفهم فيها، ونرى أنهم أخطأوا فيها، فالخوارج بشر ولزاما أن يصدر منهم الخطأ، ومن ذلك أنهم أعطوا لأنفسهم الحق ليكونوا قضاة وجلادين، وهذا ما لا يُقبل بحال.

إلا أننا لا نقبل كذلك الظلم الذي وقع على هذه الفرقة، فلقد كان لها الكثير من التفردات التي لم يصل إليها أي مجتمع بشري، وكان لتطرفهم هذا ظروفه السياسية المجتمعية، والذي يجب أن نقرأه في سياقها، لذا فإنا ندعو إلى قراءة جديدة لتاريخ الخوارج وإنزالهم منازلهم. لما حققوه من الدرجات العُلى.

في ترقية النفس ومجاهدتها، وكذلك الرقي في النظرية السياسية، أما التقتيل والتكفير[271] **فلا نقبله بحال.**

---

[270] هناك الكثير من الانتقادات التي وجهت إلى الخوارج، مثل البساطة التي كانت تسيطر على حياتهم، إلا أن هذا راجع إلى الظروف السياسية التي كانوا فيها، فلقد كانوا محاربين من كل القوى الموجودة على الساحة، فلم تتح لهم الإمكانية لتأسيس دولة مستقرة، لذا فكان من المنطقي أن يكون الشاغل الأكبر هو المحافظة على المذهب وعلى النفس! وعندما سنحت الفرصة لفرقة تقاربهم في المبادئ، وهي الإباضية، لتأسيس الدولة الإسلامية، رأينا دولة إسلامية نموذجية حقة، *دولة شورية* عظيمة، تمتع فيها كل أتباعها بالحرية المذهبية، وهذه الدولة هي الدولة الرستمية، والتي أُنشأت في الجزائر في عام 160هـ، واستمرت قرابة المائة وخمسين عاما.

[271] لم يكن التكفير مما تفرد به الخوارج في ذلك العصر، وإنما كان قول كل الطوائف، فكان أهل السنة يكفرون الشيعة والخوارج، والشيعة يكفرون أهل السنة والخوارج، والفارق أن السنة والشيعة استمروا إلى زماننا هذا، ووُجد من علمائهم من يقول أن تكفير الأسلاف لم يكن بمعنى الكفر المخرج من الملة، وإنما كفر دون كفر.

السوبرمان الكسير!

يستحق هذا الصنف أن يُذكر ضمن أصناف السوبرمانات، فهو وإن كان كسيرا، إلا أنه سوبرمان يمثل النقيض التام للصنف السابق، فهو سوبرمان ومكسور!

ولا يسعى المنهج بداهة لإخراج سوبرمانات كسيرة! وإنما أعد العدة لإخراج سوبرمانات فاعلة، غير أنه لا بد أن نعي جيدا أن عملية إعداد السوبرمان عملية متبادلة بين الفرد والمنهج، فهي ليست عملية غسيل دماغ، كما نرى في أفلام الخبال العلمي، يتغير بعدها الإنسان تماما، وإنما هي جهاد طويل للنفس بالمنهج، هي محاولة لترويض ذلك الحيوان الرابض في الإنسان، وإخضاعه لسلطان الإنسان، مع المحافظة على منابع القوة لدى الإنسان!

وقد يحدث أن يخطأ الإنسان في أثناء عملية الترويض، فيقضي على الحيوان تماما! وليس هذا مطلوبا، فالحيوان من أقوى المحركات للإنسان. وهنا يرى الإنسان الدنيا كما هي، يراها بعينه وقلبه وليس بشهواته، بعد أن يكون ذلك العالم الآخر، عالم المثاليات، عالم الحقيقة الناصعة، فلا يرى فيها ما يستحق السعي، فيخمل عن الحركة ويكتفي بنفسه. وهناك من لا يقضي على الحيوان بداخله تماما، إلا أنه في أثناء عملية ترقيته لنفسه، قد يخمل عنده كثيرٌ من المشاعر، فيصاب بدرجة من الهدوء، والذي قد يتحول إلى برود أو تبلد تجاه الأمور الدنيوية!

أعتقد أن القارئ قد أدرك أننا نتحدث في هذا العنصر عن السادة الصوفية، وعن المجاهدات التي يبذلونها من أجل ترقية أنفسهم! والسادة الصوفية هم النموذج المتطرف في التهذيب، ولهم في ذلك صولات وجولات، قد تصل إلى حد التعذيب! ولزاما أن تؤخذ أقوالهم في التهذيب بعين الاعتبار، لما لهم من دراية بمكنونات الأنفس ولما وصلوا إليه من درجات في التهذيب.

والسادة الصوفية وإن انطلقوا من المنطلق السليم في تربية النفس وتهذيبها؛ من خشونة وتقليل حاجات، والاقتناع بأن الناس يولدون أغنياء فيبحثون عن الفقر! إلا أنهم تطرفوا فقللوا الحاجات إلى أقصى درجة ممكنة، وهذا ليس مطلوبا ولا مرغوبا، فتحقيق القوة يلزم التزود والأخذ من المنابع بل والتحكم فيها!

ونحن إذ نتحدث عن الصوفية، فإنا نقصد أولئك النفر الذين اتبعوا المنهج وتفاعلوا معه، فكان منطلقهم منه، ساروا على خطى الحبيب، لا أولئك العامة الذين أنشأوا لأنفسهم مناهج، ما أنزل الله بها من سلطان، وأوراد وأذكار لا تقدم ولا تؤخر.

ويرفض الصوفية أن يُنعتوا بالانعزال عن الدنيا والانشغال بالتقرب من الله وبكثرة الذكر، ويندون بمن يفعل هذا ويُنسب إليهم، ويقولون أن تصوفهم هو كمال في العبادة، وكمال في الطاعة، وكمال في العبودية. هو محبة الله وعمل على رضاه، وأمل في نجواه، هو أنشودة يشترك فيها القلب والروح والحس والجوارح، أنشودة تسبح بحمد الله، لا تفتر ولا تهدأ، لأن لحنها دائم الحياة في القلب، دائم الحياة في الروح، دائم الحياة في الإدراك والحس والجوارح، أنشودة تحيل الكون بأسره إلى آية ربانية، يلمسها القلب كما تراها العين وتسمعها الأذن، كما تدركها الروح، فإذا بكل شيء محراب، وإذا بكل شيءٍ مصلى. وإذا بالصوفي لا يبرح المحراب ولا يفارق المصلى، أينما توجه بوجهه وسبح بفكره. إنه دائم مع الله.

ونحن وإن كنا نتفق معهم في جمال حياة الصوفي وتميزها، إلا أننا نجزم بوجود "الجذب"، فما من صوفي سار على الدرب إلا وشعر بالجذب! شعر بالرغبة في الاستمرار على الذكر والذكر والذكر! شعر بالرغبة في العيش في ذلك العالم المثالي، الذي وجده القرآن، شعر بالميل والشوق إلى الدار الآخرة، لذا فإنه يشعر ببعض الغربة في الدنيا ويجد نفسه في المجالس .. مجالس الذكر!

كما نجزم بحصول الكسر، فالصوفية أناس أنقياء القلوب، محبون لله، ومن فرط حبهم لله أحبوا خلق الله كله، فامتلأ قلبهم بالحب، ولم يعد هناك مكان للبغض أو للقسوة. وهنا يكمن الخطر، فالإنسان المثالي مظهر جميل، إلا أنه مُضيَّع.

لذا فلا بد من وجود القوة في ذلك القلب، التي تمكن من القسوة إذا اقتضى الأمر، وأعتقد أن السادة الصوفية افتقدوا قوة القسوة، وإن كان لديهم أصناف أخرى من القوى .. تكفيهم وتجذب إليهم، فمنها قوة التحمل، فلدى الصوفية قدرة عجيبة على تحمل الآخرين، ومهادنتهم ومجاراتهم، كما أن لهم قدرة شديدة على الصبر، وهم جد شجعاء، وهذا لزهدهم في الدنيا.

لهذا كله استحق الصوفية أن يكونوا سوبرمانات، لأنهم قضوا على الحيوان ورقّوا أنفسهم ويسعون لترقية غيرهم .. بالحب والإيمان، وتملكوا أصنافا عدة من القُوى، إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق التوازن المرجو، فأضاعوا القسوة المطلوبة من قلوبهم، كما مالوا للبعد عن الدنيا ورغبوا في الذكر!

لذا فهم يستحقون لسعيهم ولنجاحهم السوبرمانية، ولطغيان الحب صاروا كَسرى!

الخاتمة

كم هي يسيرة هذه الحياة، وكم هي بسيطة واضحة المعالم!

كم هو جميل أن يعيش الإنسان منسجما مع منظومة الكون العظمى، يعرف كيف يتحرك وفق لقوانينه فلا يصادمه!

كم هو عظيم ذلك الإله الرحيم، الذي خلق الإنسان وأعد له امتحانا يسيرا، وطلب إليه ألا يكون حيوانا، وأمده بمنهج يؤهلة ليرتقي فوق الإنسان، ويصير به سوبرمانا.

كم هو عظيم لا مثيل له بين البشر، ذلك الإنسان الذي قال: "الإنسان بنيان الرب وملعون من هدم بنيانه!"، ذلك البنيان الذي هو الإنسان قبل أن يكون الجسد! ذلك البنيان الذي يهدمه البشر في كل ساعة، ويتحرجون من هدم الجسد!

كم هو كريم ذلك المنهج الذي أُمد به الإنسان ليصير سوبرمان، الذي أنار بصيرته، فيسّر له الصعاب، وعرفه بنفسه ومكّنه من مقاليده، فأعطاها إياه جلية في يده، ليحسن السير على الدرب .. ليصل!

وأعجب ثم أعجب! أعجب ممن يرسب في الاختبار والمنهج في يده!

وأعجب ممن يرفض أخذ المنهج أو السماع له، ويقرر خوض الاختبار بنفسه!

وأعجب ممن يرفض المنهج الكلمة، ويتبع بشرا مثله يقودونه حيث يريدون!

وأعجب ممن يصرخ من صعوبة الاختبار ومن حيرته فيه!

وأعجب ممن يرضى أن يكون حيوانا آلة، ويرفض أن يكون إنسانا!

وأعجب من ذلك الأعمى الذي يدعي البصر، ويتصدر للقيادة!

وأعجب ممن يرفض وصاية الأب الحكيم، ويقرر أنه أحكم من أبيه!

وأعجب ممن يقدم فكرا طفوليا مزخرفا على الفكر الشمولي الكوني الطبيعي!

وأعجب ثم أعجب ولا ينقضي عجبي، فلا عجب من البشر!

إن الحق جلي، ولكن لمن كان له قلب، لمن كان حيا، أما الموتى فمُغَررون! إن الفارق أكبر من ألا يُحس، هُوّة بين من يقول للإنسان: أنت حيوان غايتك الأكل والشرب والوطء واللهو واللعب! وسأستعبدك حتى أمكنك من هذا. وبين من يقول للإنسان: أنت صنعة الرب، صُنعت على عينه وبيده، خلقك ورقاك، وأراد منك غايات سامية، وما المتاع إلا وسائل، فارتق تصل وتسد!

ورضى البشر ألا يسمعوا أو يعقلوا، وأحبوا أن يكونوا ذلك المغطى العينين المسوق! وأقنعوا أنفسهم أنهم على جادة الصواب سائرون!

ولكن هذا لا يعني القنوط، فما زال هناك ثُلة من الأحياء، وما زال المنهج –ولله الحمد والمنة– موجودا، وهذا يعني أن الباب لا يزال مفتوحا والطريق ممهدا! والبنيان يمكن بنائه مجددا، والموتى يمكن إحياءهم! فكما أحياهم الرسول بالمنهج مرة، يمكن أن يُحيون ألف مرة، طالما أن المنهج موجود!

ولأني محب لله ولخلقه، يعز علي أن أرى صنعة الله تهان حتى تُقتل!

يعز علي أن أرى الإنسان يرضى بالهوان وعيشة الحيوان!

يعز علي أن أرى الإنسان يُضيع نفسه، وما زوده الله به من عظيم المقدرة!

يعز علي ألا يعرف الناس عظمة الله في خلقه، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأمده بما يُريه عظمته وجلاله سبحانه، ولم يستغل نفسه– صنعة الله– كما ينبغي، فما قدر الله حق قدره، لهذا كله كان هذا الكتاب، والذي نرجو به أن يقدر الناس الله قدره!

يعز علي أن أتقلب في نعمة من نعم الله، ولا أوصلها لإخواني، ليصلوا إلى ما وصلت إليه!

لذا قدمنا للقارئ هذا الكتاب، قدمنا فيه طرفا من منهج إعداد الإنسان الأعلى. طرفٌ نعتقد أنه أكثر من كاف ليغير نظرته إلى الحياة وإلى الكون حوله وإلى نفسه، فيعرف مكانه ودوره، ومكانة ما حوله في الكون. طرف نرجو منه أن يقضي على الآلية السلبية الاستهلاكية، يكون دافعا له للتحرك ولاكتساب المرتبة .. مرتبة السوبرمان! فإن لم يكن فلا يتنازل بحال عن مرتبة الإنسان.

طرف نرجو منه أن يفهم به كيف خاطب الله الإنسان في القرآن.

طرف نرجو منه أن يكون دافعا له لقراءة الكون حوله!

طرف أحيط بكثير من التصورات، تدلل على بطلان أي منظور غير المطروح، وتبين ضآلة حجم التصورات المغايرة.

وتركنا جوانب أخرى في المنهج لم نعرض لها وما ينبغي لنا أن نعرض، فلا يمكننا بحال أن نحيط بجميع جوانب المنهج، فليس هذا من قدرة البشر في شيء، حتى ولو كانوا سوبرمانات!

تركناها ليعرض لها القارئ بنفسه، ويكتشفها ويتفاعل معها وبها! فما المنهج إلا حياة، والحياة يحياها الإنسان بنفسه، لا أنه يُعطاها أو يُلقّنها. لذا فقد اقتصرنا على ما نراه ناجعا لإفاقة الإنسان مرة أخرى، والقضاء على الحيوان، ونترك باقي التجربة للقارئ الكريم يخوضها بنفسه، ولزامٌ عليه أن يفعل.

وأعتقد أنني بهذا الكتاب قد حمّلت القارئ الكريم الأمانة، أمانة الإنسان، وأرجو أن يحملها .. ويبلغها، ولا يكون ذلك الظلوم الجهول!

اللهم قد بلغت، اللهم فاشهد!

كان الانتهاء من هذا الكتاب بفضل الله وعونه في يوم الخميس، لثلاث وعشرين خلون من شهر شوال لعام تسع وعشرين وأربعمائة وألف بعد الهجرة المشرفة، الموافق الثالث والعشرين من شهر أكتوبر لعام ثمانية بعد الألفين من ميلاد المسيح.

للتواصل مع الكاتب يُرجى زيارة موقعنا الشخصي:

www.amrallah.com

سرد لأهم المراجع

* القرآن العظيم.

* بدوي، عبدالرحمن: خلاصة الفكر الأوروبي، سلسلة الفلاسفة: نيتشه. الناشر وكالة المطبوعات الكويت، الطبعة الخامسة 1975.

* نيتشه، فريدريش: هكذا تكلم زرادشت، تعريب: فليكس فارس. الإسكندرية 1938، مطبعة جريدة البصير.

* نيتشه، فريدريش: ما وراء الخير والشر: تباشير فلسفة للمستقبل، تعريب جيزلا فالور حجار، مراجعة موسى وهبة، الناشر: دار الفارابي، الطبعة الأولى 2003.

* نيتشه، فريدريش: عدو المسيح، تعريب: جورج ميخائيل ديب، دار الحوار، الطبعة الثانية 2004.

* نيتشه، فريدريش: هذا هو الإنسان، تعريب: علي مصباح، منشورات الجمل الطبعة الأولى2003.

* نيتشه، فريدريش: أفول الأصنام، تعريب: حسن بورقيبة، محمد الناجي، الناشر: أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى 1996.

* المسير، محمد أحمد المسير: المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه، الناشر: دار المعارف، الطبعة الثانية.

* إبراهيم، زكريا: مشكلة الإنسان، الناشر: مكتبة مصر، الطبعة الأولى 1989.

* فروم، إريش: ما وراء الأوهام، تعريب: صلاح حاتم، الناشر: دار الحوار، الطبعة الأولى 1994.

* فروم، إريش: الإنسان بين الجوهر والمظهر، (سلسلة عالم المعرفة) تعريب: سعد زهران، مراجعة وتقديم: لطفي فطيم، العدد 140، أغسطس 1989.

* فروم، إريش: 1- المجتمع السليم، (سلسلة الفكر المعاصر) تعريب: محمود محمود، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، 1960.

* فروم، إريش: الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، مكتبة غريب.

* عنبر، محمد: جدلية الحرف العربي وفيزيائية الفكر والمادة، الناشر: دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى 1987.

* هونكه، زيجريد: شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب: فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري. الناشر: دار الجيل ودار الأفاق الجديدة، الطبعة الثامنة 1993.

* دراز، محمد عبدالله: الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، الناشر: دار القلم الكويت، الطبعة الثانية 1970.

* إسماعيل، محمد الحسيني: الحقيقة المطلقة: الله والدين والإنسان، مطابع الأهرام بكورنيش النيل.

* القرضاوي، يوسف: سلسلة تهيئة الأجواء 1- عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية، طبع بمطابع الريادة. (الكويت إدارة البحوث والمعلومات)

* القرضاوي، يوسف: رعاية البيئة في شريعة الإسلام، الناشر: دار الشروق، الطبعة الأولى 2001.

* القرضاوي، يوسف: دور القيم والأخلاق في الإقتصاد الإسلامي، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى 1995.

* المودودي، أبو الأعلى: نطرية الإسلام الخلقية، (ذخائرة الفكر الإسلامي)، تعريب محمد كاظم سباق، دار الفرقان.

* المودودي، أبو الأعلى: الإسلام والمدنية الحديثة.

* عمارة، محمد: التحرير الإسلامي للمرأة، الناشر دار الشروق، الطبعة الأولى 2002.

* الغزالي، محمد: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الامم المتحدة، الناشر: نهضة مصر. الطبعة الرابعة أغسطس 2005.

* مرزوق، عبد الصبور: رسائل إلى العقل الغربي وضميره ... الإسلام وحقوق المرأة، الناشر: الدار المصرية اللبنانية، 2006م

* العقاد، عباس: الإسلام دعوة عالمية، المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس العقاد، المجلد السادس الإسلاميات 2. دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثالثة 1986.

* منصور، أنيس: الخالدون مائة أعظمهم الرسول محمد، الناشر: المكتب المصري الحديث، عام 1984.

* معروف، أحمد سليمان: قراءة جديدة في مواقف الخوارج وفكرهم وأدبهم، الناشر: دار طلاس، الطبعة الأولى 1988.

* مقالة للشهيد مرتضى مطهري بعنوان: أسس الأخلاق وركائزها.

* عمارة، محمد: مقال بعنوان: أبعاد العولمة وميادينها.

* حيدر، عبدالسلام: جريدة "أخبار الأدب" المصرية.

صفحات على الشبكة المعلوماتية:

موقع الباحث العربي: http://baheth.info/index.jsp

برامج إليكترونية:

برنامج المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

مؤلفات عمرو الشاعر

* لماذا فسروا القرآن؟ القرآن بين التقييد والهجران

* عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام

* القرآنيون مصلحوم أم هادمون؟

* السوبرمان بين نيتشه والقرآن

* نشأة الإنسان بين القرآن والتوراة ونظرية دارون

* قراءة لسور الطعن

* السيدة عائشة والتاريخ المشوه

* قصص القرآن القرآني

* الجن .. الأرباب المختلَقة

* القرآن سورة واحدة جزء عمّ نموذجاً

* السلفية .. منهج إسلامي؟

* فقه الإنسان محاولة تأصيلية تأسيسة

* رواية خواطرٌ شواذ

* القنطرة I في قواعد اللغة الألمانية

* القنطرة II تكلم العامية الألمانية

الفهرست